

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مارس ١٩٩٥

المجلد الأول

العدد الثالث

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الثالث - المجلد الأول

مارس ١٩٩٥ م

هيئة التحرير

رئيس التحرير
نائب رئيس التحرير
عضوا
عضوا
عضوا
عضوا
عضوا

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
أ.د. عبد المالك التميمى
أ.د. سهيل زكار
أ.د. عبد الرحمن الأنصارى
أ.د. الحبيب الجنحانى
أ.د. جمال زكريا قاسم
أ.د. محمد رزوق

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثالث - المجلد الأول - مارس ١٩٩٥

فى هذا العدد

- افتتاحية العدد رئيس التحرير
- زيف ما يدعيه حكام العراق من حقوق تاريخية فى أرض الكويت د. حياة محمد البسام
- رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج د. محمد بن فارس الجميل
- الهجرات العربية وانتشار الاسلام فى بلاد شرق افريقية د. غيثان بن على بن جريس
- بعض أضواء على مدينة الأشمونين فى العصر الفاطمى د. عبد الحميد حسين حمودة
- العوامل التى انعشت الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول د. زيف الله بن يحيى الزهرانى
- صفحة فى تاريخ دولة الروم : العلاقات الاسلامية البيزنطية فى فترة حكم النساء وازواجهن (١٢٠٨ - ١٠٥٦ م) د. د. عليه عبد السميع الجنزورى
- بنو ايلدكز أتابكة أذربيجان وعلاقاتهم بالقوى المعاصرة (٥٤١ - ٦٢٢ هـ / ١١٤٨ - ١٢٢٥ م) د. مسفر بن سالم الغامدى
- بعض أضواء جديدة على وظيفة ناظر البيمارستان المنصورى د. ليلى عبد الجواد
- هبة الله بن ملكا ونظيرته الى المعارف والعلوم د. مريزن سعيد عسىرى
- وثيقة عربية نادرة فى أرشيف البندقية. أ. د. عبد المنعم ماجد
- النشاط التجارى بالسلط فى القرن التاسع عشر وآثاره الاجتماعية د. د. عبد العليم على أبو هيكل
- باب عرض الكتب رئيس التحرير
- استدراك حول مقال العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى د. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
- مؤتمر الجمعية العمومية الثانية لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (نوفمبر ١٩٩٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

القافلة تسير

بصدور هذا العدد الثالث من مجلة المؤرخ العربى ، تكون قد انقضت
ثلاثة أعوام على مولد اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، وما أسرع
ما تمر الأعوام وتتوالى الأيام ...

ثلاثة أعوام كاملة انقضت منذ أن كان هذا الاتحاد مجرد مشروع
حملة الى القاهرة لفيف من الاخوة الزملاء العرب الواقدين من شتى البلاد
العربية ، بعد أن ثبت فشل اتحاد بغداد وانحرافه عن جادة الطريق ،
وانصرافه لتسخير طاقة المؤرخ العربى وامكانات علم التاريخ فى خدمة
حاكم استنفذ طاقات بلده فى قهر شعبه فى الداخل وتهديد جيرانه
فى الخارج ...

وفى الوقت الذى كان اتحاد بغداد مشغولا بعمل مهرجانات لتأييد
سياسة التخريب والعدوان ، وتوزيع (الأوسمة) على لفيف من الانتهازيين
الساعين وراء المظهر الخداع ... فى ذلك الوقت أحس المؤرخ العربى
الشرىف أن الكيل قد طفح ، وأن تراثه الناصع قد لوثته أيدي الصغار ،
وأن رصيده الحضارى الضخم على مدى خمسة عشر قرنا قد تعرض لعبث
العابثين ، فاتجه المؤرخون العرب الى القاهرة ينشدون تصحيح المسار
ونفض الغبار عن سمعة المؤرخ العربى ، بعد أن الحق بها اتحاد بغداد
العيب والعار ، واصلاح البنيان الذى اقامه الآباء والأجداد مما أصابه
من تصدع ودمار .



لقد كان يوما مشهودا ، وعيدا مرموقا من أعياد العروبة ، عندما
عقد اتحاد المؤرخين العرب جمعيته العمومية الثانية بالقاهرة فى الأسبوع

الآخر من شهر جماد الآخر سنة ١٤١٥ هـ - نوفمبر ١٩٩٤م - ذلك أن هذا الاجتماع الحافل شارك فيه جمع غفير من المؤرخين العرب ، شيوخا وشبابا ، نحو ثلثمائة مؤرخ عربى وفدوا من شتى الأقطار والبلدان ... الكل مرفوع الرأس ، لم يأت الى القاهرة لينحنى ويرقص أمام حاكم كائنا من كان ، أو يسبح بحمد سيد أو رئيس سعيًا وراء أجر أو وسام ، وإنما أتى الجميع الى القاهرة ليرفعوا راية العروبة فى ساحة من أشرف ساحاتها ، ويعاهدوا الله على العمل لما فيه خيرها من خلال نافذة التاريخ .. مدرسة الزمان والمكان .

أجل ، ما كان أعظمه من مهرجان حافل ، جلس فى رحابه المؤرخون العرب جنباً الى جنب ، الكل سواء ، لا رئيس ولا مرؤوس ، وإنما هى الزمالة والاخوة ، ومن فوقهم ترفرف راية الحرية ... ان حرية الفكر ، وحرية الرأى ، وسمو الهدف ، وأدب النقاش ، هى التى خيمت جميعاً على أجواء الجلسات التى عقدها مؤرخو الجيل فى وئام وهدوء ... كل عضو يحس بأدميته ويشعر بكرامته ، ويدرك أنه يسهم فى حمل أمانة ضخمة ، الكل مسئولون عنها أمام الله وأمام ضمائرهم وأمام التاريخ .



وفى هذا الجمع الحافل قدم رئيس الاتحاد تقريره الى الأعضاء ، فناقشوه فقرة فقرة فى حرية تامة وبصراحة متناهية ، لكل زميل الحق فى أن يدلى برأيه ويشرح وجهة نظره حسبما يرى وحسبما يرضى ضميره ... مجال النقاش البناء مفتوح أمام الجميع ، وحرية التعبير متاحة للجميع ، والاتحاد اتحاد الجميع . انه اتحاد المؤرخين العرب ، بكل ما يعنيه مصطلح الاتحاد من قوة ، ويعنيه مصطلح المؤرخ من سمو خلقى ووعى فكرى ، ويعنيه مصطلح العروبة من صفاء ونقاء .

وفى ختام النقاش ، أقر الأعضاء مسيرة الاتحاد فى وضعه الجديد ، وأعرب رئيس الاتحاد عن عزمه على أن يمثل لكل ما أبداه زملاؤه من

ملاحظات بناءة ، وتعهد بتحقيق رغباتهم والأخذ بوجهات نظرهم ،
فالاتحاد اتحادهم ، وهم أهله وبنيته وأصحابه .

هكذا يكون الصراط المستقيم ، فالديموقراطية ليست شعارا أجوفا
يتشدق به المستبدون بالسنتهم ، فى حين تمسك أيديهم بالسياط يلهبون
بها ظهور من يخالفهم فى الرأى . ان الديموقراطية هى الشورى . انها
الحرية من أوسع أبوابها : حرية الفكر والرأى ، حرية النقد البناء ،
حرية العمل النافع الجاد . . . كل ذلك داخل إطار من الخير وسلامة
الهدف وسماحة القصد وأدب المجادلة .



وبعد ذلك أتى دور الأستاذ الدكتور أمين صندوق الاتحاد ، فقدم
التقرير المالى عن ميزانية الاتحاد ، يتضمن الإيرادات والمصروفات على
مدى سنوات ثلاث ، معتمدا من مكتب المحاسبة الذى قام بمراجعته بندا
بندا . وهذا المكتب الذى يشرف عليه أحد كبار المحاسبين بالقاهرة ، هو
المكتب المتخصص فى مراجعة واعتماد الميزانيات الخاصة بعدد كبير من
الجمعيات والاتحادات ، من جملتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

وكان تقليدا جميلا حقا أن يوزع التقرير المالى بكافة تفصيلاته على
جميع الأعضاء - بلا استثناء - ليروا بأنفسهم كيف يسير العمل فى جهاز
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، ويقفوا على أوجه الإيرادات والمصروفات
فى كل ركن من أركانه ، ومدى الدقة فى ايداع كل مبلغ يصل الى الاتحاد
- مهما يكن بسيطا - فى حساب خاص يحمل اسم الاتحاد فى مصرف من
أكبر المصارف الحكومية ، ولا يمكن سحب أى مبلغ من رصيد الاتحاد
الا بصك معتمد يحمل توقيعى أمين الصندوق ورئيس الاتحاد ، ويثبت
ذلك فى دفاتر الاتحاد المخصصة للحسابات .

وهنا نسجل أن هذه هى المرة الأولى التى يكون فيها لاتحاد
المؤرخين العرب ميزانية معلنة ، تخضع لاشراف دقيق من جانب أجهزة
الدولة المختصة التى اعتمدت الاتحاد واقرت تسجيله واشهاره رسمياً .

ورحم الله أيام اتحاد بغداد الذى لا يدري أحد أين كان يدفن المبالغ الطائلة التى حصل عليها من بعض الحكومات العربية تحت ستار الابتزاز والتهديد ، والتى لم يحدث - ولو مرة واحدة - أن قدم رئيسه بيانا أو كشف حساب عنها يتضمن الإيرادات والمصروفات . لقد قنع بتوزيع بعض الرشاش على جماعة المنتفعين فى صورة مبالغ سرية أو أوسمة علنية . أما الرصيد الوارد فعلمه عند الله ، وعند رئيس اتحاد بغداد .

ولعل الحكومات العربية التى أسرفت فى العطاء لاتحاد بغداد تحت تأثير الخوف ، والتى تمسك يدها اليوم عن تقديم المعونة لاتحاد القاهرة فى محاولة منها لأن تمسك بالعصا من وسطها تحسبا لتهديد جديد تتعرض له من جانب بغداد ، لعل المسئولين فى هذه الحكومات يدركون الحقيقة قبل أن ينكشف الغطاء ، ويفصح التاريخ عما يكنه من خبايا، نرى الامساك عن ذكرها الآن حرصا على الصالح العام لأمة العرب .



وبعد ، فانه حسب اتحاد المؤرخين ان العرب بالقاهرة أنه استطاع فى هذا المدى القصير ، وفى هذه السنوات الثلاث المحدودة ، أن يثبت أقدامه ويشق طريقه قدما ، ليحقق نجاحا لم يسبق للأمة العربية فى عصرها الحديث أن شهدت نظيرا له فى مجال الدراسات التاريخية .

« وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين »

رئيس التحرير

زيف ما يدعيه حكام العراق من حقوق تاريخية فى أرض الكويت

د. حياة محمد البسام (*)

مقدمة :

كثرت ادعاءات حكام العراق وافتراءاتهم بأن الكويت جزء لا يتجزأ من أراضى العراق ، سلبته منه بريطانيا . . لكنهم نسوا أو تناسوا أن الحقائق التاريخية مدونة ومحفوظة ، يمكن الرجوع إليها متى أريد ذلك حتى تظهر الحقيقة جلية للعيان ، وعندئذ يتضح ان كان للعراق فعلا حقوق فى الكويت أم أن تلك الادعاءات مجرد أطماع سياسية واقتصادية عراقية ، ليكون هذا البلد الذى تطالب حكومة العراق به سندا لاقتصادها المنهار . ويكفى أن تكون الكويت من أغنى دول الخليج العربى اقتصاديا ، فضلا عن موقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام ، لكى يسيل لذلك لعاب حكام العراق .

وأمام هذه الادعاءات أردت فى هذا البحث أن أتتبع الحقائق التاريخية الموثقة لكى ألقى الضوء على ما تدعيه حكومة العراق، لنرى ان كانت لها حقوق فعلا فى أرض الكويت كما تدعى ، أم أن الأمر لا يعدو مجرد أطماع سياسية فى محاولة لتزييف التاريخ وتشويه الحقائق التاريخية .

وقد اعتهدت فى هذا البحث على الوثائق والمصادر التاريخية ، مع اتباع المنهج التاريخى العلمى من حيث النقد والتحليل والمقارنة والترجيح ، حتى أستطيع عرض الحقيقة مجردة من الاهواء .

ويكفى أن نشير فى هذه المقدمة الى أن الكويت تأسست فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (الميلاديين) عندما هاجرت مجموعات من قبيلة العتوب من قلب نجد واستقروا فى تلك المنطقة ، ثم

(*) جامعة أم القرى .

واصلوا السعى فى تطويرها حتى غدت دولة ذات طابع سياسى، فاستطاعت عقد اتفاقيات مع بريطانيا والدولة العثمانية اللتين اعترفتا بسيادتها واستقلالها الذاتى . ويتضح هذا جليا فى اتفاقية عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) التى وقعت بين بريطانيا والدولة العثمانية وعرفت بالاتفاقية الأنجلو - تركية . وكان العراق فى تلك الفترة منقسما الى ولايات تابعة للدولة العثمانية ، وعلى رأس كل ولاية باشا عثمانى يدير شئونها . ولم يظهر العراق كدولة سياسية موحدة الا عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢١م) عندما نصبت عليه بريطانيا الملك فيصل الأول . ويتضح من هذا أن الكويت ظهرت كدولة مستقلة قبل العراق بسنوات .

نشأة الكويت وتطورها :

قبلولوج فى دراسة تاريخ نشأة الكويت وتطورها بقيادة حكامها من آل الصباح ، لابد لنا من توضيح أهمية هذه المنطقة من الناحية الجغرافية .

تقع الكويت على بعد ثمانين ميلا (تقريبا) جنوبى البصرة ، وتميل قليلا الى الشرق ؛ وتبعد نحو مائة وثمانين ميلا (تقريبا) الى الشمال الغربى من بوشهر ؛ كما تقع شمالى غربى البحرين .

وتطل الكويت على الساحل الغربى للخليج العربى الذى يعتبر طريقا رئيسيا للوصل بين الشرق والغرب ، وتمتاز بموقع استراتيجى فى جوف خليج عميق يصلح لأن يكون مرسى للسفن العابرة .

أما عن موقع الكويت بالنسبة للبلاد المجاورة : فيحدها شمالا العراق وغربا المملكة العربية السعودية . والكويت امتداد طبيعى لصحراء شبه جزيرة العرب وجزؤ لا يتجزأ منها من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ؛ لذا فإن هذا الموقع الاستراتيجى أكسب الكويت أهمية تاريخية كبيرة جعلتها محط أنظار الطامعين (١) .

(١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٨ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم الأول ، ص ٩٥-٩٦ ، لوريمر ، ج.ج. ، دليل الخليج ، ج ٣ ، ص ٢ - ١٥ ، القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ٩ .

وقبل الخوض فى تاريخ نشأة وتطور الكويت الحديث لابد لنا من القاء نظرة سريعة على جزء من تاريخها القديم وصلا بالحديث حتى وصول العتوب اليها ، لما لهذه الفترة من أهمية تاريخية كبيرة تثبت أن الكويت لم تكن تابعة للعراق فى أية مرحلة من مراحل التاريخ .

لقد عرف تاريخ الكويت القديم بعد اكتشاف حجر وجدت عليه بعض نقوش يونانية على حائط صغير يبعد حوالى سبعمائة ياردة الى الجنوب الشرقى لقرية «الزور» التى تقع على الساحل الشرقى لجزيرة فيلكا . وقد بينت النقوش المكتشفة أن الاسكندر الأكبر ربط عاصمة ملكه «بابلين» بالمناطق التى استولى عليها فى الهند عبر طريق تجارى ، وذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم أخذت سفنه تجوب البحر من الهند الى بلاد فارس . وقد وردت بعض روايات تفيد أن الاسكندر الأكبر طلب من أمير البحر نياركوس القيام برحلة تبدأ من الهند الى بلاد فارس ، وذلك عام ٣٢٥ ق م . فوصل نياركوس الى المنطقة التى تعرف اليوم بشط العرب واجتمعت القوات البحرية بالبرية ، لكنه ضل الطريق فى منطقة بعيدة عن مصب النهرين ورسا بجانب جزيرة بوبيان ، وهناك تحطمت سفنه بسبب الرياح والعواصف والأمواج العاتية (٢) .

وتدل آثار الاغريق فى تلك المنطقة على ما جلبوه معهم من حضارات ومعتقدات تركت بصمات واضحة على هذه الأرض ، فقد اكتشف معبد فى جزيرة فيلكا يعرف بمعبد أكاروس ، وجدت فيه آثار كثيرة من ضمنها بعض قطع نقدية وتمائيل . وكان أن أطلقوا على جزيرة فيلكا اسم «لاريسا» (٣) .

وقد دلت النقوش التى تم اكتشافها فى كل من الكويت وجزيرة فيلكا على أنه كان لهاتين المنطقتين شأن عظيم فى عصر الاسكندر، نتيجة للموقع الاستراتيجى الذى يربط الهند بالأراضى العربية والرومانية .

(٢) قطينه ، رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية لقيام الدولة » ، الوثيقة ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، العدد الأول ، السنة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(٣) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية » ، «الوثيقة» ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

لكن هذه الأهمية انكشئت اثر احتلال الامبراطورية الرومانية للأراضي العربية (٤) .

أما عن أهمية تلك المنطقة فى العصر الاسلامى فقد اكتسب الخليج عامة أهمية كبيرة ، خاصة فى عهد الخليفة الراشد أبى بكر الصديق ، حيث دارت فى تلك المنطقة معركة ذات السلاسل الشهيرة بين المسلمين والفرس ، وكانت الغلبة فيها للمسلمين فتقدموا لفتح عاصمة فارس « المدائن » القريبة من موقع بغداد (٥) .

أما فى عهد الخليفة هارون الرشيد فقد كانت الكويت من المناطق الهامة جدا بسبب موقعها بالقرب من مدينة البصرة . وكانت تعرف باسم « القرين » نسبة الى جزيرة صغيرة تسمى بهذا الاسم تقع على بعد أربعة أميال غربى المدينة الحالية . يزيد على ذلك موقعها على طريق القوافل التجارية ، الأمر الذى ساعد على انتشار الحضارة الاسلامية فيها .

وهكذا حتى كانت نهاية القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر للميلاد فبدأت هذه المنطقة تلعب دورا هاما - الى حد ما - بعد ظهور الانجليز والهولنديين فى الخليج العربى عام ١٣٠٢ هـ (١٦٢٢ م) لاسيما بعد استيلاء الانجليز على مضيق هرمز وتدمير المنطقة بعد خروج البرتغاليين منها (٦) .

أما عن تأسيس الكويت الحديثة فقد اختلفت الروايات حول تحديد الفترة الزمنية لهذا التأسيس ، لأن تاريخ منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية اعتمد على مصدرين : كتاب ابن بشر « عنوان المجد فى تاريخ نجد » وكتاب ابن غنام « روضة الأفكار » . ولأن هذين المصدرين استقيا المعلومات من مصادر شعبية تفتقر الى التوثيق ، فقد ظهر هذا الاختلاف العام حول تحديد تاريخ تأسيس الكويت الحديث ، اذ ذكر المؤرخ

(٤) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية » ، الوثيقة ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٥) قطينه ، رنده « الكويت : دراسة تحليلية » ، الوثيقة ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٦) قطينه ، رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، الوثيقة ، ص ١٨٢ .

عبد العزيز الرشيد فى كتابه « تاريخ الكويت » أن الكويت تأسست فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، فى حين حدد المؤرخ النبهانى فى كتابه « التحفة النبهبانية » تاريخ ظهور الكويت بعام ١٠٢٠ هـ (١٦١١م) (٧) .

وامام هذا التباين فى رأى حول تاريخ تأسيس الكويت نستطيع ان نقول أن الكويت تأسست بين اواخر القرن السابع عشر الميلادى وبداية القرن الثامن عشر الميلادى ، وكانت فى بادىء الامر حصنا بناه أحد زعماء بنى خالد وجعله مستودعا لتخزين المؤونة والذخيرة ؛ يستخدمه عند غزوه شمالاً . وقيل انه بناه لراحته عند خروجه للصيد ، ومن ثم أتت بعض القبائل العربية البدوية واقامت حوله . ولم تظهر هذه المنطقة على مسرح الأحداث السياسية كمشيخة الا بعد قدوم فرع من قبيلة عنزة النى هاجرت من الافلاج (فى نجد) واستقرت فى تلك البقعة وعرفوا باسم العتوب (٨) .

اما عن مؤسس هذا الحصن أو تلك المنطقة التى بنى فيها الحصن فقد وردت بعض روايات تاريخية تنسب هذا البناء الى الشيخ براك (أحد زعماء بنى خالد) ، وقد اورد هذه الرواية المؤرخ القناعى فقال : « تاريخ بناء الكويت لا نعلمه بوجه الحقيقة ، والاحرى أنه بنى فى اواخر القرن الحادى عشر من الهجرة ، أما البانى فهو براك أمير بنى خالد » (٩) . لكن المؤرخ احمد ابو حاكمه حل هذه الرواية قائلاً :

(٧) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٦ ، القناعى ، يوسف ، صفحات فى تاريخ الكويت ، ص ٥ ، ابو حاكمه . احمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ص ٧١ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ص ٢٧٩ ، بوكاس ، مارتا ، أزمة الكويت ، ص ٦ ، ابو حاكمه ، احمد ، تاريخ الكويت، المجلد الاول - القسم الاول ، ص ٩٥-١٠٠ .
Dickson, H. Kuwait and Her Neighbours P.20-21/6.

(٨) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٧٩ ، ابو حاكمه ، احمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٧٣ ، بوكاس ، مارتا ، أزمة الكويت ، ص ٩ ، قطينة رنده ، « الكويت : دراسة تحليلية » ، مجلة الوثيقة ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٩) انظر القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ٥ .

« لو سلمنا برواية القناعى لوجب علينا تقديم تاريخ بناء الكويت حيث أن المؤرخ ابن بشر ذكر أن براك هذا حكم فى عام ١٦٦٩ الى ١٦٨٢م « (١٠) . أما القناعى كما سبق أن أسلفنا فقد حدد هذا البناء بعام ١٦٨٧م (١١٠٠هـ) .

وأمام هذه الاختلافات حول تحديد تاريخ بناء الكويت لا نستطيع أن نتبين من الذى بنى هذا الحصن وحكم تلك المنطقة ؛ ولكن يبدو أنها عاشت فترة من الزمن تحت حكم بنى خالد (حكام الأحساء) .

وعن تسميتها بالكويت(*) : نقول ان « الكويت » تصغير « الكوت » وهو البيت الذى بنى على هيئة قلعة تحيط به البيوت السكنية الصغيرة من كل جانب . وكانت واقعة غرب لماء ، ولم تتحدد نوعية هذا الماء ان كان بحراً أم بحيرة ؛ نهراً أو خليجاً . ومن المعروف أن قبائل العتوب التى سكنت تلك المنطقة - الكويت - كانوا فرعاً من قبيلة عنزة التى تعتبر من أكبر القبائل العربية فى شبه الجزيرة ، وينتسبون الى فرع جميلة التى كان لها نفوذ كبير فى نجد . ومن العتوب خرجت ثلاث أسر : آل الصباح ، وآل خليفة ، والجلاهمة . وقد خرجوا جميعاً من موطنهم الاصلى واتجهوا نحو الخليج . وذكر المؤرخ القناعى فى كتابه « صفحات من تاريخ الكويت » أن تلك الاسر الثلاث استوطنت بادية الأمر فى منطقة الزبارة بقطر ، لكن لخلاف نشب بينهم وبين حكام قطر اضطروا للرحيل على هيئة جماعات انتشرت على ساحل الخليج العربى ، حتى استقر بها المقام فى نهاية الأمر بمنطقة الكويت ، وهناك أخذوا فى تشييد مساكنهم من الأحجار ، وهاذنوا بنى خالد حكام تلك المنطقة الذين باركوا قدومهم الى الكويت ، مما جعل العتوب يدخلون فى طاعة بنى خالد (١١) .

(١٠) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، ص ١٠٠ .
(*) الكويت : تصغير لكلمة الكوت وهى معروفة فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى .

(١١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٨٨ ، أبو حاكمه ، تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، ص ٩٥ - ٩٦ ، لوريير ، ج٠ ج٠ ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص =

وهكذا استقرت تلك الأسر الثلاث في الكويت واشتركت في المسئولية ، فتزعم آل الصباح السياسة وآل خليفة الاقتصاد والجلاهمة شئون البحر . وأخذوا في تنظيم شئون اقامتهم في تلك المنطقة خاصة بعد أن عرفوا ما لها من أهمية جغرافية بسبب وقوعها على الطريق التجارى للقوافل المارة بين بلاد وادى الباطن وبلاد ما بين النهرين ؛ فسعوا لتطويرها من قرية صغيرة تاوى بعض صائدى الأسماك الى مشيخة صغيرة . وقد أعجب العتوب بأسلوب حياة بنى خالد فأخذوا يحاكونهم ، فتزايدت أعدادهم في المنطقة ؛ وظلوا يطورونها رغم رضوخهم لسيطرة بنى خالد (حكام الأحساء) في ذلك الوقت وولائهم وطاعتهم لهم . وفي نهاية العقد الرابع وبداية العقد الخامس من القرن الثامن عشر الميلادى نشب خلاف بين أفراد أسرة بنى خالد حول من يتولى رئاسة المنطقة ، وذلك بعد وفاة سعدون عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢م) وتولى شقيقه (على) السلطة من بعده ، فدب الصراع بينه وبين ابنى سعدون (دجين ومنيع) مما جعل نفوذهم يأخذ في الانحسار بسبب هذا التفكك الذى أصابهم وأضعف وضعهم السياسى . وقابل هذا الانحسار فى سلطة بنى خالد امتداد نفوذ آل الصباح بالكويت حيث أخذت المنطقة فى النمو والتقدم الحضارى والتجارى ، وازدادت ثروتها وتمكن حكامها من تثبيت موقفهم السياسى فى تلك المنطقة بشتى السبل . هذا الى أنهم سعوا الى كسب رضاء ومحبة القبائل المجاورة ، عن طريق المصاهرة والقذوة الحسنة التى اتصف بها أفراد تلك الأسرة ، والتى تمثلت فى سماحة الأخلاق والعدل فى الحكم مما أدى الى استتباب الأمن والاستقرار فى المنطقة (١٢) .

٣ - ١٥ ، القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ص ٩ ، الرشيد ، عبدالعزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة .
Travels in Arabian and other countries in the East, Vol.11,P.103.

(١٢) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٠٧ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٧٧ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٩١ ، اكيلى . ج . ب . ، بريطانيا والخليج ، ج ١ ، ص ٥٨

Dickson, H., Kuwait and Her Neighbour, P.27, Neibuhr. C., Travels in Arabian and Other Countries in the East, Vol.11,P.1.

(مجلة المؤرخ العربى)

وتجدر الإشارة الى أن نمو وتطور الكويت صاحب وجود الهولنديين فى جزيرة خرج ، حيث ذكر لوريمر أن علاقات ودية نشأت بين البارون كنبها وزن - المسئول عن تلك المستعمرة - وشيخ الكويت . وهذا يدل على أن العتوب أخذوا فى الاستقلال التدريجى بعد انتعاش وتطور المنطقة فى ظل النشاط التجارى . وصاحب هذا التقدم الكويتى فوضى واضطراب فى الدول والقوى المسيطرة فى تلك المنطقة . ذلك أن الدولة العثمانية - الحاكمة للعالم الاسلامى آنئذ - كانت فى حروب دائمة مع حكام دولة الفرس الذين كانوا يمثلون القوة الثانية فى المنطقة . هذا فضلا عن الدعوة السلفية التى أخذت تظهر فى نجد .

أما اقليم نجد نفسه فقد كان منقسماً الى امارات صغيرة دائمة التناحر ، فكانت تلك الظروف مجتمعة سبباً فى فتح المجال أمام حكام الكويت للتفوق والظهور وتأسيس امارة مستقلة (١٣) .

وقد اختلفت أقوال المؤرخين حول تحديد أول من حكم الكويت ، فذكر المستر واردن أن أول من تولى زعامة العتوب هو سليمان بن أحمد ، لكن هذا لم يرد له ذكر فى الكتب المحلية . وربما كان ذلك الشيخ الذى لم يذكره سوى واحد من حكام بنى خالد . وقد ذكر النبهانى فى كتابه « التحفة النبهانية » أن العتوب استوطنوا الكويت بعد سماح بنى خالد لهم ، واستمرت سلطة بنى خالد على تلك البلاد حتى وفاة سليمان بن محمد سنة ١١٦٦ هـ (١٧٥٢م) (١٤) . ويبدو أن الزعيم الذى ذكره واردن هو زعيم بنى خالد (سليمان بن محمد) الذى حكم حتى عام ١١٦٦ هـ (١٧٥٢م) فورد اسم أحمد بدلا من محمد .

أما أول من حكم الكويت من آل الصباح فقد أورد الرشيد فى كتابه

(١٣) أبو حاكمه أحمد ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم الاول ، ص ٩٥ - ٩٦ .
تاسم ، جمال ، الخليج العربى . ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، بوكاس ، مارثا ، أزمة الكويت ، ص ١٠ .

(١٤) النبهانى ، محمد ، التحفة النبهانية ، ص ١٢٢ - ١٢٩ ، الصالح ، نوريه
علاقات الكويت ، ص ١٨ .

(تاريخ الكويت) أنه الشيخ صباح الذي أختير من قبل العتوب ووافق على تولى الزعامة شريطة تطبيق الحكم على الجميع ، كبيرهم وصغيرهم ، عاليهم وسافلهم ، غنيهم وفقيرهم . وكان هذا الزعيم غير معروف قبل انتخابه ، ولم يرد له ذكر فى الكتب التى تكلمت عن تاريخ هذه المنطقة الا بعد اختياره للزعامة التى تقلدها حسب الأعراف القبلية السائدة عندئذ . ثم بدأ فى تثبيت سلطته على البلاد ، والاستقلال بها استقلالاً تاماً ، وتطويرها حتى غدت محطة تجارية هامة يقصدها التجار والقوافل المحملة بالبضائع الواردة من الهند الى حلب مروراً بالكويت . هذا إضافة الى كونها ميناء ترسو فيه السفن التجارية الكبيرة التى تحمل البضائع لتصرفها فى المنطقة .

وقد بذل حاكم الكويت (صباح) جهداً كبيراً فى عمارتها وحمايتها، فقام ببناء سور حول المدينة لرد هجمات الأعداء عنها ، لأن الكويت كانت تحيط بها فى ذلك الوقت قوى سياسية كبيرة ، خاصة بعد تزايد النفوذ السعودى الذى استطاع أن يضم نجد برمتها تحت لوائه . وقد كون الامام سعود بن عبد العزيز جيشاً نجدياً ذا قوة عسكرية . هذا من جهة نجد ، أما من جهة الشمال فكان هناك شيوخ المنتفك الذين كانوا يمثلون خطراً حقيقياً على تلك البلاد (١٥) .

والواقع ان سنوات حكم الشيخ صباح للبلاد كانت بمثابة السنوات الأساسية لحكم آل الصباح كما كانت الركيزة الأساسية فى تطوير هذه البلاد . واستمرت سنوات البناء حتى وفاته فخلفه ولده عبد الله . وثمة اختلاف حول السنة التى توفى فيها صباح وتولى عبد الله زمام القيادة فى الكويت ؛ فقد ذكر الرشيد أن صباحاً توفى سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٤م) ، الا أن البعض عارضه فى ذلك . من ذلك أن لوريمر ذكر اعتماداً على سجلات شركة الهند الشرقية أن عبد الله بن الصباح أختير حاكماً على

(١٥) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ج٢ ، ص ٨٧ ، العقاد ، صلاح التيارات السياسية ، ص ٥٥ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ٨٢ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٩٢ .

الكويت سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢م) . أما المؤرخ القناعى فاكتفى بقوله ان حكم عبد الله بن الصباح دام ستين عاما . وحدد المؤرخ الرشيد وفاة عبد الله بن الصباح بعام ١٢٢٩ هـ (١٨١٣م) . واذا أخذنا بهذين الرأيين وجدنا أن عبدالله بن صباح تولى الحكم عام ١١٥٦ هـ (١٧٤٣م) ، وعندئذ نجد تضاريا حول تحديد تاريخ تولى عبدالله لزمام الحكم بعد وفاة والده الذى ذكر ابن الرشيد أنه توفى سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٤م) . وهذا يعنى أن عبدالله تولى الحكم فى السنة التى توفى فيها والده وبقي فى الحكم حتى وفاته سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٣م) حسبما ذكره الرشيد فى كتابه « تاريخ الكويت » .

ومهما يكن من أمر ، فان عبد الله بن الصباح الذى حكم الكويت بعد وفاة والده كان يتمتع بصفات جعلته جديراً بتلك المكانة القيادية اذ كان شجاعاً ، عادلاً ، عاقلاً ، كريماً ، حليماً ، أنجز فى عهده اصلاحات كثيرة فى البلاد حتى استطاع فى سنوات قليلة أن يمتلك أسطولاً بحرياً كبيراً ساعده فى ترسيخ أركان ملكه (١٦) .



موقف الكويت من احتلال فارس للبصرة :

وفى الوقت الذى سعت الكويت الى الاستقلال واثبات دورها السياسى عن طريق توثيق صلاتها مع جاراتها ؛ كانت العراق منقسمة الى ثلاث ولايات عثمانية هى ولاية بغداد ، ومتصرفية البصرة ، وولاية الموصل ، يحكم كل واحدة وال من قبل الدولة العثمانية . وكانت تلك الولايات غير مترابطة سياسياً مما جعل بعض الدول المجاورة تطمع فى السيطرة عليها .

ففى عام ١١٩٠ هـ (١٧٧٦م) هاجمت دولة فارس متصرفية البصرة واحتلتها . وكان لهذا الاحتلال أثره الفعال فى ازدهار الحياة التجارية فى الكويت ، كما كانت له آثاره الايجابية الأخرى على تلك المنطقة .

وقبل أن نستعرض هذه النتائج لابد لنا من القاء نظرة سريعة على هذا الحدث التاريخي الهام :

كانت البصرة قبل الغزو الفارسي تعاني من انتشار وباء الكوليرا الذي قضى على كثير من سكانها . وما أن انقشع هذا الوباء حتى وردت أنباء عن استعداد الفرس لمهاجمتها ، مما جعل المسئولين يعقدون اجتماعات سرية تكاد تكون يومية، وذلك بين سليمان آغا متصرف البصرة وبعض وجهاء البلاد في حضور المعتمد البريطاني (١٧) .

وفي سنة ١١٨٩هـ (١٥ يناير من عام ١٧٧٥م) وردت أنباء من بوشهر مفادها أن جيشاً قوياً بقيادة صادق خان شقيق كريم خان (حاكم فارس) قوامه خمسين ألف جندياً يستعد لمهاجمة البصرة ، فأثار ذلك اضطرابات وفوضى بين الأهالي . وكان من أسباب أطماع الفرس في البصرة ازدهار مينائها بعد أن نقل البريطانيون نشاطهم التجاري إليها من ميناء بوشهر . يضاف الى ذلك سبب مذهبي يتمثل في التعاطف مع أهل البصرة من الشيعة ، وخاصة بعد أن فرض والي بغداد على حجاج الفرس رسوما باهظة عند زيارتهم كربلاء (١٨) .

وكان أن زحف الجيش الفارسي في يوم ١٦ مارس من نفس العام حتى وصل الى بلدة الصوان فحاصرها قرابة ثلاثة أشهر ، استسلمت المدينة بعدها . وقد تحالف مع هذا الجيش العرب الموجودون في تلك المنطقة ، كذلك انحاز اليهم عرب بنو كعب وأمدوهم بما استطاعوا من قوة .

أما الذين تعاونوا مع الدولة العثمانية في مواجهة ذلك العدوان

(١٧) لوريمر ، ج٠ ج٠ ، دليل الخليج ، ج٢ ، ص ١٥٠٤ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقي الجزيرة ، ص ١٢٢ .

(10) L,P&S/20/C.189, Hand book Persian Gulf, June 1919,P.52.

(١٨) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقي الجزيرة ، ص ١٢٣ .

فهم قبائل المنتفك الذين عملوا على إيصال المؤنة الى داخل مدينة البصرة ، والأسطول العماني الذي شارك في محاولة فك هذا الحصار عن المدينة . يضاف الى ذلك المعونة التي قدمتها سفن بحرية بومبي ، وانضمام الوكلاء التجاريين وطرادات شركة الهند الشرقية (١٩) .

أما القوتان الأخرتان في الخليج العربي - وهما (القواسم وآل الصباح) فلم يكن لهما نشاط ملحوظ في هذه الاحداث . فالقواسم لم يكن لهم دور يذكر في فك الحصار على الرغم من تفوقهم البحري . وقد تبين أن تأخرهم في عدم الاشتراك كان بسبب انشغالهم بالحروب المستمرة مع سلطان مسقط . وأما آل الصباح - ألعنوب - فقد اتخذ حاكمهم حيال هذه الأزمة جانب الحياد حتى لا يفقد صداقة أي طرف من الأطراف . وتمثل ذلك في ارسال المساعدات لقائد الجيش الفارسي (صادق خان) اذ أمده بمائتي رجل لمساعدته . ومن جهة أخرى فإنه سمح للسفن العثمانية بالرسو في ميناء الكويت لاصلاحها . وبهذا كسب حاكم الكويت رضا الطرفين حتى يتضح الموقف (٢٠) .

وكان للاحتلال الفارسي للبصرة آثار بعيدة المدى فيما يتعلق بنمو الكويت وتطورها في كافة النواحي ، خاصة الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ذلك أن موقف حكام الكويت (آل الصباح) حيال هذه الأزمة اتصف بالحكمة والتروي ، ففضلوا جانب الحياد حيال القوتين المتنازعتين مما ساعد في نمو علاقة سياسية واقتصادية مع بريطانيا العظمى ، فنقلت الأخيرة مركز بريدها الصحراوي الذي كان موجودا في الزبير الى الكويت ، ثم نقلت مركزها التجاري من البصرة الى الكويت بصورة مؤقتة (٢١) .

(١٩) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٤ ، قطينه رنده .
الكويت : دراسة تحليلية ، مجلة الوثيقة ، ص ١٩٠ - ١٩١ .
(٢٠) أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، ص ١٢٦ ، كيلي ، ج٠ ب٠ ، بريطانيا والخليج الفارسي ، ص ٢٢ .
(٢١) كيلي ، ج٠ ب٠ ، بريطانيا والخليج الفارسي ، ص ٢٢ ، أبو حاكمه ، أحمد ، تاريخ شرقى الجزيرة ، ص ١٢٨ ، بوكاس ، ماوثا ، أزمة الكويت ، ص ١٠ .

وهذه الاجراءات التى اتخذتها بريطانيا كانت بمثابة بداية علاقة مباشرة بينها وبين حكام الكويت عن طريق وساطة مندوبى شركة الهند البريطانية التى حلت الكويت مشكلتها فى تصدير بضائعها الى أسواق الشرق الأوسط . وقد حاول الانجليز استمرار وقوف الكويت على الحياد حتى تستطيع شركة الهند الانجليزية أن تجد مخرجا لمواصلة أعمالها التجارية .

وهكذا أدت العلاقات الكويتية - الانجليزية الى تطور الاقتصاد الكويتى، فازدادت قوة الكويت البحرية لحماية السفن المارة فى مياهها . وكانت هذه الزيادة مطلبا ضروريا بعد تزايد الصراع على منطقة الخليج التى أصبحت مطمعا للدول الأجنبية الأخرى ، فغدت كل واحدة منها ترغب فى تحقيق نفوذ لها فى المنطقة وعلى مياهها .

وأمام انتعاش الحياة الاقتصادية فى البلاد كان من الطبيعى أن تبرز أهمية الكويت السياسية ، فبدأ حكام الكويت يولون السياسة اهتماما بالغا، ونشأت علاقات مباشرة مع الدول والامارات المجاورة للكويت مثل السعودية والبحرين وقطر ، ومن ثم واصل حكام الكويت سياستهم التى انتهجوها فى اطار السماحة والعدل فى الحكم ، مما جعل للكويت كيانا معروفا ليس فقط فى منطقة الخليج بل على الصعيد الدولى (٢٢) .



تطور العلاقات الكويتية البريطانية وموقف الدولة العثمانية منها :

كان احتلال الفرس للبصرة نقطة تحول فى سياسة بريطانيا تجاه الكويت ، فقد أسلفنا أنها نقلت مقر شركة الهند الشرقية وبريدها الصحراوى من البصرة الى الكويت . وكان هذا بداية ظهور علاقات كويتية بريطانية لأن بريطانيا وجدت فى الكويت الميناء الذى يصلح لرسو سفنها والأرض الآمنة لنشاطها التجارى . هذا بالإضافة الى أن العلاقات

(٢٢) لوريمر ، ج٠ ج٠ ، دليل الخليج ، ص ١٥٠٤ ، أبو حاكمه ، أحمد ، شرقى

الجزيرة العربية ، ص ١٣٢ .

الودية مع حاكم الكويت أخذت تزداد بعدما بادر المستر مانيسى ممثل
الوكالة البريطانية فى البصرة الى اخطار الشيخ عبدالله آل الصباح
- حاكم الكويت - بما كان ينوى القيام به الوالى العثمانى فى بغداد
(سليمان باشا) حىال الكويت . وكانت الكويت قد أجارت كلا من الشيخ
توينى (شيخ قبائل المنتفك) ومصطفى آغا (متسلم البصرة) الذين
هربا اليها بعدما حاول مصطفى آغا الاستقلال بالبصرة عن الدولة
العثمانية ، مما جعل والى بغداد يعد جيشاً لتأديبه . وقد اشتبك هذا
الجيش وهو فى طريقه الى البصرة بقبائل المنتفك وألحق بها هزيمة
اضطر على أثرها شيخها للهرب الى الكويت . واما مصطفى آغا فكان
عندما سمع بخبر هذا الجيش وعدته وعتاده، قد قرر الفرار الى الكويت
لأنه لا يستطيع مواجهته ، فطالبت الدولة العثمانية حاكم الكويت تسليم
الفارين ، لكنه رفض وأشار على مصطفى آغا والشيخ توينى بالفرار الى
نجد بما معهما من أموال (٢٣) .

وبالإضافة الى اطراد نمو العلاقات الكويتية البريطانية التى كانت
بمثابة مؤشر لاستقلال الكويت استقلالاً تاماً ، هناك عاملان هاما كانا
بمثابة الدافع القوى نحو تحقيق هذا الاستقلال: أولهما سقوط حكم بنى خالد
فى الاحساء عام ١٢٠٨هـ (١٧٩٣م) على أيدي السعوديين ، الأمر الذى
له أثره فى انطلاق الكويت نحو مرحلة هامة من مراحل الاستقلال والتقدم .
والعامل الآخر هو تولى الشيخ جابر الصباح مقاليد الحكم فى البلاد
١٢٢٩هـ (١٨١٣م) بعد وفاة شيخها السابق (عبدالله) . وقد عرف
جابر هذا بالكرم وحب الانفاق حتى سمي بجابر العيش ، واتصف عهده
بتحسن العلاقات الكويتية العثمانية ، فرفع العلم العثمانى على السفن
الكويتية . لكن هذا لا يعنى أن الكويت دخلت ضمن دائرة نفوذ الدولة
العثمانية وانما كان أمراً صورياً فقط ، لأن الخلافة العثمانية كانت تمثل
الزعامة الدينية للمسلمين وصار من واجب أى مسلم أن يرفع علمها بوصفها

(٢٣) أبو حاكمه . أحمد ، تاريخ الكويت ، ج١ ، القسم الأول ، ص ١٧٦ .

CF Brydges, Haford James. N.Account of the Transaction of his
Majesty's Mission of Persia, p.p.1810-1.

مسئولة عن رعاية مصالح المسلمين (٢٤) .

وكان أن حرصت الدولة العثمانية على كسب ود أمير الكويت ، فلم تلزمه بدفع جزية الا خلال سنوات قليلة . ويعود هذا الى أن الدولة العثمانية كانت فى أمس الحاجة الى مساعدات مشيخة الكويت التى تمتلك أسطولا بحريا كبيرا اعتمدت عليه الدولة العثمانية فى حماية شط العرب ، كما كان للكويت قوة بحرية يمكنها أن تسهم فى حماية النفوذ العثمانى فى المنطقة ، الأمر الذى حدا بالدولة العثمانية أن تعفى أمير الكويت من الجزية . ولم تكتف بذلك بل دفعت له معونة سنوية مقابل ما يقدمه لها من خدمات دفاعية (٢٥) .

والواقع ان الدولة العثمانية كانت تعتمد على الكويت عسكريا لصد بعض هجمات القبائل العربية على متصرفية البصرة . ففى عام ١٢٢٩هـ (١٨١٣م) أغارت مجموعة من قبائل بنى كعب على مدينة البصرة ، فاستنجدت الأخيرة بالكويت التى أمدتها عسكريا بعدد من السفن الحربية المحملة بالسلاح والرجال ، مما قوى جانب الدولة العثمانية وجعلها تضرب حصارا حول البصرة حتى استطاعت أن تقضى على هذا التمرد وعادت البصرة مرة ثانية تحت الحكم العثمانى (٢٦) .

وجدير بالذكر أن الكويت رفضت رفع العلم البريطانى رغم تهديدات بريطانيا لها بعدم التعاون معها ، الأمر الذى جعل الدولة العثمانية تصدر فرمانا يمنح الكويت مائة وخمسين كارة من التمر سنويا ، مما يدل على حرص الدولة العثمانية على كسب صداقة وود حكام الكويت الذين تحملوا عبء حماية شط العرب من أى معتد خارجى . وبذلك استقلت الكويت

(٢٤) القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٠ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٤٠٦ .

(٢٥) القناعى ، يوسف ، صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٤ - ١٥ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٤٠٧ ، الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ج ١ ، ص ٩٤ ، لوريمر ، ج . ج . ، دليل الخليج العربى ، ج ٢ ، ص ١٥١٢ .

(٢٦) قاسم ، جمال ، دراسات لتاريخ الامارات العربية ، ص ١٤٧ .

استقلالاً ذاتياً على الرغم من أن السفن الكويتية كانت ترفع العلم
العثماني (٢٧) .

وقد استمرت العلاقات في تحسن مستمر بين الكويت والدولة
العثمانية حتى عام ١٣١٤ هـ (١٨٩٦م) حين تولى مقاليد الحكم الشيخ
مبارك آل صباح الذي وصل إلى الحكم بعد أن تخلص من أخويه (محمد
وجراح) ، ثم أعلن نفسه حاكماً على البلاد . وقد ذكر الرشيد أن هناك
بعض الأسباب دفعت مبارك إلى فعلته هذه :

أولاً : أن مباركاً كان بطبيعته يميل إلى اظهار القوة والبأس ويعشق
الطعن والنزال على خلاف أخويه (محمد وجراح) اللذين كانا لا يتفقان
معه في ذلك .

ثانياً : حاول أخواه محمد وجراح ابعاده وتقريب يوسف آل
ابراهيم (٢٨) وتسليم مقاليد الأمور إليه حتى اوشك يوسف هذا أن يكون
الحاكم ، وكان مباركاً لا يمت لهما بصلة .

ثالثاً : قام محمد وجراح بتضييق الخناق على مبارك خاصة من
الناحية المالية .

وتحت تأثير العوامل السابقة وما صاحبها من ظروف قرر مبارك
التخلص من أخويه ، ثم أعلن نفسه حاكماً على البلاد ، ففر أبناء محمد
وجراح إلى البصرة برفقة يوسف آل ابراهيم الذي سعى لتصعيد القضية

(٢٧) الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ج١ ، ص ٩٨ ، القناعي ، يوسف ،
صفحات من تاريخ الكويت ، ص ١٤٠ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٠ .
Tome, /XVII, 1903, Cinquiem Periode Seedso Whighan The Persian
Problem, P.P.102-103, Ravire, La question de galfe Persique:
CF le Reglement des questions des mascale et de Kuweit
Revue des Decx, Mandes, P.P.370-371 (1.0)&S/C239, Affairs
of Kuwait.

(٢٨) كان يوسف آل ابراهيم هذا أحد الأثرياء وملوك الأراضي في ولاية البصرة .
وتربطه صلة قرابة بأبناء محمد وجراح من ناحية الأم . انظر : الصالح ، نورية .
علاقات الكويت السياسية ، ص ٦٦ .

لدى والى البصرة حمدي باشا فسمح له بالالتجاء والحماية ، هو ومن معه (٢٩) .

واستمر يوسف فى محاولاته حتى استطاع اقناع حمدي باشا بتأليب السلطان العثماني على الشيخ مبارك ، نكن الأخير لم يستسلم للأمر فقام بتوضيح الحقائق لوالى بغداد وبين له ما قام به والى البصرة (حمدي باشا) وكان أن اقتنع والى بغداد ، ووقف فى صفه ، وأخذ فى تحذير الدولة العثمانية من التدخل فى شئون الكويت الداخلية . وصدر فى عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) أمر سلطاني بتعيين الشيخ مبارك قائمقام للكويت . ومنذ ذلك التاريخ بدأ اسمه يرد فى المكاتبات الرسمية التى تصدر من البصرة ، ومنح راتباً قدره (١٥٠) كارة من التمرور فى السنة ، ثم تحول بعد ذلك الى راتب سنوى يقدر بـ (٣٠٠) جنيه . وهذا هو الخيط الذى تحاول حكومة العراق أن تمسك به لتدعى أن الكويت تابعة لولاية البصرة دون أى سند تاريخى حقيقى (٣٠) .

لقد فات هؤلاء الطامعين أن البصرة عندئذ لم تكن ولاية عراقية مستقلة وانما كانت تابعة للدولة العثمانية ويحكمها والى عثماني ، فالتبعية هنا ان كان لها وجود تبعية للدولة العثمانية وليست لدولة غيرها .

وقد رضى الشيخ مبارك بهذه التبعية غير الرسمية أمام الظروف الداخلية التى كانت تمر بها الكويت . يضاف الى ذلك خوفه من ضايح ممتلكاته وممتلكات أسرته وحرصه على المحافظة على جزيرة الفاو ، فوجد أنه من الأفضل الموافقة على طلب الدولة العثمانية بأن يكون قائمقام ، لكنه لم يرض بأن يكون تابعا لوالى البصرة العثماني الذى سعى لاختضاعه .

(٢٩) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٥٧ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، السلام البريطاني ، ص ٢٥ - ٢٦ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٢ ، الرشيد ، عبد العزيز ، تاريخ الكويت ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت السياسية ، ص ٦٦ .

(٣٠) لوريير ، ج . ج . ، دليل الخليج ، ج ٣ ، ص ١٥٢٧ - ١٥٢٨ ، قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

لسلطانه . وحدا هذا بالشيخ مبارك للعمل على كسب ود الدولة العثمانية وضمنان وقوفها الى جانبه ضد والى البصرة ويوسف آل ابراهيم الذى كان يطمع فى تولى حكم الكويت بمساعدة الوالى العثمانى (حمدى باشا) هذا الى أن الشيخ مبارك أراد أن يضيف على حكمه الصبغة الدينية بذلك الرباط الواهى الذى ربطه بالخلافة الاسلامية (٣١) .

على أن تلك الأحداث لم تلبث أن غيرت نظرة الدولة العثمانية للكويت، بحيث تحولت الى أطماع سياسية خاصة بعد أن لمست أهميتها الجغرافية وقوتها البحرية . وكان أن بدأت تعمل لبسط سلطانها عليها ، مما جعل الشيخ مبارك يفكر فى طريقة أخرى لانقاذ بلاده من أطماع العثمانيين ، فقرر عام ١٣١٦ هـ (١٨٩٨م) أن يلجأ الى قوة أخرى تحميه من المطامع العثمانية وطلب حماية الحكومة البريطانية التى كانت تسيطر عندئذ على معظم الممرات المائية فى الخليج . وكانت بريطانيا آنذاك قد ربطت غالبية مشايخ الخليج باتفاقيات حماية ماعدا الكويت وقطر (٣٢) .

وفى تلك المرحلة أخذت مخاوف بريطانيا تزداد لظهور المطامع التوسعية الروسية والألمانية ، فحاولت روسيا مع الباب العالى الحصول على حق تزويد سفنها بالفحم من ميناء الكويت ، فى حين سعت ألمانيا للسماح لها بإقامة محطة بالكويت لنهاية سكة حديد بغداد . وقد فكرت حكومة الهند البريطانية فى وسيلة تستطيع أن توقف بها هذه الأطماع فأصدرت تعليماتها الى المقيم البريطانى فى الخليج الكولونيل ميد (Mead) بالتوجه الى الكويت وكسب صداقة أميرها ومنحه مبلغ (١٥٠٠٠ ر) جنيه استرلينى كمكافأة له . وكان أن طلب الشيخ مبارك من ميد (Mead) وعدا بحمايته وحماية بلاده مقابل التوقيع على اتفاقية حماية . وبعد مفاوضات دامت مدة طويلة تم الاتفاق بين الطرفين على توقيع معاهدة الحماية التى من بنودها :

(٣١) قاسم ، جمال ، الخليج العربى ، ص ٥٦١ ، النجار ، مصطفى ، التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية ، ص ٢٢٦ - ٢٢٦ .
(٣٢) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٥ ، بوشى بريتون ، كوبر ، بريطانيا والخليج الفارسى ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(أ) ألزام شيخ الكويت بعدم تأجير أراضيه الى أية دولة أخرى دون موافقة بريطانيا .

(ب) يتعهد الشيخ مبارك وذريته بعدم استقبال وكلاء أو ممثلين لدولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية .

وقد وقع الطرفان هذه الاتفاقية عام ١٣١٧هـ (يناير ١٨٩٩م) . وعلى الرغم من أنها وقعت فى سرية تامة الا أن الاخبار تسربت الى الدولة العثمانية التى أعلنت رفضها التام لها ، وبدأت تحشد قواتها فى ولاية البصرة لضرب الكويت . وشجع الدولة العثمانية على ذلك أن واليها (حمدى باشا) كان يسعى الى ضمها لممتلكاته . وما أن علمت بريطانيا بذلك حتى سارعت بارسال سرب بحرى بريطانى لمياه الكويت ، وكلفت سفيرها فى الآستانة « أوكوتور » بابلاغ الباب العالى عن قلق بريطانيا ازاء هذا التصرف الذى قام به والى البصرة (٣٣) .

وفى تلك الأثناء علم « راسلو » Wratlaw القنصل البريطانى بأن ألمانيا جادة فى مساعيها لمد الخط الحديدى ، كما علم بأن الفريق الألمانى فى طريقه الى الكويت . وكانوا يرون أن نجاح المشروع يعتمد على عاملين هامين :

أولا : أن تكون نهاية الخط فى الكويت وليست فى البصرة .

ثانيا : أن تقوم الدولة العثمانية بدعم المشروع مادياً .

وقد أوصى الفريق الألمانى الشركة بمناقشة المشروع مع السلطان العثمانى وليس مع الشيخ مبارك ، مما أغضب الحكومة البريطانية فى الهند ، فشعرت بأن أى اتفاق مع السلطان مباشرة يضعف موقفها فى المنطقة ، لذا رأت أن تقف فى وجه السلطات العثمانية لعدم اكمال هذا

(٣٣) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ، ج ٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ ،
ابراهيم ، عبد العزيز ، سياسة الأمن لحكومة الهند ، ص ٨٨ ، الصالح ، نوريه ،
علاقات الكويت السياسية بشرق الجزيرة ، ص ١٨ .

الخط ، وأخذت تضغط على الشيخ مبارك من أجل أن يمنع أية جهة أجنبية من استخدام أراضيه (٣٤) .

وكان أن رأت بريطانيا أن تعلق الآمال على المعاهدة التي وقعت مع شيخ الكويت والتي بموجبها تصبح الكويت دولة ذات سيادة تحت الحماية البريطانية . لكن هذا أغضب الدولة العثمانية التي سعت لجعل الكويت جزء من امبراطوريتها ، ولم تكن ترى أى حق لشيخ الكويت فى إبرام أية معاهدة دون الرجوع الى الدولة العثمانية وأخذ موافقتها مسبقا . غير أن سفير بريطانيا فى الآستانة (السير نيقولا أوكونور) الذى أزاح الستار عن هذه المعاهدة أكد أن بريطانيا التى تربطها بالكويت روابط ودية لا تنوى من خلال هذه المعاهدة احتلال الكويت لكنها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أى تدخل أجنبى يمس مصالحها هناك . وتأكيذا لذلك قام اللورد كيرزن (Cairzon) حاكم الهند بزيارة للكويت عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م) واستقبل استقبالاً حافلاً ، وتباحث مع أمير الكويت حول مشروع سكة حديد بغداد ، وأسفرت محادثتهما عن اتفاق الطرفين على رفض هذا المشروع (٣٥) .

وقد رأى الشيخ مبارك فاعلية الحماية البريطانية لأراضيه عندما تعرضت الكويت لمواجهة عسكرية من دولة آل رشيد الحاكمة لنجد فى ذلك الوقت . وفى هذه المواجهة منيت الكويت بهزيمة أتاححت للدولة العثمانية فرصة مناسبة لمعاودة الكرة مرة ثانية على الكويت ، فأرسلت بارجة لتنفيذ هذا الغرض . غير أنها تراجعحت عن ذلك بعد ظهور الأسطول البريطانى فى مياه الخليج لمنع أى اعتداء على الكويت . ونتيجة لهذا

(٣٤) سعيد ، أمين ، الخليج العربى ، ص ٨٩ ، الصالح ، نوريه ، علاقات الكويت ، ص ٧٢ ، نوار ، عبد العزيز ، تاريخ العرب المعاصر ، ص ٢٤٠ ، الشناوى ، عبد العزيز ، الدولة العثمانية دولة اسلامية ، ج٢ ، ص ١٤١٢ .

Abu-Hakima, A Modern History of Kuwait, p.118.

Aitohison, C., Collection of Treaties Vol.XI, P.P.265-266. (٣٥)

Hurewitz, J., Diplomacy in the near ..., Vol. II, p.4, Busch, B.,

Britain and the Persian Gulf ..., p.p.225-226.

الموقف وقع أمير الكويت معاهدة سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) بعدم التنازل عن أى جزء من أراضيه لأية جهة كانت ، وبقيت هذه الاتفاقية سرية كسابقتها التى وقعت عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) (٣٦) .

وفى الوقت الذى ازدادت مطامع بريطانيا فى الخليج انشغلت الدولة العثمانية عن هذه المنطقة بحروب البلقان (*) وطرابلس (*) وكان القلق يساورها من انشاء الخط الحديدى الألمانى الذى يستهدف الوصول الى الكاظمة فى الكويت . ولم يكن باستطاعتها الوقوف بمفردها فى وجه انشاء هذا الخط بعد أن كسبت ألمانيا موافقة فرنسا وروسيا على الاستمرار فى هذا المشروع . ولذا أخذت تولى هذه القضية كل اهتمامها حتى تستطيع الوقوف فى وجه هذا المشروع وابعاده عن الكويت لتكون نهايته ميناء البصرة (٣٧) .

وبعد أن يؤست بريطانيا من عرقلة مشروع هذا الخط أخذت تسعى الى عقد اتفاق مع الدولة العثمانية لوضع حل لمشاكلها ، وأهمها مناقشة وضع كل من الكويت والبحرين اللتين تعتبران مستقلتين عن الدولة العثمانية ، لتمتعهما بالحماية البريطانية . ودارت مباحثات طويلة حول هذا الموضوع حتى توصل الطرفان الى توقيع الاتفاقية البريطانية - العثمانية عام ١٣٣٢هـ (٢٩ يوليو ١٩١٣م) والتى من أهم بنودها البند الذى يتناول وضع الكويت وقطر والبحرين ، فضلا عن وضع الملاحة فى الخليج العربى ومسألة شط العرب . وقد حرصت بريطانيا على توقيع هذه

(٣٦) العقاد صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(*) حروب البلقان هى التى دارت بين دول البلقان والدولة العثمانية واستمرت من عام ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧م) حتى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٢م) وانتهت بهزيمة الدولة . أنظر: رونوفن ، بيير ، تاريخ القرن العشرين ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(*) حرب طرابلس هى التى دارت بين ايطاليا والدولة العثمانية حول طرابلس « ليبيا » عندما رأت ايطاليا احتلالها فى عام ١٣١٩هـ (١٩١١م) . أنظر : الدسوقي ، كمال ، الدولة العثمانية ، ص ٣٢٦ .

(٣٧) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا ، ج٢ ، ص ١٩٣ ، نوار ، عبد العزيز ، المصالح البريطانية ، ص ٢١٩ ، عمر ، عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربى ، ص ٤٠١ .

الاتفاقية لترسيخ نفوذها في منطقة الخليج العربي (٣٨) .

وكان الشك يساور بريطانيا في أن بحراً من النفط يسبح تحت صحراء الخليج العربي ، فأحكمت قبضتها على تلك المنطقة . أما وضع الكويت في ظل الاتفاقية المشار إليها فقد قبلت الدولة العثمانية بعدم التدخل في شئونها الداخلية ، كما قبلت أن يكون الحكم وراثياً في آل الصباح . كذلك أعلنت عدم نيتها في احتلال أي جزء من تلك البلاد ، وأوكلت لأميرها مهمة تعيين وكلاء يرعون مصالح الرعايا الكويتيين في الولايات العثمانية ، واعترفت بأن الكويت مشيخة مستقلة لها سيادتها مع رفع العلم العثماني مضافاً إليه كلمة (الكويت) . كذلك تعهدت باحترام أملاك أمير الكويت في البصرة ، ومنح الكويت جزء من الضرائب . أضف إلى ذلك موافقة الدولة العثمانية على الامتيازات البريطانية في الكويت . ومن الناحية الأخرى تعهدت بريطانيا بعدم احتلال الكويت مادامت الاتفاقية سارية المفعول (٣٩) .

ثم إن هذه الاتفاقية حددت حدود الكويت التي تبدأ من الساحل عند مدخل خور الزبير في الشمال الغربي وتمر مباشرة إلى الجنوب من أم قصر، وصفوان، وجبل سنام - تاركة لولاية البصرة هذه الأماكن وأبارها - حتى إذا وصلت لحفر الباطن تبعته نحو الجنوب الغربي فتتركه جانب الكويت . وفي تلك المنطقة يتجه الخط إلى الجنوب الشرقي ممتداً إلى آبار الصفاة والقرع وانبابه ، والوريه ، والأنطع ، ويصل البحر بالقرب من فيفا ، أي أنها تمثل دائرة مركزها الكويت ، وتمتد إلى خور الزبير في أقصى شمالها ، والقرين في أقصى جنوبها . ويدخل ضمن الخط الأحمر كل من جزر وربه وبوبيان ومشاجات وفيلسكه وعواد الكبار وقار والمقطع وأم المرادم ، فضلاً عن كل الجزر الصغيرة الواقعة داخل الخط

(٢٨) الشعلان ، سيف ، من تاريخ الكويت ، ص ٢١٨ ، إبراهيم ، عبد العزيز ،
نسلهم البريطاني في الخليج ، ص ١٤٤ ، العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا ، ج٢ .
(٢٩) المنصور ، الخترش ، تاريخ العلاقات السياسية ، ص ٨٣ ، العقصاد ،
صلاح ، التيارات السياسية ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

الأحمر (٤٠) .

وتعد هذه الاتفاقية التى وقعت عليها الدولة العثمانية دليلا واضحا على أن الكويت غدت دولة مستقلة عن اطار الدولة العثمانية، وأن حدودها قد حددت تماما فى هذه الاتفاقية ، وعلى جميع الدول المحيطة احترامها بعد الاعتراف بها .

وعند نهاية الحرب العالمية الأولى اعتبرت بريطانيا الكويت منطقة خاضعة لبنود معاهدة سيفر التى بمقتضاها تخلت الدولة العثمانية عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى عن جميع ممتلكاتها الواقعة خارج نطاق تركيا الأوربية ، مما مهد لظهور دولة العراق فى شكل مملكة جمعت بين ولايات البصرة وبغداد والموصل .

وما أن حل عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣م) حتى اعترفت بريطانيا بالحدود التى وضعت بين الكويت ومملكة العراق ، اذ اعترف المندوب السامى البريطانى على بغداد بأحقية الكويت بالمطالبة بحدودها التى نصت عليها اتفاقية ١٣٣٢ هـ (١٩١٣م) . يضاف الى ذلك أن نورى السعيد - رئيس وزراء العراق آنئذ - وافق عام ١٣٥١ هـ (١٩٣٢م) على هذه الحدود التى تمتد من تقاطع وادى العوجا بالباطن فى اتجاه شمال خط الباطن الى نقطة جنوبى خط عرض صفوان تماما ، ومنها شرقا تمر بجنوب آبار صفوان وجبل سنام وأم قصر الى العراق . وهكذا حتى مفترق خور زبير وخور عبدالله . وتكون جزر وره وبوبيان ومسكان وفيلكة وعووة وكبر وقاروم وأم المرادم من نصيب الكويت (٤١) .



وقد بقيت هذه الاتفاقية سرية ، اذ حرصت حكومة العراق على اخفائها والادعاء بأن لها حقوقا تاريخية فى الكويت . ومن الواضح بعد

(٤٠) مسودة المعاهدة الانجلو - تركية حول منطقة الخليج العربى نشرت فى ج'س' هيروتينز الدبلوماسية فى المشرقين الألسنى والأوسط ، مسجل وثائقي ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، برستون ، ١٢٧٦ هـ (١٩٥٦م) .

(٤١) دوكاس ، مارثا ، أزمة الكويت ، ص ١٢ - ١٣ .
(مجلة المؤرخ العربى)

دراسة هذه الحقائق التاريخية أنه ليس ثمة أى دليل يثبت أن الكويت كانت فى يوم من الأيام تابعة للعراق . وربما كانت العلاقات الودية التى سادت آنذاك بين شيخ الكويت ومتسلم البصرة هى التى حددت بحكومة العراق لافتحال تلك المزايم . أما شيوخ العتوب فقد اتبعوا سياسة الصداقة والمودة مع القوى المحيطة بهم فى المنطقة دون تبعية أو خضوع لأحد .

الختاتمة :

ان الحقائق والأحداث التاريخية لم تشر الى أن الكويت منذ ظهورها وحتى وقتنا الحاضر كان جزء من ولاية البصرة ، وانما كانت الكويت مشيخة لها استقلالها فى نطاق الدولة العثمانية ، ورفع أميرها العلم العثمانى لأن أسلافه من أمراء المنطقة ساروا على هذا النمط ، ولأن الدولة العثمانية هى القوة الاسلامية التى هيمنت عندئذ على العالم الاسلامى (٤٢) .

وما تدعيه حكومة العراق من تبعية الكويت للبصرة لا أساس له من الصحة ، لأن الكويت ظلت محتفظة بكيانها المستقل ، فضلا عن أن التبعية كانت لولاية عثمانية ، ومحدودة بفترة زمنية قصيرة .

وكما استقل العراق وصار دولة ذات سيادة ، كذلك استقل الكويت وغدا دولة مستقلة يحمل سكانها الجنسية الكويتية ، وان كان استقلال الكويت قد سبق استقلال العراق بسنوات . وهكذا فان موضوع الحقوق التاريخية التى اعتمدت عليها حكومة العراق فى المطالبة بضم الكويت معيار غير صحيح . ولو أخذنا بهذا الحق لصار لتركيا اليوم أن تطالب بضم العراق بأكمله ، ولطالبت ايران بضم البصرة بل بضم العراق بأكمله لأنها فرضت سلطتها عليه فترة من الزمن ، ولطالبت بلاد الشام بضم الموصل اليها لأنها

(٤٢) مسودة المعاهدة الانجلو - تركية حول منطقة الخليج العربى نشرت فى ج.س. هور منتيز ، الدبلوماسية فى المشرقين الأدنى والوسط ، مسجل وثائقى ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، برستون ، ١٢٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .

(1.0)L,P&S/18/B. 18. British Relations with Turkey in, P.G. 1 Dec. 1910.

تعتبر تاريخيا جزء من الشام . وقد ورد فى اتفاقية سايكس بيكو التى وقعت عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩م) لتقسيم الدولة العثمانية الى مناطق نفوذ ، ورد أن الموصل لفرنسا باعتبارها جزء من بلاد الشام . فهل يرضى العراق اليوم بتطبيق ذلك المبدأ بناء على أحكام التاريخ ؟

ان الكويت دولة مستقلة ذات سيادة منذ القرن الثامن عشر الميلادى؛ ومن حقها توقيع الاتفاقيات مع أى دولة سواء العثمانية أو غيرها ، وذلك فى الوقت الذى كان العراق مجرد مسمى جغرافى لولايات عثمانية موزعة سياسيا . يحكم كل ولاية وال عثمانى . ولم يظهر العراق كقوة سياسية ودولة لها كيان على مسرح التاريخ الحديث الا بعد قيام الحرب العالمية الأولى .



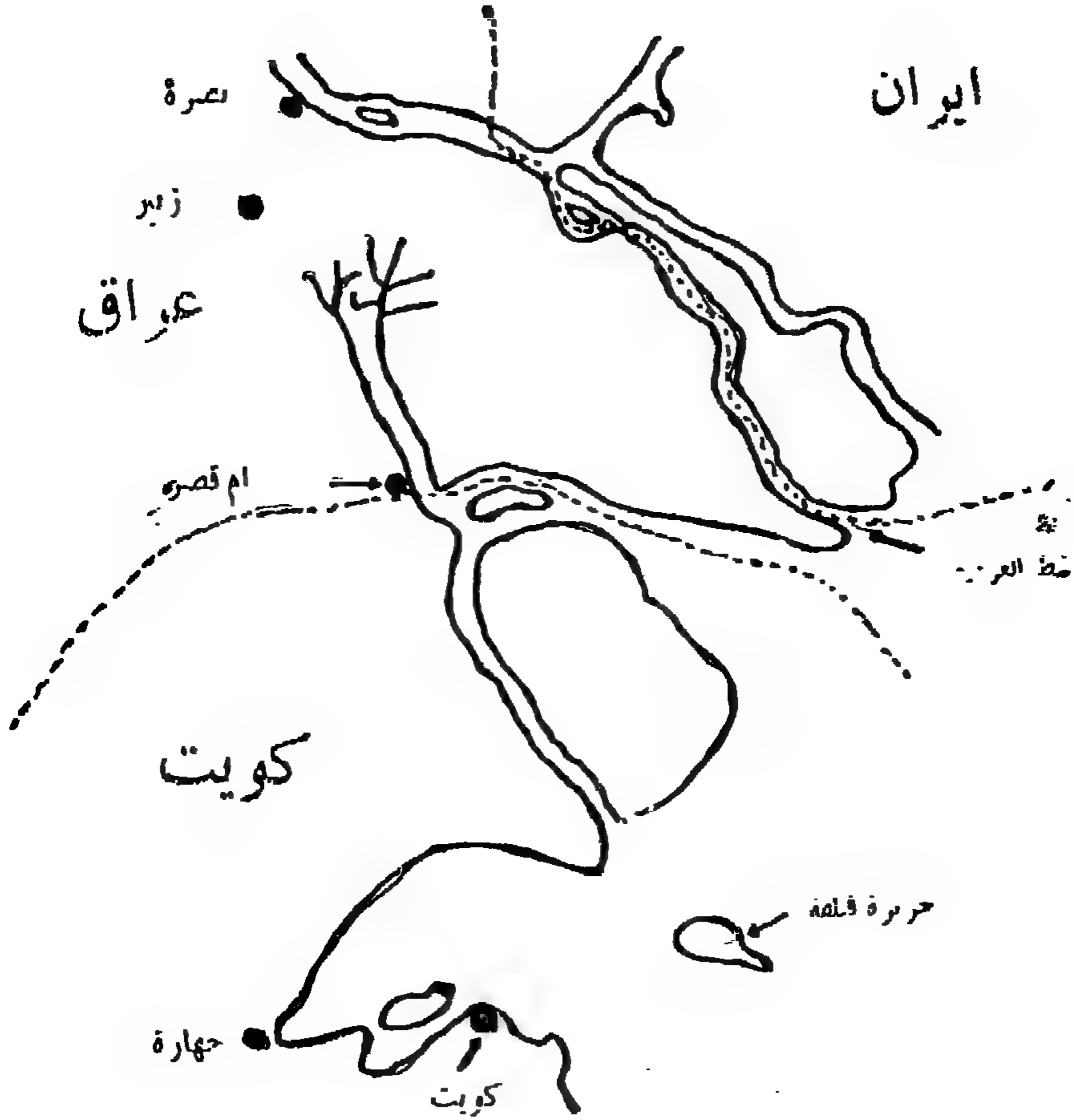
وبعد ، فاننا نخلص من هذا البحث بأن الدولة العثمانية سلكت جميع السبل لضم الكويت تحت سيادتها لكنها لم تفلح ، واستمرت الكويت ذات سيادة مستقلة ، تربطها روابط شكلية بالدولة العثمانية .

ان ادعاء العراق بأن الكويت كانت فى فترة من الزمن تابعة للواء البصرة ادعاء كاذب لأن التبعية كانت اسمية فقط ، ثم انها كانت للدولة العثمانية وليست للعراق ، لأن العراق كان هو الآخر تابعا لهذه الدولة وخاضعا لسلطانها ، ولا يمثل دولة ذات كيان مستقل بعكس الكويت الذى كان يتمتع بالاستقلال والحكم الذاتى .

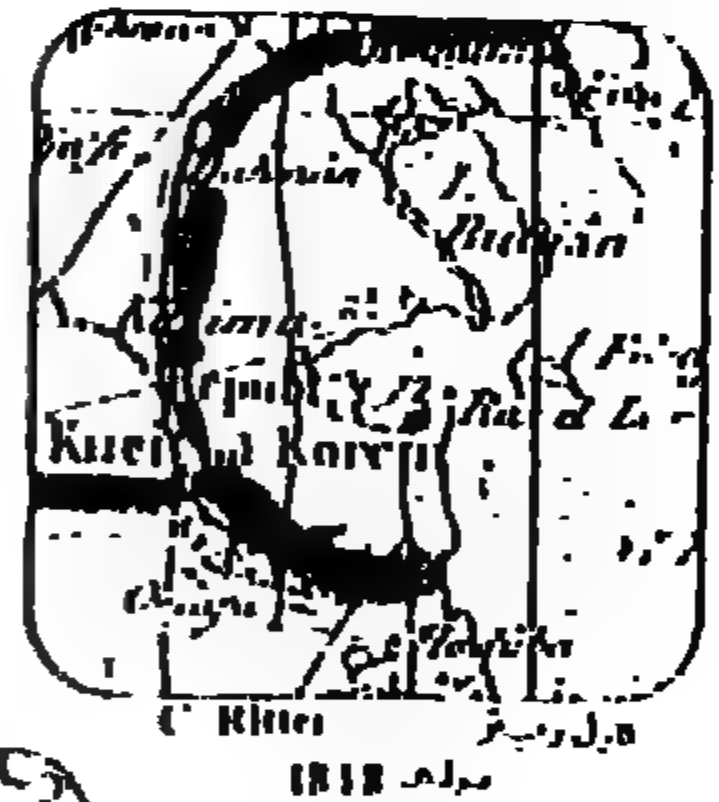
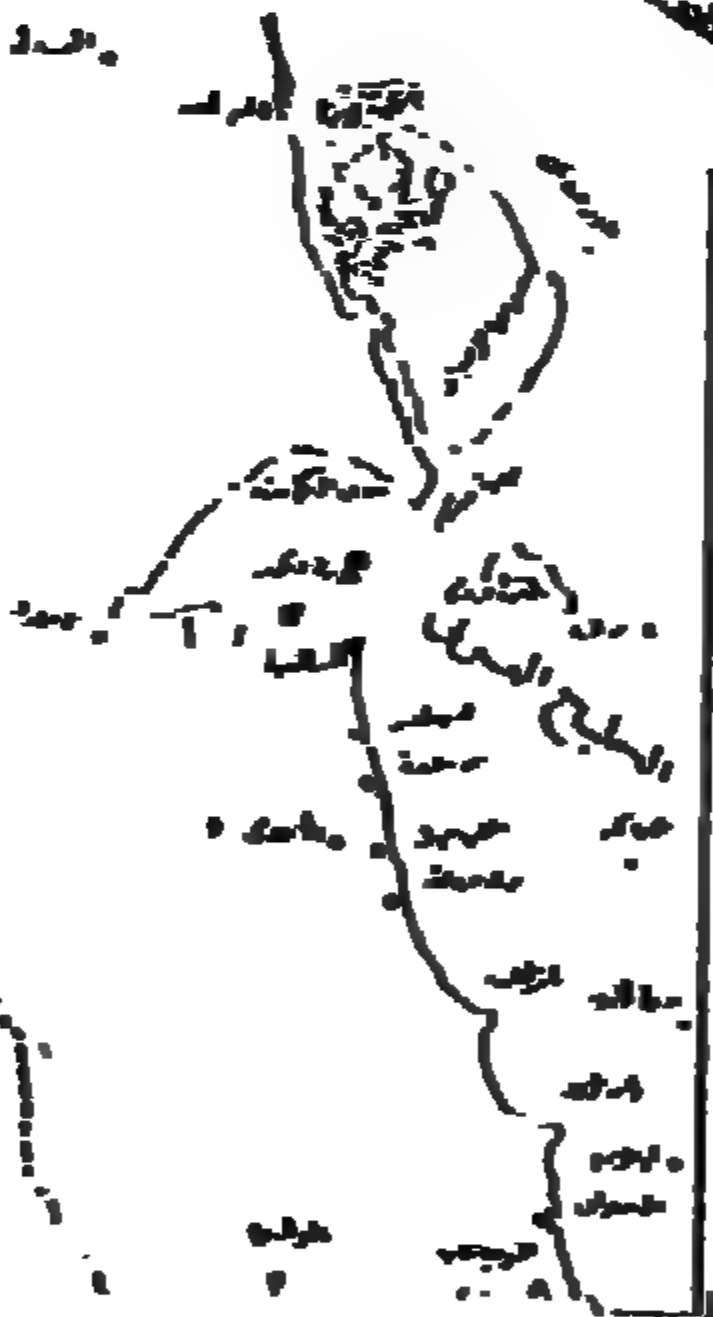
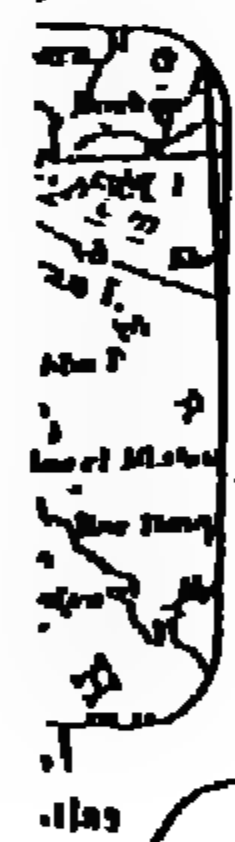
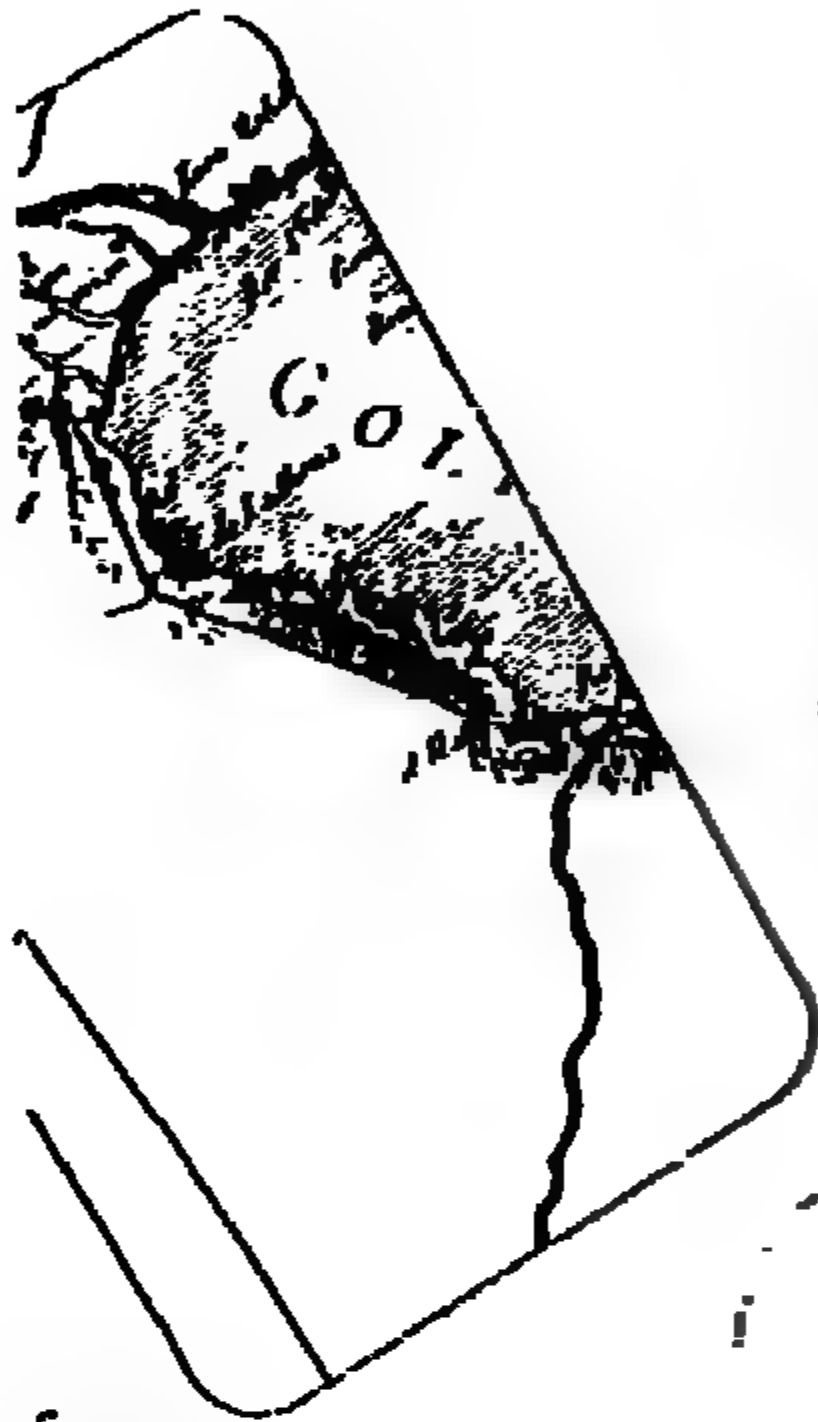
لقد أثبتت الاتفاقية البريطانية - العثمانية التى وقعت عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٣م) اعتراف الدولة العثمانية باستقلال الكويت الذاتى وبينت الحدود التى تقع تحت حكم أمير الكويت مباشرة . واعترفت بهذا الدولة العثمانية المهيمنة فى ذلك الوقت على معظم البلاد العربية والاسلامية .

أما رفع حكام الكويت للعالم العثمانى فلم يكن يعنى التبعية السياسية للدولة العثمانية ، بل كان مظهرا من مظاهر الاحترام للخلافة الاسلامية ، ولا شأن للعراق أو لحكومة العراق بذلك .

(خريطة الحدود الكويتية - العراقية)



الخزائن التاريخية



ظهرت الكويت دولة محددة السيادة منذ اوائل القرن الثامن عشر الميلادي ويؤكد ذلك ان الحدود بين اقليم الكويت واقليم العراق كانت واضحة ومرسومة منذ البدايات الاولى للأعمال الكارثوغرافية وتشمل تلك الحدود في الخط الفاصل بين العراق وشبه الجزيرة العربية حيث كانت الكويت على الدوام داخلية في إطار شبه الجزيرة العربية ثم تحول ذلك في عدد من الخزائن التي ظهرت في القرن التاسع عشر حيث لظهر فيها الكويت متميزة في حدودها مستقلة عما حولها.

وهكذا يمكن القول بأن أحد المبادئ الدولية الأساسية في تعيين الحدود هو استقرارها تاريخياً، وهذا ما يؤكد مجموعة كبيرة من الخزائن العامة، التي لبنى بلادنا في شكل حق الكويت العادل الذي من أجله وقف العالم أجمع معها فاهم الشكر والتقدير ولهم الشاء الدائم

قائمة المصادر والمراجع التي أعتمد عليها البحث

(أ) المصادر والمراجع العربية :

- مسودة المعاهدة الأنجلو - تركية حول منطقة الخليج العربى
كما نشرت فى ج.س. هيروتيز : الدبلوماسية فى الشرقين (الأدنى
والأوسط) ، سجل وثائقى بريستون ، ١٣٧٦ هـ (١٩٥٦ م) .
- ابراهيم ، عبد العزيز عبد الغنى
سياسة الأمن لحكومة الهند فى الخليج العربى (١٨٥٨ - ١٩١٤ م) ،
الرياض ١٤٠٢ / ١٩٨٢ م .
- السلام البريطانى فى الخليج العربى ١٣١٧ - ١٣٦٧ هـ (١٨٩٩ -
١٩٤٧ م) دراسة وثائقية ، الرياض ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- أبو حاكمه ، أحمد مصطفى
تاريخ شرقى الجزيرة العربية ، نشأة وتطور الكويت والبحرين ،
ترجمة محمد عبد الله ، بيروت ، بدون تاريخ .
- تاريخ الكويت ، ج ١ ، القسم الأول ، الكويت ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م
الكويت ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- بوش ، بيروينتون كوبر
بريطانيا والخليج الفارسى ١٣٠٢ - ١٣٣٣ هـ (١٨٨٤ - ١٩١٤ م) ،
كاليفورنيا ، ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .
- الدسوقي ، كمال
الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ (١٩٧٦ م) .
- دوکاس ، مارثا
أزمة الكويت ، العلاقات الكويتية - العراقية ١٣٨١ - ١٣٨٣ هـ
(١٩٦١ - ١٩٦٣ م) ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- الرشيد عبد العزيز
تاريخ الكويت ، ج ١ ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

- رونوفن ، بيير
تاريخ القرن العشرين ، ١٣١٨ - ١٣٦٨ هـ (١٩٠ - ١٩٤٨ م) ،
تعريب د . نور الدين حاطوم ، دمشق ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .
- سعيد أمين
الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضته الحديثة ، القاهرة ،
بدون تاريخ .
- الشمالان ، سيف
من تاريخ الكويت ، الكويت ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .
- الشناوى ، عبد العزيز
الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٣ ، القاهرة
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .
- الصالح ، نورية
علاقات الكويت السياسية بشرقى الجزيرة العربية والعراق العثمانى
١٢٨٣ هـ ١٣٢٠ هـ / ١٨٨٦ - ١٩٠٢ م ، الكويت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧ م .
- العابد ، فؤاد
سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٢٧٠ - ١٣٣٣ هـ / ١٨٥٣ -
١٩١٤ م ، ج ٢ ، الكويت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- العقاد ، صلاح
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- عمر ، عبد العزيز
تاريخ المشرق العربى ١٣٣٥ - ١٣٤١ هـ / ١٩١٦ - ١٩٢٢ م ، بيروت
١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- قاسم ، جمال
دراسات لتاريخ الامارات العربية ١٢٥٦ - ١٣٣٣ هـ / ١٨٤٠ -
١٩١٤ م ، القاهرة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

- الخليج العربى
دراسات لتاريخ الامارات العربية فى عصر التوسع الاوربى الاول ،
القاهرة ، بدون تاريخ .
- القناعى ، يوسف بن عيسى
صفحات من تاريخ الكويت ، دمشق ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .
- كىلى ، ج.ب.
بريطانيا والخليج العربى ١٢١٠ - ١٢٧٥هـ / ١٧٩٥ - ١٨٥٨م ،
لندن ١٩٦٨م .
- لوريمر ، ج.ج.
دليل الخليج ، ج ٣ ، قطر ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- النبهانى ، محمد بن خليفة
التحفة النبھانية فى امارات الجزيرة العربية ، بغداد ١٣٢٢هـ /
١٩٠٤م .
- الدوريات العربية :
- قطينة ، رنده مصرى
الكويت : دراسة تحليلية لقيام الدولة ، مجلة الوثيقة ، العدد
الثانى ، السنة الاولى ، البحرين ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج

د . محمد بن فارس الجميل (*)

يستهدف هذا البحث لقاء الضوء على رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج ، وذلك من خلال ما جاء عن تلك الرحلة فى المصادر الأولى وما جاء عنها كذلك فى الدراسات الحديثة ، بغية التعرف على وجهات النظر المختلفة بشأن تلك الرحلة وأبعادها الحقيقية .

وقبل التعرض للروايات المتعلقة بأمر الرحلة لابد من الحديث عن الخلفية التاريخية لها، لأن جميع المصادر التى تطرقت الى رحلة سلام الى « السد » لم تشر - فيما نعلم - الى خلفيتها التاريخية . ذلك أنها لم تتعرض الى ما ورد فى السنة النبوية عن سد يأجوج ومأجوج ، كما أنها فى ذات الوقت لم تشر الى ما قيل عن محاولات سابقة ، للوصول أو لاكتشاف « السد » . وما من شك فى أن الوقوف على ما كان متداولاً بين المسلمين من معلومات عن سد يأجوج ومأجوج قبل رحلة سلام الترجمان اليه ، ومقارنة ذلك بما جاءت به بعثة سلام من معلومات عن أمر السد ، سيمكن الباحث من تكوين رأى خاص حول تلك البعثة وما رافقها من حماسة وما أذاعته عن السد وأهله من معلومات .

الواقع ان الاهتمام بالسد وبأمر يأجوج ومأجوج لدى المسلمين انما هو اهتمام مرتبط بما جاء عنه فى القرآن الكريم والسنة النبوية . فمما جاء عن السد فى القرآن الكريم قوله تعالى : (حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا اذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً) (الكهف : ٩٣ - ٩٤) وجاء فى نفس السورة اشارة الى السد بمعنى الردم ، فقال تعالى على لسان ذى القرنين (فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً) (الكهف : ٩٥) .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود .

أما فى السنة النبوية فقد وردت بعض الاشارات الى السد والى
يأجوج ومأجوج ، حيث جاء فى الحديث أن رجلا قال للنبي ﷺ : رأيت
السد مثل البرد المحبر ، قال : « رأيت » ؛ أى أن النبي ﷺ وافق الرجل
وصدق رؤيته للسد وصفته (١) .

ولدينا رواية أخرى ربما تكون وثيقة الصلة بالرواية السابقة ان لم
تكن ايضاها لها ، جاء فيها أن رجلا قال :

[انطلقت الى أرض ليس لأهلها الا الحديد يعملونه ، فدخلت بيتا
فاستلقيت فيه على ظهري وجعلت رجلى على جداره ، فلما كان عند
غروب الشمس سمعت صوتا لم أسمع مثله فرعبت ، فقال لى رب البيت :
... هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد ، أفيترك
أن تراه ؟ قلت : نعم . قال : فغدوت اليه فاذا لبنته من حديد كل واحدة
مثل الصخرة واذا كأنه البرد المحبرة ، واذا المسامير مثل الجذوع ،
فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : « صفه لى »

فقلت : كأنه البرد المحبرة ، فقال ﷺ :

« من سره أن ينظر الى رجل قد أتى الردم فلينظر الى هذا » [(٢)]

وأشارت مصادر الحديث مرة أخرى الى الردم كما تضمنت الإشارة
الى يأجوج ومأجوج . قالت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله
عنها [أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول « لا اله الا الله ، ويل للعرب
من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق
باصبعه الابهام والتى تليها] (٣) .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فتح الله
من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد بيده تسعين (٤) . أى حلق
اصبعه .

كذلك روى أبو هريرة فى مناسبة أخرى أن رسول الله ﷺ ذكر
مرة يأجوج ومأجوج ، وما يلقونه من نصب وعنت فى سبيل الخروج من

السد ، فقال : « ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعودون اليه اشد ما كان ... » (٥) .

هذا مجمل الروايات عن السد أو الردم وعن يأجوج ومأجوج ، التى كانت متداولة فى عصر الرسول ﷺ .

أما فى عصر الخلفاء الراشدين ، وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (ت : ٢٥هـ / ٦٤٤م) فلدينا رواية تعود الى أحداث فتح أذربيجان (٢٢هـ / ٦٤٢م) مفادها أن صاحب أذربيجان ، شهر براز ، أخبر الفاتح العربى عبد الرحمن بن ربيعة عن السد بقوله :

[أيها الأمير : أتدرى من أين جاء هذا الرجل ؟ بعثته منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله ومن دونه فانتهى الى الملك الذى السد فى ظهر أرضه ... قال : فلما انتهينا فاذا جبلان بينهما سد مسدود ، حتى ارتفع على الجبلين بعدما استوى بهما واذا دون السد خندق أشد سواداً من الليل لبعده ...] (٦) .

أما فى العصر الأموى وبالذات فى عهد معاوية بن أبى سفيان (ت : ٦٠هـ / ٦٧٩م) فاننا نجد فى أحد المصادر المتأخرة ما يشير الى أن معاوية أرسل بدوره بعثة تتألف من خمسة وعشرين رجلاً الى سد يأجوج ومأجوج ينظرون كيف هو ، وكتب الى ملك الخزر يجوزهم الى من خلفه ، وأهدى اليهم هدايا ، ففعل حتى انتهوا الى الجبلين ، واذا بينهما مثل البصيص وهو بريق الصفر فى الحديد ، وسمعوا جلبة من داخل السور ورأوا درجا يرقى فيه الى أعلاه فصعد فيه رجل منهم . فلما بلغ وسطه تحير فسقط فمات ، وانصرفوا بقطعة مسحة وجدوها عند السد ... (٧) .

أما الحلقة الأخيرة المتعلقة بالخلفية التاريخية لرحلة سلام الترجمان الى السد فيمكن ربطها بما رواه ابن النديم فى الفهرست حيث يعزو أحد أسباب شغف الخليفة المأمون (ت . ٢١٨هـ / ٨٣٣م) بعلوم وثقافة

اليونان الى ما رآه فى منامه من مقابلة لأرسطاليس حكيم اليونان ، وما دار بينهما من أسئلة حول الحكمة وغيرها (٨) .

وبهذا الخبر الأخير تبلغ الخلفية التاريخية لرحلة سلام ذروتها حيث أنه بعد تسع سنوات تقريبا من رحيل الخليفة المأمون ، قيل أن الخليفة الواثق (ت : ٢٣٢هـ / ٩٤٣م) رأى فى المنام أيضا أن سد يأجوج ومأجوج مفتوح ففرع لذلك أشد الفزع وأمر بتجهيز بعثة علمية لتقصي حقيقة الأمر (!) (٩) .

ونلاحظ عن رحلة سلام الترجمان أن الكثير من المصادر الأولى - خاصة التاريخية والأدبية - لم تشر اليها ، على الرغم من أهميتها نظرا لما لها من علاقة بأمر قوم من خلق الله ورد ذكرهم فى القرآن وفى السنة النبوية وهم « يأجوج ومأجوج » .

ولعل كتب الجغرافية والرحلات هى المصادر التى تفردت بامر تلك الرحلة ؛ كما شاركها هذا الاهتمام أحيانا بعض المصادر الأدبية المتأخرة . ويبدو أن كافة المصادر اعتمدت على ما ذكره ابن خرداذبة فى كتابه : (المسالك والممالك) ، وفيما يلى النص حسب رواية ابن خرداذبة الشخصية نقلا عن سلام الترجمان ، حيث قال :

[فحدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى فى منامه كان السد الذى بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد انفتح ، فطلب رجلا يخرج به الى الموضع فيستخبر خبره . فقال أشناس ما هاهنا أحد يصلح الا سلام الترجمان ، وكان يتكلم بثلاثين لسانا . قال فدعا به الواثق وقال : أريد أن تخرج الى السد حتى تعينه وتجيئنى بخبره . وضم الى خمسين رجلا شباب أقوياء ، ووصلنى بخمسة آلاف دينار ، وأعطانى ديتى عشرة آلاف درهم . وأمر فأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة . وأمر ان يهيا للرجال اللبابيد وتغشى بالاديم . واستعمل لهم الكستبانات بالفراء والركب الخشب . وأعطانى مائتى بغل لحمل الزاد والماء . فشحصنا من سر من رأى بكتاب من الواثق بالله الى اسحاق بن اسماعيل صاحب أرمينية - وهو بتفليس - فى انفاذنا ،

وكتب لنا اسحاق الى صاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير الى ملك
اللان ، وكتب لنا ملك اللان الى فيلان شاه ، وكتب لنا فيلان شاه الى
طرخان ملك الخزر . فأقمنا عند ملك الخزر يوما وليلة حتى وجه معنا
خمسة ادلاء ، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما ، فانتهينا الى ارض
سوداء منتنة الرائحة . وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة
المنكرة ، فسرنا فيها عشرة أيام . ثم صرنا الى مدن خراب ، فسرنا فيها
عشرين يوما ، فسالنا عن حال تلك المدن ، فخبرنا أنها المدن التي كان
ياجوج وماجوج يتطرقونها فخربوها . ثم صرنا الى حصون بالقرب من
الجبل الذي شعبة منه السد . وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية
والفارسية مسلمون يقرأون القرآن ، لهم كتاتيب ومساجد ، فسالونا من
أين اقبلنا فأخبرناهم انا رسل امير المؤمنين ، فاقبلوا يتعجبون ويقولون
امير المؤمنين ؟ فنقول نعم ، فقالوا شيخ هو أم شاب ؟ فقلنا شاب
فعجبوا أيضا ، فقالوا اين يكون ؟ فقلنا العراق في مدينة يقال لها سر من
راى ، فقالوا ما سمعنا بهذا قط . وبين كل حصن من تلك الحصون الى
الحصن الاخر فرسخ الى فرسخين أقل وأكثر . ثم صرنا الى مدينة يقال
لها ايكه ، تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فوقها ،
وفيها مزارع وارحاء داخل المدينة ، وهى التى كان ينزلها ذو القرنين
بعسكره ، بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام ، بينها وبين السد حصون
وقرى حتى تصير الى السد ، فى اليوم الثالث . وهو جبل مستدير ذكروا
أن ياجوج وماجوج فيه وهما صنفان ، ذكروا أن ياجوج أطول من
ماجوج ، ويكون طول أحدهم ما بين ذراع الى ذراع ونصف وأقل وأكثر .
ثم صرنا الى جبل عال عليه حصن ، والسد الذى بناه ذو القرنين هو
فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع ، وهو الطريق الذى يخرجون منه
فيتفرقون فى الأرض ، فحفر أساسه ثلاثين ذراعا الى أسفل ، وبناه
بالحديد والنحاس حتى ساقه الى وجه الأرض . ثم رفع عضادتين ، مما
يلى الجبل من جنبتى الفج ، عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعا ،
فى سمك خمسين ذراعا ، الظاهر من تحتها عشر أذرع خارج الباب .
وكله بناء بلبن من حديد مغيب فى نحاس ، تكون اللبنة ذراعا ونصفا
فى ذراع ونصف فى سمك أربع أصابع ، ودروند حديد طرفاه على
العضادتين ، طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين على كل

واحدة مقدار عشر أذرع فى عرض خمس أذرع . وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد فى النحاس الى رأس الجبل ، وارتفاعه مد البصر ، يكون البناء فوق الدروند نحواً من ستين ذراعاً . وفوق شرف حديد فى طرف كل شرفة قرنتان تنتنى كل واحدة منهما على الأخرى ، طول كل شرفة خمس أذرع فى عرض أربع أذرع ، وعليه سبع وثلاثون شرفة . وإذا باب حديد مصراعين معلقين ، عرض كل مصراع خمسون ذراعاً فى ارتفاع خمس وسبعين ذراعاً فى ثخن خمس أذرع ، قائمتان هما فى دوائر على قدر الدروند . لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كأنه خلق خلقه . وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع فى غلظ باع فى الاستدارة . والقفل لا يحتضنه رجلان ، وارتفاع القفل من الأرض خمس وعشرون ذراعاً . وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل ، وقفيزاه كل واحد منهما ذراعان . وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف وله اثنتا عشرة دندانكة كل دندانكة فى صفة دستج الهواوين . واستدارة المفتاح أربعة أشبار ، معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار ، والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق . وعتبة الباب عرضها عشر أذرع فى بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين والظاهر منها خمس أذرع ، وهذه الذراع كلها بالذراع السوداء . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتى ذراع فى مائتى ذراع . وعلى باب هذين الحصنين شجرتان ، وبين الحصنين عين عذبة ، وفى أحد الحصنين آلة البناء التى بنى بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد ، على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور بالصابون . وهناك بقية من لبن الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدا . ورئيس تلك الحصون يركب فى كل يوم اثنين وخميس ، وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة ، يجيء راكباً ومعه ثلاثة رجال على عنق كل رجل مرزية ، ومع الباب درجة فيصعد على أعلى الدرجة فيضرب القفل ضربة فى أول النهار فيسمع لهم جلبة مثل كور الزنابير ثم يخدمون . فإذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى ويصغى بأذنه الى الباب فتكون جلبتهم فى الثانية أشد من الأولى ثم يخدمون . فإذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضجون مثل ذلك ، ثم يقعد الى مغيب الشمس . ثم ينصرف . الغرض فى قرع القفل أن يسمع من وراء الباب ،

فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن هؤلاء لم يحدثوا في الباب حدثا ، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير يكون عشرة فراسخ في عشرة فراسخ تكسیره مائة فرسخ .

قال سلام : فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون هل عاب من هذا الباب شيء قط ؟ قالوا : ما فيه الا هذا الشق . والشق كان بالعرض مثل الخيط دقيق . فقلت : تخشون عليه شيئا ؟ فقالوا : لا ان هذا الباب ثخنه خمس اذرع بذراع الاسكندر يكون ذراعا ونصفا بالاسود ، كن ذراع واحدة من ذراع الاسكندر . قال : فدنوت واخرجت من خفي سكيناً فحذت موضع الشق فأخرج منه مقدار نصف درهم وأتدته في منديل لاريه الوائق بالله . وعلى فرد مصراع الباب الايمن في اعلاه مكتوب بالحديد باللسان الاول [فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حفا] وننظر الى البناية واكثره مخطط ساف اصفر من نحاس وساف اسود من حديد . وفي الجبل محفور الموضع الذي صب فيه الابواب ، وموضع القدور التي كان يخلط فيها النحاس ، والموضع الذي كان يخلط فيه الرصاص والنحاس ، وقدور شبيهة بالصفير لكل قدر ثلث عرى ، فيها السلاسل والكلايب التي كان يمد بها النحاس الى فوق السور . وسألنا من هناك هل رأيت من ياجوج وماجوج احدا ، فذكروا أنهم رأوا مرة عددا فوق الجبل ، فهبت ريح سوداء فآلقتهم الى جانبهم ، وكان مقدار الرجل في رأى العين شبرا ونصفا . والجبل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غير ذلك ، وهو جبل مسلنطح قائم أملس أبيض .

فلما انصرفنا أخذ الادلاء بنا الى ناحية خراسان ، وكان الملك يسمى اللب . ثم خرجنا من ذلك الموضع وصرنا الى موضع ملك يقال له طبانوين ، وهو صاحب الخراج ، فأقمنا عندهم أياما . وصرنا من ذلك الموضع حتى وردنا سمرقند في ثمانية أشهر ووردنا على اسبیشاب، وعبرنا نهر بلخ ، ثم صرنا الى شروسة والى بخارا والى ترمذ ، ثم وصلنا الى نيسابور . ومات من الرجال الذين كانوا معنا ومن مرض منهم في الذهاب اثنان وعشرون رجلا ، من مات منهم دفن في ثيابه ، ومن مرض

خلفناه مريضاً فى بعض القرى . ومات فى المرجع أربعة عشر رجلاً .
فوردنا نيسابور ونحن أربعة عشر رجلاً . وكان أصحاب الحصون زودونا
ما كفانا . ثم صرنا الى عبد الله بن طاهر فوصلنى بثمانية آلاف درهم
ووصل كل رجل معى بخمس مائة درهم ، وأجرى للفارس خمسة دراهم
وللراجل ثلاثة دراهم فى كل يوم الى الرى . ولم يسلم من البغال التى
كانت معنا الا ثلاثة وعشرون بغلاً . ووردنا سر من رأى ، فدخلت على
الوائق فأخبرته بالقصة ، وأريته الحديد الذى كنت حككته من الباب ،
فحمد الله وأمر بصدقة يتصدق بها ، وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار،
وكان وصولنا الى السد فى ستة عشر شهراً ورجعنا فى اثنى عشر
شهراً وأيام .

فحدثنى سلام الترجمان بجملة هذا الخبر ، ثم املاه على من كتاب
كان كتبه للوائق بالله (١٠)] .



ومن المهم جداً أن يدرك الباحث أن جميع المصادر الأولى التى
اهتمت بأمر رحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج قد نقلت
معلوماتها عن مصدر واحد لا غير ، هو ابن خرداذبة الذى ذكرنا فيما
سبق روايته عن الرحلة .

ويطبيعة الحال جاء نقل بقية المصادر عن ابن خرداذبة بدرجات
متفاوتة ، فمنها ما نقل عنه حرفياً ، ومنها ما نقل عنه جزء من التقرير ،
ومنها ما اكتفى بإيراد المعنى دون الخوض فى التفاصيل . وهى فى
جملتها حين تنقل عن ابن خرداذبة لا يسلم نقلها من بعض الزيادة أو
النقص فمثلاً :

من الذين اهتموا بأمر السد ورحلة سلام اليه ، الثعلبى (ت
١٠٣٥هـ / ١٠٣٥م) فى كتابه المعروف : عرائس المجالس . وقد نقل فى
كتابه أخبار الاسكندر ، (ذو القرنين) وبناءه للسد ويأجوج ومأجوج ،
كما أورد رواية ابن خرداذبة مختلفة بعض الشيء فى بعض التفاصيل
الصغيرة (١١) .

أما أبو عبد الله الإدريسي ، (ت : حوالى ١١٦٤هـ / ١١٦٤م) فقد تناول فى كتابه : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، رواية ابن خرداذبة وبعثة سلام الترجمان اليه . ولم ينكر من أمرها شيئا ، بل أنه أضاف إليها ما يفيد عن الطريقة التى انتشر بها الاسلام بين الآقوام المجاورة للسد ، اضافة الى بعض الاختلافات الطفيفة عما جاء عند ابن خرداذبة عن موضوع الرحلة (١٢) .

ويلاحظ على القزوينى وهو متأخر نسبيا ، (ت : ١٢٢٣هـ / ١٢٢٣م) فى كتابه : آثار البلاد وأخبار العباد ، أن رواية ابن خرداذبة تعرضت على يديه لقدر من الحذف والاضافة والتحريف أحيانا . فعند حديثه عن سد يأجوج ومأجوج تعرض بطبيعة الحال الى رحلة سلام الترجمان وأورد التقرير المنسوب اليه كاملا تقريبا ، الا أنه فى آخر التقرير قال على لسان سلام حين تحدث عن يأجوج ومأجوج : « فهبت ريح سوداء فآلقتهم إلينا . . . » (١٣) وكما هو واضح فإن هذه الاضافة تغير معنى ما جاء عند ابن خرداذبة تغييرا تاما حيث قال : « فهبت ريح سوداء فآلقتهم الى جانبهم » (١٤) أى الى داخل السد .

يضاف الى ذلك ما جاء عند القزوينى من اختلاف حول المدة الزمنية التى قضتها البعثة فى رحلتها (١٥) .

والقزوينى فى مصدر آخر لا يكتفى بما جاء عند ابن خرداذبة عن التقرير المنسوب الى سلام الترجمان . ففى كتابه : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، يضيف اليه بعض الفقرات التى لم ترد أصلا عند ابن خرداذبة وينسب تلك الاضافات الى أبى حامد الأندلسى فى كتابه العجائب ، نقلا عن سلام الترجمان .

ومن ذلك قوله أن سلاما الترجمان قال : « أقمت عند ملك الخزر أياما ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جدا وجذبوها بالحبال فانفتحت أذن السمكة وخرجت منها جارية بيضاء حمراء طويلة الشعر حسنة الصورة أخرجوها الى البر وهى تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح . وقد خلق الله فى وسطها نشاء (غشاء ؟) كالثوب الصفيق ، من سرتها الى ركبته كأنه أزار مشدود على وسطها فأمسكوها حتى ماتت » (١٦) . (مجلة المؤرخ العربى)

أما الحميرى (ت : ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) ، صاحب الروض المعطار ،
فلعله من أكثر الجغرافيين عناية بأمر رحلة سلام الترجمان ، فقد تتبع
ما جاء عن السد فى القرآن والسنة ، وندى له بالمعلومات القيمة التى
زودنا بها عن بعض الرحلات التى يقال أنها نفذت الى السد قبل بعثة
الوائق بأكثر من قرن من الزمان (١٧) .

والحميرى كغيره من الجغرافيين نقل خبر رحلة سلام الى السد
عن المصدر الأول لها وهو ابن خرداذبه ، الا أن نقله لم يسلم من الزيادة
والنقصان وان لم يغير من جوهر الرواية (١٨) .



هذا ما جاء عن رحلة سلام الترجمان الى السد أو الردم فى
المصادر الجغرافية والأدبية الأولى . وكما أوضحنا من قبل فان تلك
المصادر تناقلت رواية واحدة مصدرها واحد وهو ابن خرداذبه ، الا أنه
من اللافت للنظر أن كل تلك المصادر المشار إليها أنفاً تقبلت الرواية بقبول
حسن فلم تقف منها موقف الرفض أو على الأقل المتشكك ولو فى بعض
جزئياتها .

ولدينا طائفة أخرى من الجغرافيين وقف بعضهم من أمر الرحلة
موقف الرفض . وبعضهم شكك فى ما جاءت به من أخبار . وأما البعض
الآخر فلم يكن متحمساً لما ذاع عن الرحلة من معلومات .

ويأتى على رأس هؤلاء الجغرافيين ابن رسته (توفى بعد ٢٩٠هـ /
٩٠٣م) فبعد أن أشار بصورة مقتضبة الى الواثق وما طلب من سلام
القيام به ، قال : « وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخطيط والتزييد
لأن مثل هذا لا تقبل صحته فوجدته موافقاً » (١٩) .

كذلك تحدث ياقوت الحموى (ت : ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) عن ياجوج
وماجوج بشيء من التفصيل ، وتطرق كذلك الى بعثة سلام الترجمان ، ونقل
معظم ما جاء فى رواية ابن خرداذبه عن أمر البعثة وان لم يشر صراحة
الى مصدره (!) ووقع فى روايته بعض الاختلافات الطفيفة عما ورد لدى
ابن خرداذبه (٢٠) ، لكن المهم أن الحموى شكك فيما جاء عن البعثة من

أخبار السد ، فقال : « قد كتبت من خبر السد ما وجدته فى الكتب
ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه ، والله اعلم
بصحته » (٢١) .

ويلاحظ كذلك أن اهتمام ابن الفقيه (توفى بعد : ٢٩٠هـ / ٩٠٣م)
بالسد وبناء الاسكندر له كان أكثر من اهتمامه بخبر رحلة سلام الترجمان
وما تمخض عنها من معلومات ، فقد أشار الى خبر تلك البعثة اشارة
عابرة لم تتجاوز بضع كلمات (٢٢) . ولعل ذلك يعكس عدم مصداقية
الخبر بالنسبة له .

أما المقدسى (توفى حوالى : ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) ، فقد نقل رواية
ابن خرداذبه فيما يتعلق بصفة السد ورحلة سلام الترجمان اليه . وهو
الآخر لم يسلم فيما نقله من بعض الأخطاء (٢٣) . وملاحظته الوحيدة
حول خبر الرحلة هى أنها صححت بعض ما كان لديه من معلومات عن
موقع سد يأجوج ومأجوج ، حيث كان يظن أنه فى بلاد الأندلس بينما بعثة
سلام أثبتت أنه فى مكان آخر (٢٤) .



ولعل ما يثير قدرا كبيرا من الشك فى صحة خبر بعثة الواثق وما
جاءت به من أخبار عن صفة سد يأجوج ومأجوج هو عدم اهتمام كبار
المفسرين بأمرها ، حيث يلاحظ أنهم لم يشيروا اليها فى معرض تفسيرهم
لسورة الكهف ، ولم يتحدثوا عن التفاصيل الدقيقة لبناء السد والتي يزعم
أن البعثة جاءت بها عنه .

فالطبرى (ت : ٣١٠هـ / ٩٢٢م) ناقش فى تفسيره لسورة الكهف
أخبار ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وبناء السد (٢٥) ، لكنه لم يشير
اطلاقا لبعثة الواثق ولا لما أورده ابن خرداذبه من أمرها . ويظن أنه
لو ثبت لديه ذلك وتحقق من صحة الخبر لما تردد فى الاستفادة من أخبار
تلك البعثة فى تفسيره العظيم (!) .

أما الرازى (ت : ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) فقد أشار فى تفسيره بصورة

مقتضبة الى رواية ابن خرداذبة حول بعثة سلام الترجمان . وكان من الواضح أنه لم يعرها أدنى اهتمام ، حيث أنه لم يشر فى تفسيره الكبير الى المعلومات التى كان سلام الترجمان قد جاء بها عن السد وعن ياجوج وماجوج (٢٦) .

وكذلك القرطبى (ت : ٧٦١هـ / ١٢٧٣م) ، فقد ذكر فى تفسيره تفاصيل كثيرة عن ياجوج وماجوج وعن ذى القرنين وأمر السد ، لكنه لم يتطرق لرواية ابن خرداذبه ولا الى بعثة الوائق (٢٧) .



أما بالنسبة للدراسات الحديثة ، فقد اهتم العلماء الروس منذ وقت مبكر أكثر من سواهم بأمر رحلة سلام الى سد ياجوج وماجوج . ومبعث ذلك الاهتمام يعود الى أن الرحلة ذات أهمية بالنسبة لبلاد السوفييت (٢٨) .

وعلى الرغم من أن بعض علماء الروس أمثال : غريغورييف Grigoriev ومينورسكى Minorsky قد شككا فى أمر الرحلة ورأيا فيها تضليلا مقصودا ، وحكاية خرافية تنتشر فيها بعض أسماء جغرافية (٢٩) . فان دى خوية De Goeje منذ عام ١٨٨٨م اعتبر الرحلة واقعة تاريخية لاشك فيها وأنها جديرة باهتمام العلماء . وقد أيدته فى ذلك خبير ثقة فى الجغرافيا التاريخية هو توماشك Tomashek (٣٠) .

ويرى كراتشكوفسكى Krachkovski أن سلاما الترجمان فى طريق رحلته قد اتجه شمالا خلال أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، الى بلاد الخزر ثم اتجه من هناك شمالا الى بحر قزوين فوصل الى بحيرة بلخش Balkhash وزنغاريا Zhungaria وهو بلا شك قد أبصر سد القوقاز المشهور عند دريند (٣١) .

ولا يستبعد كراتشكوفسكى أن يكون سلام قد وصل الى سور الصين العظيم (٣٢) .

أما المستشرق الفرنسي كارادى فان Carra De Van فيرى أنه من المحتمل أن هذه الرحلة كانت الى الحصون الواقعة فى جبال القوقاز وعلى مقربة من دربند أو باب الأبواب (٣٣) .

وقد اهتم الدارسون العرب المحدثون مثل غيرهم برحلة سلام الى سد ياجوج وماجوج ، فكانت لهم وجهات نظر متباينة حول البعثة . فمثلا حسين فوزى ، اهتم ببعض الأساطير المنسوبة الى تقرير سلام الترجمان والتي لم ترد أصلا فى المصدر الأساسى وهو ابن خرداذبه ، بل نقلت عن مصادر ثانوية متأخرة (٣٤) . وهو على كل حال لم يناقش أمر البعثة الى السد .

وكذلك فان زكى محمد حسن ، تحدث عن سلام الترجمان ضمن الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، ويرى أن رحلته الى سور الصين الشمالى قد تكون حقيقة تاريخية ، وأن الباعث عليها أشبه بأسطورة خيالية (٣٥) .

والملاحظ أن زكى حسن استمد مادته عن رحلة سلام من مصادر متأخرة نسبيا كالأدريسى وياقوت الحموى ، ولم يرجع الى ابن خرداذبه وهو المصدر الأول عن الرحلة .

ويرى على محسن مال الله ، أن الباعث وراء الرحلة التى أمر بها الواثق قد يكون باعثا سياسيا ، يقصد من ورائه اظهار هيمنته على تلك الأقطار التى مر بها سلام (٣٦) .

وهو يرى كذلك أن الرحلة واقعية رغم ما تسرب اليها من الأساطير (٣٧) .

ومن الذين أشاروا الى رحلة سلام الترجمان ، أحمد رمضان أحمد ، الذى من خلال عرضه الوجيز للرحلة يظهر أنه لم يطلع على ابن خرداذبه باعتباره المصدر الأساسى لرواية بعثة الواثق ، بل حذا حذو حسين فوزى حين اكتفى بما جاء لدى الأدريسى وياقوت الحموى ، وبذلك لم يضيف شيئا جديدا لمادة البحث (٣٨) .

أما حسين فهم ، فقد أشار الى رحلة سلام اشارة مقتضبة ورأى فيها رحلة تكليفية ، رسمية ، ولم يدخل فى تفاصيلها (٣٩) .

الخاتمة

من العرض السابق للروايات المتعلقة برحلة سلام الترجمان الى سد يأجوج ومأجوج يتبين للباحث أن مصدر الخبر عن الرحلة واحد لا غير ، ألا وهو ابن خرداذبه وأن بقية المصادر المعاصرة له والملاحقة به اعتمدت على ما جاء فى روايته مع اختلاف يسير فى النقل بزيادة أو نقصان .

وكان للمصادر الأولية ثلاثة مواقف متباينة بشأن الرحلة :

(أ) بعض تلك المصادر اتخذ موقفا محايدا حيث نقل عن ابن خرداذبة أمر الرحلة وأخبارها ولم يعلق على ذلك بشئ ، كالأدريسى والقزوينى والحميرى والمقدسى والثعلبى .

(ب) أحد المصادر وهو ابن رسته رفض تقريبا خبر الرحلة ورأى فيه تزييدا وتخليطا .

(ج) الموقف الثالث ويمثله ياقوت الحموى والذى يرى أن هناك روايات كثيرة ومختلفة بشأن الرحلة ويشكك فيما جاء عنها من أخبار .

أما بالنسبة للدراسات الحديثة والتي كثيرا ما ناقشت رحلة سلام بايجاز ملحوظ فانها تكاد تتخذ مواقف متشابهة .

فالدارسون الروس والغربيون يرون أن البعثة ربما حدثت وان كان الباعث عليا خياليا ، وقد يكون سلام قد شاهد جزء من سور الصين العظيم أو بعض المنشآت المائية الكبرى كسد القوقاز . كما يرون أنه ربما يكون ما شاهده سلام فى تلك الأصقاع وما سمعه هناك من الأساطير الشعبية حول السد ويأجوج ومأجوج مضافا اليه خبر السد فى القرآن ؛ كل ذلك دفع بسلام الى رسم تلك الصورة عن السد وعن قوم يأجوج ومأجوج (٤٠) .

أما الدارسون المحدثون من العرب فيبدو واضحا أنهم تابعوا زملاءهم السابقين من الغربيين في استنتاجاتهم وما ذهبوا اليه ، ولذلك فإنهم لم يأتوا بجديد حول الموضوع .

والذى يخلص اليه الباحث هنا، هو أن البعثة قد تكون حدثت فعلا، ولكن ليس بالضرورة الى سد ياجوج ومأجوج . وقد يكون سلام شاهد بعض المنجزات المعمارية كالسد أو شبيه به فى الأصقاع الشمالية ، ولكن الأمر الذى يظل مشكوكا فيه هو ما جاءت به البعثة من أخبار عن السد ومن حوله .

ولعل ما يقوى الشك فى تلك الأخبار هو :

(أ) اغفال المؤرخين المسلمين لذكر حادثة الرحلة برمتها ، حيث لا نجد لها أثرا فى كتاباتهم سوى ما جاء عند بعض المؤرخين اللاحقين كابن كثير وابن خلدون ، وهم لا يضيفون شيئا جديدا بل يرددون ما جاء عند ابن خرداذبه .

(ب) أن المفسرين الكبار كالطبرى والرازى والقرطبى لم يشيروا الى رحلة سلام ولم يستفيدوا من أخبارها عن سد ياجوج ومأجوج ، وهم الذين أبدوا فى تفاسيرهم اهتماما خاصا بأمة ياجوج ومأجوج وبناء السد .

(ج) من الملاحظ أن كتب التراجم المعروفة جميعها تقريبا لم تتطرق لسلام الترجمان ، على الرغم من كونه صاحب الريادة فى اكتشاف ووصف سد ياجوج ومأجوج (!) ، علما بأن كتب التراجم هذه قدمت لنا معلومات دقيقة ومفصلة عن حياة أناس أقل شأنًا وخطرا من سلام الترجمان .

يضاف الى ذلك أن ابن خرداذبه وجميع من جاؤوا بعده ونقلوا عنه خبر رحلة سلام قد أهملوا جميعا تحديد السنة التى تمت فيها تلك الرحلة وهذا أمر يبعث على الدهشة والغرابة .

وأخيرا فإن الباحث يرجو أن تكون هذه الدراسة الموجزة قد نجحت

فى الكشف عن الخلفية التاريخية لرحلة سلام الترجمان، حيث أنها لم تكن الأولى بل سبقتها عدة محاولات . ويرجو كذلك أن يكون من خلال هذه الدراسة قد نجح فى إثارة بعض التساؤلات عن حقيقة ما جاءت به البعثة من أخبار عن سد ياجوج ومأجوج .

الحواشي والتعليقات

- ١ - محمد بن اسماعيل البخارى ، صحيح البخارى ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، الطبعة الرابعة (دمشق وبيروت : دار ابن كثير واليمامة ، ١٤١٠ هـ) .
- ٢ - كمال الدين محمد بن موسى الدميرى ، حياة الحيوان الكبرى ، ويليه : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، لزكريا بن محمد القزوينى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٣٩٨ هـ) ، ٤٣٢/٢ ؛ شهاب الدين بن محمد الأبهسي ، المستطرف فى كل فن مستظرف ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت : دار القلم ، ١٤٠١ هـ) ، ص ٣٦٥ .
- ٣ - البخارى ، ١٢٢١/٣ ؛ مسلم بن الحجاج القشيري ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣ هـ) ، ٢٢٠٧/٤ - ٢٢٠٨ ، وقارن : محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، سنن الترمذى ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٣٨٩ هـ) ، ٤٨٠/٤ ؛ محمد بن يزيد القزوينى ، ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت : المكتبة العلمية ، دنت) ، ١٣٠٥/٢ .
- ٤ - البخارى ، ١٢٢١/٣ ، وانظر : مسلم ، ٢٢٠٨/٤ .
- ٥ - أحمد بن حنبل ، المسند ، (القاهرة : مؤسسة قرطبة ، د : ت) ، ٥١٠/٢ - ٥١٨ ؛ محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، الطبعة الثانية (القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٣٧٣ هـ) ، ٢١/١٦ ؛ محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة : مطبعة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦٠ هـ) ، ٦٢١١ - ٦٣ .
- ٦ - محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة (القاهرة : دار المعارف ، د : ت) ، ١٥٩/٤ - ١٦٠ ؛ أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ، تحقيق د. أحمد أبو ملحم وزملاؤه (بيروت : دار

الكتب العلمية ، د : ت) ، ١٢٧/٤ - ١٢٨ ؛ محمد بن عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م) ، ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، وانظر : عبد الرحمن بن خلدون المقدمة ، (القاهرة : دار الشعب ، د : ت) ، ص ٧٤ .

٧ - الحميرى ، ص ٣١٠ .

٨ - محمد بن اسحاق النديم الوراق ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، الطبعة الثالثة (د : م ، دار المسيرة ، ١٩٨٨م) ، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

٩ - انظر : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ، المسالك والممالك ويليهِ نبذ من كتاب الخراج لأبى جعفر قدامة بن جعفر البغدادى ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن سنة ١٨٨٩م (بيروت : دار صادر ، د : ت) ، ص ص ١٦٢ - ١٦٣ .

١٠ - ابن خرداذبه ، ص ص ١٦٢ - ١٧٠ .

* الوثائق : هارون بن محمد المعتصم ، يكنى أبا جعفر ، وهو الخليفة العباسى التاسع ، دامت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وبضعة أيام (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) .

١١ - أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى المعروف بالثعلبى ، قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، الطبعة الرابعة (بيروت : دار الرائد العربى ، د : ت) ص ص ٣٦٤ - ٣٦٧ . والاختلافات لديه عما جاء فى الرواية الأصلية لابن خرداذبه ، كبيرة الشبه بما لدى الادريسي .

١٢ - انظر : أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسي ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الطبعة الأولى (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩هـ) ، ٩٣٥/٢ - ٩٣٦ .

ومن الاختلافات الواردة فى رواية الادريسي عما جاء لدى ابن خرداذبه : قوله أن الوثائق أمر لسلام الترجمان وأصحابه بمائة بغل بدلا من مائتين ، ٩٣٤/٢ ، وقوله كذلك أن أمير سمرقند عبد الله بن طاهر وصل سلام بمائة ألف درهم ووصل كل واحد من أصحابه بخمسة آلاف درهم . بينما الذى جاء عند ابن

خرداذبه أن ابن طاهر وصل سلام بثمانية آلاف درهم ووصل كل واحد من أصحابه بخمس مائة درهم . ومن الاختلافات كذلك قول الادريسي أن الواثق أمر لكل واحد من أصحاب سلام الترجمان بخمسين ألف درهم بدلا من ألف ٩٣٤/٢ .

أما شهاب الدين أحمد بن عبد الواحد النويري - وهو مصدر متأخر - فإنه ينسب خبر بعثة سلام الى الادريسي صاحب نزهة المشتاق (!) وينقل عنه بشيء من الحذف والاضافة . انظر : نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٢ هـ) ، ٣٧٤/١ - ٣٧٨ .

١٣ - زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، أثار البلاد وأخبار العباد (بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤ هـ) ، ص ٥٩٨ .

١٤ - ابن خرداذبه ، ص ١٦٨ .

١٥ - القزويني ، أثار البلاد ٠٠٠ ص ٥٩٩ ، ذكر القزويني في روايته أن مدة البعثة في الذهاب من سرمن رأى والعودة اليها ثمانية عشر شهرا ، ص ٥٩٩ ، بينما الذي جاء عند ابن خرداذبه ان الرحلة استغرقت ثمانية وعشرين شهرا وأيام . انظر : ابن خرداذبه ، ص ١٧٠ .

١٦ - القزويني ، عجائب المخلوقات ٠٠٠ ، ٩٦/٢ ، بخصوص ما جاء عن الجارية التي خرجت من أذن السمكة . انظر : الأبيشي ، حيث ينسب هذه الأسطورة الى الشيخ أبي العباس الحجازي نقلا عن أحد التجار ، ص ٣٦٧ .

أما ما ينسبه القزويني في عجائب المخلوقات ٠٠ الى أبي حامد الأندلسي الغرناطي في الكتاب المنسوب اليه والمعروف بكتاب : العجائب ، فلم نعثر على ذلك الكتاب حتى نتمكن من مقارنة ما جاء فيه ، ولكن عثرنا على كتاب آخر ينسب لأبي حامد وهو كتاب : تحفة الألباب ، للشيخ محمد بن عبد الرحيم المعروف بابي حامد الأندلسي الغرناطي الملقب بشيخ عبد الله . نشره في باريس سنة ١٩٢٥م غابريال فيران Gabriel Ferrand . انظر في نفس الكتاب ص ١١٩ للتعرف على أصل أسطورة الجارية التي خرجت من أذن السمكة حيث أن أبا حامد الغرناطي لا ينسب

الأسطورة الى سلام الترجمان كما جاء عند القزوينى فى كتاب عجائب المخلوقات . . . بل ينسبها الى أحد التجار .

وبالنسبة لكتاب : تحفة الألباب ، انظر ما جاء عنه لدى : أنخل جنتالث بالنثيا فى : تاريخ الفكر الأندلسى ، نقله عن الأسبانية حسين مؤنس ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتب النهضة المصرية ، ١٩٥٥م) حيث يرى بالنثيا أن اسم كتاب أبى حامد الغرناطى هو : تحفة الأصحاب ونخبة الاعجاب . انظر ص : ٣١٢ ، بينما الأبشيهى وهو من رجال القرن التاسع الهجرى (ت : ٨٥٠ هـ) تقريبا يشير فى مواضع متفرقة من كتابه المستطرف . . . الى الشيخ عبد الله صاحب كتاب : تحفة الألباب . انظر الصفحات ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ . وهذا ما يقوى الاحتمال بأن مسمى : تحفة الألباب ، أقرب الى الصواب مما يذهب اليه السيد بالنثيا ، وهو : تحفة الأصحاب ونخبة الاعجاب . سيما وأن الكتاب المتداول الآن يحمل العنوان الذى أورده الأبشيهى (!) .

وبالنسبة لترجمة أبى حامد الغرناطى ، فالمعلومات عنه مضطربة والمصادر لا تكاد تتفق على معلومات ثابتة عنه ، وبالأخص سلسلة نسبه . انظر : عبد الكريم بن محمد السمعانى ، الأنساب ، تحقيق عبدالله عمر البارودى ، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨ هـ) ، ٢٨٧/٤ - ٢٨٨ ، أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الطبعة الثانية (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٤٠٨ هـ) ، صص ٣٢٦ - ٣٣٠ ؛ عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، الطبعة الثانية (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ) ، صص ٢٢٩ - ٣٠٦ .

١٧ - الحميرى ، صص ، ٣٠٨ - ٣١٠ .

١٨ - ينقل الحميرى عن ابن خرداذبه ، أن عبدالله بن طاهر وصل سلام الترجمان بمائة ألف درهم ووصل كل رجل معه بخمسة آلاف درهم . ص ٣١١ ، بينما الذى جاء عند ابن خرداذبة : ان ابن طاهر وصل سلام بثمانية آلاف درهم ووصل كل رجل كان معه بخمس مائة درهم . انظر ابن خرداذبه ، ص ١٦٩ ، ويذكر الحميرى أيضا أن الرحلة من سرمن رأى والعودة اليها استغرقت ثمانية عشر

شهرًا وعشرين يومًا ، ص ٣١١ ، والصواب أنها ثمانية وعشرون شهرًا وبضعة أيام ولعل هذا الخطأ مرده إلى تصحيف وقع فيه بعض النساخ .

١٩ - أبو علي أحمد بن عمر بن رسته ، الأعلام النفيسة ويليهِ كتاب البلدان لليعقوبي ، نسخه مصورة عن طبعة ليدن ، ١٨٩٣م (بيروت : دار صادر) ، ص ٤٩ .

٢٠ - ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٦ هـ) ، ٢٠٠/٣ ، ومن الاختلافات الواردة لدى ياقوت عما جاء لدى ابن خرداذبه قوله على لسان سلام الترجمان: « فهبّت ريح سوداء فألقتهُم إلى جانبنا » ، ٢٠٠/٣ والصحيح فألقتهُم إلى جانبهم « أي إلى جانب من هم خلف السد أي يأجوج ومأجوج . وكذلك قول ياقوت على لسان سلام الترجمان أن الرحلة استغرقت مئذنة عشر شهرًا في الذهاب والاياب ، ٢٠٠/٣ ، والصواب حسب ما جاء لدى ابن خرداذبه ثمانية وعشرين شهرًا وأيام .

٢١ - ياقوت الحموي ، ٢٠٠/٣ .

٢٢ - أبو بكر بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان (ليدن : ١٣٠٢ هـ) ، صص ٢٩٨ - ٣٠١ .

٢٣ - أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق د. محمد مخزوم (بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٤٠٨ هـ) ، ص ٢٧٧ .

٢٤ - المقدسي ، ص ٢٧٩ .

٢٥ - محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ١٥/١٦ - ٢٥ .

٢٦ - محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ، الطبعة الأولى (القاهرة د : ت) ، ١٦٣/٢١ - ١٧١ .

٢٧ - القرطبي ، انجام لأحكام القرآن ، ٥٢/١١ - ٦٥ .

٢٨ - انظر : كراتشكوفسكي ، ص ١٥٦ .

٢٩ - كراتشكوفسكي ، ص ١٥٧ .

٣٠ - كراتشكوفسكي ، ص ١٥٧ .

٣١ - كراتشكوفسكى ، ص ١٥٨ ، وانظر كذلك الآراء المتضاربة حول الرحلة فى العرض الشيق الذى قدمه كراتشكوفسكى عنها .
صص : ١٥٧ - ١٥٩ .

٣٢ - كراتشكوفسكى ، ص ١٥٨ .

٣٣ - انظر : زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (بيروت : دار الرائد العربى ، ١٤٠١هـ) ، ص ١٧ .

٣٤ - حسين فوزى ، حديث السندباد القديم (بيروت : دار الكتاب اللبنانى ودار الكتاب المصرى ، ١٩٧٧م) ، ص ١٣٤ .

والجانب الذى ناقشه فوزى فى كتابه وأشار فيه الى رحلة سلام الترجمان هو : أسطورة الجارية التى خرجت من أذن السمكة ، حيث نقلها فوزى عن القزوينى فى كتابه : عجائب المخلوقات... حول نسبة هذه الرواية الى سلام ، انظر هامش ١٦ ، وعن رأى فوزى وتفسيره لأسطورة الجارية والسمكة راجع كتابه : حديث السندباد ... ص ١٣٥ .

٣٥ - زكى محمد حسن ، ص ١٥ ، ويلاحظ أن المؤلف يورد أسطورة السمكة والجارية وكذلك تفسير حسين فوزى لها ، صص : ١٧ - ١٨ . وهو يرى : أنه من المحتمل أن يكون سلام سمع من بعض العامة فى بلاد الخزر حديث السمكة فعلمت بذهنه ونسبها الى مشاهداته الخاصة . ص ١٨ .

٣٦ - على محسن مال الله ، أدب الرحلات عند العرب فى المشرق (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨م) ، ص ٣١ .

٣٧ - مال الله ، ص ٣٥ ، وقد أخطأ السيد مال الله فى تقديره لمدة الرحلة من سرمن رأى والعودة اليها حيث قال : انها ثمانية عشر شهرا ، ناقلا ذلك من ابن خرداذبه ويبدو أنه لم يكن دقيقا فيما نقله ، انظر : ابن خرداذبه ، ص ١٧٠ .

٣٨ - أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون (جدة : دار البيان العربى ، د : ت) ، صص ٣٩ - ٤٠ ، فى الحقيقة ان الدكتور أحمد رمضان فى حديثه الوجيز عن رحلة سلام كان يردد ما جاء عند حسين فوزى وزكى حسن خاصة ما جاء عن أسطورة الجارية والسمكة وله رأى فى ذلك حيث قال : « على أننا نرى

غير ما ذهب اليه الأستاذان حسين فوزى وكذا الدكتور زكى ،
من أن القصة خرافية [الجارية والسمة] بل هى حقيقة ،
فهناك أسماك تسمى عروس البحر تشبه الى حد كبير الأنثى
الآدمية وهى معروفة فى المتاحف ... « ص ٤٠ (!) .

٣٩ - حسين محمد فهميم ، أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة
(الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٩ هـ)
صص : ٩٠ - ٩١ .

٤٠ - انظر : كراتشكوفسكى ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ .

المصادر والمراجع

- الأبشيهي ، شهاب الدين بن محمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع (بيروت : دار القلم ، ١٩٨١ م) .
- أحمد ، رمضان أحمد الرحلة والرحالة المسلمون (جدة : دارالبيان العربي ، د : ت) .
- الادريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الطبعة الأولى (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩ هـ) .
- بالنيثا ، أنخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، الطبعة الأولى (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ م) .
- البخاري ، محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، الطبعة الرابعة (دمشق وبيروت : دار ابن كثير واليامة ، ١٤١٠ هـ) .
- الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين ، الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٣٨٩ هـ) .
- الثعلبي ، أبو اسحاق أحمد بن محمد النيسابوري ، قصص الأنبياء المسمى عزائس المجالس ، الطبعة الرابعة (بيروت : بيروت : دار الرائد العربي ، د : ت) .
- حسن ، زكي محمد ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى (بيروت : دار الرائد العربي ، ١٤٠١ هـ) .
- حميدة ، عبد الرحمن ، أعلام الجغرافيين العرب ، الطبعة الثانية (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٠ هـ) .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٥ م) .
- الحموي ، ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ، ١٣٧٦ هـ) .
- ابن حنبل ، أحمد ، المسند (القاهرة : مؤسسة قرطبة ، د : ت) .

- ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله ، المسالك والممالك
ويليه نبذ من كتاب الخراج لأبى جعفر قدامة بن جعفر البغدادي ،
نسخة مصورة عن طبعة ليدن ١٨٨٩م (بيروت : دار صادر، د:ت) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، (القاهرة : دار الشعب ،
د : ت) .
- الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، حياة الحيوان الكبرى ،
ويليه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد بن
محمود القزوينى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الحلبي ،
١٣٩٨هـ) .
- الرازى ، محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين ، التفسير الكبير ،
الطبعة الأولى (القاهرة ، د : ت) .
- ابن رسته ، أبو على أحمد بن عمر ، الأعلام النفيسة ، ويليه كتاب
البلدان لليعقوبى ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن ، ١٨٩٣م
(بيروت : دار صادر ، د : ت) .
- السمعاني ، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ، الأنساب ،
تحقيق عبدالله عمر البارودى ، الطبعة الأولى (بيروت : دار
الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ)
- الطبرى ، محمد بن جرير جامع البيان عن تأويل آى القرآن ،
الطبعة الثانية (القاهرة : مطبعة انطلي ، ١٣٧٣هـ) .
- تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة
(القاهرة : دار المعارف ، د : ت) .
- الغرناطى ، أبو حامد الأندلسى الغرناطى ، محمد بن عبد الرحيم،
تحفة الألباب ، نشرة غابريال فيران (باريس ، ١٩٢٥م) .
- ابن الفقيه ، أبو بكر ، أحمد بن محمد الهمذانى ، مختصر كتاب
البلدان (ليدن : ١٣٠٢هـ) .
- فوزى ، حسين ، حديث السندباد القديم (بيروت : دار الكتاب
اللبنانى ودار الكتاب المصرى ، ١٩٧٧م) .
- فهيم ، حسين محمد ، أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة
(الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ١٤٠٩هـ) .
(مجلة المؤرخ العربى)

- القرطبي ، محمد بن أحمد الأنصارى ، الجامع لأحكام القرآن
(القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٠ هـ) .
- القزوينى ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد
(بيروت : دار بيروت ، ١٤٠٤ هـ) .
- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، بذيل حياة الحيوان
الكبرى للدميرى ، الطبعة الخامسة (القاهرة : مطبعة الباب
الحلبى ، ١٣٩٨ هـ) .
- كراتشكوفسكى ، أغناطيوس يوليانوفيتش ، تاريخ الأدب الجغرافى
العربى ، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم ، الطبعة
الثانية (بيروت : دار الغرب الاسلامى ، ١٤٠٨ هـ) .
- ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية ،
تحقيق أحمد أبو ملح و زملاؤه (بيروت : دار الكتب العلمية ،
د : ت) .
- ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزوينى ، سنن ابن ماجه ، تحقيق
محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت : المكتبة العلمية ، د : ت) .
- مال الله ، على محسن ، أدب الرحلات عند العرب فى المشرق
(بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٨ م) .
- مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيرى ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد
فؤاد عبد الباقي (بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤٠٣ هـ) .
- المقدسى ، أبو عبدالله محمد بن أحمد البشارى ، أحسن التقاسيم
فى معرفة الأقاليم ، تحقيق د . محمد مخزوم (بيروت : دار احياء
التراث العربى ، ١٤٠٨ هـ) .
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق النديم الوراق ، الفهرست ، تحقيق
رضا تجدد ، الطبعة الثالثة (د : د ، دار المسيرة ، ١٩٨٨ م) .
- النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الواحد ، نهاية الأرب فى
فنون الأدب (القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٢ هـ) .

« الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق افريقية في العصور الوسطى »

د. غيثان بن على بن جريس(*)

اثبتت الكشوف والبحوث التاريخية والأثرية وجود صلات قديمة ومستمرة ذات صبغة اقتصادية أو دينية بين شعوب شرق افريقية والعالم الخارجى ، وذلك منذ أقدم العصور التاريخية . ومن بين البلاد التى كانت لها صلات بشعوب الساحل الشرقى لافريقية نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الصين والهند ومصر القديمة وبلاد الرافدين . على أن العرب كانوا أهم تلك الشعوب التى اتصلت ببلاد الساحل الافريقى منذ القدم ، وساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى ، ونظام الرياح الموسمية الذى ساعد الملاحة فى بحر العرب وتوجيه السفن بحذاء الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية فى اتجاه الشاطئ الشرقى لافريقية (١) ومن الثابت أن العرب تقدموا فى فنون الملاحة منذ القدم على أيام دول معين وسبأ وحمير . وكان للمعنيين بصفة خاصة نشاط بحرى واسع امتد الى بلاد بعيدة فى الشمال ، والخليج العربى فى الشرق ، وسواحل شرق افريقية .

وبعد معين تتابعت الدول فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية، فحملت دولة سبأ ثم دولة حمير لواء النشاط البحرى التجارى ؛ ونهضت هاتان الدولتان بدور كبير فى الوساطة التجارية بين شواطئ شرق افريقية من جهة والعالم الخارجى من جهة أخرى (٢) وتشير المصادر الى أنه فى العصر الحميرى الأول (١١٥ ق م - ٣٠٠ م) ، نزحت جماعات من اليمن وحضرموت الى الساحل الافريقى ، ووضعوا أساس الحضارة التى لم تلبث أن ازدهرت فى بلاد الحبشة ، وظلت

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ورئيس قسم التاريخ - كلية التربية -

أبها - جامعة الملك سعود .

تغذيها هجرات عربية متعددة . ويرجع تأسيس دولة اكسوم الحبشية فى القرن الأول للميلاد الى هذه الجماعات العربية المهاجرة ، حتى غدت اكسوم نواة الدولة الحبشية فيما بعد . ولم يقتصر نفوذ العرب الجنوبيين على الحبشة ، بل توغلوا الى جنوب وادى النيل الأوسط (٣) .

وبخصوص علاقة بلاد العرب ببلاد شرق افريقية قبل الاسلام ، يمكن أن نجل القول بأن هذه العلاقة اتخذت محورين ، الأول هو علاقة العرب ببلاد الحبشة ، والثانى ، هو اتصال العرب بشعوب أرض الزنج المطلة على المحيط الهندى (٤) أو بحر الهند .

أما عن اتصال العرب ببلاد الحبشة قبل الاسلام ، فتدل المعلومات التى أوردها الكتاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (اثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من افريقية غربا الى آسيا ، وهى المنطقة التى تسكنها عناصر من ذوى البشرة المحترقة أو السمراء أو الزيتونية اللون . أما كلمة الحبشة ، ومنها الأحباش ، وهو اللفظ الذى صار فى اللغات الأجنبية (Abyssinia) فيرجع أصلها الى قبيلة عربية هى «حبشت» السامية التى عبرت البحر الأحمر ، مهاجرة من جنوب بلاد العرب ، واستقرت فى افريقية (٥) . ويرجح أن ذلك تم فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد . والغالب أن الموطن الأصيل لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن قد حققت قدرا كبيرا من التقدم والعمران فى ظل ملوك سبأ ، فإن هذه القبيلة لاشك كانت أرفع حضارة واسمى مدنية من أهل البلاد الأصليين على الساحل الافريقى ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت أن حققت لنفسها السيادة فى موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التى تميزت بها . غير أن أهل البلاد الأصليين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا الى سيادة هؤلاء الأعراب . ومع ذلك لم يكد يستهل القرن الرابع للميلاد حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التى استوطنتها ، وعلى أهل البلاد أنفسهم ، فغدا الجميع احباشا ، وأصبحت كلمة الحبشة مترادف اثيوبيا (٦) . أما الحدود القديمة لهذه المنطقة فكانت تمتد من النيل

غربا الى بحر القلزم شرقا ، ومن النوبة شمالا الى ما وراء خط الاستواء جنوبا . وبمعنى آخر فإن الحبشة أو اثيوبيا شملت فى ذلك الدور ما هو معروف حاليا باسم بلاد السودان والحبشة وارتيريا والصومال (٧) .

أما المحور الثانى فيدور حول علاقة العرب بالزنج . ومن المرجح أن بلاد الزنج كانت فى المصطلح العربى تشمل المنطقة الممتدة من رأس جورداقوى فى شمال الصومال الى رأس دلجادو فى موزمبيق أو سوفالا فى روديسيا . وبعبارة أدق فإن هذه المنطقة تحتل مساحة كبيرة فى شرق افريقية ، وتمتد بين خطى عرض ٥ شمالا و ١٠ جنوبا . وكان العرب من أهم الأمم التى اتصلت بالزنج منذ القدم وابقاهم أثرا فى تلك البقعة ، وذلك فى الفترة السابقة على ظهور الاسلام بقرون . ويبدو أن العامل الاقتصادى والسعى وراء الحاصلات والثروات الموسمية لنقلها الى العالم الخارجى - كما سبق القول - كان من أهم العوامل التى شجعت العرب على ارتياد تلك البلاد . فلما ظهر الاسلام نشطت الدعوة الاسلامية فى بلاد شرق افريقية ، وتعاقبت بعد ذلك الهجرات العربية والاسلامية التى كان لها الفضل الكبير فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى تلك البلاد . وهكذا تعددت دوافع الهجرات العربية الى الحبشة وأرض الزنج ما بين دينية وسياسية ، فضلا عن العامل الاقتصادى الذى كان بارزا فى جميع الأحيان (٨) .

والواقع ان الدعوة للدين الاسلامى نشطت فى اثيوبيا منذ ظهور الاسلام . ويمكن أن يؤرخ لدخول الاسلام فى اثيوبيا بهجرة المسلمين الأولى . واطهار النجاشى ارماع (اصمحه) للاسلام . وبعد ذلك كثر توافد المسلمين لتحقيق مصالح تجارية بعد أن توحدت بلاد العرب ، وأضحى العرب المسلمون يتحكمون فى طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء . ولم يلبث أن أسهم المسلمون بنشاط كبير فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق بحر القلزم . وكان أن عبرت جماعات من تجار العرب الى بلاد الساحل الغربى لبحر القلزم ، بل ان بعضهم اجتاز الحدود الحبشية وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدرج داخل بلاد الحبشة . كذلك استطاع العرب المسلمون بنشاطهم أن يتحكموا

فى ميناء عدوليس Adulis وهو ثغر الحبشة ، مما أدى الى حرمان الحبشة من استخدامهم ، والى قطع صلاتها بالعالم الخارجى الا عن طريق العرب الذين فرضوا حصارا على تجارة الحبشة الخارجية ، حتى انتهى الأمر بالقضاء على تجارة الحبشة الخارجية وتناقص عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة اكسوم (٩) .

وفى الوقت الذى أخذت مملكة اكسوم تسير فى طريق الانحطاط ، كان الاسلام يتقدم بخطى واسعة من الساحل الى الداخل ، فاعتنقته القبائل التى تسكن شواطئ ارتيريا ، ثم انتشر بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجرى ، كما انتشر فى جزء من قبيلة البلين وفى معظم قبائل البحر كالبني عامر والهندودة . كذلك انتشر الاسلام بين كل القبائل المتفرقة المسماة «الجبرته» فى ارتيريا ، وفى قبيلة الدناقل (الدناكل) فى اثيوبيا والصومال . وتكونت على اثر ذلك مراكز استقرار عربية اسلامية على طول الساحل الشرقى لأفريقية، امتدت من سواكن على الساحل الغربى لبحر القلزم الى مقديشو ومركه وبراو (فى الصومال) ، وممبسة ومالندى (فى كينيا حاليا) ، وزنجبار وكلوه (تنزانيا حاليا) على المحيط الهندى (١٠) .

أما فى داخل اثيوبيا فقد امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، وأخذ الاسلام ينتشر تدريجيا ، فاعتنقته عناصر الساهو والعفر فى شرق بلاد الحبشة ، كما امتد الى مناطق السيدامو وشوا الشرقية فى جنوب الحبشة (١١) . ولقد ساعد فى سيطرة العرب المسلمين على تلك الجهات ، أنهم تمكنوا من احتلال المناطق الاستراتيجية فى بحر القلزم وبحر العرب ، ومن أهم تلك المناطق مجموعة جزر الدهلك التى استولى عليها المسلمون زمن الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ٥٦ - ٩٩ هـ (٧١٥ - ٧١٨ م) ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحررات وكيارى ودركه ونوره ونقره وكمران ، والأخيرة كبرى جزر هذه المجموعة (١٢) . كذلك تمكن العرب من احتلال جزر مافيا وبمبا وزنجبار فى المحيط الهندى (١٣) . ومن المناطق الهامة التى استقر فيها

العرب ، ونشروا فيها الاسلام ، منطقة البجة على الساحل الغربى لبحر القلزم . ومن البجة الذين اعتنقوا الاسلام وتحمسوا له قبيلة بنى عامر وقبيلة الهدندوة والبشاريين والأمرار . وقد كثر المسلمون فى بلادهم بسبب غنى منطقة البجة بمعادن الذهب والزمرد والفضه والنحاس والرصاص والحديد . وامتزج العرب بالبجاويين وصاهروهم ، وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجة فى الاسلام . وهكذا تزايد عدد المسلمين المهاجرين والمقيمين فى منطقة المعادن بالبجة . وأشهر القبائل العربية التى استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان ، الا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر ، حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين (١٤) .

وفى داخل الحبشة ، تأسست مملكة اسلامية ، عرفت باسم شوا ، نسبة الى المنطقة التى سادت فيها وهى شوا الشرقية . وقد أشارت المصادر الى أن تلك المملكة قامت فى نهاية القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) (٢٨٢هـ = ٨٩٦م) بزعامة أسرة عربية تنتسب الى قبيلة مخزوم القرشية ، وهى التى ينسب اليها خالد بن الوليد . ويقال أن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب برئاسة ود بن هشام لتستقر هناك فى منطقة من أخصب مناطقها وهى منطقة شوا (١٥) . كذلك قامت فى الحبشة مشيخات اسلامية أخرى فى مناطق عدال (Adal) ومورا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) . غير أن هذه الوحدات جميعا لم تعمر طويلا نظرا للخلافات والتنافس فيما بينها ، فضلا عن أن جهودها كانت منصبة على شئون التجارة ، ولا سيما تجارة الرقيق ، لذا سرعان ما طوتها أقوى الامارات الاسلامية فى الوطن الحبشى وهى امارات أوفات (١٦) .

وتقع الفترة البارزة فى التوسع الاسلامى فى اثيوبيا بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (العاشر والثانى عشر الميلاديين) وتمثل هذه الفترة عصر التوسع الهادئ المنظم للاسلام دينا ودولة ، سواء من ناحية نشر العقيدة الاسلامية ، أو دعم سلطان الممالك الاسلامية ، ولو على

حساب بعضها البعض داخل الحبشة . وفى تلك الفترة دخلت منطقة نهر جوبا فى الاسلام حوالى عام ١١٠٨م ، وبذلك امتد نفوذ العرب حتى منطقة البحيرات العظمى (١٧) .

وهكذا امتدت الرقعة الاسلامية داخل الحبشة ، امتدادا واسعا . فأصبحت تحيط بالحبشة من الناحية الشرقية فى افريقية ، وتواجه اليمن فى الجزيرة العربية . لذلك وصف المؤرخون تلك المنطقة باقليم الطراز الاسلامى « لأنها على جانب البحر كالطراز له » (١٨) . واشتهرت فى منطقة الطراز الاسلامى سبع ممالك هى : أوفات ، دوارو ، أرابينى ، هديه ، شرخا ، بالى ، وداره (١٩) . وارتبطت هذه الممالك الاسلامية بالعالم الاسلامى الخارجى ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم والاتصال بالفقهاء فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية . وتعتبر سلطنة أوفات أقوى سلطنة اسلامية قامت فى اثيوبيا بسبب تحكمها فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع ، وقد أسسها قوم من قریش من بنى عبد الدار أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب . وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة المسيحية (٢٠) . ويمكن القول أن الرقعة الاسلامية فى الحبشة فاقت فى مساحتها أراضى مملكة الحبشة المسيحية ، الأمر الذى أدى الى عزل مملكة الحبشة عزلا تاما عن العالم الخارجى ، ولا سيما بعد استيلاء العرب على ميناء عدل قرب مصوع (فى ارتيريا حاليا) ، وهو مخرج اثيوبيا الوحيد الى بحر القلزم أو البحر الأحمر ، مما أدى الى تدهور أحوال الحبشة (٢١) ، كما سبق أن أوضحنا .

أما عن أهم العوامل التى أدت الى انتشار الاسلام فى اثيوبيا ، فالمعروف أن اثيوبيا تواجه جزيرة العرب ولا يفصل بينهما الا البحر الأحمر . والملاحة فى البحر الأحمر سهلة طول العام ، فلا تهب به زوابع وأعاصير الا بضعة أيام فى السنة ولا تستمر هذه الرياح طويلا . يضاف الى ذلك ظروف الحياة القاسية فى جزيرة العرب ، فهى بلد صحراوى اعتمد أهلها على الرعى ونقل التجارة ، بينما كانت الحياة

على الساحل الغربى انعم وأهدأ لخصب الأرض وكثرة المطر واشتغال عدد كبير من السكان بالزراعة (٢٢) . وكانت اثيوبيا منذ القدم المهجر الطبيعى لسكان الجزيرة العربية . يضاف الى هذه العوامل عامل آخر وهو كثرة الحروب فى الجزيرة العربية مما دفع بالمغلوبين الى الهجرة حيث الامان والحرية . وكانت اثيوبيا أحد الأسواق الهامة التى يقصدها العرب لحمل التجارة منها واليها ، فأزدحم البحر الأحمر بالسفن التى تنقل تجارة اثيوبيا الى المراكز العربية التجارية ، وكانت اليمن أهمها ، ومنها تنقل التجارة عبر الجزيرة العربية الى الشام والعراق وفارس والهند . وبفضل هجرة المسلمين الى الحبشة زمن الرسول (ﷺ) ، استمرت العلاقات التجارية قائمة ومستمرة بين اثيوبيا وجزيرة العرب ، اذ حمل المهاجرون والتجار الجدد اسلامهم معهم ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر فى اثيوبيا ويتغلغل صحبة هؤلاء التجار . ثم تقدمت الحضارة وازدهرت فى الدولة الاسلامية تحت حكم الأمويين فالعباسيين ، فنشطت الحركة التجارية ، ونشطت المراكز التجارية وازدحمت بالعرب النازلين فيها ، والذين توغلوا فى الداخل فى طلب الحاصلات الافريقية ، فازداد عدد العرب المسلمين . وثمة عامل هام أدى الى انتشار الاسلام فى اثيوبيا ، وظهور الامارات الاسلامية فيها ، هو أن الأحداث المتتالية التى تعرضت لها الدولة ، سواء أكانت أحداثا سياسية أو اقتصادية دعت كثيرين الى الهجرة . وأول تلك الأحداث التى تعرضت لها الدولة الاسلامية فى فجر تاريخها هى حركة الردة . وكان اليمنيون والحضارمة أول هؤلاء المهاجرين الى اثيوبيا نتيجة لحروب الردة وقد حمل هؤلاء اسلامهم معهم ولم يرتدوا عنه . وفى أيام الأمويين هاجرت جماعات عربية كبيرة الى ساحل شرق افريقية ، أهمها جماعة الزيدية - التى سيرد تفصيلها - الأمر الذى جعل الأمويين يستولون على جزر الدهلك لمراقبة الجماعات العربية التى قصدت اثيوبيا وغيرها فرارا من بطش بنى أمية (٢٣) . ولما حل العباسيون محل الأمويين فى الخلافة والحكم ، هاجر الأخيرون واتباعهم الى مناطق مختلفة ، بعضهم الى شرق افريقية ، فاستقرت جماعات منهم فى بلاد النوبة ، وواصل بعضهم السير الى أعالي النيل ، وذهب آخرون الى مصوع ، واستقر اخوان لهم فى اثيوبيا والصومال (٢٤) . وأدت الفتن التى انتشرت خلال حكم العباسيين

كالصراع بين الأمين والمأمون والنزاع بين الشيعة والعباسيين من جهة ، والعباسيين والخوارج من جهة أخرى ، إلى هجرة بعض القبائل العربية إلى اثيوبيا حيث الأمن والاستقرار بالإضافة إلى الخصب ووفرة الموارد . وقد نمت العلاقات بين مسلمي الحبشة والعواصم الإسلامية الكبرى في ذلك الوقت . وأخذ مسلمو الحبشة يبعثون أبناءهم إلى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة وغيرها لطلب العلم على أيدي كبار الفقهاء المعاصرين . وساعد على انتشار الإسلام في اثيوبيا في بعض المناطق عدة عوامل ، منها انسحاب الاثيوبيين المسيحيين إلى الداخل وتخليهم عن بعض المناطق الساحلية الصحراوية الجافة الحارة لاحتلالها المسلمون . وهكذا انتشر الإسلام عن رضى وعقيدة واقتناع ، ولمس كثيرون في الإسلام المساواة والحرية ، فضلا عن أن الإسلام شكل لهم خلاصا من الرق ودرعا يحميهم من الوقوع في أيدي تجار الرقيق . ويفسر ذلك وقوف كثيرين من أهالي البلاد بجانب العرب دعاء للدعوة الإسلامية وحملة للواء الثقافة الإسلامية (٢٥) .

أما الجزء المعروف بأرتيريا والصومال فالراجح أنه عرف الإسلام في حياة الرسول (ﷺ) إذ أشارت بعض الروايات إلى أن جعفر بن أبي طالب حينما خرج مهاجرا أسس في طريقه مراكز للدعوة في أرتيريا والصومال ، بمساعدة القبائل العربية المستوطنة هناك . ولم يلبث أن صار الصوماليون من أكبر المتحمسين لنشر الدعوة الإسلامية بل إن الصومال غدا بلدا إسلاميا منذ فجر الإسلام ، وبداية انتشاره (٢٦) ومنذ ذلك الحين ، ومع ازدياد قوة العرب المسلمين وتفوقهم البحري ، وسيطرتهم على الملاحة في بحري العرب والهند ، توافدت على ساحل الزنج الأفريقي مجموعات ضخمة من دعاة المسلمين العرب ، فأنشأوا المراكز العربية للتجارة ونشر الدعوة ، ومن أهم هذه المراكز مقديشو وممبسة وبرأوة ومركه ومالندى وكلوه وزنجبار . وكانت الهجرات العربية التي حدثت أيام الفتنة الكبرى وفي أعقاب مقتل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان وخلافة علي بن أبي طالب من أهم الهجرات العربية التي استقرت على ساحل شرق أفريقية . والراجح أن المهاجرين في تلك المرحلة كان معظمهم من الخوارج الذين هزمهم علي بن أبي طالب في موقعة

النهروان . وفى أيام دولة بنى أمية هاجرت جماعات عربية من بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية ، وأسسوا لهم دولة صغيرة بالقرب من لامو (فى الصومال) . وكانت تلك الهجرة فى خلافة عبد الملك بن مروان . وهكذا يبدو ان معظم الهجرات العربية الى افريقية فى تلك المرحلة جاءت نتيجة للاضطرابات التى سادت البلاد الاسلامية وخاصة بسبب خروج عبد الله بن الزبير، وحركة الخوارج، وحركة عبدالرحمن بن الأشعث الملقب بأسد الفرات . وقد أرسل عبد الملك بن مروان فى أعقاب تلك الهجرات الى شرق افريقية فرقة عربية يقودها أخوه حمزة . وقد نجحت تلك الفرقة فى تأسيس مدن تطورت وأصبحت امارات عربية هامة مثل بيت ومالندى وممبسة وزنجبار ، وقامت بدور كبير فى نشر الاسلام بين القبائل الافريقية التى كان من أهمها البانتو والزولو والبوشمن (٢٧) .

كذلك نسمع فى زمن عبد الملك بن مروان (٦٦٥ - ٦٨٥ هـ) عن هجرة سليمان وسعيد الجلندى ، وهما شيخان عربيان من عمان من العبادية من قبيلة الأزد وهما من شيوخ العرب الذين ثاروا فى وجه الخليفة عبد الملك . وقد وصل هؤلاء المهاجرون الى أرخبيل لامو (على ساحل الصومالى) الذى يتمتع بخصائص هامة، منها خصوبة الأرض ، وصلاحية مينائه العظيم للرسو والاقلاع ، بجانب الوفرة فى منتجات تلك البلاد المتمثلة فى العاج والذهب والصوف والجلد والتوابل والأخشاب ، بالإضافة الى عنصر الرقيق (٢٨) . ولم تلبث أن أصبحت منطقة أرخبيل لامو من أهم مناطق الدعوة الاسلامية على طول الساحل الافريقى ، ومن ثم الى الداخل فى كينيا وأوغنده وتنجانيقا (٢٩) .

ومن الهجرات العربية الهامة التى ساعدت على نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى أرض الزنج الاسلامية على الساحل الافريقى الشرقى ، هجرة العرب الزيدية التى حدثت فى أواخر أيام الدولة الأموية ، زمن هشام بن عبد الملك بن مروان . وهؤلاء الزيدية هم أتباع زيد بن علي زين العابدين الذى تصدت له جيوش الأمويين زمن خلافة هشام بن عبد الملك

١٠٥ - ١٢٥ هـ (٧٢٤ - ٧٤٣ م) ، حتى انتهى الأمر بمقتله عام (١٢٢ هـ) ، وفرار أتباعه الى جهات كثيرة من أهمها ساحل شرق افريقية . وبوصول هذه الجماعة الى مقديشو ، تمكنوا من بسط نفوذهم على منطقة بنادر تم كونوا لهم دولة عاشت على الساحل اكثر من مائتى سنة . وكانت لهم جهود كبيرة فى نشر الاسلام وزراعة الاراضى بعد أن استفادوا فائدة كبيرة من مياه نهري جوبا وشبيلي . على أن الظروف اضطرتهم بعد ذلك الى الانسحاب من الساحل الى الداخل بسبب مجيء هجرة عربية أخرى ، - هى هجرة الاخوة السبعة - من ساحل الاحساء ، فرارا من أعمال القرامطة الوحشية فى الجزيرة العربية ، فجاء الاخوة السبعة الى ساحل افريقية الشرقى - وهم شافعية المذهب - فاصطدموا عام ٩١٣ م بجماعة الزيدية الشيعية الذين حلت بهم الهزيمة وانسحبوا الى الداخل الافريقى ، حيث رحبت بهم جماعات افريقية فى داخل الصومال وكينيا ، هى جماعات قبائل الجالا التى اعتنقت الاسلام على أيديهم (٣٠) .

وقد حدثت هجرة الاخوة السبعة فى خلال العصر العباسى الثانى ، وهى من الهجرات العربية الهامة الى ساحل شرق افريقية . وكانت بداية حركتهم فى مستهل القرن التاسع فى حوالى عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) من الاحساء عاصمة دولة القرامطة ، الذين نشروا الرعب فى انحاء الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق . وتمكن الاخوة السبعة فى فترة وجيزة من الاستيلاء على معظم أجزاء الساحل ، وعلى الأخص ساحل بنادر الذى يشمل معظم بلاد الصومال المطلة على بحر الهند . وامتد نفوذ هذه الجماعة العربية الى جنوبى ممبسة ، كما وصلوا الى جزيرة مدغشقر . ولم تمض فترة قصيرة حتى أصبح ساحل الصومال شافعيًا على المذهب السنى (٣١) . وهكذا تمكن الاخوة السبعة من تكوين دولة قوية عاصمتها مقديشو استمرت من عام ٩١٣ - الى عام ٩٧٥ م ، عندما وصلت جماعة اسلامية أخرى قضت على تلك الدولة . وكانت الجماعة الجديدة فارسية ، كونت لها دولة استمرت منذ ذلك التاريخ حتى ظهور البرتغاليين على الساحل الافريقى فى عام ١٤٩٧ م (٣٢) .

ومن خلال هذا العرض السريع لموجات الهجرات العربية المتلاحقة في اثيوبيا وارض الزنج يمكن أن نقول أن الاسلام واللغة العربية ، قد حققا نجاحا كبيرا في تلك البلاد ، الأمر الذي أدى الى تقدمها وتطورها تحت مظلة الاسلام . هذا الى أن الاسلام أدى الى تهذيب عادات السكان وطور أحوالهم . وظلت المدن والمراكز والامارات التي أسسها المسلمون في شرفى افريقية طوال قرون عديدة مراكز نشاط ومدنية . وقواعد لنشر الثقافة الاسلامية بين القبائل الافريقية على الساحل وفي داخلية البلاد . وقد تطورت هذه المدن والمراكز الاسلامية بفضل نشاط العلماء والفقهاء الذين وفدوا اليها من مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس وغيرها من مراكز الحضارة الاسلامية . وأدى هذا كله الى تجاوز شهرة بعض هذه المدن الاسلامية الزاهرة حدود الساحل الافريقى أمثال : زيلع ومقديشو وبراوه ومركه ولامو وممبسه ومالندى وكلوه وسوفالا . يضاف الى ذلك جزر زنجبار وبمبا ومافيا، التي ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية ، وغلبت عليها الصبغة العربية طوال فترة العصور الوسطى . ذلك أن العرب في تلك البلاد أسهموا بالآداب في اشاعة جو حضارى ظهرت آثاره في بقية المجتمعات التي تعيش على هذا الساحل الافريقى فضلا عن داخلية البلاد . وقد ظلت الحضارة الاسلامية قائمة حتى ولى نفوذ العرب السياسى بمجىء البرتغاليين الى الساحل الافريقى فى ختام القرن الخامس عشر للميلاد (٣٣) .

ولابد من القول أن أعلام المسلمين في اثيوبيا وبلاد ساحل الزنج، فكروا بالعقلية العربية الاسلامية ، وكتبوا باللغة العربية ، وهم فى انتاجهم ونشاطهم انما يعبرون عن حضارة عربية واسلامية . ولا غرابة فى ذلك وهم الذين نبتوا فى ظل الاسلام وتعاليمه (٣٤) .

وقد قامت المدن التي أسسها العرب المهاجرون على الساحل الافريقى بجهود مضيئة فى نشر الاسلام بين قبائل الدناقل والجالا والبانتو الوثنية . ووجدت اللغة العربية فى تلك البلاد تربة خصبة للانتشار ، وظلت كذلك حتى عصر الاستعمار البرتغالى . وعندما وصل فاسكو داجاما الى الساحل الافريقى الشرقى عام ١٤٩٧م ، وجد معظم أهل هذه

البلاد يتكلم اللغة العربية ، كما وجد القرآن الكريم شريعتهم . وراى البريعاليون والاوربيون عددا كبيرا من المدارس التى تلقى القرآن الحريم واللغة العربية فى مديشو وممبسه وحلوه وريلى . كذلك وجد البريعاليون ومن اعقبهم من المستعمرين الاوريين ، جماعات من القبائل الافريقية تلقى اللغة العربية ، ونعى بانتشاء المكاتب والمدارس الخاصة لتعليم القرآن الحريم ولعه . ورعم الجهود التى بذلها الاوروبيون للقضاء على اللغة العربية فى تلك الجهات ، وتحويل انظار الافريقيين عن محه المحرمة والمدينه المنوره ودمشق والقاهره وبغداد وغيرها من عواصم العالم الاسلامى الخبرى ، فانهم قتلوا فشلا ذريعا ، اد كان المسلمون والمستعربون من الافريقيين يعمدون الى انتشاء مدارسهم ومؤسستهم الثقافية فى المناطق الوثنية النائية وبخاصة فى زنجبار وكينيا وسرانيا . ولا تزال الى اليوم الاف الكلمات العربية تستعمل فى بلاد شرق افريقية فى شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، وفى الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية ، حتى اسماء بعض النباتات والمدن والحيوان والاعلام (٣٥) .

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم الاسلامية فى شرق افريقي بعهود الامارات الافريقية الاسلامية ، فقد غدت اللغة العربية ، اللغة الرسمية السائدة ، التى استخدمت فى شتى الأغراض ، كما استخدمت فى مجال الحكم والادارة والقضاء . ويكفى أنها غدت لغة المكاتبات الرسمية المتبادلة مع العالم الاسلامى الخارجى . ووجدت فى ديوان الانشاء بمصر زمن سلاطين المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة حكام تلك البلاد ، لابد من تصدير المكاتبات بها . كذلك كانت اللغة العربية هى السائدة فى تسجيل شواهد القبور ، وقد عثر على عدد كبير منها فى المقابر فى مديشو ولامو وبراوة (٣٦) . وهكذا غدا القلم العربى هو القلم المعروف فى بلاد الساحل الافريقى دون غيره وذلك قبل ظهور الاستعمار . كما صار الدين الاسلامى أساس التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية (٣٧) .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن الازدهار والرخاء التجارى كانا من العوامل الأساسية التى ساعدت على قيام نهضة علمية وثقافية اسلامية

شامخة . وكان أن كثرت الخلاوى وانتشرت على طول الساحل ، وعقدت فيها حلقات الدرس . هذا ولم تقتصر العلوم الدينية على الرجال ، وانما امتدت لتشمل النساء أيضا ، فقد نلن حظهن من تعلم القرآن الكريم والعلوم الدينية واللغة العربية (٣٨) .

وبعد ، فإنه يتضح من هذا العرض السريع ، أن دور العرب كان بارزا فى كافة أوجه الحياة العامة فى بلاد شرق افريقية حتى أصبحت هذه البلاد اسلامية خالصة .



الهوامش

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر ، جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة . (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ .

R.Reusch. *History of East Africa*(New York 1961)PP.11ff. .
R.Coupland. *East Africa and its Invaders*, (Oxford 1938) P.P. 15-18.

(٢) أرض الزنج ممتدة من رأس جورداقوى شمالا جنوبى باب المنذب بقليل ، على مقربة من الصومال الشمالى التى عرفها المؤرخون والجغرافيون فى العصور الوسطى باسم بلاد بونت Paunt ، وتمتد أرض الزنج هذه الى بلاد سوفالا فى موزمبيق أو روديسيا وبونت Paunt أو بونت Punt ، مشتقة من أصول سامية تعنى أرض الجنوب الأقصى ، ويعتقد أن سكان بونت كانوا ينتشرون حتى رأس حافون بالقرب من سوفالا فى أقصى جنوب شرق أفريقية (روديسيا حاليا) . وقد أشار المسعودى الى هذه المنطقة ببلاد جفونى . انظر أبو الحسن على بن الحسين المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر . (القاهرة ، ١٢٨٤هـ / ١٩١٤م) ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ حمدى السيد - الصومال (القاهرة ، ١٩٥٠م) ص ٣٦ ، Reusch, Ibid, pp.11 ff.

(٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى . معجم البلدان (بيروت ، ١٢٢٤هـ / ١٩٠٦م) ج ٢ ، ص ٢٤٢ وما بعدها ؛ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب . (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٤ ، أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ١٢٥ - ١٢٦ ، جواد على . الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام (بغداد ، ١٩٧٧م) ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٦ ؛ غيثان على جريس . « تطور العلاقات السياسية والتجارية بين الحبشة وبلاد النوبة وبين الحجاز فى صدر الاسلام » مجلة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية (العدد الثامن ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ص ٤١٢ وما بعدها .

(٤) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية . (القاهرة ، ١٩٦٣م) ص ٢٦ - ٢٧ .

C.N.Stigand. *The Land of Zing* (London, 1913) pp.29 ff. See also, Coupland, Op. Cit., pp.18 ff & Reusch pp.11-12, 13-14; A. Alwi Haji Hassan. "The Arabian Commercial Background in Pre Islamic time" *Islamic Culture* Vol. LXI-No-2 (1987) pp.78 ff.

(٥) ورد في بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان ابن حام بن نوح . انظر معلومات أكثر في ، جلال الدين السيوطي : أزهار العروس في أخبار الحبوش . مخطوط ، ومصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٣٧) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) : عبد الرحمن بن الجوزي ، تنوير الغيش في فضل السودان والحبش . مخطوط مصور عن نسخة بالاسكوريال ، ميكروفيلم رقم (٢٩) تاريخ (دار الكتب بالقاهرة) : الشاطر بوصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ السودان ووادي النيل (القاهرة ، ١٩٥٧م) ص ٧ ، الجفنى القناني : الجواهر الحصان في تاريخ الحبشان (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة) ، عبد الحميد العبادي : « أحابيش قريش هل كانوا عربا أو حبشا » مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٣٣م) ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ : غيثان على جريس . بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية . تقديم ومراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور (الاسكندرية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ج ١ ، ص ١١ وما بعدها .

Patricia Crone. Meccan Trade and the Rise of Islam (Oxford, 1987) pp. 124 ff.

(٦) السعودى ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨١ ، الشاطر بوصيلي ، المرجع السابق ، ص ٧ وما بعدها ، يوسف فضل حسن : دراسات في تاريخ السودان (جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م) ج ١ ، ص ٢ وما بعدها ، السر أحمد العراقي . « الاسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال » ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة الإسلامية . الخرطوم ٢٨/٢٠ يوليو / تموز (١٩٨٣م) (بغداد ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) ص ١٦٤ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ - ١٦٩ ،

Sir E.A.W. Budge: A History of Ethiopia & Abyssinia. Vol.1, pp. 120.

(٧) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا (١٩٠٢) بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربى وحدودها الشمالية الشرقية ارتيريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية .

See, Budge, Op.Cit, pp.122 ff; J.S.

Trimingham. Islam in Ethiopia (London, 1962) pp.6-7.

(٨) حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٦ ، جورج حوراني ، المرجع السابق ، ص ٣١ وما بعدها ، مصطفى محمد مسعد . الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٦٠م) ص ٥ وما بعدها ، السر أحمد العراقي « أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى » مجلة كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية (العدد (٢) ، (مجلة المؤرخ العربى)

١٤٠٥هـ/١٩٨٤م) ص ١٥٩ وما بعدها غيثان على جريس : العرب فى مقديشو
وآثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الاسلام ، مجلة المؤرخ العربى
(القاهرة ، ١٩٩٢م) العدد الأول ، ص ١٢٩ وما بعدها .

Stigand, Op.Cit, pp. 29 ff; Reusch, Op.Cit, pp.11ff.

(٩) الشاطر بوصيلى ، المرجع السابق ، ص ٩ وما بعدها ، عبد المجيد عابدين،
المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧ ، مصطفى مسعد ، المرجع السابق ، ص ١٦ وما بعدها
أنظر كذلك :

H.R. Hall.The Ancient History of the Near East (London,1954)
p.246; Encyc., of Islam, Art. "Abyssinia". p.99.

(١٠) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال الى الجنوب وآخرها سوفالا فى أقصى
الجنوب وتقع قرب مصب نهر زيفى جنوبى نهر زمبيرى . وللمزيد من التفاصيل
أنظر : يوسف فضل « انتشار الاسلام فى السودان وادى النيل » ندوة العلماء الأفارقة
ومساهماتهم فى الحضارة الاسلامية (الخرطوم ٢٨/٣٠ يوليو / تموز ١٩٨٣م)
(بغداد ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٢٥ وما بعدها ، السر العراقى . « الاسلام ومركز
الثقافة » ص ١٥٩ ،

Coupland, Op.Cit, pp.22-25.

(١١) أنظر ، السعودى ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥١ - ٥٢ ، السر العراقى
« أرض الزنج الاسلامية ... » ص ١٥٨ وما بعدها ،

Stigand, Op.Cit,pp.30 ff; Trimingham, Op.Cit, pp.51-60.

(١٢) وللمزيد من التفاصيل ، الحفنى القنائى ، المصدر السابق ، ص ٩
وما بعدها ، المقرئى : الانام بمن بارض الحبشة من ملوك الاسلام (القاهرة ، د٠ت)
ص ٢٢ - ٢٣ ، عبد الشافى غنيم عبد القادر « البحر الأحمر طريقا للدعوة الاسلامية،
البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة أبحاث الأسبوع العلمى ١٠ -
١٥ مارس ١٩٧٩م (القاهرة ، ١٩٨٠م) ص ٧٨ وما بعدها .

(١٣) أنظر محمد حبيب : كتاب المنق فى اخبار قريش ، تحقيق خورشيد أحمد
فاروق ، (بيروت ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م) ص ٢١ وما بعدها ، غيثان على جريس «العرب
فى مقديشو ... » ص ١٢٨ وما بعدها

Reusch, Ibid, PP.153ff; J.S. Trimingham. Islam in East Africa
(London, 1964) PP.18-19; Enricu Ceruli. Encyc. of Islam, Art.
"Makadishu". Vol. III, P. 165.

(١٤) للمزيد من التفصيلات أنظر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت ، د٠ ت) ج ٢ ، ص ٥٩٨ وما بعدها ، عبد الرحمن بن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر وأخبارها (لندن ، ١٩٢٠م) ص ١٧٢ - ١٧٤ . ١٨٨ ، أحمد البلائري : فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهرة ، د٠ ت) ٢٨٠ - ٢٨١ ، عبد الرحمن بن خلدون : تاريخ بن خلدون (بيروت ، د٠ ت) ج ٢ ، ص ٨٤ - ٩٠ ، ١١٤ - ١١٥ ، السعدي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، أبو العباس أحمد القلقشندي : صيغ الأعشى في صناعة الإنشاء (القاهرة ، ١٩٠٦م) ج ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(١٥) حمدي السيد ، المرجع السابق ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ ، عبد الرحمن زكي : الاسلام والمسلمون في شرق افريقية (القاهرة ، ١٩٦٥م) ج ١ ، ص ٧٧ ، أنظر كذلك: Trimingham, Islam in Ethiopia pp. 50-51.

(١٦) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٢٤ ، المر أحمد العراقي ، « الاسلام ومراكز الثقافة » ص ١٥٨ وما بعدها ، غيثان علي جريس : بحوث في التاريخ والحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ١١ وما بعدها ، ٢٦٠ وما بعدها . Trimingham, Ibid, PP.62-3.

Trimingham, Ibid, PP. 62-3. (١٧)

(١٨) القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، عبد الرحمن زكي ، المرجع السابق ، ص ٧٧ وما بعدها .

(١٩) أنظر ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار (القاهرة، ١٢٤٢هـ/١٩٢٤م) ج ١ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢٠) أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة . تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار (القاهرة ، ١٢٢٢هـ) ج ٢ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها ، أنظر أيضا .

Budge, Op. Cit, pp. 273-4; Trimingham, Islam in Ethiopia, PP.47-8.

(٢٢) أنظر ، Trimingham, , Islam in Ethiopia, PP. 33-43; Budge, PP.140 190-191.

(٢٣) السعدي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ - ٥٢ ، المقرئزي ، الايام من بارض الحبشة ، ص ٢٢ ، الحفني القناني ، الجواهر الحسان ، ص ١٥ - ١٦ . Trimingham, Islam in Ethiopia, PP.51-60.

(٢٤) الحفنى القنائى ، الجواهر الحصان ، ص ١٥ وما بعدها ، أنظر كذلك ،
المقريزى ، الخطط (طبعة القاهرة ، د٠ ت) ص ١٩٤ - ١٩٥ ، المسعودى ، المصدر
السابق ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٢٥) وللمزيد من التفاصيل أنظر ، توماس آرنولد ، الدعوة الى الاسلام .
ترجمة حسن ابراهيم حسن وعيد المجيد عابدين (القاهرة ، ١٩٤٧م) ص ٢٨٧ ،
عيد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ وما بعدها .

Encyc. of Islam. Art "Makadishu" PP. 165-166.

(٢٦) أنظر ، راشد البراوى : الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة، ١٩٦١م)
ص ١٠ ، ١٠ - ٢٠ ، توماس آرنولد ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ وما بعدها ، أنظر
أيضا ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١ - ٢٦٦ .
غيثان على جريس العرب فى مقديشو ٠٠٠ ، ص ١٢٨ وما بعدها .

(٢٧) المصادر نفسها .

(٢٨) وللمزيد من التوضيحات أنظر :

**Marsh & Kingsnorth :-An Introduction to the History of East
Africa (London, 1966) PP.7-8; M.L. Dames & Hakyut The Book
of Daurte Barbosa (London, 1918) Vol.3 (1) PP.6-10.**

(٢٩) للوقوف على تفاصيل أكثر أبو عثمان الجاحظ : التبصر بالتجارة . تحقيق
حسن حسنى عبد الوهاب (بيروت ، ١٩٦٦م) ص ٢٤ وما بعدها ؛ شمس الدين
المقدسى . احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم (لبنان ، ١٨٧٧م) ، ص ٧٩ وما بعدها ،
أنظر أيضا ، **Reusch, Hist. of East Africa, PP.153 ff.**

(٣٠) قبائل الجالا من أكبر القبائل فى الصومال فى الوقت الحاضر ، أنظر .
حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٢٥٠ ، كذلك أنظر : -
Trimingham, Islam in East Africa, PP. 4-5.

(٣١) سيد أمير على ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

(٣٢) المقصود بتلك الدولة الاسلامية التى استمرت فى الازدهار حتى مجيء
البرتغاليين للساحل عام (١٩٤٧م) هى امبراطورية الزننج الاسلامية التى تعرف فى
المصادر أيضا بأسم سلطنة كلوة الاسلامية التى أسسها الشيرازيون بزعامة على
ابن حسن الشيرازى عام (٩٧٥م) فى كلوة (تنزانيا حاليا) .

(٣٣)

Freeman & Grenville. *The East Africa Coast* (Clarendon-Press, 1962) (PP.36-7).

(٣٤) حسن ابراهيم حسن . انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، ص ٢٢٩ - ٢٤٠ . صلاح العقاد . زنجبار (القاهرة ، ١٩٥٩م) ص ٢١ - ٢٢ ، أنظر أيضا : - Reusch, Op.Cit, PP. 219-220.

(٣٥) توماس آرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٤٩ . كذلك أنظر : -

Duffy James. *Portuguese Africa* (London, 1961), PP.31-34;
M.L.Dames. *The Voyage of Pedro al-Vares Cabral To Brazil and India*. (London, 1938). PP. 78ff; R.Sidney & P.D.J.P. Welch. *Portuguese Rule and Spanish Crown in South Africa 1581-1641*. (Cape Town and Johannesburg, 1950) PP.1681 ff.

(٣٦) حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣٧) حسن ابراهيم حسن . المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ، حمدى السيد ، المرجع نفسه ٢٤٦ .

(٣٨) شهاب الدين عرب فقيه : فتوح الحبشة (تحفة الزمان) ، مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية (رينيه باسيه ، حققه فهم محمد شتلوت (القاهرة ، ١٢٩٤هـ / ١٩٧٤م) ص ٧٥ وما بعدها . حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ الى ٣٥٣ . انظر كذلك ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (القاهرة ، ١٢٥٣هـ) ج ١ ، ص ٢٢٢ ، وأنظر أيضا ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق أحمد نجاتى (القاهرة ، ١٩٥٦م) ج ١ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، شهاب الدين بن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ - ١٨٥ . المقرئى ، الاسام ، ص ٩ . محمد بن على الشوكانى . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، ١٢٨٤ هـ) ج ٢ ، ص ٤٠٢ ، عبد القادر شيخ عبد الله . تاريخ التظيم فى الصومال (مقديشو ، ١٩٧٨م) ص ٢١ - ٢٢ .

بعض أضواء على مدينة الأشمونين فى العصر الفاطمى

د. عبد الحميد حسين حمودة(*)

١ - الموقع الجغرافى :

تقع مدينة الأشمونين على الضفة الغربية لنهر النيل ، بالصعيد الأوسط (١) وهى من الأقسام الادارية القديمة منذ عهد الفراعنة ، وعرفت باسم اونو وقاعدته فمونو الأشمونين». ولها عدة أسماء قديمة ، من جملتها اسمها الدينى Hat Khmoumou ، اذ كانت هذه المدينة المركز الرئيسى لديانة الاله توت المسمى خمنو ، ومن اسم هذا الاله سميت المدينة بالقبطى Chmnon ومنه اشتقت اسمها القديم شمون (٢) أو أشمون .

على أنه يوجد فى بعض البرديات القديمة اسمان لمدينتين قديمتين تحملان اسم أشمون ، أحدهما أشمون الأولى وتقع على النيل ، وقد هجرها أهلها عند قدوم حملة قمبيز الفارسى لغزو مصر والتجأوا الى المدينة الثانية التى اقاموها على مقربة منها ، وقد اطلق البطالمة على

(*) مدرس التاريخ الاسلامى بكلية التربية - الفيوم - جامعة القاهرة .

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ١١٥ .

ينقسم صعيد مصر الى ثلاثة أقسام ، القسم الأول : الصعيد الأسفل ويشمل الا محافظات الجيزة والفيوم وبني سويف ، القسم الثانى الصعيد الأوسط ويشمل محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج ، والقسم الثالث الصعيد الأعلى ويشمل محافظتى قنا وأسوان . محمود محمد الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠م ص ٧ .

(٢) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثالث ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٨م ص ١٧ صلاح أحمد هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ١٠٦ .

المدينة الأولى اسم كليوبتريس ، وكانت ميناء على النيل وتحمل الآن اسم الروضة وتبعد ستة كيلو مترات عن المدينة الأصلية (٣) .

وفي العصر الروماني صارت أشمون قاعدة القسم الخامس عشر بالوجه القبلى ، ثم سمت بالآشومنين بعد الفتح العربى لمصر (٤) .

وفي ذلك العصر الأخير، التحقت بالآشومنين منية ابن الخصيب (٥) انتى تنسب الى الخصيب (٦) بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد (٧) .

وقد أشار الادريسي (٨) الى منية ابن الخصيب بقوله « قرية عامرة لها جنات وأراضى متصلة العمارات وقصب وأعشاب كثير ومنتزهات ، ومبان حسنة ، وهى على الضفة الشرقية من النيل (٩) » وأحتوت

(٢) زبيدة محمد عطا : اقليم المنيا فى العصر البيزنطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م ، ص ٢٤ .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ٥٩ .

(٤) محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، ص ٥٩ .

(٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، الطبعة الثانية ، دار العرب ، القاهرة

١٩٨٨م ، ص ٣٢ .

(٦) أورد لنا ابن بطوطة حكاية غريبة عن خصيب « أن أحد الخلفاء من بنى العباس غضب على أهل مصر فأراد أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنًا قصداً لاذلالهم والتنكيل بهم . وكان خصيب أحرقهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر ، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالاذنية لما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز . فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة » انظر ابن بطوطة : مذهب رحلة ابن بطوطة ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٤م ، ص ٣٧ .

(٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

الوزان : وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، السعودية ، ص ٦١٠ .

(٨) نزهة المشتاق ، الجزء الأول ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٢٤ .

(٩) قرائن الدواوين لابن مماتى ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، منشورات

الجمعية الملكية الزراعية صفحات متفرقة .

الأشمونيين فى العصر الفاطمى على عدة كور ذكرها ابن مماتى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩ - ١٢١٠م) فى كتابه قوانين الدواوين (انظر ملحق رقم (١)) .

٢ - الوضع الاقتصادى :

(أ) الخراج :

كان للأشمونيين نشاط اقتصادى واضح فى العصر الاسلامى ، وقد عثرنا على عدد من وثائق البردى عبارة عن ايصالات مقابل دفع الخراج ، منها ايصال مؤرخ فى شعبان سنة ١٠٣هـ / ٢١١م - ٧٢٢م موجه الى دافعى الضرائب (١٠) ، وايصال من العصر العباسى عبارة عن أخطار رسمى يحمل تاريخ عام ١٥٠هـ / ٧٦٧م (١١) وايصال ثالث خاص بدفع خراج مؤرخ بسنة ٢٣٣هـ / ٨٣٧ - ٨٣٨م (١٢) . كذلك عثرنا على وثيقة عبارة عن أمر ادارى موجه من نائب الوزير الفتح بن خاقان الى أحد أهالى ضيعة الأمير يحمل تاريخ ٢٤٢ - ٢٤٧هـ (١٣) . ويحتفظ أرشيف وثائق البردى العربية بايصال من العصر الفاطمى مؤرخ بسنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤ - ١٠١٥ من ورثة عكاشة لمتولى الخراج (١٤) .

ولاشك فى أن هذه الايصالات وغيرها من الوثائق تعبر عن نشاط اقتصادى واسع المدى كان للأشمونيين وبخاصة فى العصر الفاطمى ، حتى أن متحصل خراج الأشمونيين بلغ فى زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ١٢٧٦٧٦ ديناراً (١٥) وهو مبلغ ضخيم .

-
- (١٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الثالث ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١٥ .
- (١١) نفسه ، ص ١٦٨ .
- (١٢) نفسه ، ص ١٠٣ .
- (١٣) نفسه ، ص ١٣٩ .
- (١٤) نفسه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .
- (١٥) أبو صالح : تاريخ كنائس وأبيرة مصر ، طبعة أكسفورد ١٨٩٥ ، ص ١٢ .

(ب) الزراعة :

ثم ان كثرة الايصالات المتعلقة بالخراج ، وضخامة المبالغ المتحصلة من الخراج ، كل ذلك يعبر دون شك عن نشاط كبير فى ميدان الزراعة . واعتمدت الزراعة فى الأشمونين على مياه النيل - كما هو الحال فى سائر انحاء مصر على حد قول الجغرافيين العرب (١٦) « وزرعهم بماء النيل فتعم المزارع من حد أسوان الى حد الاسكندرية » .

والواقع ان الفاطميين اهتموا بالزراعة اهتماما كبيرا . ومن مظاهر هذا الاهتمام العناية باقامة الجسور . وقد ذكر ناصر خسرو أنهم اقاموا جسرا من التراب ، يمتد من أول الديار المصرية الى اخرها ليسير عليه الناس . واعتمدت الدولة لصيانة ذلك الجسر عشرة آلاف دينار سنويا (١٧) .

وكان بمصر نوعان من الجسور السلطانية والبلدية . وكان هناك مشرف عام لمتابعة الجسور يسمى كاشف الجسور (١٨) ، فكان يوجد على كور مصر مائة وعشرون ألف رجل معهم المساحى والآلات سبعون ألفا للصيعد وخمسون ألفا لأسفل الأرض مهمتهم حفر الخليج وأقامة القناطر وشق الترع (١٩) .

وانقسمت الدورة الزراعية فى الأشمونين - شأنها شأن سائر البلاد الزراعية فى مصر - الى قسمين : المحاصيل الصيفية والمحاصيل الشتوية :

وكان قصب السكر من أشهر المحاصيل الصيفية التى انتشرت زراعتها

(١٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٤٠ .

- ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ١٢٨ .

- الادريسي : نزعة المشتاق ، ط ، ص ٣٢٤ .

(١٧) ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م ، ص ٤٣ .

(١٨) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

(١٩) الكندي : فضائل مصر ، تحقيق ابراهيم أحمد العدوى وآخرين ، الطبعة

الأولى ، مكتبة وهبه ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ٥٩ - ٦٠ .

فى الأشونين ، وهو يزرع فى نصف برمهات على أثر البرش ، وتبرش أرضه سبع سكك (٢٠) ، وفى أول طوبة تشق الأرض للقصب (٢١) ثم يعزق ثلاث مرات فى شهر بشنس .

ويحتاج القصب الى أرض جيدة ومياه متوفرة للرى ثم تنظف الأرض من الحشائش وتحول الى أحواض ويلقى فيها القصب قطعتين متناة وقطعة مفردة ، ويسقى القصب فى أول أبريل مرة فى الأسبوع (٢٢) .

وتشير وثائق البردى العربية فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الى كثرة زراعة القصب فى الأشمونين « . ذكر محمد ابن ذيال ان الذى وصل اليه من القصب مائتى حزمة الا اثنا عشر حزمة ، وبعد ذلك وصلت مائتى حزمة . » (٢٣) .

كذلك انتشرت مزارع النخيل فى الأشمونين (٢٤) ، فكان يزرع من أول يناير الى أول حزيران ، ويحفر للنخيل حفرة فى الأرض قدر ذراعين وتملا بالتراب ، وتوضع النواة فى وسط الحفرة ، ثم ينهل عليها بالتراب ، ويسقى كل يوم حتى ينمو فينقل الى مكان آخر (٢٥) .

أما المحاصيل الشتوية فى الأشمونين فكان أهمها القمح (٢٦) ،

-
- (٢٠) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق كلود كاهن ، مراجعة يوسف راغب ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٤ .
- ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٢٦ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
- (٢١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ .
- (٢٢) المخزومى : المنهاج فى علم خراج مصر ، ص ٤ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
- (٢٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٦ .
- (٢٤) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤١ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٨ .
- ياقوت : معجم البلدان ، الجزء الأول ، بيروت د . ت ، ص ٢٠٠ .
- على بهجت : قاموس الامكنة والبقاع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٠٦م ، ص ٢٥ .
- (٢٥) ابن العوام : كتاب الفلاحة ، مدريد ١٨٠٢م ، ص ٢٤٤ .
- (٢٦) اليعقوبى : البلدان ، لندن ١٩٦٧م ، ص ٢٣١ .

ويحتاج الفدان منه فى زراعته الى وبيتين ، ويزرع فى نصف بابه وآخر هاتور ، ويخضد فى شهر بشنس ويزرع القمح على أثر الكتان والشعير ، ويتباين مقدار ما يتحصل من فدان القمح من مكان لآخر حسب جودة الأرض من أردبين الى عشرين أردبا (٢٧) .

وتحفل وثائق البردى العربية بالكثير من الطلبات والأوامر المرسلة من أصحاب الضياع الى وكلائهم القائمين على زراعة الأرض فى الأشمونين ، بالتعجيل لارسال القمح نظرا لحاجتهم الشديدة اليه (٢٨) .

وكان خراج الصعيد يحصل عينا من الحبوب ، وفرضت على القمح فى العصر الفاطمى ضريبة مقدارها ثلاثة أرايب على كل فدان . وفى العصر الأيوبي خفض صلاح الدين فى سنة ١١٧٦/٥٥٧٢ - ١١٧٧م هذه الضريبة الى أردبين ونصف لكل فدان (٢٩) . كذلك كان الشعير يزرع فى الأشمونيين حيث ورد ذكره فى وثائق البردى المؤرخة فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى ، ونستدل على ذلك من كشف حساب تاجر غلال « . . . الطحاوى شعير أربعة وعشرة أقداح الكيل ستة الا ثلث ، الطلاع شعير خمسة وبيات . . . الثمن دينار (٣٠) . . . » ويزرع الشعير عزاقا فى الأرض الرطبة ، وتقدم زراعته على القمح وكذلك حصاده (٣١) . وانتشرت زراعة الكتان فى الأشمونين (٣٢) فى الأرض البرش .

(٢٧) ابن مائى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٨ .

— المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠١ .

(٢٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الخامس ، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢٩) ابن مائى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٩ .

(٣٠) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ٥ ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣١) الخزومى : المنهاج ، ص ٢ ، ابن مائى : قوانين الدواوين ، ص ٢٥٩ .

(٣٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ٤١ . ابن حوقل ، صورة

الأرض ، ص ٢٥٨ .

وتبدأ زراعته فى شهر هاتور ويحصد فى شهر برمودة (٣٣) ، وطريقة زراعته تقتصر على القاء البذور فى الحفائر أو على الماء (٣٤) .

ويتحصل من الفدان حوالى ثلاثين حبلا ؛ ومن البذور من ثلاثة أرادب الى ستة . أما قطيعة الخراج فلم تكن ثابتة فتختلف من موضع لآخر ، وكانت بحكم الديوان ثلاثة دنانير (٣٥) .

كذلك نالت الأشمونين شهرة واسعة فى زراعة الفواكه (٣٦) ، وخشب البليخ الذى يستعمل فى صناعة السفن . وبلغ ثمن اللوح الواحد خمسين ديناراً (٣٧) .

٣ - الصناعة :

اشتهرت الأشمونين بصناعة المنسوجات الكتانية (٣٨) ، وفرش القرمز (٣٩) .

وصنعت فى سمالوط من ضواحي الأشمونين المنسوجات المعروفة بالسماالوسيات من شعر الماعز . وامتدح أبو صالح الأرمنى (٤٠) هذا الصنف من المنسوجات بقوله أنه « لا مثيل له فى العالم » . كما راجت صناعة السكر بالأشمونين بسبب وفرة قصب السكر . وقد ورد فى وثائق البردى التى

(٣٣) المخزومى : النهاج ، ص ٣ . ابن ممتى : قوانين الدواوين ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٣٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣٦) الادريسى : نزهة المشتاق ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(٣٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٨ .

- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى

السقا وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م ، ص ٦٢ .

(٣٩) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الثامن ، الهيئة المصرية العامة

للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٤٨ .

(٤٠) تاريخ كنائس واديرة مصر ، طبعة أكسفورد ١٨٩٥م ، ص ٢٦ .

ترجع الى القرنين الثالث والرابع الهجريين حساب أسبوعى بسكر موزع
« يوم الأحد لتسعة خلون منه خمسة عشر ابلوجة (٤١) ، يوم الاثنين
لعشر خلون منه خمسة عشر ابلوجه ٠٠٠ » (٤٢) .

٤ - التجارة :

نشطت حركة التجارة فى الأشمونيين بفضل موقعها الجغرافى على
الطريق النهري التجارى القادم من أسوان وقوص الى القاهرة (٤٣) .

وكان هذا الطريق يسلكه الحجاج (٤٤) عندما تعرض الطريق البرى
الذى يربط مصر ببلاد الحجاز والشام والعراق عبر سيناء للخطر الصليبي
بسبب الغارات المستمرة التى كان يشنها صاحب حصن الكرك على قوافل
المسلمين (٤٥) .

وحفلت الأشمونيين بالأسواق ، فكان يوجد بها سوق للبن وسوق
للعطر (٤٦) ، وشاهد ابن جبير (٤٧) أسواق منية ابن الخصيب العامرة .

-
- (٤١) ابلوجة تعادل تسع قنطار ، المقرئى : الخطط ، ج١ ، ص ٧٣ .
(٤٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز
الدالى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .
(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، الجزء الثالث ، مطبعة دار الكتب المصرية ،
القاهرة ، ١٩١٩ م ، ص ٢٧٨ .
(٤٤) المقرئى : الخطط ، الجزء الاول ، بيروت د٠ت ، ص ٢٠٢ .
يقول المقرئى « أعلم أن الحاج المصرى والحاج المغربى ، أقاموا نحو ما بين
سنتين ثم يتوجهون الى مكة من صحراء عيذاب فيركبون من النيل من ساحل مدينة
القساطم، يركبون أبابيل - أبل من قوص الى صحراء عيذاب ولا تزال عامرة بما يصدر
ويورد اليها من قوافل التجارة والحجاج ولم نزل صحراء عيذاب مسلك الحجاج
ذهابا وإيابا من سنة خمس وأربعمائه الى سنة ستين وخمسمائة » .
(٤٥) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، الطبعة الأولى ،
دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م ، ص ٢٤١ .
(٤٦) الوطواط : مناهج الفكر ومناهج العبر ، تحقيق عبد العال الشامى -
الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١م ، ص ٩٠ .
(٤٧) رحلة ابن جبير ، القاهرة ، ص ٥٦ .

كذلك حظيت أسواق الأشمونين بشهرة واسعة فى تجارة القمح ، فكان للتجار الذين يقيمون فى القاهرة وكلاء بالأشمونين يقومون بنقل القمح الى دكان السمسار الذى يتولى بيعه نظير أجره معلومة « ووصل كتابك ، ووصل القمح ، وقد شلناه الى دكان السمسار يوم كتابى هذا اليك ، وهو يوم الأربعاء وأرجو أن سهل الله لبيعه أروح عندك بالخير . . . » (٤٨) .

وهكذا غدت الأشمونين من مستودعات القمح بمصر ، فكانت تمتد القاهرة فى العصر الفاطمى بما تحتاجه من القمح . ونستدل على ذلك من الخطابات المرسلة من التجار الى وكلائهم والتي وردت فى وثائق انبردى (٤٩) . أما عن التعامل التجارى فى أسواق الأشمونيين ، فاستخدموا العملة الفاطمية من الدينار والدراهم التى كانت سائدة بمصر ، لأن المصادر التاريخية لم تشر الى وجود دار لضرب النقود بالأشمونيين كما هو الحال فى قوص حاضرة الصعيد الأعلى أو غيرها .

وكان الأهالى يستعملون رطل منية ابن الخصيب فى موازينهم والذى بلغ مقداره ١٤٤ درهما (٥٠) .

وهكذا نلمس ملامح الازدهار الاقتصادى للأشمونيين فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة .

البناء الاجتماعى :

تعد دراسة الحياة الاجتماعية للمدن الاسلامية التى تبعد عن حاضرة البلاد ، كالأشمونيين من الأمور الشاقة لندرة المادة التاريخية .

لذا سأقتصر فى دراستى للحياة الاجتماعية على البنية الاجتماعية لبعض عناصر السكان كالعرب والقبط ، مع الإشارة الى حياتهم الاجتماعية :-

(٤٨) جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الخامس ، ترجمة عبد الحميد حسن وآخرين - دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٤٢ .

(٤٩) نفسه ، ص ٤١ ، ٨٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٥٠) ابن الاخوة : معالم القرية فى أحكام الخصبة ، تحقيق محمد محمود شعبان وآخرين الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٣٩ .

أما عن العرب فمن المعروف أن عددا من القبائل العربية ويطونها هاجروا إلى الأمصار التي فتحها المسلمون وانتشروا بين ربوعها . وكانت مصر مقصدا لعدد كبير من القبائل العربية ، فضلا عن الصحبة والتابعين . وقد انتشرت قبائل العرب في الوجهين البحري والقبلي وازدادت أعدادهم في أواخر العصر الأموي عندما اشتد ضغط القوى المناوئة لهم ، وبخاصة العباسيين . ومن هؤلاء كانت جماعة من بنى أمية - من قريش - نزحوا إلى الصعيد ليكونوا بعيدين عن خصومهم . وفي بوصير بالصعيد قتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد (٥١) .

وكان يطلق على الأشمونين بلاد قريش ، وسكنت قريش بجوار قبيلة جهينة ، وحدث بينهما سوء تفاهم ، مما أدى إلى خلافات كبيرة بين القبيلتين ، حتى تمكنت قريش بمساعدة الفاطميين من طرد جهينة إلى أخميم (٥٢) .

كذلك استقرت بالأشمونين جماعة من بنى زهرة بن كلاب بن مرة (٥٣) . وكذلك بنو عروة وهم بطن من الزبير بن أسد بن عبد العزى من قريش . وعروة هذا من التابعين وأعيانهم وهو أحد فقهاء المدينة السبعة من التابعة وكان مقامهم بناحية تندة من الأشمونين (٥٤) .

وهناك البكريون وهم بطن من تيم بن مرة من قريش من

(٥١) عبد الله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ، دار الكاتب العربى القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ٧١ .

(٥٢) القلقشندي : نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٢٢٢ .

المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، الطبعة الاولى ، عالم الكتب ١٩٦١م ، ص ٢٢ - ٢٣ .

عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، الجزء الاول ، المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٩م ، ص ١٠٥ .

(٥٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

(٥٤) القلقشندي : نهاية الارب ، ص ٣٦٠ .

العدنانية (٥٥) ، وهم بنو أبى بكر الصديق ، وكانوا يمثلون بنى تيم فى مصر . وأول من تلقى من البكرين هؤلاء هو محمد بن أبى بكر الذى كان من زعماء حركة اغتيال عثمان فى المدينة سنة ٦٥٥/هـ - ٦٥٦م . تم ولى مصر من قبل على بن أبى طالب سنة ٣٧هـ / ٦٥٧ - ٦٥٨م وظل بها حتى خاض المعركة الفاصلة - موقعة المسناة - بينه بوصفه قائداً لأنصار على - وبين عمرو بن العاص قائد أنصار معاوية ، فهزم وقتل سنة ٣٨هـ / ٦٥٨ - ٦٥٩م (٥٦) . كذلك هاجر الى الأشمونيين من البكرين بنو اسحاق ، وهم بطن من البكرين ، وبنو طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ابن بكر (٥٧) .

أما كنانة (*) فهى قبيلة عربية كبيرة تستمد أهميتها من أن قبيلة قريش والنبي (ﷺ) بالتالى ينسبون اليها . وبعد منتصف القرن الرابع الهجرى هاجرت كنانة بصورة واسعة من الحجاز - ومعها جماعة من اخلاط العرب الى مصر (٥٨) .

وفى الأشمونيين استقر بنو فراس أحد بطون كنانة ، وهم بنو ضمرة ابن بكر بن عبد مناة ، ومنهم عمرو بن أمية الضمري صاحب الرسول (ﷺ) (٦٠) وبنو الليث بن كنانة بن طلحة (٦١) .

-
- (٥٥) القلقشندي : نهاية الأرب ، ص ١٢٠ .
 (٥٦) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٨١ .
 (٥٧) القلقشندي : نهاية الأرب ، ص ٢٧ .
 - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
 - عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ج ١ ، ص ٢٠ .
 (*) كنانة بكسر الكاف وفتح النون ، وكسر النون الثانية ، تشير الى عدة قبائل منها كنانة قريش . انظر السمعاني : الانساب ، ج ٥ ، ص ٩٨ .
 (٥٨) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٦٦ - ٦٧ .
 (٥٩) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٢٥١ ، القلقشندي : تلاند الحماية ، ص ١٣٥ .

(٦٠) القلقشندي : نهاية الأرب ، ص ٢٢٠

(٦١) القلقشندي : نهاية الأرب ، ص ٧١

(مجلة المؤرخ العربى)

أما العلويون وهم ذرية على بن أبى طالب رضى الله عنه - فقد نرح بعضهم الى مصر فرارا من الاضطهاد الذى حل بهم على أيدي الأمويين ثم العباسيين . ومن هؤلاء من الذين نرحوا الى بلاد الأشمونين كان السلاطفة من بنى الحسن السبط بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويعرفون بأولاد جحيش ، والقيادة فيهم لبنى تغلب .

وهناك أيضا الجعافرة الذين ينسبون الى جعفر بن أبى طالب الطيار - رضى الله عنه - ابن عم الرسول (ﷺ) (٦٤) وقد نرحت منهم عدة بطون الى الأشمونين هم أولاد عز العرب ، وبنو أدريس وبنو صالح (٦٥) ، ويطن من بنى هاشم بن جعفر الصادق (٦٦) . وتفرع منهم عدة بطون منها الزبانية الذين سكنوا بين منفلوط وسمالوط (٦٧) .

كذلك نرح الى الأشمونين بطن من بنى أمية هم بنو ابان بن عثمان ابن عفان بن خالد (٦٨) بن يزيد ، وقد قدمت جماعة من أبنائه وأقامت مع سائر بنى أمية وقريش فى منطقة تندة بالأشمونين (٦٩) .

أما بنو مسلمة وهم بنو مسلمة بن عبد الملك ت ١٢٢هـ / ٧٣٩ - ٧٤٠م الذى تتابعت غزواته من سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م حتى سنة ١٢٢هـ /

-
- (٦٢) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩١ .
(٦٣) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٢٨ .
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .
(٦٤) السمعانى : الانساب ، ج ٢ ، ص ٦٦ .
(٦٥) المقرئى : البيان والاعراب ، ص ٢٩ .
(٦٦) على مبارك :
- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، ج ١ ، ص ١٩١ .
(٦٧) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ١٢٨ .
(٦٨) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٨٥ .
- القلقشندى : قلائد الحماية ، تحقيق ابراهيم الايبارى ، الطبعة الثانية دار الكتاب المصرى - القاهرة ١٩٨٢م ، ص ١٥٢ .
(٦٩) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ١٥٢ .
- عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٨٧ .

٧٣٩ - ٧٤٠م فكانت مساكنهم مع قومهم بنى أمية بتندة وما حولها من بلاد الأشمونين (٧٠) .

ومن بطون بنى أمية بنو حبيب بن الوليد بن عبد الملك، وبنو عسكر الذين يزعمون - على حد قول المقرئى - أنهم من بنى أمية . وكان أبوهم مولى عبد الملك بن مروان ، ونزل بنو خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبى سفيان أرض دلجة عند أشمون (٧١) .

فاذا انتقلنا الى القبائل القحطانية التى نزحت الى الأشمونين فاننا نصادف بنى جهينة بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاة وكانت منازلهم الأولى بأطراف الحجاز من جهة الشمال (٧٢) .

ومنهم عقبة بن عامر بن عبس الجهنى الذى شهد فتح مصر ، واحفظ بها وولى الجند بمصر لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤٤هـ / ٦٦٤م (٧٣) .

أما قبيلة جهينة فقد نزحوا الى الصعيد ، واستقروا فى الأشمونين الى جانب قرىش . وحدث بينهما سوء تفاهم الى أن تمكنت قرىش بمساعدة الفاطميين من طرد جهينة الى أخميم (٧٤) ، كما سبق أن ذكرنا .

هذا عن القبائل والبطون العربية التى نزحت الى اقليم الأشمونين واستقرت به . والى جانب هؤلاء وجدت جالية من القبط وهم أهل البلاد الأصليين الذين اختاروا البقاء على ديانتهم ولم يدخلوا فى الاسلام . وكانت لهؤلاء كنائسهم التى اشار اليها المقرئى فى خطته (٧٥) ، ومنها

(٧٠) القلقشندى : نهاية الأرب ، ص ٨٥ .

- القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ١٥٢ .

(٧١) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .

- على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ٢٤٨ .

(٧٢) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ٤٤ .

(٧٣) السمعانى : الانساب ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٧٤) القلقشندى : قلائد الجمان ، ص ٤٤ .

(٧٥) الخطط ، ج ٢ ، ص ٥١٨ .

كنيسة بطرس ، وكنيسة ميكايل وكنيسة الفتية الثلاثة ، فضلا عن كثرة بيع النصارى فى منية ابن الخصيب .

وقد بلغ عدد النصارى بطحا - من كور الأشمونين - فى العصر الفاطمى حوالى خمسة عشر ألف شخص (٧٦) ، ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه . وكانت غالبية سكان سمالوط فى سنة ١١٣٦/٥٣١ - ١٣٣٧ من طائفة الأرمن النصارى (٧٧) .



ثالثا : الحياة الاجتماعية لعناصر السكان :

أما عن الحياة الاجتماعية لعناصر السكان بالأشمونين فلم يرد لها ذكر فى المصادر سوى أشارات عابرة ومتفرقة لا تكفى لرسم صورة واضحة المعالم .

وسأحاول رسم صورة لحياتهم من خلال تلك الأشارات المتناثرة عن الطعام والشراب والملبس والزواج .

كان الخبز - ومايزال - هو العنصر الرئيسى للطعام عند أهل الأشمونين - كما هو الحال فى سائر أنحاء مصر ، بسبب وفرة القمح (٧٨) . ولذلك حرصت الدولة الفاطمية على جودة الخبز عن طريق الاشراف الحكومى للمحتسب وأعوانه حيث فرضوا شروطا صارمة على الطحانين والخبازين لمنع الغش (٧٩) .

أما موائد الطعام فقد حفلت باللحوم الضأن ، ولحوم الأغنام والماعز التى كانت تربي هناك بكثرة حيث ورد ذكر العديد منها فى قوائم حسابات

(٧٦) أبو صالح : تاريخ كنائس وأبيرة مصر ، ص ٩٨ .

(٧٧) نفسه ، ص ٢٦ .

(٧٨) اليعقوبى : البلدان ، ص ٢٣١ .

(٧٩) ابن الاخوة : معالم القرية فى أحكام الحسبة ، تحقيق محمد محمود شعبان

وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ١٥٢ .

• أوراق البردى (٨٠) •

وأعتمد أهل الأشمونين فى شربهم على ماء النيل بملء الاوانى
الفخارية التى تكفى لسد احتياجاتهم ، شأنهم فى ذلك سائر أهالى المدن
المصرية •

وفيما يختص بملبس أهل الأشمونين فقد ارتدوا الملابس الكتانية
المصنوعة بها (٨١) ، الى جانب المنسوجات المصنوعة من شعر الماعز
المعروفة بالسما لوسيات (٨٢) •

وقد حفلت الحياة العائلية بالعديد من مناسبات الفرح ، أهمها
- كما هى العادة - أفراح الزواج • وقد عثر على عدة عقود ترجع الى
القرن الثالث الهجرى فى الأشمونين وهى تشابه العقود التى تم الكشف
عنها فى مصر وتتفق معها فى طابعها الاسلامى والقومى العام • ووفقا
للاوضاع السائدة عندئذ كانت عملية الزواج تبدأ بالتعرف على أهل
الزوجة ثم الخطوبة والاتفاق على المهر، وهو الصداق الذى جاء ذكره فى
أوراق البردى • وفى عقد من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى،
جاء ما نصه « هذا ما أصدق يحنس شنوده الساكن مدينة أشمون دور
ابنت شنودة ... » (٨٣) •

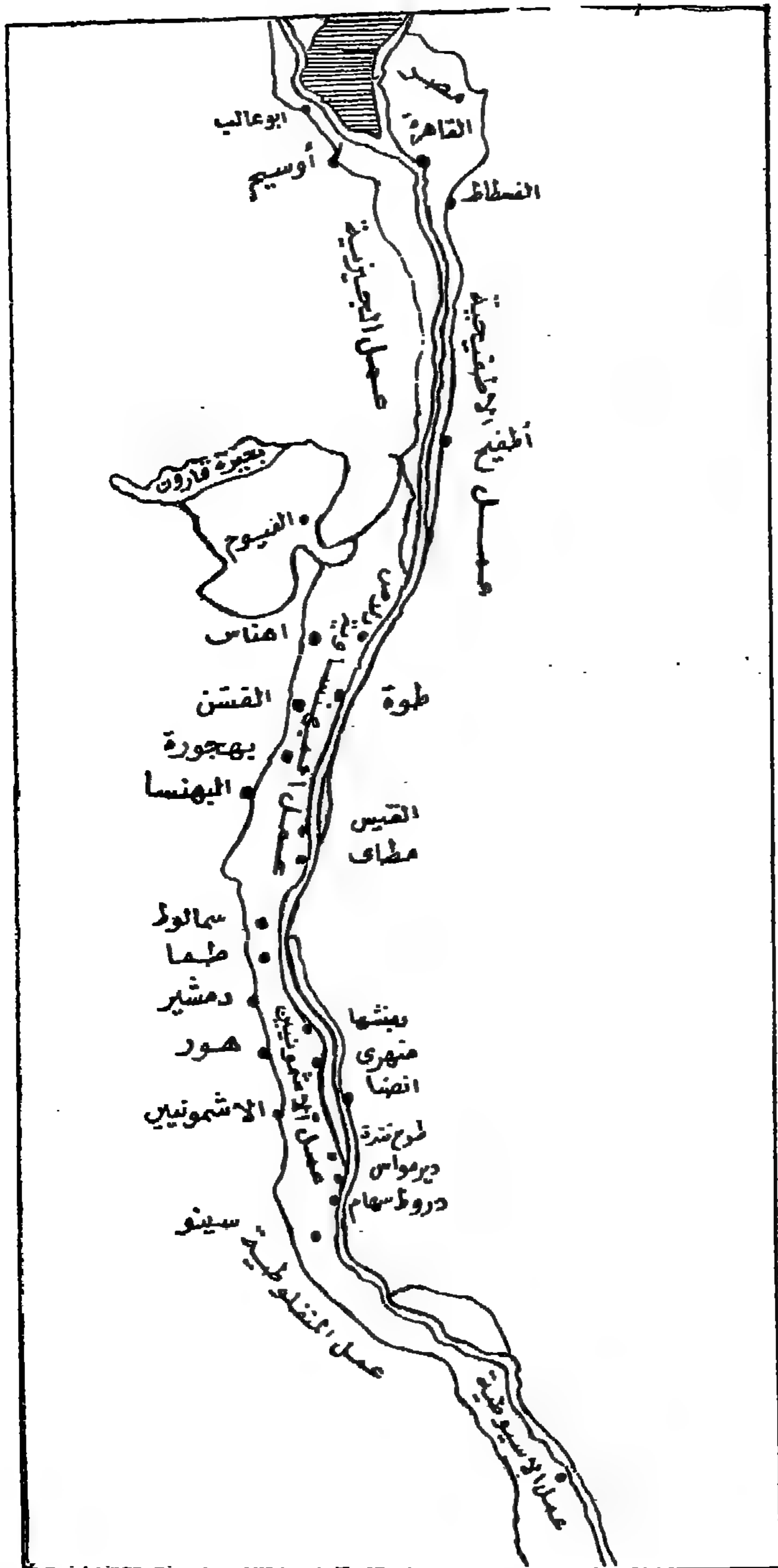
وبعد ذلك تأتى مرحلة كتابة عقد الزواج الذى يوقع عليه الشهود (٨٤)
من الدين حضروا حفل الزفاف • وكان يتم الاحتفال بزفاف العروسة
بالطبل والمزمار فى موكب يخترق وسط البلد حتى تصل الى بيت
الزوجة •

-
- (٨٠) جروممان : أوراق البردى العربية ، ج٤ ، ص ١٧٣ •
(٨١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٨ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ص ٦٢ •
(٨٢) أبو صالح : تاريخ كنائس واديرة مصر ، ص ٢٦ •
- سلام شافعى محمود : أهل الائمة فى مصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م •
ص ١٥٤ - ١٥٥ •
(٨٣) جروممان : أوراق البردى العربية ، ج١ ، ص ٨٥ •
(٨٤) نفسه ، ص ١١٤ •

ملحق

(١) كور الأشمونين فى العصر الفاطمى

أمشول ، انصنا ، والجزيرة الوسطانية من حقوقها ، أبشاده ، أبوان عطية ، أتليدم ، أطما المدينة ، أبيوهة ، الكدية ، الدير المعروف ، بدير بهيو ، الطيبة وهى طيبة واحفار القمدير العرامة ، القلمتين وجزيرتها ، السقاية ، المعصرة وهى معصرة بنى نصر ، السرير مونيىن البرجاية ، الداودية ، البرقا ، أبيهو ، القلندونيات ، المطاولات الحمام ، البركورات وادفا اوسية بو السرى ، البدرمان ، العرين تلا ، تنوف تنيه ، جزيرة بنى حماد ، جزيرة البوصية ، جزيرة طوق ، جزيرة حمام ، حصة بلشها ، دوط سربام ، ديسر طحنشها ، دشار وسلول ، دلجة وكفورها ، دير العسل ، ديونجيم وهو دير أسود ، دمشا وهاشم ، دير باهور ، دير بانوب دير ماواس ، دمشير ، دشلولوط ديمى ، دروط اشمون ريده ، رمجوس ، سفت الحماره ، سنبو ، سلو ، سفت المهلبى ، سمالوط ، ساقية موسى ، سرقنا ، سمو ، سنفلج ، سجرج طحنشها ، طوخ تنده ، وسنجرج من حقوقها طوه ، طحا مجموعة مع أبشاق ، قبالة التلادة من حقوق سملوط ، قوص قام ، قلبه ، قلونة قرى جرى ، كفر باويط ، منفيس ، منهرى ، ملوى وجزايرها ، منية بنى خصيب ، منتوب وكفورها ، ميروكفورها ميسارة مقمص ، منشية العز نواجه ، نواى وحصتها هور هفوره ، طهما ، ظهر الجمل (٨٥) .



خريطة التقسيم الإداري لمصر في القرن العاشر الهجري نقلت من
 حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٣١٧ (نسخة ١٥٠)

قائمة المصادر والمراجع

أولا - المصادر :

- ١ - ابن الاخوة : (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ت ٧٢٩ هـ)
« معالم القرية فى أحكام الحسبة » تحقيق محمد محمود شعبان
وآخرين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ٢ - الادريسي : (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد العزيز ت
٥٦٤) « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مكتبة الثقافة الدينية ،
القاهرة د.ت .
- ٣ - الاصطخرى : أبو القاسم ابراهيم بن محمد (توفى فى النصف
الأول من القرن الرابع الهجرى) .
« المسالك والممالك » تحقيق محمد جابر عبدالعال القاهرة ١٩٦١ م .
- ٤ - ابن بطوطة : (ابو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٩ هـ)
« مهذب رحلة ابن بطوطة » الجزء الأول ، تحقيق أحمد العوامرى
وآخرين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٣٤ م .
- ٥ - ابن جبیر : (أبو الحسن بن أحمد ت ٦١٤ هـ) « رحلة ابن جبیر »
القاهرة د.ت .
- ٦ - جروهمان : أوراق البردى العربية ، الجزء الأول ، تحقيق :
حسن ابراهيم وآخرين - الجزء الثالث ، تحقيق : حسن ابراهيم
حسن وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ . الجزء
الجزء الرابع - الجزء الخامس ، تحقيق عبد الحميد حسن
وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦٨ م .
الجزء السادس ، تحقيق عبد العزيز الدالى ، دار الكتب المصرية ،
القاهرة ١٩٧٤ .
- ٧ - ابن حوقل : (أبو القاسم أحمد النصيبى توفى فى النصف الثانى
من القرن الرابع الهجرى) « صورة الأرض » بيروت ١٩٧٩ م .

- ٨ - السمعاني : (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢هـ)
« الانساب » الأجزاء الثاني والخامس تقديم وتعليق : عبد الله
عمر البارودي ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٨٨م .
- ٩ - ابن شاهين : (غرس الدين خليل الظاهر ت ٨٧٣ هـ) « زبدة
كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » تصحيح بولس رويس ،
باريس ١٨٩٤م .
- ١٠ - أبو صالح : (الشيخ أبو صالح الأرميني توفي في أوائل القرن
السابع الهجري « تاريخ كنائس واديعة مصر » طبعة اكسفورد ،
١٨٩٥م .
- ١١ - ابن ظهيرة : (جمال الدين محمد بن محمد نور الدين بن أبي
بكر ت ٩٨٦ هـ) : الفيضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ،
تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، دار الكتب المصرية ، القاهرة
١٩٦٩م .
- ١٢ - ابن العوام : (أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد) : « كتاب
الفلاحة » مدريد ١٩٨٠م .
- ١٣ - أبو الفداء : (عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢هـ)
« تقويم البلدان » باريس ١٨٤٠م .
- ١٤ - القلقشندي : (شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ)
« صبح الأعشى في صناعة الانشاء » ١٤ جزء دار الكتب المصرية ،
القاهرة ١٩١٩م .
- ١٥ - _____ : (نهاية الارب في معرفة انساب العرب » تحقيق
ابراهيم الابيارى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة
١٩٨٠م .
- ١٦ - _____ : « قلائد الجمان » تحقيق : ابراهيم الابيارى ،
الطبعة الثانية ، دار الكتاب المصرى القاهرة ١٩٨٢م .

- ١٧ - الكندي : (أبو بكر بن محمد بن يوسف المتوفى بعد ٣٥٥ هـ)
« فضائل مصر » تحقيق : ابراهيم أحمد العدوى مكتبة وهبة
القاهرة ١٩٧١ م .
- ١٨ - المخزومي : (أبو الحسن علي بن عثمان ت ٥٨٥ هـ) « المنتقى
من كتاب النهاج في علم خراج مصر » تحقيق : كلود كاهن ،
مراجعة يوسف راغب . المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة
١٩٨٦ م .
- ١٩ - المقرئزي : (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ)
« المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط
المقرئزية » جزءان بيروت د . ت .
- ٢٠ - _____ : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ،
تحقيق : عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى ، عالم الكتاب ،
القاهرة ١٩٦١ م .
- ٢١ - ابن مماتي : (الأسد الخطير شرف الدين أبي المكارم أبي سعيد
ت ٦٠٦ هـ) ، « قوانين الدواوين » تحقيق : عزيز سوريال عطية
الجمعية الملكية الزراعية ، القاهرة ، ١٩٤٣ م .
- ٢٢ - ناصر خسرو : (علوي الفارسي ت ٤٧٦ هـ) « سفرنامه » تحقيق :
يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ م .
- ٢٣ - الوزان : (أبو الحسن بن محمد الوزان) « وصف إفريقيا »
ترجمة : عبد الرحمن حميدة ومراجعة علي عبد الواحد .
- ٢٤ - الوطواط : (جمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراق
الكتبي ت ٧١٨ هـ) « مناهج الفكر ومناهج العبر » تحقيق :
عبد العال الشامي ، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨١ م .
- ٢٥ - ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الرومي ت ٦٢٦ هـ)
« معجم البلدان » الجزء الأول ، بيروت د . ت .
- ٢٦ - اليعقوبي : (أحمد أبي يعقوب بن جعفر ت ٢٧٤ هـ)
« البلدان » ليدن ، ١٩٦٧ م .

ثانيا - المراجع :

- ١ - حسين مؤنس : (دكتور)
« أطلس تاريخ الاسلام » مكتبة الزهراء ، القاهرة .
- ٢ - راشد البراوى : (دكتور)
« حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » الطبعة الاولى دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨م .
- ٣ - زبيدة محمد عطا : (دكتورة)
« أقلم الدنيا فى العصر البيزنطى » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢م .
- ٤ - سلام شافعى محمود : (دكتور)
« أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والايوبى » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢م .
- ٥ - صلاح أحمد هريدى : (دكتور)
« دور الصعيد فى مصر العثمانية » دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م .
- ٦ - عبد الله خورشيد البرى : (دكتور)
« القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة » .
دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٦٧م .
- ٧ - على بهجت : « قاموس الأمكنة والبقاع » الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٠٦م .
- ٨ - على مبارك : « الخطط التوفيقية » الجزء الثامن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٠ .
- ٩ - عمر رضا كحالة : « معجم قبائل العرب » الجزء الأول ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٤٩م .
- ١٠ - محمد رمزى : « القاموس الجغرافى باسماء البلاد المصرية »

القسم الثانى ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٥٨م . - القسم الثانى ،
الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٦٣م .

١١ - محمود محمد الحويرى : (دكتور)
« أسوان فى العصور الوسطى » الطبعة الأولى ، دار المعارف ،
القاهرة ١٩٨٠م .

بواعث ازدهار النشاط الاقتصادي في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٤٩ - ٨٤٧ م)

د . ضيف الله يحيى الزهراني (*)

شهد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م اكتمال بناء الدولة الإسلامية التي امتدت من الأندلس وبحر الظلمات غرباً حتى الهند وجوف القارة الآسيوية شرقاً. وكان أن أفاد المسلمون من ذلك الموقع الفريد في قلب العالم المعروف ، وتلك الموارد الاقتصادية الضخمة التي فاضت بها خزائنها في بناء أكبر صرح حضاري عرفه العالم في العصور الوسطى . ومن المعروف أن الاقتصاد يمثل عماد أية قوة سياسية أو نهضة حضارية ، ولذا أهتم الخلفاء العباسيون الأوائل برعاية الأوضاع الاقتصادية ، وتبكتفت عدة عوامل لتجعل ذلك النشاط الاقتصادي دعامة قوية استندت إليها الدولة في تحقيق أسباب القوة والعظمة الحضارية .

والملاحظ في الدراسات التاريخية الحديثة أنها في الكلام عن النشاط الاقتصادي في العصر العباسي الأول ، وجهت معظم اهتماماتها نحو مظاهر هذا النشاط ، دون التطرق إلى العوامل التي ساعدت على ازدهاره والقوى - الظاهرة والباطنة - التي ساعدت على نجاحه وانتعاشه . ولذا رأينا في هذا البحث أن نحاول القاء الأضواء على العوامل التي ساعدت على انتعاش النشاط التجاري والصناعي بوجه خاص ، حيث أن النشاط الزراعي حظى بدراسات عديدة من نواحي اصلاح الأرض وتوفير الماء ، وبناء السدود والقناطر ، وحفر الترعة ومراعاة العدالة في جمع الخراج وغير ذلك

وفي هذه المقدمة لا يفوتنا أن ننوه أن الله عز وجل امتدح التجارة

(*) أستاذ مشارك بجامعة أم القرى .

الحلال ، وأن الرسول ﷺ أمتدح التاجر الأمين ، وفي الوقت نفسه حث الاسلام على العمل - بأوسع معانيه - بما فيه العمل الفكرى واليدوى وغير هذا أو ذاك . فالله عز وجل يقول محلا التجارة الخالية من الربا (وأحل الله البيع وحرم الربا) (١) ، وأما الرسول ﷺ فقد سئل ، أى الكسب أفضل أو أطيب ؟ فقال « عمل الرجل بيده وكل بيع مبرر » (٢) ، وقال الله تعالى فى المجال الصناعى والمواد الأولية التى تستخدم فى الصناعة (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (٣) وهكذا نشطت التجارة والصناعة فى الدولة الاسلامية لفضل ما تهيأ لها من عوامل عدة ، وأصبحت تفوق التجارات والصناعات العالمية ، حيث عنى الخلفاء بتنظيم أمورهما ، والاشراف المباشر عليها من أجل منع الغش فى التجارة والصناعة والانتاج ، ومنع التحايل والتدليس فى المعاملات (٤) ، والمتأمل فى صادرات الدولة ووارداتها يدرك قسوة الازدهار التجارى فى ذلك العصر ، كما أن المتأمل فى عدد المصانع فى بغداد وحدها ، يدرك قوة الازدهار الصناعى ، فقد قدر عدد الطواحين بـ (٤٠٠ رضى) مائية ، و (٤٠٠٠) معمل لصنع الزجاج و (٣٠٠٠٠) معمل لصنع الخزف (٥) . هذا الى أن الحرف والمهن التى أوردتها كتب الحسبه (٦) ، والتى تعج بعديد الصناعات المتنوعة تدل على قوة الصناعة وتطورها . وقد خص كل أهل تجارة أو صناعة أو حرفة بسوق خاص ، مما أدى الى كثرة الأسواق وتنوعها وبالتالي الى ازدهار النشاط الاقتصادى .

أما عن العوامل التى ساعدت على هذا النشاط والازدهار - وهى موضوع دراستنا - فنستطيع أن نجملها فيما يلى :

أولا : الموقع الجغرافى :

كانت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول تمتد امتدادا شاسعا وتضم العديد من الشعوب ذات الأصول المتباينة والجذور المختلفة ، فضلا عن الأقاليم ذات الموارد الاقتصادية المتنوعة . وحسب هذه الدولة عندئذ أنها امتدت من حدود الصين شرقا حتى سواحل بحر الظلمات أو البحر المحيط أو المحيط الأطلسى غربا ، ومن أواسط بلاد النوبة جنوب حتى حدود دولة الفرنجة وشاطئ بحر بنطش أو البحر الأسود شمالا ،

وبذلك اطلت هذه الدولة على محيطات وبحار وخلجان عدة ، حتى غدت الدولة الاسلامية تمثل سرّة العالم القديم وحلقة الوصل بين أجزائه وأطرافه ، وصار العراق مركز الخلافة يكون « جسرا بين ايران والهند وأواسط آسيا والصين من جانب ، والجزيرة العربية ، والشام ومصر والمغرب من الجانب الآخر » (٧) ، ولا شك أن هذا الموقع الجغرافى الفريد ساعد على ازدهار النشاط الاقتصادى فى ميادين التجارة والصناعة .

ثانيا : سهولة التعامل النقدي :

كانت الدولة العباسية تتبع نظام المعدنين Bi-Metallic System أى تتعامل بالدينار الذهب ، والدرهم الفضة فى جميع معاملاتها الرسمية والتجارية (٨) . ولعل سبب شيوع التعامل باحد المعدنين أو بهما معا كان يتوقف على مدى توافر الذهب أو الفضة آنذاك ، وبقيمتها فى السوق . والذى لابد من معرفته هنا هو أن هناك أقاليم فى العصر العباسى الأول شاع فيها استخدام احدى العملتين نظرا لتوافر المعدن الخام بتلك الأقاليم ، ولكن هذا لا يعنى الغاء استخدام العملة الأخرى ، بمعنى أن العملتين سارتا جنبا الى جنب فى جميع المبادلات التجارية ، فمثلا : كان الدينار الذهب يسود فى أقاليم مصر وشمال افريقية وبلاد الشام ، وكان الدرهم الفضة سائدا فى أقاليم العراق وايران ووسط وشرق آسيا (٩) وعد خلفاء العصر العباسى الأول كلا من الدينار والدرهم قاعدة للنقد معمولا بها رسميا حتى لا يضار أحد من تجار الدولة سواء فى افريقية أو فى مصر أو فى الشام أو فى العراق أو غيرها من الأقطار .

ثالثا : كثرة الأموال وارتفاع مستوى المعيشة :

يستدل بالنظر الى قوائم الايرادات التى اعتمدت لميزانية العصر العباسى الأول على كثرة الأموال والثروات الطائلة التى كانت سببا مباشرا لازدهار الاقتصادى المتعدد الوجوه ، وقد ورد ذكر ثلاث قوائم مالية لعهود بعض الخلفاء العباسيين هى : -

أولا : قائمة الجهشيارى (١٠) عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة

هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م) وكان مقدارها (٥٣٠ر٣١٢ر٠٠٠) درهم .

ثانيا : قائمة ابن خلدون (١١) عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨٢٣ - ٨٣٣م) وكان مقدارها (٣٩٤ر٢٥٤ر٠٠٠) درهم .

ثالثا : قائمة قدامة بن جعفر (١٢) ويرجح أنه عملها لميزانية الدولة فى عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٨٣-٨٤٢م) وكان مقدارها (٤١١ر٢٣١ر٠٠٧) درهم .

ومن هذه القوائم يستدل على ضخامة الثروة ووفرة العملة والنقود . وهذا فى حد ذاته خير مشجع على المشاركة فى النشاط الاقتصادى يؤدى الى دفع مسيرة ذلك النشاط ولا شك فى أن كثرة الأموال أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة بين أفراد المجتمع ، وهو أمر جاء مصحوبا بقدر من حياة البذخ والترف .

رابعا : وفرة الأسواق وتنظيماتها :

زخرت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول بعدد كبير من الأسواق مثل أسواق (مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وصنعاء ، ودمشق ، وبغداد ، والاسكندرية ، والكوفة ، والبصرة والفسطاط ، والقيروان) ومن الواضح أن كثرة الأسواق وتعدد أنواعها تعتبر عاملا هاما فى تنشيط المعاملات الاقتصادية ومظهرا لحيوية المدن واتساع نطاق النشاط الاقتصادى فيها (١٣) ، ونظرا لأهمية الأسواق فقد كان يخطط لها مع تخطيط المدن (١٤) ، وقد وصل أمر تنظيم الأسواق أن خص أهل كل تجارة بسوق خاص ، منفردة ، « وكانت المدن بصورة عامة أسواقا لما يحيط بها من قرى وأرياف ، فهى مخازن لانتاجها ، ومراكز تباع لها ما تحتاج إليه من مواد » (١٥) ، لذا نجد أن الأسواق قامت بالدور الايجابى المميز فى ازدهار الأنشطة التجارية والصناعية .

خامسا : العناية بطرق التجارة :

تنقسم طرق التجارة الى قسمين كبيرين :

أولا : طرق مائية (بحرية أو نهريّة) ، وكانت البحار التي تشق عبابها مراكب المسلمين هي : بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) وبحر الهند (المحيط الهندي) وبحر العرب ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر الروم (البحر المتوسط) ، فضلا عن البحار الداخلية مثل : الخليج العربي ، وبحر بنطش (الأسود) ، وبحر الخزر (قزوين) ، أما الأنهار فقد تميزت منها ثلاثة أنهار رئيسية هي (النيل ودجلة والفرات) ، وقد قامت هذه البحار والأنهار بدور كبير في النشاط التجاري إذ غدت طرقا مألوفة للسفن التجارية ، وأسهمت أسهاما واضحا في النشاط التجاري ، سواء التجارة المحلية الداخلية ، أو التجارة الإقليمية أو العالمية ، ووجدت محطات على امتداد الطرق البحرية والنهرية لجباية الضرائب ، فضلا عن حراسة المراكب (١٦) .

أما القسم الثاني : فنعني به الطرق البرية التي كانت تمثل شبكة داخلية وخارجية واسعة ، سهلت على التجار نقل بضائعهم وتسويقها (١٧) . وقد ارتبطت بغداد حاضرة الخلافة بشبكة من الطرق البرية على النحو التالي :

- ١ - الطريق الشرقي الى حلوان ثم واسط آسيا .
- ٢ - الطريق الشمالي الى الموصل والجزيرة .
- ٣ - الطريق الجنوبي الى واسط ثم البصرة .
- ٤ - طريق جنوبي غربي الى الكوفة ثم الى الجزيرة العربية حيث ينتهي باليمن .
- ٥ - طريق غربي الى الرقة ثم الى الشام ومصر (١٨) .

وأقيمت على امتداد هذه الطرق خانات للمسافرين وللتجارة يرتاحون فيها ويحفظون فيها تجارتهم . وكانت تعقد فيها الصفقات التجارية وعمليات البيع والشراء (١٩) ، ولا شك في أن وفرة الطرق والعناية بها وتعبيدها وتوفير وسائل الراحة للمسافرين على امتدادها ... (مجلة المؤرخ العربي)

كل ذلك شجع على الرحلة ، وبالتالي على نقل البضائع وسفر التجار من اقليم الى آخر . هذا بالإضافة الى حرص الخلفاء على توفير الأمن للمسافرين والضرب بشدة على أيدي المعتدين والعاثين ، بحيث غدت الدولة الاسلامية تمثل واحة كبيرة يسودها الأمن والسلام مما أدى الى ازدهار النشاط الاقتصادي بوجه عام والتجاري بوجه خاص .

سادسا : تجنب الأساليب التجارية المحرمة :

حرص المسلمون في معاملاتهم الاقتصادية على الالتزام بالحلال وتجنب الحرام ، فاعرضوا عن كل ما نهى عنه الدين ، وقامت الدولة بتطبيق احكام الشريعة ومراقبة النشاط الاقتصادي في الأسواق والمحطات التجارية والمدن . وكان أهم ما تجنبه المسلمون في معاملاتهم هو : -

(أ) الربا : وهو الزيادة غير المشروعة . قال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) (٢٠) ، وقد حرم الربا لعله في ذاته ، لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته . ولما كانت بعض جذور الربا راسخة عند التجار من أهل الذمة وخاصة فيما يتعلق بصرف النقود وتسعيرها (٢١) ، فقد كان يتم التعامل معهم في نطاق ضيق يشوبه الحذر الشديد .

(ب) الاحتكار : وهو احتجاز السلعة لغرض تأخير بيعها حتى يرتفع السعر . قال الرسول صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون » (٢٢) والهدف من تحريم الاحتكار هو كشف الضرر عن عموم الأمة الاسلامية ووقايتهم من المحتكرين في حبس الأقوات وغيرها من ضرورات الحياة ومنع واستئثارهم بتوزيعها دون سائر المنتجين والموزعين للحيلولة دون التحكم في أسعارها كما يشاؤون (٢٣) .

ولما كانت المحافظة على حرية التجارة والصناعة هي الهدف السامي الذي من خلاله تتحقق المحافظة على مستوى الحياة الاجتماعية فاننا لم نجد أي ذكر للاحتكار خلال فترة هذه الدراسة .

سابعاً : تنشيط العلاقات الاقتصادية مع الدول الأخرى :

تمتعت الدولة العباسية فى عصرها الأول بعلاقات تجارية مميزة مع جيرانها كان لها أكبر الأثر فى ازدهار التجارة والصناعة . ومن الدول والبلاد التى كانت لها علاقات اقتصادية مع الدولة العباسية نذكر ، (بلاد الصين ، والهند ، وشرق افريقية ، وأوروبا) (٢٤) . وهذه العلاقات ساعدت على الانتعاش الاقتصادى ، فكانت الدولة الاسلامية تصدر الى العالم الخارجى : (الأقمشة القطنية والمنسوجات الحريرية والتمور وماء الورد ، وبعض أنواع الحبوب والعسل والموازين والصابون والزيت والاقلام والخيول العربية الأصيلة (٢٥) ٠٠٠ الخ) . هذا بالإضافة الى ما يمكن أن نسميه (تجارة المرور) وهى البضائع والغلات التى كانت تمر بأرضى الدولة الاسلامية ، بمعنى أنها ترد اليها لتصدر منها الى بلاد أخرى . وكانت ترد الى أسواق الدولة فى العصر العباسى الأول الكثير من التجارات الخارجية مثل : (التوابل والأسلحة ، والأحجار الكريمة والعطور والرصاص وأنواع السجاد (٢٦) ٠٠٠ الخ) . وبعض هذه المنتجات كالتوابل والعطور والبخور والحديد كان يعاد تصديرها .

ولا يخفى علينا ما للعلاقات الاقتصادية من آثار ايجابية فى الدولة العباسية وخاصة فى المجالات التالية : -

- (أ) تنشيط حركة الموانئ الاسلامية .
- (ب) ازدهار بعض المدن ، وخاصة الساحلية وبعض الثغور .
- (ج) توسع المؤسسات المصرفية .
- (د) زيادة إيرادات الدولة .
- (هـ) التنوع فى عناصر السكان .

يضاف الى هذه الايجابيات انتشار الاسلام فى كثير من البقاع والأصقاع عن طريق النشاط التجارى الكبير الذى مارسه التجار المسلمون .

ثامناً : وفرة اعداد الحرفيين والمهنيين :

زخرت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول بعدد وافر من

عمال الحرف والمهن ، وهذا العدد لم يكن متوافرا بتلك الكثرة قبل حركة الفتوحات الاسلامية . ذلك أن الدولة الاسلامية كانت على قدر كبير من الحنكة والسياسة في معاملة أهالى تلك البلاد المفتوحة حيث أنها عملت على رعايتهم والاهتمام بهم كل فى مجال تخصصه . كذلك سمحت لهم بممارسة نشاطهم الحرفى فى حرية تامة . وأدى ذلك الى أن تتلمذ كثير من أبناء المسلمين على أيدي أرباب الحرف الفنية وأتقنوها (٢٧) يضاف الى ذلك أن الخلفاء العباسيين [عملوا على استقدام كثير من الأيدي الفنية الماهرة من البلاد الأخرى المجاورة (٢٨) ، وخاصة أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م)] ، وهذا يعنى (أيضا) كثرة الأيدي العاملة من ذوى الخبرة والمهارة فى الصناعات بجميع أنواعها .

تاسعا : توافر المواد الخام :

أدى اتساع الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول الى تنوع الثروات ومواردها الأولية ، وذلك لتباين طبيعة الاقاليم التى ضمتها تلك الدولة . ومن أهم هذه الثروات والموارد :

(أ) الثروة المعدنية ، مثل الذهب ، الفضة ، الحديد ، النحاس ، الرخام ، الكبريت ، الرصاص ، النفط ، الزئبق ، الكحل ، الملح طين الختم (٢٩) ، النشادر ، العقيق ، العنبر ، اللؤلؤ .

(ب) الثروة الزراعية ، وخاصة القطن .

(ج) الثروة الحيوانية ، وخاصة الصوف ، والجلود (٣٠) .

(د) الثروة البحرية وخاصة الاصداف واللؤلؤ والأسماك وغيرها .

هذه الثروات هى التى شكلت كيان العديد من الصناعات المتباينة . هذا بالإضافة الى أن توافر المواد الخام خلق مجالات صناعية متعددة كان لها أكبر الأثر فى ازدهار النشاط الصناعى أولا ثم النشاط التجارى (مجال التسويق) ثانيا .

عاشرا : تشجيع الدولة ورعايتها للتجارة والصناعة :

كان لدعم خلفاء الدولة العباسية الأولى أثره الواضح والبين فى

ازدهار التجارة والصناعة . ذلك أنهم شجعوها بكل الوسائل المتاحة ، فعملوا على بناء الأسواق وتنظيمها ، وفرضوا عليها الرقابة المستمرة من قبل المحتسب (٣١) ، للوقوف على جودة السلع ونظافتها ومدى مطابقتها لحاجات المجتمع .

يضاف الى ذلك ما سبق أن أشرنا اليه من حرص الدولة على توفير الأمن والحماية للتجار والصناع ، فكان للأمن أثره الواضح فى تحقيق الازدهار الاقتصادى . وأسندت الى الشرطة مهمة المحافظة على الأمن الداخلى لئلا ترتكب المحرمات والمخالفات والمحظورات (٣٢) . كذلك أسند الى جند الثغور المحافظة على الأمن من الاعتداءات الخارجية ، وبذلك غدا للأمن الداخلى والخارجى أثره فى استقرار التجارة والصناعة ، فنشطت حركة السفن والقوافل التجارية .

احدى عشر : رقى الصناعات وتطورها نتيجة للنشاط التجارى والعكس :

لقد نال قطاع الصناعة كل رعاية واهتمام من خلفاء العصر العباسى الأول ، الأمر الذى نتج عنه ازدهار صناعات عديدة فى مجالات مختلفة على النحو التالى :

- (أ) صناعة المواد الغذائية وصناعة الأدوات الزراعية وأدوات البناء .
- (ب) صناعة النسيج بمختلف أنواعه .
- (ج) صناعة الفخار وأوانى حفظ المياه .
- (د) الصناعات المعدنية مثل ، صناعة الأسلحة ، والحدادة والرصاص ... الخ .
- (هـ) صناعة أدوات الزينة مثل صناعة العطور والكحل والحلى بمختلف أنواعها .
- (و) صناعات أخرى متنوعة مثل ، صناعة الورق والأقلام وصناعة الصفارين (٣٣) .

وهذا التطور الصناعى كان له أكبر الأثر فى تنشيط التجارة الداخلية

والخارجية فقد وجدت أسواق خاصة ببعض الصناعات مثل سوق الشماعين وسوق السلاح وسوق الجوخيين وسوق الصاغة وغيرها (٣٤) ، ومن خلال العرض الذى سبق فى رقم (٧) نتبين من خلال الصادرات مدى قوة نشاط الدولة فى صناعتها وتجاريتها . وهذا يقودنا الى أمر مهم ، وهو استقلالية الصناعات من جهة ، ومن جهة أخرى ارتباط الصناعات بمناطق وجود المواد الخام من جهة أخرى (٣٥) .

الثانى عشر : توافر الحرية :

ان الاسلام دين السماحة والعدالة ، فهو يدعو الى المنافسة الحرة الشريفة التى تستهدف الخير لكل من البائع والمشتري . ولم يفرق الاسلام فى المعاملة بين المسلمين وغيرهم فى الأنشطة الاقتصادية ، لذا كانت حرية العمل الشريف متاحة للمسلمين وغيرهم . ومع ذلك فان بعض الحرف غلب عليها غير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . ويعود ذلك الى عامل الوراثة والظروف الاجتماعية ، وأحيانا الى طبيعة العقيدة والدين . وكان الناس أحرارا فى اختيار المهنة التى يريدون (٣٧) . من ذلك أن أهل الذمة عندما عملوا فى الأنشطة التجارية والصناعية ، أحترفوا الحدادة وصناعة الحرير والزجاج والدباغة والصباغة ، بالإضافة الى احترافهم مهنة الصرافة (٣٧) .

وقد كفل لهم الاسلام حرية التجارة بين بلدان العالم الاسلامى والخارجى وكانت لهم تجارتهم المميزة ، وبخاصة فى (الفراء ، والسيوف ، والغلمان ، والجوارى ، والدباج ، والعود ، والكافور ، والمسك) ، وكلها تجارات ثمينة .

وهكذا فان حرية الحركة والعمل كفلت - بلا شك - الازدهار التجارى والصناعى ، بحيث لم يكن ذلك النشاط مقصورا على أبناء الأمة الاسلامية وحدهم ؛ الأمر الذى يؤكد سماحة الاسلام وعظمته .

ثالث عشر : مرونة أساليب التعامل الاقتصادى :

صاحب نشاط التجارة والصناعة تطبيق بعض الأساليب التى كان

لابد منها من أجل تسهيل مرونة الحركة التجارية والصناعية . ومن هذه الأساليب نذكر ما يلي : -

(أ) انتشار الصيرفة : وهى حرفة قديمة جدا ، كان الغرض منها :

- ١ - تقييم النقود من حيث الجودة والوزن .
- ٢ - تحويل النقود أو صرفها لأغراض تجارية (٣٨) .

وكان للصيرفة علاقات مباشرة مع الدولة التى يهملها « الاحتفاظ بسمعة سلامة النقود وتوفيرها للتداول فى الأسواق » (٣٩) .

وكان للصيرفة نشاط ملحوظ فى العصر العباسى الأول نظرا لجودة النقود من جهة ثم لازدهار التجارة من جهة أخرى . وأدى اتساع أعمال الصيرفة الى التوسع التجارى والصناعى بشكل طبيعى . ومع ما يتطلبه هذا التعامل مع هؤلاء الصيرفة من الحذر الشديد نظرا لتعاملهم بالربا ، الا أن التجار المسلمين تعاملوا معهم وفقا لنضوابط الشرعية فى هذا الشأن .

(ب) السفتجة : هى « أن يعطى رجل مالا لآخر وللأخذ مال فى بلد المعطى فيوفيه اياه ، فيستفيد أمن الطريق » (٤٠) فهى وسيلة للأمان ، استعملها التجار لحفظ أموالهم ، وتسهيل حركتهم التجارية ، سواء عن طريق تسوية الديون أو تصفية الحسابات . وقد وجدت فى العصر العباسى الأول منذ عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (٤١) .

(ج) الصك : الصك الكتاب ، فارسى معرب والأصل (جك) ، والصك الذى يكتب فيه للعهد (٤٢) ، وهو وسيلة من وسائل الائتمان القديمة كان يستخدم لدفع الأرزاق والاعطيات لوقت مؤجل (٤٣) ، ولعل أول اشارة نحصل عليها فى استخدام الصكوك فى العصر العباسى الأول ظهرت فى عهد الخليفة هارون الرشيد (٤٤) (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م) ، وقد اتسع استخدامه نظرا لحاجة التجار والصناع ، والدولة على حد سواء ، وكان عادة يصرف من بيت المال أو المصارف الخاصة (٤٥) .

(د) انشاء الشركات : ذلك أن حركة التجارة ولدت أنواعا مختلفة من الشركات ، وإن كان الأمر ليس بجديد فى عصر هذه الدراسة . ولكن توسع التجار والشركاء فى انشاء الشركات خدمت قطاعى التجارة والصناعة على حد سواء وكانت على النحو التالى :

- ١ - شركة الأموال ، وهذه تتطلب دفع مبالغ مالية من كل شريك .
- ٢ - شركة الأعمال ، وهذه تتطلب جهودا ذهنية وبدنية .
- ٣ - شركة الوجوه ، وهذه تتطلب الثقة بين الشركاء والمتعاملين معهم نظرا لعدم وجود مبالغ مالية لتأسيس شركاتهم لأنهم يأخذون بتأجيل ويبيعون ويتقاسمون الربح .
- ٤ - شركة المضاربة ، وهذه تتطلب العمل من الشركاء أو احدهم مقابل جزء من الربح (٤٦) .

(هـ) انشاء النقابات المهنية ، التى كان شعارها « الصناعة نسب » (٤٧) . والنسب كما نعلم يجمع على التحاب والتناصر ، وهذا بدوره أدى الى تعاون أبناء الصنف الواحد ، وشعورهم بالارتباط الوثيق مع بعضهم (٤٨) ، فكان لكل حرفة شعارها ومراسيمها ولكل صناعة نقيبها .



من خلال العرض السابق للأساليب التجارية ندرك أن التوسع فى وسائل الائتمان وكثرة المؤسسات المصرفية قد ساعد على خلق أجواء متناسبة ومتفاعلة مع الأنشطة التجارية والصناعية .



وبعد ، فإنه يتبين لنا مما سبق أن الازدهار التجارى والصناعى الذى شهدته الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الاول لم ينبع من فراغ وإنما هناك عوامل عدة اسهمت فى تحقيقه وساعدت على رقيه .

الهوامش والتعليقات

- (١) سورة البقرة ، آية (٢٧٥) .
 - (٢) السيوطي : الدر المنثور ، ج٢ ، ص ١٤٤ .
 - (٣) سورة الحديد ، آية (٢٥) .
 - (٤) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٩٧ .
 - (٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .
- وقد يلوح لنا أن هذه الأرقام فيها شيء من المبالغة وإن كان كذلك إلا أنها تدل في المقابل على قوة الاقتصاد العباسي .
- (٦) من كتب الحسبة نذكر : نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري ، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة ، لابن بسلام ، ومعالم القرية في أحكام الحسبة ، لابن الأخوة القرشي .
 - (٧) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١١٩ ، وهذا الموقع المميز للعراقيين جعلهم وسطاء فاعلين في تجارة العالم المتمدين .
 - (٨) الصابي : تحفة الأمراء ، ص ١١ ، مسكويه : تجارب الأمم ، ج١ ، ص ١٨ ، التنوخي : نشوار المحاضرة ، ج١ ، ص ٢٦ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص ٤٢ .
 - (٩) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٢٠٩ .
 - (١١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
 - (١٠) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٩ .
 - (١٢) مقدمة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتاب ، ص ٢٢٥ - ٢٣٧ .
 - (١٣) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٢٢ .
 - (١٤) اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٧ .
 - (١٥) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٢٢ .
 - (١٦) ابن خردادبه : المسالك و الممالك ، ص ١٥٤ .
 - (١٧) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٥ .
 - (١٨) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٤٣ .
 - (١٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ص ٧ ، ص ٢١٥ .
 - (٢٠) سورة البقرة ، آية ٢٧٥ .

- (٢١) الجهشياري . الوزراء والكتاب ، ص ١٠٠ ، ٢٢٠ .
- (٢٢) رواء مسلم في صحيحه ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .
- (٢٣) أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادي الاسلامي ، ص ١٥٩ ، على عبدالرسول: المبادئ الاقتصادية في الاسلام ، ص ٦٢ .
- (٢٤) ابن خرداذبه : الممالك والممالك ، ص ١٥٢ .
- (٢٥) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٧٥ .
- (٢٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ .
- (٢٧) زكي حسن : فنون الاسلام ، ص ٨٧ .
- (٢٨) اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٢٨ ، الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ٤٢ .
- (٢٩) طين الختم : هو الطين السيراقي ، نوع من التراب ، يعجن بالماء ، ويستخدم في ختم الرسائل ، وهو البديل عن الشمع الأحمر اليوم ، انظر ضيف الله الزهراني ، موارد بيت المال ، ص ١٧٢ هامش (*) .
- (٣٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٣ . أنور الرفاعي : النظم الاسلامية ، ص ٢٥١ .
- (٣١) المحتسب ، نوعان : محتسب متطوع يقوم بالعمل من تلقاء نفسه ، ومحتسب مكلف من قبل ولي الأمر للقيام بمهام الجسبة ، التي تعني « الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر اذا ظهر فعله » .
- انظر : الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧ .
- (٣٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٢٢ - ٢٤ .
- (٣٣) لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ٢٢٠/٢١٩ . الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص ٣٣/٢٢/٢٤ .
- (٣٤) اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٤ وما بعدها .
- (٣٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ .
- (٣٦) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ٩٢ .
- (٣٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٨٣ .
- (٣٨) عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٦٥ ، أحمد الشرباصي : المعجم الاقتصادي الاسلامي ، ص ٢٥٨ .
- (٣٩) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ص ٢٩٦ .
- (٤٠) ابن منظور : لسان العرب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

- (٤١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ١١٠/١٠٩/٨٩ .
- (٤٢) ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ٤٥٧ .
- (٤٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١٠ ، ص ٤٥٧ .
- (٤٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ١٩٦ .
- (٤٥) الصابي : الوزراء ، ص ٢٣٥ .
- (٤٦) لمزيد من التفاصيل عن الشركات انظر : الترخيص : المبسوط ، ج ١١ ، ص ١٥٢/١٥٦/١٧٣/١٧٩ . عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ، ص ١٢٦ - ١٣٠ .
- (٤٧) الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ٢٧ .
- (٤٨) صباح الشيعلي : الاصناف في العصر العباسي ، ص ١٣٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

القرآن الكريم

- ابن الأثير : عز الدين ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٠٣هـ) « الكامل في التاريخ » ، نشر : دار صادر ، ودار بيروت ، لبنان ، طبعة بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- ابن خرداذبه : أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠هـ) . « المسالك والممالك » ، نشر : مكتبة المثنى ببغداد ، باعتناء دى خويه ، ليدن ١٩٨٩م .
- ابن خلدون : ولي الدين ، أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) . « المقدمة » ، مطبوعات ومنشورات دار الشعب بالقاهرة .
- ابن منظور : جمال الدين ، أبو الفضل ، محمد بن جلال الدين المصري (ت ٧١١هـ) . « لسان العرب » ، دار صادر ، ودار الفكر ، بيروت .
- التتوخي : أبو علي ، المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد (ت ٣٨٤هـ) . « جامع التواريخ ، المسمى ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » تحقيق : عبود الشالجي ، طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- الجاحظ : أبو عثمان ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) . « التبصر بالتجارة » ، نشره ، حسن حسنى عبد الوهاب ، المطبعة الرحمانية ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م .
- الجهشيارى : أبو عبدالله ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ) . « الوزراء والكتاب » ، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى ، طبعه ونشره ، مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ / ١٩٣٨م .

- السرخسى : أبو بكر محمد بن أبى سهل (ت ٤٩٠ هـ) .
« المبسوط » ، طبع ونشر : دار المعارف ، بيروت .
- السيوطى : جلال الدين ، أبو الفضل ، عبد الرحمن بن أبى بكر
(ت ٩١١ هـ) .
« الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ، دار القلم بالقاهرة .
- الصابى : أبو الحسن ، هلال بن الحسن بن ابراهيم الحرانى
(ت ٤٤٨ هـ) .
« تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » تحقيق : عبد الستار أحمد
فراج ، دار احياء الكتب العزبية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- قدامة بن جعفر ، (ت ٣٣٧ هـ) .
« الخراج وصناعة الكتابه » ، تحقيق : طلال رفاعى ، طبع ونشر :
مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- القلقشندى : أبو العباس ، أحمد بن على (ت ٨٢٦ هـ) .
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة
الأولى ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- الماوردى : أبو الحسن ، على بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ) .
« الأحكام السلطانية والولايات الدينية » طبع ونشر : مصطفى
الحلبى وأولاده ، مصر ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .
- مسكويه : أبو على ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ) .
« تجارب الأمم » ، نشر ، مكتبة المثنى ، ببغداد ، باعتناء
دى خويه ، ليدن ، ١٨٧١ م .
- مسلم بن الحجاج القشيرى (ت ٢٦١ هـ) .
« صحيح مسلم » ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء
التراث العربى .
- المقدسى : محمد بن أحمد ، المعروف بالبشارى ، (ت ٣٨٠ هـ) .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، نشر مكتبة المثنى ببغداد ،
باعتناء دى خويه ، ليدن ، ١٩٠٦ م .

ثانيا : المراجع

- أحمد الشرباصى ، « المعجم الاقتصادى الاسلامى » دار الجيل ، ١٤٠١ هـ .
- أنور الرفاعى ، « النظم الاسلامية » ، دار الفكر ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- حسن ابراهيم حسن ، « تاريخ الاسلام ، السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤ م .
- زكى محمد حسن ، « فنون الاسلام » طبع ونشر : دار الفكر .
- صالح أحمد العلى ، « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى » ، طبع ونشر : دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ م .
- صباح ابراهيم الشىخلى ، « الأصناف فى العصر العباسى ، نشأتها وتطورها » نشر : وزارة الاعلام العراقية ، طبع : دار الحرية ، بغداد ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .
- ضيف الله بن يحيى الزهرانى ، « موارد بيت المال فى الدولة العباسية » طبع ونشر : المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- عبد العزيز الدورى ، « تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى » طبع ونشر : مكتبة المشرق ، والمكتبة الشرقية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ م .
- على عبد الرسول ، « المبادئ الاقتصادية فى الاسلام ، والبناء الاقتصادى للدولة الاسلامية » طبع ونشر : دار الفكر العربى ١٩٦٨ م .

العلاقات الاسلامية البيزنطية

فى

فترة حكم النساء وأزواجهن

(١٠٢٨ - ١٠٥٦ م = ٤١٩ - ٤٤٨ هـ)

أ.د. علية عبد السميع الجنزورى (١)

كان للعلاقات الاسلامية البيزنطية على امتداد تاريخ العصور الوسطى دور بارز فى تكييف تاريخ العالم ككل ، وتاريخ المسلمين والبيزنطيين على وجه الخصوص .

والواقع أن أغلب حلقات تلك العلاقات نالت حظها الوافر من الدراسة والبحث المستفيض سواء من الجانب الاسلامى أو من الجانب البيزنطى ، ولكن بقيت بعض الجوانب القليلة التى لم يركز عليها الضوء الا قليلا . وقد آثرت أن أتناول أحد تلك الجوانب لالقاء بعض الضوء على العلاقات بين الطرفين فى فترة حكم زوى Zoe وثيودورا Theodora ابنتى الامبراطور قنسطنطين الثامن Constantine VIII (١٠٢٥ - ١٠٢٨ م / ٤١٦ - ٤١٩ هـ) ، الذى ينتهى باعتلائه العرش البيزنطى العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية ٨٤٣ - ١٠٢٥ م (٢) / ٢٢٩ - ٤١٦ هـ .

أما عن قنسطنطين الثامن هذا ، فهو - آخر الذكور فى الأسرة

(١) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ بكلية البنات - جامعة

عين شمس .

2. Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford, 1968, p.210. .

المقدونية - وكان شريكا في الحكم Co-Emperor (٣) لأخيه باسل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م / ٣٦٥ - ٤١٦هـ) لمدة نصف قرن تقريبا ، الا أنه كان شريكا ضعيفا ، فظل حامل الذكر الى جوار شقيقه القوى . وعندما تقدم به السن صار امبراطورا بالاسم فقط ، فقضى معظم وقته فى حضور مآدب الطعام والشراب والاستمتاع بحفلات المسرح التى أنفق وبدد فيها - بطيش واهمال - الايرادات المالية الضخمة للامبراطورية التى كان باسل الثانى قد جمعها . ولذا وصف بأنه كان امبراطورا فاسقا مسرفا (٤) .

هذا هو رأى المصدر البيزنطى فى قنسطنطين الثامن ، أما المصدر السريانى فينقله لنا - ابن العبرى - الذى انفرد وحده بالرأى القائل بأنه كان « لطيفا مهذبا دمث الأخلاق وكان رجلا ذا نفس عظيمة » (٥) ، ويتعبير آخر كان دمث الخلق بشوشا شهم النفس (٦) .

(٣) كان لنظام الامبراطور المشارك فى الدولة البيزنطية أهمية خاصة فى الحفاظ على نظام توريث العرش فى الأسر الحاكمة الشرعية . ولم يكن هذا النظام يخضع للقانون فى بيزنطة كما كان الحال فى روما ، وعليه فقد أخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوبا عمليا فى اختيار خليفتهم المرغوب فيه بتعيينه امبراطورا مشاركا ، وذلك فى فترة حكمهم وقبل وفاتهم . وكان هذا الامبراطور يلبس التاج ويمنح اللقب الامبراطورى ، بئ ان صورته كانت تظهر غالبا جنبا الى جنب مع الامبراطور الفعلى على النقود ، وكان اسمه يدرج فى المراسيم الامبراطورية . وعند وفاة الامبراطور الفعلى ، يحل الامبراطور المشارك محله ويتمتع بكامل سلطات الامبراطور ، وبذلك يحفظ حق بقاء العرش فى داخل الأسرة الامبراطورية ويدعم استمرارية الدولة . ولقد استمر اختيار الامبراطور المشارك من الأسرة الحاكمة الشرعية حتى خرقت تلك القاعدة على عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م / ٣٠١ - ٢٤٩هـ) عندما عين والد زوجته رومانوس ليكابينوس فى ديسمبر ٩٢٠م / ٢٠٨هـ امبراطورا مشاركا له . مما كان له اثره فى خروج العرش من الأسرة الشرعية الى أسرة غير شرعية . (Ostrogorsky : Ibid, P.P. 107,264).

4. Ostrogorsky: Ibid, P.P.298, 302

5. Bar Hebraeus: The chronography of Gregory Abul Faraj, V. 1,P.191.

(٦) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، نقله للعربية الأب اسحق أرملة السريانى ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٨٣ .

ومهما يكن الأمر ، فقد توفي قنسطنطين الثامن فى ١٠٢٨م/٤١٩هـ ولم يكن له أولاد ذكور (٧) وترك ثلاث بنات فقط (٨) ، كانت أكبرهن وهى ايودوكيا Eudocia مشوهة الوجه من أثر مرض الجدري ، لذا اختارت حياة الرهبانية (٩) . وعلى ذلك لم تكن كبرى بنات قنسطنطين الثامن هى التى «ملكها الروم» (١٠) عليهم بعد والدها .

وإذا كانت بعض المصادر العربية والسريانية قد أشارت الى أنه بوفاة قنسطنطين (ملك الروم) انتقل ملك الى بنت له ، وقام بتدبير الملك والجيوش زوجها وهو ابن خالها « (١١) أو أنه أوصى بالملكة « حين احتضاره لابن أخيه رومانوس « أو « صهره زوج ابنته » (١٢) ، فان المصادر والمراجع الغربية تشير الى أنه على خلاف المعتاد ، وعندما كان الامبراطور قنسطنطين الثامن على فراش الموت ، حاول أن يزوج إحدى بناته - أى إحدى الأميرتين المستتين (١٣) - وبحت عن زوج مناسب . وفى اللحظات الأخيرة قبل وفاته وقع اختياره على رئيس المدينة رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus الذى كان ممثلاً بارزاً للاستقرابية الوطنية فى العاصمة ، وكان يشرفه انتماءه الى أسرة بيزنطية عريقة . هذا

7. Ostrogorsky: Op.cit, P.321.

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ ، ج ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ١٩٨٠ ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ ؛

Ostrogorsky: Op.cit, P.321

9. Ibid, P.321.

(١٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

(١١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ . وغالبية المصادر العربية تطلق على امبراطور الروم اسم ملك الروم .

(١٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ .

(١٣) كانت زوى وثيودورا قد ودعتا سن الشباب ، لكنهما كانتا آخر أعضاء الأسرة المقدونية ، وعليه فقد قدر لهما أن تلعبا دوراً مهماً فى التاريخ البيزنطى خلال السنوات التالية .

Ostrogorsky: Op.cit, P. 321.

(مجلة المؤرخ العربى)

بالإضافة إلى وظيفته السامية . ذلك أن وظيفة رئيس المدينة Eparch of the City كانت باستمرار - خاصة بالنسبة للقسطنطينية - وظيفة كبرى . وقد زادت مكانتها في القرن الحادي عشر ، بعد أن وصف كتاب المراسيم Book of Ceremonies في القرن العاشر الرئيس أو الأبرش بأنه (أبو المدينة) ، بل قيل أن تلك الوظيفة كانت من المناصب الامبراطورية الرفيعة ، وأن صاحبها لا يفرقه عن الامبراطور شيء سوى لبس الأرجوان (١٤) .

وكان أن تزوج رومانوس من زوى في ١٢ نوفمبر ١٠٢٨م / ٢٢ شوال ٤١٩هـ ، وكانت العروس آنذاك في الخمسين من عمرها . وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة قسطنطين الثامن ارتقى رومانوس العرش باسم رومانوس الثالث أرجيروس (١٥) وامتد حكمه من ١٠٢٨ إلى ١٠٣٤م (١٦) / ٤١٩ - ٤٢٦هـ ، وكان على قدر من الثقافة والنضج ، إذ كان عند زواجه في الستين من عمره . أما عن مواهبه الطبيعية كحاكم فكانت ضعيفة تماما ، لكنه « حاول أن يحذو حذو الشخصيات البارزة في الماضي ، والتي كانت أطيافها تصبح باستمرار أمام عينيه » (١٧) .

-
14. Ostrogorsky: Ibid, P.321; Hussey (J.M.) Cambridge Medieval History, vol. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantine and its Neighbours, Chapter V, The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli 1025-1204, Cambridge 1966, P.195.

وينذكر رنسيومان أن رئيس المدينة كان مسئولاً عن الشرطة والأمن وضبط النظام وتوزيع جرايات الخبز وغير ذلك . (رنسيومان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦١ ، ص ٩٤) .

15. Ostrogorsky: Op.cit, P.P.321-322.

كان لابد لرومانوس أرجيروس من أن يطلق زوجته السابقة ، فتحولت إلى سلك الراهبات رغم معارضة الكنيسة ، وذلك كي يتم تلك الزيجة الجديدة ويصل إلى الحكم ويلبس الأرجوان .

- (Previte Orton; The shorter Cambridge Medieval History, V.1, P.273, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part 1, Chapter V, P.195)

16. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

17. Ostrogorsky: Op.cit, P.322.

أما زوجته الامبراطورة زوى ، فكانت الابنة الوسطى للامبراطور الراحل قسطنطين الثامن ، وكانت على قدر كبير من الجمال الذى شهد به بعض المؤرخين المعاصرين ، وعلى رأسهم (بسيلوس Psellus) وثمة صورة رائعة رسمها لها أحد كبار الفنانين بالفسيفساء فى كنيسة سانت صوفيا فى صالة العرض الخاصة بالنساء . وكانت بسبب شدة جمالها تثير الانتباه - حتى فى كهولتها - وذلك ببشرتها الصافية الناعمة وباهتمامها بأناقيتها ومظهرها (١٨) . ولكنها كانت طموحة ، ساذجة ، تعتقد بشدة فى كلام العرافين والمشعوذين . ولم تكن لديها أية دراية بفن الحكم (١٩) . هذا الى أنها كانت تتصف بالانانية والتهور والتبذير (٢٠) .

هكذا حكم رومانوس الثالث الامبراطورية البيزنطية شريكا للامبراطورة زوى (٢١) وهو الذى أشار اليه المصدر العربى باسم (أرمانوس) (٢٢) .

والواقع أنه منذ اللحظة الأولى لزواج زوى من رومانوس ، ولادة

18. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol.IV,Part1, ChapterV,P.194

هنا قد يتساءل البعض عن سر بقاء تلك الامبراطورة دون زواج حتى سن الخمسين رغم جمالها ولناقتها وحسن مظهرها ؟ الا أن الاجابة تستتج أو تستشف من أن ذلك حدث بعد اخفاقها فى حبها الأول . فقد قرأنا عن مفاوضات دارت من أجل زواج الامبراطور الغربى الشاب وتو الثالث Otto III منها ، الا أن تلك المفاوضات لم يقدر لها النجاح ، فعندما توجهت الى ايطاليا فى يناير ١٠٠٢م/٢٩٢هـ لتلقى العلم فوجئت بخبر وفاة خطيبها وهو فى ريعان شبابه ، وذلك عند وصولها الى مدينة (بارى) الإيطالية .

(Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist. vol. IV, .Chapter V, P.P 184-187).

19. Hussey: Ibid, P.194.

20. Previte Orton: Op.cit, V.1,P.273.

21. Previte Orton: Ibid, P.273, The Encyclopedia Americana, International Edition, V.29, 788.

(٢٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٢٨ ، ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ أبو الفدا :

المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

عدة سنوات ، كان هناك حاجز واضح بينها وبينه ، فبمجرد اعتلاء رومانوس العرش البيزنطى ، نبذ زوى الامبراطورة الكهلة وتركها كما مهملا . هذا بالاضافة الى أنه ضيق عليها فى المصروف (٢٣) .

وبخصوص العلاقات الاسلامية البيزنطية فى عهد رومانوس وزوى نجد أن المراجع الغربية اشارت اليها فى شىء من الاقتضاب، حيث قالت « ولسوء حظ رومانوس أرجيروس فإنه هزم فى بلاد الشام » . وقد تعرضت العاصمة القسطنطينية فى عهده لعدة كوارث منها الطاعون ، والجراد ، المجاعة والزلازل (٢٤) . أما المصادر العربية والسريانية فقد فصلت الحديث وكشفت النقاب أكثر عن تلك الحلقة من العلاقات بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى .

من ذلك ما يقوله ابن الأثير من أن «ملك الروم» - أى الامبراطور البيزنطى - خرج الى بلاد الشام فى ٤٢١هـ / ١٠٣٠م (٢٥) بجيش يقدر بثلاث مائة ألف مقاتل ، وتوجه الى حلب التى كانت بيد شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس (٢٦) وعسكروا بالقرب منها « فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفا وكان أصحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه » (٢٧) .

وفى ذلك الموقف الصعب أشار رومانوس على من معه بالترث حتى يسقط المطر وتتوافر المياه ، لكن « ابن الدوقس » - وهو من أكابر الروم - رفض تنفيذ هذا رأى وأشار بالاسراع فى الحركة « قصرا لشر يتطرق اليه ، ولتدبير كان قد دبّر عليه » ورافقه ابن لؤلؤ فى عشرة آلاف

23. Ostrogorsky: Op.cit, P.323, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 196.

24. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٤٠٤ .

والمقصود بملك أو امبراطور الروم هنا رومانوس الثالث أرجيرس لأن ذلك كان فى فترة حكمه .

(٢٦) قامت أسيرة صالح بن مرداس فى حلب ٤١٤هـ / ١٠٢٣م واستقلت بالأمر

فيها حتى ١٠٧٩م (حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ١٥) .

(٢٧) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٤٠٤ .

فارس وسلخوا طريقا آخر. عندئذ خلا بالملك أحد أصحابه وأعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلا ، هو أحدهم ، على الفتك به . وعندئذ خاف رومانوس « ورحل من يومه راجعا » (٢٨) .

ولم يلبث أن لحق به ابن الدوقس وسأله عن سبب رجوعه ، فأرجع ذلك الى اجتماع العرب عليهم وقربهم منهم . ولم يلبث أن قبض على ابن الدوقس وابن لؤلؤ ومن معهما ، ورحل الامبرطور راجعا فتبعه « العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون » (٢٩) .

ويقال أيضا ان سبب عودة الامبراطور الى بلاده أن حشدا قليلا من العرب هاجم القوات البيزنطية « فظن الروم أنها كبة » فاحتاروا فيما يصنعون ، حتى ان ملكهم « لبس خفا أسودا وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر » عندئذ انهزم البيزنطيون وغنم المسلمون جميع ما كان معهم (٣٠) .

أما ابن العبري فيعطينا تفسيراً دينياً انفرادياً به ، لذا يجب علينا أن نتناوله بشيء من الحيدة والحذر ، وذلك حين يقول : « ان الملوك السابقين لرومانوس ، نجحوا في التخلص من اضطهاد المؤمنين لهم ، لذلك ازدهروا في كل مكان . لكن هذا الملك بدأ يضطهد المسيحيين ، وأبعد عن طريق النقي انبطريرك القدس ابن عبدون Mar Abdun وأساقفته ، وذلك اتباعاً للعادة القديمة ، وعليه فقد حطم الله الروم المخادعين المضللين وسحقهم أمام أعدائهم » (٣١) .

(٢٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٥ .

(٣٠) نفس المصدر والجزء والصفحة .

31. Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P.191.

أما مترجم ابن العبري فيعطينا ترجمة هذا النص على النحو التالي : « ان الملوك السابقين لرومانوس كان للنصر حليفهم في الحروب لأنهم لم يكونوا يتشبثون بالمسائل الدينية . أما رومانوس هذا فقد عادى بطريركنا القديس ابن عبدون (١٠٠٤-١٠٣٠ م/٣٦٤ - ٤٢١ هـ) وأساقفته ونفاهم جارياً على عادة اليونان المكارين القدماء ، ولذا سمح الرب بسحقهم تجاه أعدائهم » (ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣) .

وقد أوضح المؤرخ ابن الأثير خسائر البيزنطيين فى ذلك اللقاء مع المسلمين وحلفائهم. فقال انها كانت : « أربعمائة بغل محملة مالا و ثيابا » الى جانب هلاك كثير من البيزنطيين من شدة العطش ، ولم ينج الا الملك وحده « ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » (٣٢) .

أما المصدر السريانى، فيذكر أن خسائر البيزنطيين كانت «سبعين بعيرا محملة نقودا وآنية ذهبية وفضية وأقمشة فاخرة وبغالا كثيرة حتى بيع البغل الجيد فى حلب بدينارين » . ولم يبق مع الملك رومانوس فيما قيل « خيمة أو كأس يشرب بها ماء » (٣٣) .

ثم كان أن حدث سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م أن استولى البيزنطيون على مدينة الرها من المسلمين . وتفصيل ذلك أن الرها كانت بيد عطير النميرى ، فاستولى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر على حران وجهاز من قتل عطيرا حاكم الرها . فشجع صالح بن مرداس حاكم حلب الى نصر الدولة أن يعيد الرها الى ابن عطير والى ابن شبل مناصفة ، فقبل شفاعته وسلمها اليهما وذلك فى سنة ٤١٦هـ / ١٠٣٣م (٣٤) . وكان فى الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير . وظلت المدينة معها حتى تلك السنة ٤٢٢هـ ، فراسل ابن عطير الامبراطور البيزنطى رومانوس وباعه حصنه بعشرين ألف دينار . هذا بالاضافة الى عدة قرى من بينها أرية من ابن عطير . وتسلم البيزنطيون البرج الذى كان له ودخلوا البلد عنوة فملكوه ، وهرب منه أصحاب ابن شبل ، عندئذ قتل البيزنطيون المسلمين وخربوا المساجد (٣٥) .

(٣٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٠٥ .

(٣٣) ابن العبرى . تاريخ الزمان ، ص ٨٢ - ٨٤

Bar Hebraeus: V,1, P.192.;

(٣٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣٥) ابن الأثير . الكامل ، ج ٩ ، ص ٤١٢ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق نفس

الجزء والصفحة وابن شبل هو ابن شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

وعندما سمع نصر الدولة الخبر سير جيشا الى الرها ، فحاصرها « وفتحها عنوة » واعتصم من بها من الروم بالبرجين ، واحتفى النصارى بالبيعة الخاصة بهم ، « وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة » ، فحاصروهم المسلمون وأخرجوهم ثم قتلوا أكثرهم ونهبوا البلد . وبقي البيزنطيون فى البرجين ، فسار اليهم جيش بيزنطى عظيم يقدر بنحو عشرة آلاف مقاتل ، فانهزم أصحاب ابن مروان أمامهم ، وعندئذ دخل البيزنطيون البلد وما جاوره من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج « وحمل اليهم خراجا » عنهما (٣٦) . وقد أشار ابن الأثير فى موضع آخر الى استيلاء البيزنطيين على الرها فى عهد الامبراطور رومانوس بشىء من الايجاز بقوله : « وهو الذى ملك الرها من المسلمين » (٣٧) .

وفى تلك السنة أيضا ٤٢٢هـ / ١٠٣١م استولى البيزنطيون على قلعة أفامية بالشام . ويرجع السبب فى ذلك الى أن الخليفة الفاطمى الظاهر (٣٨) أرسل وزيره الدزيرى (٣٩) الى الشام فملكه . ثم قصد

(٢٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤١٢ .

(٢٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٨ .

(٢٨) هو أبو الحسن على بن منصور بن نزار بن معد ، ولد ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة . بويغ له يوم عيد الأضحى سنة احدى عشرة وأربع مئة . (ابن ايوب الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٦ ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٢٨٠هـ - ١٩٦١م ، ص ٣١٢) : المقرئى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م ، ص ١٢٤ .

(٢٩) الدزيرى أو التزيرى هو الأمير المظفر أمير الجيوش ، عدة الامام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالى أبو منصور أنوشتكين ، مولده بلاد ما وراء النهر فى بلد الترك فى البلد المعروف بختل ، وسبى منه وحمل الى كاشغر ، وهرب الى بخارا وملك بها وحمل الى بغداد ثم الى دمشق سنة ٤٠٠هـ فاشتراه القائد تزير بن أونيم الديلمى . ثم انتقل الى ملكية الحاكم بأمر الله عام ٤٠٢ هـ ، وصار يرتقى حتى سيره مع سيد الدولة ذى الكفائتين الضيف فى العسكر الى الشام عام ٤٠٦هـ ، ثم تولى

حسان بن المفرج الطائي ، وألح في طلبه فهرب منه ، ودخل الى الأراضى البيزنطية « ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب » وبصحبه جيش كبير ، فسار الى أفاعية وباغتها واستولى عليها ، وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرههم « . وعندئذ أرسل الدزبرى يستنفر الناس للغزو (٤٠) .

وفى ١١ أبريل ١٠٣٤م (٤١) / جمادى الأولى ٤٢٥هـ مات رومانوس الثالث فى الحمام ، نتيجة لمؤامرة دبرت بالاتفاق بين زوى وعشيقها ميخائيل البافلاجونى Michael the Paphlagonian للتخلص منه .

وقد تباينت الآراء فى المصادر والمراجع العربية والأجنبية حول كيفية التخلص من رومانوس منها :

ان زوى وميخائيل أعملا الحيلة فى قتله ، فمرض « فادخله الحمام كارها وخنقه » وأظهرا أنه مات فى الحمام (٤٢) . ومنها أن زوى دست ميخائيل عليه فقتله (٤٣) ، أو أنه توفى نتيجة لدفع زوى وعشيقها له بالقوة تحت الماء . ومهما يكن الأمر فان زوى بعد أن شاع خبر وفاته اكتفت بأن دخلت الحجرة التى يرقد فيها وألقت عليه نظرة واحدة ثم انصرفت (٤٤) .

بعلبك ، ثم قيسارية ثم تنقل فى الوظائف حتى انتهى الى ولاية دمشق . (ابن الغلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧١ - ٧٥ : المقرئى : اتعاظ الحنفا بتخيار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج ٢ ، ص ١٢٢ حاشية (١) للمحقق د. محمد حلمى محمد أحمد) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٢٠ : أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر . ج ٢ ، ص ١٥٨ .

Ostrogorsky: Op. cit P.323.

(٤١)

(٤٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٩ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

44. Hussy: Op.cit Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V, P 196.

ولم تلبث زوى أن تزوجت بعد ذلك مباشرة من عشيقها الشاب ميخائيل البافلاجونى ، رغم المعارضة الشديدة التى تعرضت لها (٤٥) .
 وكان أن ارتقى ميخائيل العرش البيزنطى باسم ميخائيل الرابع Michael IV ١٠٣٤ - ١٠٤١ م (٤٦) / ٤٢٥ - ٤٣٣ هـ « على كره من الروم » على قول ابن الأثير (٤٧) .

وكان ميخائيل من أصل وضيع (٤٨) اذ كان ابنا لأحد فلاحى بافلاجونيا (٤٩) ، وهو الذى أشار اليه ابن الأثير بقوله أنه « رجل صيرفى ليس من بيت الملك وإنما بنت قسطنطين اختارته » (٥٠) .

ويدين ميخائيل الرابع بارتقائه العرش لأخيه John the Orphantrophus وهو أحد الخصيان ذوى النفوذ والسطوة فى القصر الامبراطورى ، فأحضره للقصر وصمم على أن ينتزع له العرش - الذى كان محروما منه لأنه خصى - وعندئذ وقعت الامبراطورة العجوز فى حبه وتزوجته (٥١) .

ورغم أن ميخائيل الرابع أثبت أنه حاكم قدير وقائد شجاع (٥٢) ، إلا أنه كان يعانى من مرض خطير (٥٣) ، فقد « أصابه الصرع ودام

45. Ibid: P.196.

46. Ostrogorsky:Op.cit, P. 323. The Encyclopaedia V. 29, P.788.

(٤٧) ابن الأثير - الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

48. The new Encyclopaedia Britanica, vol VI, P. 858, The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 11.

49. Ostrogorsky: Op.cit, P.323.

(٥٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٢٨ .

وربما خلط القلقشندى بينه وبين أخيه حنا عندما ذكر أن زوى زوجة رومانوس

مالت إلى التحكم فى دولته ، (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠) .

51. Ostrogorsky:Op.cit,P.323; The New Encyclopaedia Britannica, vo. VI, 1768, P.858.

52. Ostrogorsky: Op.cit, P.324

53. Ibid : P. 324: Previte Orton : Op. cit, P. 273; Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General

به « (٥٤) . ولذا ترك تصريف دفة الحكم كلية لأخيه الخصى حنا (٥٥) .

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى تلك الفترة ، فقد تردد فى المصادر ، أن الروم أستولوا فى ١٠٣٤هـ / ١٠٣٤م على قلعة بركوى وكانت متاخمة لبلاد الأرمن ، تحت حكم ابن الهيجاء ابن ربيب الدولة ابن أخت ديسودان بن مملان ، فاختلف هو وخاله ، فبعث الأخير الى البيزنطيين وأغراهم بالاستيلاء عليها . وبالفعل أرسل الامبراطور البيزنطى جيشا كبيرا استطاع الاستيلاء عليها . ولما وصل الخبر الى الخليفة القائم بأمر الله « أرسل الى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة » فاصطلحا بالفعل . لكنهما لم يتمكنوا من استعادتها رغم انضمام عدد كبير من المتطوعين اليهم ضد البيزنطيين ، وذلك لثبات أقدام الأخيرين فيها (٥٦) .

وفى ١٠٣٥هـ / ١٠٣٥م جمع ابن وثاب النميرى جيشا كبيرا من العرب واستنجد بالبيزنطيين الموجودين بالرها « فصار معه منهم جيش كثيف » ، وهاجم ممتلكات نصر الدولة ابن مروان ، ونهب وخرّب . عندئذ توجه ابن مروان بقوات ضخمة لمواجهة ابن وثاب وحلفائه ، مما دفعهم للتراجع . وكان أن أرسل ابن مروان الى امبراطور الروم « يعاتبه على نقض الهدنة ،

==

Editor: Marcel Dunan Honorary Foreword by A. Toyenbee, P. 297; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12;

ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ . وهنا يعزى بريفيث أورتون سبب ذلك المرض الى شعور ميخائيل بالندم ، نتيجة اشتراكه فى قتل رومانوس الثالث .
(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

55. Previte Orton: Op. cit P.273; The Encyclopaedia Americana, V. 19, p. 12.

(٥٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٧ .

كان الخليفة العباسى آنذاك هو القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر ، الذى ولد فى نصف ذى القعدة سنة احدى وتسعين وثلاثمائة . ولى الخلافة عند موت أبيه فى يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان ولى عهده فى الحياة ، وهو الذى لقبه بالمقائم بأمر الله . (العيوطى : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الاولى ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م ، ص ٤١٧) .

وفسخ الصلح الذى كان بينهما « . وأرسل يستنجد بحكام الأطراف ، « فكثر جمعه من الجنـد والمتطوعة » وعزم على التوجه الى الرها ومخاصرتها ، فقدمت رسل الامبراطور البيزنطى تفيد بأنه « يعتذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان » . ثم أرسل الامبراطور الى قواته التى بالرها والى قائدهم يستنكر ما قاموا به . وفى نفس الوقت أهدى الى نصر الدولة هدية قيمة ، فتراجع عما كان قد عزم عليه من غزوهم وفرق القوات المجتمعة معه (٥٧) .

وفى نفس السنة أيضا ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م تقدمت القوات البيزنطية الى ولاية حلب فخرج اليهم حاكمها شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، فاقتتل الفريقان وهزم حاكم حلب البيزنطيين ، وتبعهم الى عزاز ، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالما (٥٨) .

أما فى ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م فقد توجه ابن وثاب النميرى ، حاكم حران ومعه جيش كبير من الأكراد والمعيدين الى « (سويرك) وهى للروم ودوخها » وقتل من أهلها ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص وسبى مجموعة من النساء والفتيان . ثم زحف الى الرها وحاصرها ومنع عنها المؤونة . وعندما ضاق الأهالى بالحصار سلموه المدينة ، فانهزم البيزنطيون وتحصنوا فى برج المدينة ، فقاتلهم المسلمون وفتكوا بمائتين وخمسين رجلا وتعذر عليهم الاستيلاء على البرج ، « فنهبوا المدينة » وعادوا . ويقال ان عدد الفتيات والفتيان الذين سبواهم كان ثلاثة آلاف نسمة (٥٩) .

ومن ناحية أخرى ، فانه حدث خلال مدة حكم ميخائيل الرابع مع زوى ، التى استمرت سبع سنوات ، أن عقدت الامبراطورية البيزنطية معاهدة مع الخلافة الفاطمية فى مصر وأحرزت انتصارات مؤقتة فى

(٥٧) ابن الأثير . الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٣ . وهو يسمى الامبراطور البيزنطى هنا (ملك الروم) .

(٥٨) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٤ : أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٦ .

جزيرة صقلية (٦٠) .

ففى ١٠٢٦هـ/٤٢٧م عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله (٦١) . وفى رجب ٤٢٧هـ/مايو ١٠٣٦م تحالف كل من ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا قواتهما، وأمدهما نصرالدولة ابن مروان بجيش كبير ، وسار الجميع الى السويداء . وكان البيزنطيون قد أعادوا تجديد بنائها ، فحاصرها المسلمون « وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ، وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا » ، ثم توجهوا الى الرها وحاصروها « وقطعوا الميرة عنها » حتى غلت الأسعار بها غلاء شديدا ، وعندئذ خرج « البطريق » الذى بالمدينة متخفيا الى الامبراطور، وأخبره حقيقة الأمر، فأنجده خمسة آلاف فارس عاد بهم . ولما علم ابن وثاب وقائد قوات نصر الدولة بذلك كمنا لهم، فلما اقتربوا منهم أخذوهم على غرة فقتل عدد كبير من البيزنطيين وأسر مثلهم ، كما أسر البطريق أيضا وحمل الى باب الرها، وخيروا أهلها اما أن يفتحوا لهم باب المدينة أو يقتلوا انبطريق والأسرى الذين معه « ففتحوا البلد للعجز عن حفظه » . وتحصنت القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة بقلعتها ، فدخل المسلمون المدينة ، وغنموا ما فيها « وامتلات أيديهم من الغنائم والسبى وأكثروا القتل ، وأرسل ابن وثاب الى أمد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى » . وعندئذ سار حسان بن الجراح الطائى بجيش يقدر بخمسين ألف فارس « من العرب والروم نجدة لمن

60. The New Encyclopaedia Britannica, vol VI, (1768), p.p. 857-858.

(٦١) عندما توفى الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن أبى على المنصور الحاكم فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ/يونيه ١٠٣٦م ، متأثرا بداء الاستسقاء الذى ظل يلزمه مدة عشرين سنة عند صباه ، تولى بعده ابنه أبو تميم معد ، ولقب بالمستنصر بالله ، وكان مولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة ، وفى أيامه كانت قصة البساسيرى وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة . وكان الحاكم فى دولته بدر بن عبد الله الجمالى الملقب بالأفضل أمير الجيوش . (ابن الأثير : الكامل، ج ٩ ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨) ؛ اما ابن العبرى فيذكر أن الظاهر خليفة مصر توفى فى ١٠٣٥هـ/٤٢٧م .

(Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, p. 196.

بالرها»، فسمع ابن وثاب بذلك فصار مسرعا لملاقاته قبل وصوله. وعندما خرج البيزنطيون الموجودون بالرها الى حران قاتلهم أهلها . وفى نفس الوقت عاد ابن وثاب مسرعا بمجرد سماعه ذلك الخبر فانقض على البيزنطيين وقتل منهم عددا كبيرا وعاد المنهزمون الى الرها (٦٢) .

أما فى ٤٢٩هـ (٦٣) / ١٠٣٨م فقد عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، تم فيها الاتفاق على أن يطلق الامبراطور البيزنطى سراح خمسة آلاف أسيرا مسلما ، على أن يسمح للامبراطور بأن يجدد بنيان كنيسة القيامة . وبالفعل أطلق الامبراطور سبيل الأسرى ، ووجه أحد خبراء العمارة الى بيت المقدس للقيام بتلك المهمة بعد أن أمده بالأموال الوفيرة ، حتى أتم مهمته على الوجه الأكمل ورممها « كما كانت من قبل » (٦٤) .

أما عن صقلية فقد تم الاستيلاء على مسينا ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م وعلى سيراكوزا ٤٣٢هـ / ١٠٤١م ولكنها كانت انتصارات مؤقتة (٦٥) .

والواقع ان الجبهة الشرقية كانت محك العلاقات بين المسلمين والروم فى تلك الحقبة . وقد ذكر ابن العبرى أنه حدث فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) أن هاجم الأتراك الغز أرمينية أكثر من مرة « وقتلوا

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٦٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٠ : د . محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربى (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م) ص ٢٤٥ ؛ ويذكر المقرئى فى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج٢ ، ص ١٨٢ أن ذلك كان فى ٤٢٧هـ وأن المعاهدة كانت بين الخليفة الظاهر وميخائيل الرابع . أما ما ذكره Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 196 وابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص

٨٨ فيختلف فى السنة فقط حيث يذكران أنها كانت ٤٢٧هـ .

(٦٤) ابن الاثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٤٦٠ : محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ . أما ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيذكر أن عدد الأسرى كان خمسين ألفا وأنهم كانوا مسيحيين ومعتقلين فى مصر . والراجع أن ذلك الخطأ راجع للترجمة ، لأن المعاهدة بذلك الشكل تكون لصلحة البيزنطيين دون المسلمين .

65. The New Encyclopaedia Britannica, V. VI (1768), P. 858.

خلقا كثيرا من أكرادها وعربها « واستولوا على غنيمة كبيرة . ثم زحفوا على أورمية بأذربيجان فانحدر أكراد الجبل واشتبكوا معهم وانتصر الغز ، « وأجهزوا على عدد وافر منهم » (٦٦) ولما وجد الأمير صالح بن وثاب النميري حاكم حران وأرمينية أنه عاجز عن مواجهة البيزنطيين والأتراك في وقت واحد ، عقد الصلح مع البيزنطيين وتخلّى لهم عن الرها ، فاستولوا عليها وزاد عددهم فيها (٦٧) . عندئذٍ عمر البيزنطيون الرها « العمارة الحسنة وحصنوها » فخاف المسلمون على حران منهم (٦٨) .

وإذا كان ابن العبري قد ذكر أنه حدث في سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م أن زحف البيزنطيون على بلاد الشام فتصدى لهم الأمير أنوشتكين بجوار حماه وتغلب عليهم وأسر ابن عم الامبراطور « وقتل خصيا كبيرا » (٦٩) . فالراجح أنه أخطأ في ذكر السنة ، إذ نرجح نحن أنها ٤٣٢ هـ استنادا لما دونه ابن الأثير ضمن أحداث تلك السنة الأخيرة ، إذ ذكر أنه كانت هناك موقعة بين القوات المصرية والقوات البيزنطية وأن النصر فيها كان للمسلمين « كانت الموقعة بين عسكر المصريين - سيرة الدزبري - ، وبين الروم ، فظفر المسلمون » (٧٠) . ويعنى بالمصريين هنا الفاطميين .

وقد رأينا كيف هادن الفاطميون البيزنطيين في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ ، لكن لم تمر سوى سنوات قليلة ، الا وتمت مراسلات سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤١ م) بين الامبراطور البيزنطي وابن صالح بن مرداس . ذلك أن الامبراطور

(٦٦) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٨٩

Bar Hebraeus: Op.cit V. 1, P. 198;

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٠ ، ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٨٩ Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 198; ويذكر مترجم كتاب ابن

العبري أن الأمير ابن وثاب كان صاحب سورية وأرمينية .

(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٠ .

(٦٩) ابن العبري . تاريخ الزمان ، ص ٩٠ .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 199,

ويذكر مترجم ابن العبري أن الذي قتل كان حاجبا كبيرا لاخصيا (eunuch)

كما ورد في الأصل .

(٧٠) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩١ .

ميخائيل أرسل الى ابن صالح « يستمينه » ، ورأسله صالح ليتقوى به على الدزبرى ، خوف أن يأخذ منه الرقة . لكن عندما وصلت أخبار تلك الاتصالات الى الدزبرى ، هدد ابن صالح ، فاعتذر الأخير . ثم ان جمعا من عربان بنى جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرجت عليهم بعض القوات البيزنطية وقتلتهم وهزمتهم وشتتت شملهم . وعندما أرسل حاكم حلب الى الدزبرى فى نفس السنة (٤٣٢هـ) يخبره أن البيزنطيين يتجهزون لمهاجمة البلاد « وأن القوم على التجهز لقصد البلاد » ، جهز الدزبرى جيشا وجعل حاكم حلب على مقدمته ، فتقابلوا مع الجيش البيزنطى بين مدينة حماه وأفامية « واشتد القتال بينهم ، ثم ان الله نصر المسلمين ، وأذل الكافرين » . وهكذا دارت الدوائر على البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ، وأسر ابن عم الامبراطور فاقتدوه بمبلغ ضخم من المال ، وباطلاق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين . وقد توقف خطر البيزنطيين بعد ذلك ، «وانكف الروم عن الأذى بعدها » (٧١) .



أما عن الامبراطورة زوى فانها بزواجها من ميخائيل الرابع ، أخطأت تقدير الأمور مرة أخرى . ذلك أن ميخائيل أهملها كلية ، وفرض قيودا على حريتها الشخصية وتحركاتها ، وجعل من أخيه رقيبا عليها ، وذلك حرصا منه على ألا يتعرض للمصير الذى سبق أن تعرض له سلفه رومانوس أرجيروس (٧٢) .

والواقع أن المستفيد الحقيقى من وراء تلك الزيجة كان حنا شقيق ميخائيل الرابع ، اذ خطط بدهاء لاستمرار الحكم فى أسرته ، وأخذ فى اعتباره الوفاة المرتقبة لأخيه ، فحصل على موافقة ميخائيل الرابع ، وكذلك أقنع الامبراطورة زوى - بتبنى ابن أخته المسمى ميخائيل أيضا ، والذى منح لقب قيصر (٧٣) .

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

72. Ostrogorky: Op. cit, P. 323.

73. Ibid, P.326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V,P. 198.

وكان أن تم لحنا تنفيذ مخططه ، فقد حدث بعد عودة ميخائيل الرابع من إحدى حروبه ضد البلغار ، ان اشتد عليه المرض ، فانسحب الى أحد الأديرة - بعد أن تبني ميخائيل ابن أخته - الا أنه توفي في نفس اليوم ١٠ ديسمبر ١٠٤١م (٧٤)/ ١٤ ربيع الثانى ٤٣٣هـ (٧٥) . وبمجرد وفاة ميخائيل الرابع خلفه ابن أخته ، وتوج باسم ميخائيل الخامس Michael v (٧٦) .

والحقيقة أن حكم ميخائيل الخامس الملقب بالجلفاظ (٧٧) The Calker, Calaphates ، أدى بعهد الأسرة البافلاجونية الى نهاية غير متوقعة (٧٨) ، .ويعنى آخر « أدت مطامع البافلاجونيين الدنيئة وكراهيتهم الى تدميرهم » (٧٩) ذلك أن ميخائيل الخامس قابل احسان خاله اليه بالجحود فقبض عليه ونفاه، دون أن يرتفع صوت واحد لحماية ذلك الخصى الذى كان مكروها من الجميع (٨٠) ثم ان ميخائيل الجلفاظ اظهر مزيدا من الرعونة بعد ذلك فاتجه الى معاقبة الامبراطورة زوى أيضا . ويبدو أنه رأى منها على حد تعبير (بسللوس) - مصدر ازعاج شديد له ، لذلك استمر فى مراقبتها مراقبه صارمة ، كما كان الحال فى عهد ميخائيل الرابع ، ثم أتبع ذلك بمحاولة رادعة لابعادها عن حقل السياسة بعد اتهامها بمحاولة سم الامبراطور . وبالفعل حدث فى يوم عيد الفصح ١٠٤٢م أن نفيت زوى الى جزيرة برنسبو Principo

74. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; The Encyclopaedia Britannica, vol VI, p.p. 857-858.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

76. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, 1, Chapter V.P. 198; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

هنا خطأ ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ٥٠٢ فى القول بأن ميخائيل الخامس كان ابن

شقيق ميخائيل الرابع وليس ابن أخته .

77. Previte Orton: Op.cit, P.274; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

والجلفاظ هو الذى يسد شقوق السفينة .

78. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

79. Previte Orton Op.cit, P. 274.

80. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

فى بحر مرمرة ولم تصحبها سوى وصيفة واحدة (٨١) .

ولا عبرة هنا بما جاء فى بعض المصادر العربية عن حقيقة موقف ميخائيل الخامس من زوجة خاله . فقد ذكر القلقشندي أنه « أحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تخلع نفسها عن الملك فأبت فنفاها الى بعض الجزر واستولى على المملكة سنة ٤٣٣هـ » (٨٢) .

وربما كان ابن الأثير أقرب الى الحقيقة عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أحضر زوجة خاله « وطلب منها أن تتربع وتتنزع نفسها عن الملك فأبت ، فضربها وسيرها الى جزيرة فى البحر » (٨٣) .

على أن ميخائيل الخامس لم ينعم بانتصاراته سوى فترة وجيزة (٨٤) فسرعان ما قامت ثورة عارمة ضمت المخلصين للأسرة المقدونية وحكم على ميخائيل الجلفاظ « الذى تجرأ برفع يده ضد من ولدت فى الأرجون بالعزل » ثم سملت عيناه فى أبريل ١٠٤٢م (٨٥) شعبان ٤٣٣هـ ، وقيل انه سملت عيناه خاله أيضا (٨٦) .

عن
81. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chaper V, P. 198. Psellus

بالنسبة لعيد الفصح ، يقال أن المسيح عليه السلام ارتفع بين تلاميذه الى السماء فى هذا اليوم ، ووعدهم بارسال روح القدس . ويأتى هذا العيد يوم افطارهم بعد صيام أربعين يوما . (الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٨٠-٢٨١) . وعند اليهود يوافق ذكرى خروج بنى اسرائيل من مصر هربا من فرعون عابرين البحر وهو ما تعنيه كلمة فصح «عبور» (د . حسين سعيد : الموسوعة الثقافية، دار المعرفة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٦٨٨) .

(٨٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

(٨٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

84. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.

85. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

86. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

(مجلة المؤرخ العربى)

هنا يعطينا ابن الأثير صورة مفصلة تمثل وجهة النظر العربية عن أسباب الثورة التي أطاحت بأبناء الأسرة البفلاجونية المغتصبة للحكم ، وكيف أعيد العرش لورثة الأسرة المقدونية ، فيذكر أنه بعد أن نفى ميخائيل الجلفاط الامبراطورة زوى زوجة ميخائيل الرابع الى جزيرة فى البحر « عزم على القبض على البطرك والاستراحة من تحكمه عليه ، فانه كان لا يقدر على مخالفته » (٨٧) . فطلب منه أن يعمل له طعاما فى دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده ، وبالفعل خرج البطريك الى الدير لينفذ ما طلبه الامبراطور . وعندئذ أرسل الامبراطور « جماعة من الروس والبلغار » ، بعد أن اتفق معهم على قتل البطريك سرا ، فقصده ليلا وحاصروه فى الدير ، فاستمالهم اليه بأن دفع لهم أموالا طائلة ، وخرج متخفيا « وقصد البيعة التى يسكنها وضرب الناقوس » فاجتمع الروم حوله ، فدعاهم الى عزل الامبراطور ، فأجابوه الى مطلبه وحاصروا ميخائيل الخامس أو الجلفاط ، فأرسل الأخير الى (زوجته) (٨٨) وطلب منها أن تبرأ فرفضت « وأخرجته الى بيعة يترهب فيها » (٨٩) .

ثم يستكمل ابن الأثير روايته بقوله : « ان البطريك والروم » نزعوا زوجته (٩٠) من الملك « ، ومنكوا أختا لها صغيرة - اسمها (تذورة) (٩١) - وجعلوا معها خدم أبيها يدبرون الملك ، وكحلوا ميخائيل ، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصب لتذورة والبطرك ، فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم » (٩٢) .

(٨٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٩ .

(٨٨) أخطأ ابن الأثير فى كتابه الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ ، عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أرسل الى « زوجته وأحضرها من الجزيرة التى نفاها اليها » ، لأن التى نفيت هى زوجة خاله لا زوجته هو ، وربما كان سبب الخطأ هو أن الاسمين متشابهين تماما أى ميخائيل الرابع وميخائيل الخامس .

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٩٠) المقصود زوى زوجة خاله لا زوجته هو .

(٩١) المقصود ثيودورا .

(٩٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

نعود مرة أخرى الى وجهة النظر الأخرى لنتابع ما دون فى المصادر والمراجع البيزنطية ، فنستشف منها أن الامبراطورة زوى برزت للجماهير فى نفس اليوم الذى تم فيه سمل عيني الامبراطور ميخائيل الخامس وخاله، وهى فى ثياب الراهبات، لا فى ثيابها الامبراطورية (٩٣) وكان أن أسرعت الجماهير الى دير Petrion وانتزعت منه أخت زوى الصغرى - ثيودورا - التى كانت قد ترهبت « وجروها رغم ارادتها الى كنيسة سانت صوفيا كى ينادوا بها امبراطورة بالاشتراك مع زوى » (٩٤) .
وقيل ان ثيودورا كانت قد حجبت وفقا لطلب زوى (٩٥) .

ومرة أخرى نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على شخصية ثيودورا .
ف نجد أنها الابنة الصغرى للامبراطور فنسطنطين الثامن ، وكانت طويلة القامة مثله ، جافة ، سريعة فى لهجتها وكلامها ، ولم تكن على قدر من الجمال ، لكنها كانت تقية وفى نفس الوقت اتصفت بالبخل . هذا بالإضافة الى أنها كانت على غير وفاق باستمرار مع أختها زوى (٩٦) حتى قيل ان زوى كانت شديدة الغيرة منها، وأنها كانت تفضل معاملة ميخائيل السيئة عن مشاركة أختها ثيودورا فى الحكم (٩٧) .

وباعتبار الأختين الممثلتين الوحيدتين الشرعيتين للأسرة المقدونية، انتقل اليهما الحكم معا (٩٨) . ولو أن زوى أصرت على أن تكون لها الأسبقية على أختها (٩٩) .

93. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.

94. Idem, P.199.

95. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

96. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part, 1, Chapter V, p.p. 193-194.

97. Idem, P.199.

98. Ensslin (W): The Government and administration of the Byzantine Empire, Cam. Med. vol. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5; Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Previte Orton: Op.cit, P. 274.

99. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V. P. 199.

وهكذا حكمت الأختان « المتباينتان الشخصية تماما الامبراطورية البيزنطية » (١٠٠) . ورغم أنهما كانتا الممثلتين الشرعيتين للأسرة المقدونية إلا أنه كان يعوقهما عن مواصلة السهر على شئون الامبراطورية شيئان ، أولهما : أنهما كانتا في ذلك الوقت امرأتين طاعنتين في السن ، وكان من الصعب عليهما توجيه الامبراطورية الى الطريق المستقيم ، مما مكن العسكريين والمدنيين خلال فترة حكمهما القصيرة من الاتحاد والعمل معا بانسجام ، بحيث كان الجميع يغتنمون أية فرصة للسيطرة على شئون الحكم (١٠١) وثانيهما : أن العداوة بين الاختين كانت متأصلة حتى أصبح من الضروري العثور على رجل قوى ليمسك بزمام الحكم (١٠٢) .

أما (بسلوس Psellus) فيعلق على حكم زوى وثيودورا انقصير بأنه « يمدنا بمثال فريد للحكم المشترك والمشاركة في السلطة العليا » (١٠٣) .

وهكذا اتضحت حاجة الامبراطورية الملحة الى وجود رجل قوى على رأس الحكومة . ولتحقيق هذا الغرض كان لابد من زواج اخدى الاختين الكهلتين . « وكانت ثيودورا لا ترغب في الزواج » (١٠٤) ، أما زوى فقد شرعت في البحث مرة أخرى ، وبطريقة مستمرة ، عن زوج ثالث لها ، رغم أنها كانت قد بلغت الرابعة والستين من عمرها (١٠٥) . وبالفعل وجدت ضالتها في « الفارس الوسيم » قسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus (١٠٦) ، الذي كان أحد أعضاء مجلس

100. Previte Orton: Op.cit, P. 274.

101. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV; Part 1, Chapter V; P. 199.

102. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

103. Ensslin (W): Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part II Chapter XX, P. 5.

عن Psellus.

104. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

105. Idem, P. 326.

106. Larousse Encyclopaedia..., Op.cit, P.297, The Encyclopaedia Americana, V. 7, P. 650.

السنانو البارزين ، فاتخذته زوجا ثالثا لها فى ١١ يونيه ١٠٤٢م /
٤٣٣هـ (١٠٧) .

والواقع ان ابن الاثير كان أقرب الى الحقيقة حين أوضح فى أحداث
سنة ٤٣٣هـ « أن الروم افتقدوا الى ملك يدبرهم ، فكتبوا أسماء جماعة
يصلحون للملك فى رقاع ، ووضعوها على بنادق طين وأمروا من يخرج
منها بندقة وهو لا يعرف باسم من فيها ، فخرج اسم قسطنطين ، فملكوه
وتزوجته الملكة الكبيرة ، واستنزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك بمال
بذلتها لها » (١٠٨) .

وثمة عبارة فى هذه الفقرة أخذت عن الترجمة العربية (للأب
اسحق) مترجم كتاب تاريخ ابن العبرى الى العربية والذي سماه
(تاريخ الزمان) ، وهذه الترجمة مليئة بالأخطاء التاريخية واللغوية .
ذلك أنه أورد فى أحداث ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م ما نصه : « توفى
ميخائيل ملك الروم دون عقب ، وتولى شئون المملكة ابنتاه زواى
وثيودورا ثلاثة أشهر . ثم عقد الأقطاب المشورة وانتقوا منهم ثلاثة
أشخاص كفوئين ، وكتبوا أسماءهم فى أوراق وضعوها فى صندوقة
ختموها بالشمع وأحضروا صبيا مديده واستخرج أحدها وبها اسم
مونوماخوس فزفرا اليه ثيودورا المذكورة ونادوا به ملكا باسم قسطنطين .
وأسنت ثيودورا لأختها زواى تسعة قناطير ذهباً بدلا من الملك » (١٠٩) .

107. Ostrogorsky . op.cit.P.326.

(١٠٨) ابن الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٠٠ .

(١٠٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

هنا يورد ابن العبرى زواى باسم Zoai أو Zai ، ثيودورا باسم

Theodora . وبمراجعة ترجمة النص من الأصل لابن العبرى نجد فيه عدة

أخطاء منها دون عقب = دون أبناء ذكور ، وانتقوا منهم ثلاثة = وانتقوا من بين

أبنائهم ، كفوئين = يصلحون للحكم ، وأسنت ثيودورا لأختها = وأعطت ثيودورا

أختها .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1,P. 200.

وعندما تناول هذا النص بالتحليل والنقد ومقارنته فى نفس الوقت بتاريخ ابن العبرى الاصلى نلاحظ ما يلى :

أولا : يتفق ابن العبرى والمترجم على أنه فى سنة ١٠٤٢/٥٤٣٣م سملت عينا ميخائيل الخامس وأبعد الى أحد الأديرة كما مر بنا ، ولا نعلم ان كان قد توفى فى تلك السنة أم لا .

ثانيا : كيف يكون ميخائيل قد توفى دون عقب ، ثم تتولى ابنتاه ، زواى وثنودورا - كما سماهما المترجم - شئون المملكة ؟ وهنا نجد الرد ببساطة على تساؤلنا فى أن المترجم أخطأ فى ترجمة without sons أى (دون أبناء ذكور) فجعلها (دون عقب) .

والواقع أن ابن العبرى خلط هنا بين ابنتى قسطنطين الثامن وبين ابنتى ميخائيل المزعومتين هنا .

ثالثا : أن ثيودورا (ثنودورا) لم تتزوج وأن التى تزوجت من قسطنطين مونوخوس هى زوى ابنة قسطنطين الثامن لا أختها ثيودورا ، وأنها اعتلت العرش الى جانبه ، كما سنرى . وعليه يكون الجزء الأخير من الفقرة وهو ، أن « ثنودورا أسنت لأختها زوى تسعة قناطير ذهباً بدلا من الملك » لا محل لها من الصحة .

أما قسطنطين مونوماخوس فكان ينتمى الى أسرة عريقة (١١٠) ، اتصف بالشهامة ورحابة الصدر والسخاء فى عطائه (١١١) وكانت ثقافته عالية ، الا أنه كان فاسقا خليعا (١١٢) . وقد توج امبراطورا فى اليوم التالى لزواجه من زواى ١٢ يونيه ١٠٤٢م (١١٣)/شوال ٤٣٣هـ باسم

110. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV. Part1, Chapter, V, P. 199.

هنا يذكر نفس المرجع أنه كان قد حبس فى مدينة ملطية كأحد المشكوك فيهم سياسيا فى عهد ميخائيل الرابع .

(١١١) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200 .

112. Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

113. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, 199.

قسطنطين التاسع مونوماخوس . وعند هذا الحد لا تكون تلك الفترة الفاصلة من الحكم النسائي (١١٤) التي استمرت حوالى ثلاثة أشهر ، قد انتهت .

وقد اختلفت الآراء فى وضع قسطنطين التاسع عندئذ ، فالبعض ذكر أنه بتولية العرش الامبراطورى « تخلت له السيدتان عن السيادة بصورة آلية » (١١٥) فى حين أوضح رأى آخر أنه أصبح حاكما مشاركا لزوى وثيودورا (١١٦) وأنه لم يحاول أن يضع أى نوع من القيود على شريكته فى الحكم (١١٧) « فتمتعت الاختان مع الامبراطور العاشق المحب للملذات ، بتبديد الأموال العامة » (١١٨) .

★ ★ ★

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى فترة حكم قسطنطين التاسع وزوى، فأول ما تسعفنا به المصادر التى بين أيدينا - فى حوادث ٤٣٥هـ (١١٩)/ ١٠٤٤م (١٢٠) هو طرد الغرباء المسلمين والنصارى الموجودين فى العاصمة البيزنطية ، والذين بلغ عددهم أكثر من مائة ألف شخص . وكان سبب ذلك أنه سرت شائعة فى العاصمة بأن قسطنطين قتل زوى وثيودورا ابنتى قسطنطين الثامن ، وعندئذ ثار الأهالى وأعملوا النهب والسلب فى البلد ، فبرز لهم قسطنطين وسألهم عن السبب فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفى تهمة القتل عنه وأخرج لهم الملكتين . فلما رآهما الناس سكنوا ، وعندما تقصى حقيقة الأمر علم أن الغرباء فى القسطنطينية هم سبب ذلك الشغب ، وأشير عليه بإبعادهم ، فنودى « أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة

114. Ensslin (W): Op.sit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part XX,5.

(١١٥) رنسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

116. The New Encyclopaedia Britannica, V.III, P. 102.

117. Ostrogorsky: Op.cit,P.327.

118. Idem: P.327.

(١١٩) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١٥ : ابن كثير : البداية والنهاية ،

ج ١٢ ، ص ٥١ .

(١٢٠) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ .

أيام كحل » - أى سملت عيناه - لذلك رحل عن العاصمة البيزنطية أكثر من مائة ألف مسلم ونصرانى » ولم يبق بها أكثر من اثنتى عشر نفسا ، ضمنهم الروم فتركهم « (١٢١) .

وقد شهدت سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٦م علاقات ودية بين البيزنطيين والفاطميين فى مصر . يدل على ذلك تلك الهدية القيمة التى أرسلها قسطنطين التاسع مونوماخوس فى ثامن ذى الحجة/يونيه من تلك السنة ، الى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله . وقد اشتملت على « ثلاثين قنطارا من الذهب ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل ، وخمسين بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ، وفيها من الديباج والسندس والأبريسم والعائم المعلمة مالا يقدر على مثله « (١٢٢) . وقد رد المستنصر بالله على الامبراطور البيزنطى بهدية مثلها « من الجواهر والمسك والعود والطرار ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعته « (١٢٣) .

وقد تجددت العلاقات الودية بين المسلمين والبيزنطيين فى ٤٣٩هـ / ١٠٤٧ - ١٠٤٨م وذلك بتجديد الهدنة « بين صاحب مصر وبين الروم ، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة « (١٢٤) . لكن حدث فى نفس السنة السابقة أيضا - ٤٣٩هـ - أن سير المعز باديس صاحب أفريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وعنم وعاد (١٢٥) .

(١٢١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١ :

كذلك ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ . أما ابن كثير : البداية ج ١٢ ، ص ٥١ فيذكر أن « ملك الروم » أى الامبراطور نفى من القسطنطينية كل غريب له فيها دون العشرين سنة .

(١٢٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ . هنا يذكر المقرئى أن القنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومئتان دينار . أما جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ (عن الأبيهي : المستطرف فى كل فن مستطرف ، فيذكر أن قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية) .

(١٢٣) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(١٢٤) ابن الأثير . الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٤١ .

(١٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٢ .

أما من ناحية الجبهة الشرقية فكان الوضع على عكس ذلك ، بعد ظهور الأتراك السلاجقة ، الذين وفدوا عنى العراق من بلاد ما وراء النهر . وكان تحمسهم للإسلام وللمذهب السني على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم . وقد وجدوا في بلاد العراق الخصبة وما حولها ، وفي الهيمنة على الخلافة العباسية ما حملهم على التفكير الجدى في التوسع غربا ، فقام زعيمهم طغرل بك ١٠٣٨م / ٤٣١هـ باحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم ، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ، واحتل نيسابور عاصمة خراسان . وما زال السلاجقة يواصلون حركتهم التوسعية حتى دخلوا بغداد فى ١٠٥٥م / ٤٤٦ - ٤٤٧هـ . وكان من الطبيعى أن يحتك السلاجقة المتحمسون للإسلام بالامبراطورية البيزنطية ، فأخذ السلاجقة فى الاغارة على أطرافها فى البلاد الأرمنية (١٢٦) .

من ذلك أنه حدث سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨ - ١٠٤٩م اذ عبر جمع غفير من الأتراك الغز من بلاد ما وراء النهر الى بلاد ابراهيم ينال ، فرأى أن بلاده تضيق بهم وبمطالبهم ، فأخبرهم بذلك وأشار عليهم بأن « تمضوا الى غزو الروم ، وتجاهدوا فى سبيل الله وتغنموا » وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم » عندئذ تقدموا الى الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، وسار هو فى اثرهم ، فوصلوا ملازكرد وآرزن الروم وقاليقلا (قيليقية) ، حتى بلغوا طرابزون ، فقابلهم جيش من البيزنطيين والأبخار ، يقدر بحوالى « خمسين ألفا » . ودارت بينهم عدة معارك ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة « وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين » فقتلوا عددا كبيرا من البيزنطيين ، وأمروا « جماعة كثيرة من بطارقتهم » وممن أسر قاريط (فاربط) ملك الأبخار « فحاول أن يقدى نفسه بدفع ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف ، فرفض ابراهيم اينال » ولم يزل يجوس فى تلك البلاد وينهبها ، الى أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما » واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها وغنموا مافيها ، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال مالا يحصى . وقيل أن الغنائم خملت على عشر آلاف عجلة وأن

فى جملة الغنينة تسعة عشر ألف درع (١٢٧) .

ومع كل ذلك اختار الامبراطور قسطنطين التاسع أن يحتفظ بعلاقاته الودية الهادئة مع المسلمين . وخير دليل على ذلك أنه أرسل الى السلطان طغرلبيك هدية عظيمة فى ٤٤١هـ / ١٠٥٠م وطلب منه عقد معاهدة سلام بينهما ، فوافق طغرلبيك على ذلك ؛ بشرط تعمير مسجد القسطنطينية ، واقامة الصلاة والخطبة فيه لطغرلبيك (١٢٨) . هذا بالاضافة الى احتفاظ الامبراطور بعلاقات ودية أيضا مع الخلافة العباسية ، والتي تمثلت فى تلك الرسالة التى أرسلها فى ٤٤٣هـ / ١٠٥٢م الى الخليفة القائم والمكتوبة بالرومية الى جانب ترجمة لها بالعربية تخللت سطورها ، وقد رقت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية (١٢٩) .

والواقع أنه بتقدم زوى فى السن صارت أكثر تسامحا (١٣٠) وظلت كذلك حتى توفيت فى ٢٦ مايو ١٠٥٠م أول المحرم ٤٤٢هـ (١٣١) « وودعت بذلك حياتها الخيالية الغربية » (١٣٢) .

وفى ١١ يناير ١٠٥٥ م / ٩ شوال ٤٤٦هـ توفى قسطنطين التاسع (١٣٣) ، ويبدو أنه كان قد أعطى رأيه فيمن يخلفه على العرش .

(١٢٧) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٤٤٦ أحداث ٤٤٠هـ .

وأبخار بالفتح ثم السكون والحاء معجمة والفاء وزاى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وهى جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخييل فيها تجاور بلاد اللان . (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت حرف الألف والباء وما يتألفهما) .

(١٢٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٢ ، ص ١٦٩ .

(١٢٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٧ - ٩٨ ، ولقد ورت السنوات فى

الأصل على النحو التالى ٤٤٣ / ١٠٥١م

130. Ostrogorsky: Op.cit, P.327.

131. Idem: P.616: Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.

132. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.

133. Ostrogorsky: Op.cit, P.337; Hussey: Op.cit, Cam. Med.Hist, V. IV, ChapterV, P.204.

هنا أخطأ ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٦٠٢ - ٦٠٤ .

Bar Hebraeus : op.cit, V.1, P.207.

وتم الأمر دون علم ثيودورا ، الممثلة الوحيدة الباقية للبيت المقدوني .
وعندما سمعت ثيودورا بما حدث عادت الى القصر وسيطرت على
الحرس الامبراطوري ، وفي الحال تقلدت الاطلال الباقية للحكم « (١٣٤)
وعادت الى كامل سلطانها (١٣٥) وهكذا باشرت ثيودورا السلطة
الامبراطورية بمفردها حتى توفيت في آخر أغسطس ١٠٥٦م (١٣٦) أو
بداية سبتمبر ١٠٥٦م (١٣٧) / السبت ١٦ جمادى الآخرة ٤٤٨ هـ .

والواقع أن ثيودورا قامت بمحاولة جادة تتصف بالعزم التام على
ادارة دفة الحكم . حقيقة أنها لم تتخذ روجا لكنها اختارت وزيرا لها هو
(Leo Paraspondylus) وكان « واقعيا عنيدا جادا في مواصلة العمل ،
فعنى بالسياسة الاقتصادية في الداخل وعمل على اقرار السلام في
الخارج » (١٣٨) .

ويعقب (استروجورسكي) على نهاية الأسرة المقدونية بقوله
« وبوفاة ثيودورا انتهت الأسرة المقدونية الشهيرة ، فكانت نهاية غريبة
حقا لتلك الأسرة البيزنطية التي جاهدت بشدة كي تدعم نفسها . وفي
النهاية تماسكت بعناد لتواصل البقاء ، وذلك على مدى الثلاثين سنة
الآخيرة ، وبذلك مضت كل أعمالها العظيمة ذات الشهرة البعيدة المدى
دون أن يتغنى بها » (١٣٩) .

ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٨ ، في القول بأن قنسطنطين التاسع كان
متزوجا من ثيودورا ابنة قنسطنطين الثامن لأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من
زوى لا ثيودورا . والراجع أن الثاني أخذ عن الأول هذا الخطأ .
134. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, ,Part 1, Chapter V
P.204.

(١٣٥) رنسيومان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .
136. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V,
P.205.

حيث ذكرت هسي نقلا عن Scylitzes-Cedrenus أن وفاتها كانت في
٢١ أغسطس ، أما هي فتقول أنها كانت في ٢١ أغسطس .
137. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.
138. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V,
P.204.
139. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين التاسع وفترة حكم ثيودورا حتى نهاية عهد الأسرة المقدونية، فأهم ما يلاحظ فيها بالنسبة للجبهة الشرقية، أن طغرليك أنهى الهدنة بين السلاجقة وبين البيزنطيين ونقدم في أواخر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م إلى أرمينية ثم إلى ملازكرد التابعة للبيزنطيين فجاصرها وضيق على أهلها ونهب ما جورها من البلاد وخربها . وعندئذ دخل نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر في طاعته وأرسل إليه أنهدايا الكثيرة والقوات كي تحارب البيزنطيين تحت لوائه (١٤٠) . وكان أن أوغل طغرليك في أراضى البيزنطيين وأحرز عليهم انتصارت باهرة ونهب بلادهم وقتل وسبى العديد منهم (١٤١) « وبلغ في غزوته هذه إلى أرزن الروم » ثم عاد إلى أذربيجان عندما دخل عليه فصل الشتاء (١٤٢) .

وأما عن العلاقة مع الفاطميين، فثمة رأي يذكر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي استغل فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية وعمل على انعاش الحالة الاقتصادية في دولته، فأرسل إلى الامبراطور قسطنطين التاسع، على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م يطلب منه أن يمدّه بأربعمئة ألف أردب من القمح . وقد أظهر الامبراطور استعداداً لاجابة هذا الطلب، لكنه لم يلبث أن توفي وخلفته الامبراطورة ثيودورا، فاشتترط لمعونة مصر أن يمدّها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد . غير أن المستنصر رفض هذا الشرط، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون ارسال الغلال إلى مصر (١٤٣) .

(١٤٠) ابن الأثير . الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٩ .

(١٤١) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة : أبو الفدا : المختصر ، ج٢ ،

ص ١٧٢ : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٦٥ .

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل ، ج٩ ، ص ٥٩٩ .

143. Canard (M.): Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter XVII, P.726.

جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

وقد زاد الوضع تعقيدا بين البيزنطيين والفاطميين عندما أراد الخليفة المستنصر أن يرد اعتبار الفاطميين بارسال جيش فاطمي لمحاربة البيزنطيين ، بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، ونودي في بلاد الشام بالغزو والجهاد (١٤٤) . وكان أن تنقل الجيش الفاطمي في أجزاء مختلفة من بلاد الشام حتى استقر به المطاف أخيرا على أنطاكية ، وعندئذ أرسلت الامبراطورة ثيودورا أسطولاً الى أنطاكية مكوناً من ثمانين قطعة « وخرج دوقس أنطاكية وبطركها في جماعة فظفروا بشيئين للمسلمين معهما الغنائم » (١٤٥) . وبذلك حلت الهزيمة بالمسلمين وأسر منهم عدد كبير (١٤٦) وقتل من الفريقين عدد كبير وعاد الأسطول البيزنطي الى اللاذقية (١٤٧) .

وكان أن أرسل الخليفة المستنصر سفارة من قبله ، الى الامبراطورة ثيودورا ، على رأسها أبو عبد الله القضاعي (١٤٨) . ولكن نوايا الروم تجاه الدولة الفاطمية اتضحت عندما سمحت الامبراطورة ثيودورا بالخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي ، أثناء وجود أبي عبد الله القضاعي سفير الفاطميين بالقسطنطينية ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م (١٤٩) . وقد علل أحد الأساتذة المحدثين هذا الاتجاه بقوله : « أنه لا غرو فقد كان السلاجقة في ذلك الوقت أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميين الذين اضمحل سلطانهم في بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون كثيراً من الصعاب في مصر » (١٥٠) .

وكان رد الخليفة المستنصر على تلك الاساءة التي لحقت بسفيره بل

-
- (١٤٤) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٠ .
(١٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٢١ . والشواني مركب حربية بها مائة وأربعون مجدافاً ، وكانت تعد أكبر سفن الأسطول (حاشية عن دوزي ، قوانين الدواوين) .
(١٤٦) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .
(١٤٧) المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٢١ .
(١٤٨) علي الجنزوري : المرأة في الحضارة البيزنطية ، ص ١٢٥ حاشية ٦٥١ .
(١٤٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، ج٢ ، حواشي ٤٤٧هـ : المقرئزي : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٠ .
(١٥٠) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

بخلافته كلها أن أخذ نفائس وكنوز كنيسة القيامة (١٥١) « فأحاط بما
فى قمامة وأخذه وأخرج البطررك منها الى دار مفردة (١٥٢) هذا بالاضافة
الى اغلاقه للكنائس بمصر وزيادة الجزية على النصارى ، بل ومطالبته
الرهبان بها عن أربع سنوات (١٥٣) وقد أدت كل تلك الاجراءات الى
التوتر الشديد فى العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين (١٥٤) .



ولم يلبث أن ضغط حزب البلاط على الامبراطورة ثيودورا فى
١٠٥٦م / ٤٤٨ - ٤٤٩هـ كى تختار من يخلفها فى الحكم . فوقع اختيارها
على البطريرك ميخائيل Michael ، المعروف باسم العجوز أو
(ستراتوتيكيوس Stratioticus) . فلما ماتت ثيودورا فى بداية سبتمبر
١٠٥٦م / منتصف جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ، خلفها ميخائيل على العرش
باسم ميخائيل السادس Michael VI . ولم تتجاوز مدة حكمه سنة
واحدة ، تآلفت أثناءها جبهة لمقاومته محورها الجيش المرابط فى آسيا
الصغرى ، وهو الذى نادى بالقائد اسحاق كومنين Isaac Comnenus
امبراطورا (١٥٥) .

وهكذا طويت فترة عصر الحكم النسائى وهى فترة لا تخلو من
أحداث جسام فى الداخل والخارج ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقة مع
المسلمين ، فضلا عما زحزت به تلك الفترة من اتجاهات تلقى بعض
الضوء على ما كان يجرى داخل البلاط البيزنطى .

(١٥١) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(١٥٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٥٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(١٥٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٢٣٠ : جمال سرور : سياسة

الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ .

155. Ostrogorsky: Op.cit, P.338; Larousse Encyclopaedia of
Ancient and Medieval History, P.297.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

- ١ - ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م)
أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الملقب بعز الدين : الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- ٢ - ابن أيبك الدوادارى : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
أبو بكر بن عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .
- ٣ - ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)
جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج٤ ، (د٠م ، د٠ت) ، ج٥ ، من سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- ٤ - ابن العبرى : (ت ٦٨٥ / ١٢٨٦م)
أبو الفرج جمال الدين : تاريخ الزمان ، نقله الى العربية الأب اسحق أرملة وصدر تباعا فى مجلة الشرق (١٩٤٩ - ١٩٥٦) ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فييه فى المناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف ١٢٨٦ - ١٩٨٦ ، د٠ر الشروق ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦ .
- ٥ - ابن القلانسى : (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)
أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٨٠ .
- ٦ - ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
أبو الفدا الحافظ : البداية والنهاية ، الجزء الثانى عشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ .
- ٧ - ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م)
أبو عبد الله تاج الدين محمد بن على بن يوسف : أخبار مصر ، الجزء الثانى ، مصر ١٩١٩ .

- ٨ - أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
عماد الدين اسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، الجزء الثاني ،
دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .
- ٩ - السيوطي : (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : تاريخ الخلفاء ،
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ /
١٩٥٢م .
- ١٠ - القلقشندي : (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
أبو العباس أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ،
الجزء الخامس ، بيروت ١٩٨٠ .
- ١١ - المقرئزي : (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
تقي الدين أحمد بن علي : اتعاظ انحنافا بأخبار الأئمة الفاطميين
الخلفاء ، تحقيق الدكتور حلمي محمد أحمد ، الجزء الثاني ،
القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .
- ١٢ - ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)
شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار
صادر ودار بيروت .

ثانيا : المراجع العربية والمعرية :

- ١ - حسن حبشى :
الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٨ .
- ٢ - رنسيما : ستفن :
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة
زكى على ، من سلسلة الألف كتاب ، الناشر مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٦١م .
- ٣ - عليا عبد السميع الجنزورى :
المرأة فى الحضارة البيزنطية ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ،
الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .
- ٤ - محمد جمال الدين سرور :
سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٦هـ -
١٩٧٦م .

ثالثا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- Bar Hebraeus:
The Chronography of Gregory Abul Faraj, The Son of
AAron the HebrewPhysician, the First Part of His Political
History of the world, Translated from Syriac by Ernest A.
Wallis Budge, Volume 1, English translation, Oxford
University Press, London, 1932.
 - Canard (M.) .
Byzantium and Muslim world to the Middle of the eleventh
century, Cam. Med. Hist., V. IV, The Byzantine Empire,
Part 1, Byzantium and Its neighbours, Chapter XVII.
 - Encyclopaedia Americana, V.19.
 - Ensslin (W.):
The Government and administration of the Byzantine Empire
Cam. Med. Hist, V. IV, The Byzantine Empire Part II,
Government, Church and Civilization, Chapter XX.
 - Hussey (J.M.) .
The Later Macedonians, the Comneni and the Angeli 1025-
1204, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V.
- (مجلة المؤرخ العربى)

- Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History,
General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreward by
Arnold Toynbee.
- Ostrogorsky (G.):
History of the Byzantine state, translated by Joan Hussey,
Oxford, 1968.
- Previtte Orton (C.W.):
The Shorter Cambridge Medieval History, V.1, Cambridge
University Press, 1977.
- The New Encyclopaedia Britannica, V.V1, 1768.

بنو ايلدكز أتابكة أذربيجان وعلاقتهم بالقوى المعاصرة

(٥٤١ - ٦٢٢ هـ = ١١٤٨ - ١٢٢٥ م)

د . مسفر بن سالم الغامدي (*)

كانت وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ايذانا ببروز نظام جديد على مسرح الأحداث في الشام ، والعراق ، وايران ، وأرمينية ، وأذربيجان (١) . ونعنى بهذا النظام نظام الأتابكيات (٢) الذى أخذ فى التنامى والظهور نتيجة صغر من بعض أمراء البيت السلجوقي من جهة ، وحرص رجال البيت السلجوقي على ايجاد قائد من القادة العسكريين الكبار يقوم بتربية الأبن أو الأمير السلجوقي الصغير وتلقينه الفنون العسكرية والادارية من جهة أخرى .

(*) أستاذ مساعد التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التاريخ بكلية الشريعة - جامعة أم القرى .

(١) أذربيجان : اقليم جيلى واسع بشمال ايران يضم العديد من المدن كتبريز والمرافة وخوى وسلماس وأرمية وأردبيل ومزند و غيرها ، والغالب على أرضها الجبال تكثر بها العسائيه والمياه ، ولغة أهلها اللغة الأثرية . وأقليم أذربيجان فتح زمن الخليفة عمر بن الخطاب عندما كانت أردبيل عاصمتها . وأذربيجان كانت تعرف باسم انديبايان وبالفارسية تعرف انديجان . باسم آذربيجان . وقد صحف اليونان هذا الاسم الى Arropatena ، وأذربيجان احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى المنحل التى استقلت حديثا وهى مطلة على برفزون . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٩٣ والحاشية رقم ١ بنفس الصفحة ، حسين قاسم عزيز : انتفاضة الشعب الأذربيجانى ضد الخلافة العباسية ، ص ٤٦ ؛ ابن شداد ، الاغلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٥٧٢ تعليق المحقق يحيى عباره . ولزيد من التفصيل عن انديجان انظر صابر دياب ، المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ص ٤٦ حاشية رقم ١ .

(٢) اتابك : لقب تركى يتكون من كلمتين ، اتا بمعنى أب ، ويك بمعنى أمير ، انظر ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٤ ، ص ٦٠ وما بعدها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه الى أن كثيراً من القادة أو الأتابكة كان مجبراً على الزواج من أمهات الأمراء السلاجقة الصغار المطلقات أو الأرامل (٣) .

وأدى هذا الزواج في نهاية الأمر الى وجود علاقة وطيدة بين الأمير وأتابكة ، أشبه ما تكون بين الابن وأبيه ، مما أضفى على نظام الأتابكيات طابعاً خاصاً مميزاً . وعلى الرغم من أن هذا النظام قد سلب سلاطين السلاجقة بعض حقوقهم وهيمنتهم العليا على أجزاء الدولة ، فقد أدى الى المحافظة على كيان دولتهم فترة زمنية طويلة . فالأتابك عماد الدين زنكى ، وابنه نور الدين محمود مثلاً كان لهما الأثر الكبير والواضح فى المحافظة على نفوذ السلاجقة بالشام والجزيرة ، بالإضافة الى الدور الرائد والبارز فى جهاد الصليبيين فى الفترة من العقد الثالث من القرن السادس الهجرى حتى أواخر العقد السابع من القرن السابع الهجرى (٤) . على أنه من المبالغة أن نتصور كافة الأتابكيات وقد لعبت دوراً ذا أهمية فى الحفاظ على هيمنة السلاجقة ، والحفاظ على ثغور المسلمين ، إذ أن بعض هذه الأتابكيات قامت بدور سلبي أدى الى إضعاف جانب السلاجقة ، فضلاً عن إضعاف الخلافة العباسية نفسها .

وإذا ما ألقينا نظرة على أتابكية أذربيجان بزعامة بنى ايلدكز (سنة ٥٤١ - ٦٢٢هـ / ١١٤٨ - ١٢٢٥م) فإنه يتضح أن هذه الأتابكية وبخاصة فى عهد زعمائها الكبار ، تدخل فى قائمة القوى التى عملت بجد وإخلاص لا فى الحفاظ على كيان السلاجقة فحسب ، بل أيضاً فى جهاد الكرج الجورجان (٥) ثم المغول (٦) فيما بعد . ذلك أن زعماء هذه

(٣) - على الغامدى : بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ص ٢١٠ .

(٤) للمزيد من الدراسة عن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود انظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى ، عليه الجنزورى : عماد الدين زنكى ، عماد الدين خليل : نور الدين محمود الرجل والتجربة ؛ مسعر الغامدى ، جهاد ضد الصليبيين قبل قيام الدولة الايوبية ؛ محمد الشيخ ، جهاد القدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها .
(٥) الكرج : عن التعريف بالكرج . انظر فايز نجيب اسكندر ، الكرج والأتراك السلاجقة ، مقال فى مجلة المؤرخ العربى ، العدد الأول سنة ١٩٩٣م ، ص ٢٥٢ وما

الأتابكية تمكنوا من فرض سيطرتهم على بعض مدن إيران والجبل واران (٧) ، وكانت لهم علاقات مع القوى الكبيرة في المنطقة ، كالكرج والسلاجقة والعباسيين والخواريين والمغول والزنكيين في الموصل والأيوبيين زمن صلاح الدين (٥٦٩ - ٥٨٩) . وفيما يلي يمكن أن نستعرض تاريخ هذه الأتابكية منذ قيامها وعلاقاتها بالقوى المشار إليها أعلاه . بالإضافة الى علاقة زعماء هذه الأتابكية ببعض الامارات الصغيرة في منطقة الجزيرة وأرمينية .

تنسب أتابكية أذربيجان الى مؤسسها شمس الدين ايلدكز (٨) وهو مملوك تركي من ممالك الوزير كمال الدين السميرمي (٩) وزير السلطان

بعدها . وقد أشار فايز اسكندر الى ان وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م كانت بداية ازدهار مملكة الكرج في عهد ملكهم داود الثاني الذي استغل فيما بعد انشغال المسلمين بجهاد الصليبيين في الشام فرفض دفع الجزية للسلاجقة ، وتمكن فيما بعد من الاستيلاء على تفليس سنة ٥١٦هـ من المسلمين ، (ص ٢٦١ - ٢٦٢) وكذا انظر ، القازفي ، تاريخ ميخارقين ، ص ٩٧ حاشية رقم ٣ .

(٦) عن التعريف بالمغول وتحديد موطنهم الأصلي انظر كتاب سعد الغامدي ، سقوط الدولة العباسية ، ص ٥٣ - ٥٦ .

(٧) الجبل أو الجبال : اسم يطلق على البلاد المعروفة باسم العجم بالعراق وهي ما بين أصبهان الى رنجان وقزوین وهمدان والري . ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٩٩ .

واران : إقليم مشهور بأذربيجان وأرمينية وبهذا الإقليم جنزه التي تكتب أحياناً باسم كنجه . انظر ، ابن شداد ، الاغلاق الخطيرة ، ص ٧٥٣ من جهد المحقق يحيى عباره . ولزيد من التفصيل عن آران ، انظر : محمد شيت خطاب ، أرمينية بلاد الروم ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٨) جاء في بعض المصادر أن لقبه شمس الدين المسعودي نسبة الى السلطان مسعود ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص ٢١ .

(٩) السميرمي : كمال الملك أبو الحسن علي بن أحمد السميرمي ، تولى الوزارة السلطان محمود بن محمد سنة ٥١٣هـ ، وظل بها حتى توفي سنة ٥١٦هـ ، كان كما قيل ظالماً مجاهراً بالظلم والفسق ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٢ ، ص ٧٥٧ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٥٠ ؛ حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص ٣٣٠ .

محمود بن محمد بن ملكشاه (٥١١ - ٥٢٥هـ / ١١١٧ - ١١٣١م) . ويقال أن ايلدكز هذا اشترى من بلاد القفجاق (١٠) . وبعد مقتل الوزير السميرمي سنة ٥١٦هـ / ١١١٢م انتقل شمس الدين ايلدكز الى خدمة السلطان محمود ، ثم من بعده الى السلطان السلجوقي غياث الدين مسعود بن محمود (٥٢٧ - ٥٤٧هـ / ١١٣٢ - ١١٥٢م) حيث مكث يعمل كنديم ومضحك للسلطان ، وأخذ يترقى في بلاطه حتى اكتسب ثقة السلطان وثقة معاصريه فزوجه السلطان مسعود من أرملة أخيه الملك طغرل بن محمود ، وبذلك غدا أتابكا لأرسلان شاه بن طغرل . وكان طغرل قد توفي سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م (١١) .

أما عن اقليم أذربيجان مركز الأتابكية موضوع دراستنا ، فقد كان محل نزاع بين الكرج الجورجان من جهة وبين السلاجقة وكبار الأمراء الأتابكة من جهة أخرى ، خصوصاً بعد سقوط تفليس بيد الكرج سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢ (١٢) . وقبل بروز أسرة بنى ايلدكز بأذربيجان كان يحكمها الأمير قرا سنقر الاحمديلي الذي وافاه أجله بمدينة أربيل (١٣) . فانتقل الأمر الى الأمير جاولي الطغرلي الذي ظل حاكماً لأذربيجان وبلاد

(١٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٧٣ : أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٣٧ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٩١ : الاصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٣٢٠ : أبو الفدا ، المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٧ . وكان السلطان مسعود واليا على اقليم الجبل وآران وأذربيجان قبل توليه السلطنة ، ولذلك وجد أن خير من يقوم بهذا الأمر هو الأتابك ايلدكز فعينه واليا عليه .

(١٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٧٥٧ . وتفليس : مدينة في جمهورية جورجيا تقع على خط عرض ٥٢° شمالاً و ٤٤° طولاً وهي بأرمينية الأولى ، والبعض يقول بآران . وهي مدينة أزلية . ابن شداد ، الاغلاق الخطيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٧٧٢ من عمل المحقق يحيى عباره .

(١٣) أربيل : إحدى مدن أذربيجان ، كانت عاصمتها عندما فتحها المسلمون زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وهي في أعالي نهر آندراب ، عليها سور ، وبها العديد من الأسواق ، كانت قصبة أذربيجان في المائة الرابعة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، ك ليسرتنج ، بلدان الخلافة ، ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

الجبل حتى وفاته سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م (١٤) . وبوفاة جاولى فى السنة المذكورة تولى الأمر بصورة حقيقية الأتابك شمس الدين ايلدكز . وعلى الرغم من أنه ربيب السلطان مسعود (١٥) فإنه خامر على السلطان فى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واجتمع بكثير من الأمراء ، وأعلنوا عصيانهم عليه . ولم يكتفوا بالعصيان بل قصدوا بغداد بهدف النيل من الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله (٥٣٢ - ٥٥٦هـ/١١٣٦ - ١١٦٠م) . فلما بلغوا حلوان (١٦) أرسل الخليفة العباسى اليهم من يعظهم ويمنعهم من دخول بغداد ، ولكنهم رفضوا وعاثوا فى البلد فساداً ، وكان بصحبته الملك محمد بن محمود السلجوقى (١٧) .

أما السلطان مسعود فقد كان مقيماً عندئذ ببلاد الجبل، ومعه الأمير خاصبك الذى كانت علاقته بايلدكز غير طيبة . وكان الأمير خاصبك من أسباب خروج ايلدكز على السلطان مسعود (١٨) . ولم ترق هذه الحوادث التى ارتكبت فى حق ايلدكز والخليفة العباسى ببغداد للسلطان سنجر كبير البيت السلجوقى (٥١١ - ٥٥٢هـ/١١١٧ - ١١٥٧م) ، ولذلك فإنه لم يحجم عن توجيه عتاب شديد للسلطان مسعود الذى كان قد أنزعج هو الآخر من فعل ايلدكز والملك محمد بن محمود ، وما أحدثوه فى بغداد . وكان أن توجه السلطان مسعود الى بغداد سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م لتطبيب خاطر الخليفة المقتفى لأمر الله . فكان موضع ترحيب، وأحسن الوزير ابن هبيرة استقباله فى رمضان من السنة المذكورة (١٩) .

(١٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥ .

(١٥) السلطان مسعود : أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه ، أصبح سلطاناً سنة ٥٢٨هـ وتوفى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، ابن نىماق : الجوهر الثمين ، ص ١٦٨ .
(١٦) حلوان : مدينة على سفح جبل مطل على العراق ، وهى من بلاد الجبل ، تكثر بها أشجار الفواكه بأنواعها . ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٣١٤ .

(١٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢١ - ٢٢ ، ويشير صاحب المنتظم الى أن دخول ايلدكز بغداد إنما كان هرباً من السلطان مسعود . ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٣٢ .

(١٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(١٩) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ ؛ والوزير ابن هبيرة : أبو المظفر

ولم يمكث السلطان مسعود طويلا في بغداد ، بل عاد أدراجه الى همذان . ولكن أجله لم يمهل كثيرا فقد توفي في سنة ١١٥٢م / ٥٤٧هـ وبوفاته أنتهت على ما قيل سعادة البيت السلجوقي في العراق (٢٠) .

وعلى الرغم من أن السلطان مسعود السلجوقي كان مشغولا بالفتن الداخلية، فان الكرج لم يتمكنوا ولم يجرأوا على الاعتداء على بلاده في حياته، ولكنهم استغلوا وفاته فقاموا في سنة ١١٥٤م / ٥٤٩هـ بالهجوم على أرمينية، وتمكنوا من انزال الهزيمة بصاحب آرزروم، وغنموا من المسلمين غنائم كبيرة (٢١) .

وبموت السلطان مسعود سنة ١١٥٢م / ٥٤٧هـ برز الاتابك ايلدكز على مسرح الأحداث في الدولة السلجوقية ، وخصوصا بين سلاجقة العراق والخلافة العباسية من جهة، والكرج من جهة أخرى . وكان أول معاد برز لأيلدكز في سنة ١١٥٣م / ٥٤٨هـ هو الأمير اياز قفجان أحد أكابر أمراء العجم، اذ استغاث بالزنكيين بالموصل من جور وظلم ايلدكز، فجهزوا معه العساكر ، وسار باتجاه أذربيجان، وحتى وصل الى سلماس (٢٢) حيث والتقوا بايلدكز واصلحوا الحال بينه وبين اياز (٢٣) .

يحيى بن محمد سعيد عون الدين بن هبيوة ، كان عالما باللغة والادب ، والحديث . ولد سنة ١١٢٧م / ٥٢١هـ وتوفي سنة ١١٧٤م / ٥٧٠هـ انظر : مريزن عسيري ، الحياة العلمية في العراق ، ص ٩٦ ، حاشية رقم ١ .

(٢٠) أبو الفدا ، المختصر ، ج٢ ، ص ٢٢٣ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ج١٠ ، ص ١٤٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٩ ؛ الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٩٩ .

(٢١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٤٣ ؛ ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٠٥ ، وآرزروم : وقيل آرنز الروم ، هي مدينة جليلة بأرمينية ، وتعرف عند الأرمن باسم Karin وعند الروم باسم Theodosio Polis كي ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٤٩ .

(٢٢) سلماس : مدينة بأذربيجان بين تبريز وأرميه ، يوجد فيها مياه معدنية ، انظر : القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣٩١ .

(٢٣) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٠٦ .

وعندما أخذت قوة ايلدكز تزداد، استغاث به الخليفة العباسي المقتفى لأمر الله في سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ضد السلطان محمد بن محمود ، فتوجه ايلدكز الى همذان واستولى عليها (٢٤) . وكان لذلك أثره في نفس السلطان محمد بن محمود السلجوقي ، فرفع الحصار عن بغداد، وعاد الى ايران . ولكنه لم يغفر لـ ايلدكز هذا العمل فقام بحملة تأديبية ضده بآران، وتمكن من انزال هزيمة ساحقة به ، تمكن عقباها من الاستيلاء على نخجوان . على أنه قبل اعتذار ايلدكز وأخذ عليه المواثيق والعهود بالألا يعود الى العصيان عليه (٢٥) .

وفي مجال التدخل في شئون السلاجقة والخلافة العباسية ، وجد ايلدكز الفرصة سانحة له بوصفه أتابكا لربيه السلطان أرسلان شاه بن طغرل للتدخل مباشرة في شئون سلاجقة العراق والخلافة العباسية في سنة ٥٥٥هـ/١١٦٣م . وكان أن سار من أذربيجان الى همذان بقصد منع سليمان شاه بن محمد السلجوقي من احتواء السلطنة هناك . وقد تمكن ايلدكز وأرسلان من الاستيلاء على همذان واجلاس أرسلان شاه على عرش السلاجقة بالعراق (٢٦) .

وسرعان ما جنى شمس الدين ايلدكز ثمار هذه الخطوة الجريئة ، فقد أصبح أتابكا لسلطان السلاجقة في ايران والعراق ، وتلقب بلقب «الأتابك الأعظم» (٢٧) ، ويعلق أحد الباحثين على ذلك فيقول ان

(٢٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٥١ - ٥٢ ، النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٥ ، ص ٥٨ - ٥٩ ، أبو الفدا المختصر ، ج٢ ، ص ٣٠ .
(٢٥) الأصفهاني : زبدة التواريخ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٢٨٣ .

ونخجوان أو تفجوان مدينة تقع الى الشمال من نهر فرس من أعمال أذربيجان انظر : كي ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠١ .

(٢٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٦ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٨ . وقد أورد هذا الخبر في حواشي سنة ٥٥٦هـ ؛ أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدولة الاسلامية ، ج٢ ، ص ٣٦٣ .

(٢٧) الأصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ٢٧١ ، ويشير الدكتور حسن الباشا

وظيفة الأتابك الأعظم أرفع قدراً وأوسع نفوذاً من وظيفة الأتابك ، لأنها تهىء لصاحبها أن يشرف على الجيش وأعمال الوزراء (٢٨) .

أما الخليفة العباسي المقتدى لأمر الله فإنه لم ينس تلك الأعمال التي قام بها ايلدكز في العراق سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، ولذلك فإنه لم يوافق على اعلان الخطبة في بغداد باسم السلطان أرسلان شاه في السنة التالية ٥٥٦هـ / ١١٦١م . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان رسول ايلدكز الى الخلافة أهين « وأعيد اليه على أقبح حلة » (٢٩) .

ولما كان اعلان السلطنة في بغداد باسم أحد امراء البيت السلجوقي يعتمد على نفوذ هذا الأمير أو ذاك ، أو على ما يدفع لبطانة الخليفة وأصحاب النفوذ عليه ، فإن أرسلان شاه لم ينل رضى الوزير ابن هبيرة ، وهو الوزير الذى كان يرغب فى اعلان السلطنة بأصفهان وغيرها باسم السلطان السلجوقي سليمان شاه بن محمد ، وذلك بعد وفاة ملكشاه بن محمود بن محمد . ولكن وفاة سليمان شاه سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م افحست المجال أمام ايلدكز لفرض نفوذه على الأمراء المأجورين له ، من أجل تدعيم مركزه ومركز السلطان أرسلان شاه ، حتى أصبحت شخصية ايلدكز من أكبر الشخصيات بفارس والعراق ، وصار هو الحاكم الفعلى . أما أرسلان شاه فلم يبق له غير الاسم (٣٠) .

ولم يكتف شمس الدين ايلدكز بما حصل عليه ، اذ غدا الأتابك الأعظم

=

الى أن الأتابكة قد تلقبوا باللقاب مضافة الى « الدين » ، حسن الباشا ، الألقاب الاسلامية ، ص ٦٥ .

(٢٨) عبد النعيم حسنين : دولة السلاجقة ، ص ١٢٢ .

(٢٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٧٣ : انظر أيضا ابو الفدا ، المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٤ - ٣٥ .

(٣٠) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ١ : الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٦٧ : عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٢ : حسن الباشا ، الألقاب الاسلامية ، ص ٦٤ وقد أشار المؤلف الى أن كثيراً من الأتابكيات فى العصر السلجوقي « لم تكن تدين للسلطان السلجوقي بأكثر من الطاعة الاسمية » .

بأذربيجان وهمذان ، وأصفهان لأرسلان شاه ، كما غدا ابنه البهلوان محمد صاحب السلطان، بل لقد أخذ في مكاتبة الأمراء بقصد أخذ الولاء والطاعة منهم للسلطان أرسلان شاه الجديد ، فمنهم من وافق ومنهم من رفض . لذلك لم يجد ايلدكز بداً من شن حرب على بعض خصومه ، كصاحب الري اينانج (٣١) ، وهى الحرب التى أسفرت فى النهاية عن عقد صلح بين الطرفين ، وعن زواج محمد البهلوان من ابنة اينانج المسماه قتيبة خاتون (٣٢) .

وعلى الرغم من أن هذه المناورات التى قام بها ايلدكز وريبيه أرسلان شاه قد منحتة نوعاً من الهيبة والهيمنة على الأمراء المجاورين له ، فان خلافة بغداد لم تكن راضية عنه ، بسبب عدم تصديه للكرج الجورجان ، الذين استغلوا تلك الأوضاع فقاموا فى سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م بالهجوم على مدينة آنى ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها . وعلى الرغم من محاولة شاه آرمن بن ابراهيم بن سكرمان القطبى صاحب خلاط التصدى للكرج ، الا أن المسلمين لقوا هزيمة منكرة « وقتل أكثرهم وأسر كثير منهم » (٣٣) .

وفى ظل الأوضاع المتردية للمسلمين فان الكرج بزعامه ملكهم جورج الثالث Georghi III (٥٥١ - ٥٨٠هـ / ١١٥٦ - ١١٨٤م) لم يقنعوا بما استولوا عليه من أراضى المسلمين بل تمكنوا من الاستيلاء على مدينة

(٣١) اينانج بك سنقر صاحب الري ، قتل سنة ٥٦٥هـ بتدبير من وزيره سعد الدين أسعد الذى وزر فيما بعد لشمس الدين ايلكز . الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٧ .

(٣٢) الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧١ . وقتيبة خاتون هى التى كان قزل أرسلان قد تزوجها عقب وفاة البهلوان ، وهى والدة اينانج محمود بن البهلوان . انظر المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ١٦٤١ .

(٣٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٧٧ . انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦١ .

اما عن أسرة سكرمان القطبى بخلاط فانظر زامبار ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ص ٣٤٨ .

دوين (٣٤) باقليم أذربيجان، وفعلوا بأهلها الأفاعيل القبيحة، بحيث أسروا الرجال، وأخذوا النساء سبايا بعد تعريتهن واقتيادهن حفاة عراة، كما خربوا الجوامع والمساجد . وقد أثار هذا العمل الشنيع بنساء المسلمين استنكار نساء الكرج اللاتي قلن «ان مثل هذا العمل سيدفع المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثلما فعلتم بنسائهم (٣٥)» . ويعلل بعض المؤرخين توسع الكرج على حساب المسلمين عندئذ بالأعمال القبيحة التي أرتكبها ايلدكز وأرسلان شاه فى حق سكان أصفهان ، وبانتشار قوات ايلدكز وأرسلان شاه فى حروب كثيرة بايران وفارس (٣٦) .

وقد أزعج عدوان الكرج على المسلمين - شمس الدين ايلدكز - وهو بهمذان . ولكنه ادرك أن لاطاقة له بملاقاة الكرج على انفراد، فطلب المساعدة ضدهم من شاه أرمن صاحب خلاط (٣٧) ، وأقنقر الأحمديلى صاحب مراغة (٣٨) ، فاجتمعوا - فى عسكر - زاد عدده على خمسين ألفا ، متناسين ما بينهم من خلافات . وساروا الى بلاد الكرج والابخاز (٣٩) فى صفر سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م بقصد استعادة ما استولى عليه الكرج من مدن . وفى طريقهم نهبوا البلاد، وسبوا النساء والصبيان، واسروا الرجال ، حتى لقيهم الكرج، فاقتتلوا أكثر من شهر . وكان النصر فى النهاية حليف المسلمين بسبب الخطة العسكرية الناجحة التى اتبعها المسلمون فى تقسيم الجيوش

-
- (٣٤) دوين : مدينة تقع بالقرب من آران على حدود أذربيجان . وهى قريبة من تفليس ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ، ص .
- (٣٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٨٠ .
- (٣٦) الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٢ .
- (٣٧) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ، وهى قصبة أرمينية الوسطى ، فتحت على يد القائد عياض بن شتم ، بها بحيرة مشهورة : حكمت من قبل الأيوبيين ، ودخلها الكرج والمغول . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ : القسزوينى ، آثار البلاد ، ص ٥٢٤ .
- (٣٨) مراغه : مدينة فى بلاد أذربيجان ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧٦ .
- (٣٩) الأبخاز : أمة من النصارى يسكنون فى ناحية جبل القيقq المتصل بباب الأبواب ، ويلادهم جبال صعبة المسالك وعرة ، لا مجال للخيل فيها . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٥ .

الى عدة أقسام، بناءً على مشورة أحد رجال الكرج، وكان قد أسلم حديثاً، فالتف بفرقة عسكرية خلف الجيوش الكرجية وغدر بهم، فانهزموا وكثر فيهم القتل والأسر. وعاد المسلمون الى بلادهم منصورين قاهرين بعد أن استولوا على غنائم كثيرة (٤٠).

وكان أن أدت هذه الانتصارات على الكرج الى كسر شوكتهم مؤقتاً والى ارتفاع الروح المعنوية عند شمس الدين ايلدكز وربيبه السلطان أرسلان شاه، وعلو صيتها في البلاد، مما أدى الى خضوع بعض أمراء الأطراف لهما، مثل صاحب نيسابور (٤١) المسمى المؤيد، وهو الذي أعلن في سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م خضوعه وطاعته للسلطان أرسلان ببلاد فارس، وذلك بعد سيطرة أرسلان شاه على قومس بخراسان (٤٢).

وعلى الرغم من هذه المكانة المرموقة التي حظى بها شمس الدين وربيبه أرسلان شاه بين معاصريهم من القوى الاسلامية، فإنهما لم يستغلا هذه الانتصارات التي حققها على الكرج في القيام بحركة جهاد شاملة ضد الكرج للاستيلاء على العاصمة تفليس. لذلك عاود الكرج كرتهم مرة أخرى في سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م، واستولوا على مدينة آني. على أن ايلدكز لم يغفل عن عمل الكرج هذا فتمكن من استعادتها، ودخلها وأعاد الى حكمها الأسرة الشدادية (٤٣).

(٤٠) الفارقي، ملخص تاريخ ميافارقين، ورقة ١٩٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٧٩ - ٨٠؛ الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٧٤؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١؛ الذهبي، دول الاسلام، ج ٢، ص ٧٢.

(٤١) نيسابور: مدينة عظيمة من أشهر مدن خراسان، فتحت أيام عمر رضي الله عنه، على يد الاخفس بن قيس. يقول أحد الشعراء في أهلها:

لا تنزلن بنيسابور مغترباً
الا وحبلك موصول بسلطان
ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٢.

(٤٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٨٢.

(٤٣) الفارقي، ملخص تاريخ ميافارقين، ورقة ١١٩٦؛ عفاف صبره، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، ص ٤٦٢، وعن الأسرة الشدادية انظر زامباور، معجم الأنساب والأسر الحاكمة، ص ٢٨٢.

ولم يتوقف الكرج عن غزو بلاد المسلمين، بل قاموا بحركة واسعة في سنة ١١٦٦/٥٦١ م ، فخرجوا من بلادهم في جموع كثيرة وتمكنوا من الاستيلاء على كثير من بلاد المسلمين، حتى تمكنوا من الاستيلاء على مدينة كنج « فقتلوا وأسروا وسبوا كثيراً ونهبوا مالا يحصى » (٤٤) . وعلى الرغم من قوة ايلدكز ورعيه السلطان أرسلان شاه، فانهما لم يواجها الكرج هذه النوبة بسبب انشغالهما بأمر داخلى ومنافسات اقليمية ضيقة مع بعض القوى الاسلامية فى فارس ، حتى أنهما قاما فى سنة ١١٦٨/٥٦٣ م بإرسال حملة عسكرية بقيادة البهلوان الى مراغة ضد صاحبها أقسنقر الأحمديلى ، لا لسبب الا لأنه طلب من الخليفة العباسى المستنجد بالله (٥٥٦ - ٥٦٣ هـ) أن يخطب على منابر بغداد لابن السلطان محمد شاه الذى كان عنده . وقد أسفرت هذه الحملة عن مدهامة مراغه وهزيمة صاحبها والتنكيل به (٤٥) .

ولم يقف ايلدكز عند هذا الحد من اقحام نفسه فى نزاعات مع القوى الاسلامية فى فارس ، بل قام فى سنة ١١٦٩/٥٦٤ م بهجوم على الرى، حيث تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة بسبب عصيان صاحبها أقسنقر الأحمديلى عن دفع الأموال المطلوبة منه (٤٦) .

ومهما يكن من أمر ، فقد أدى هذا النشاط الحربى الى زيادة شهرة ايلدكز وعلو مكانته ، لا فى ايران وأرمينية فحسب ، بل حتى فى منطقة الجزيرة الفراتية، ففي سنة ١١٧١/٥٦٦ م استنجد به الأمير فخر الدين

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٩٤ . وكنجه : مدينة عظيمة تعتبر قصبة بلاد آران ، ويطلق عليها فى بعض كتب الأدب جنزه ، وتقع بين خورستان وأصبهان . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٨٢ .

(٤٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٩٨ ؛ ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ .

(٤٦) أبو الفدا ، المختصر ، ج ٢ ، ص ٤٨ . والرى : مدينة مشهورة فى أمهات البلاد ، كانت تعرف باسم Rhages عند اليونان . وكان يطلق عليها اسم الحمديّة نسبة الى الخليفة العباسى محمد المهديّ . وفيها ولد هارون الرشيد ، وكان فيها دار عزب فى العصر العباسى . انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١١٥ ؛ ليسترنج ، بلدان الخلافة ، ص ٢٤٩ .

القائم بأعمال الموصل عقب وفاة قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ضد نور الدين محمود بن زنكى ، عندما عبر الفرات وقدم الى الموصل لتنظيم أمورها . فلما بلغ نور الدين موافقة شمس الدين ايلدكز على تقديم المساعدة لفخر الدين أرسل اليه رسالة تنم عن احتقاره لايلدكز الذى أهمل المشرق حتى استولى عليه الكرج (٤٧) . ولم يف نور الدين محمود عند هذا الحد بل ضمن رسالته تهديدا لشمس الدين ايلدكز قال فيها : « وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون لى معك الحديث على باب همذان ، فانك ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج ، فاخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم » (٤٨) .

ويبدو أن رسالة نور الدين محمود الموجهة الى شمس الدين ايلدكز قد أثرت فى نفسه اذ عدل عن التوجه الى الجزيرة ، وقويت حميته فى التصدى للكرج الذين كانوا فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م قد استولوا على مدينة دوين وفعلوا بأهلها الأفاعيل القبيحة (٤٩) . ولذلك لم يستجب لطلب دفع الجزية التى فرضها عليه ملك الكرج ، بل رد على الكرج ردا قبيحا كشف عن قوته وحميته ، وما كان يتمتع به من صدق وعزيمة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل سار بمن معه من عساكر الى مدينة كنج . فلما بلغ ذلك ملك الكرج رد على ايلدكز رداً اعتذر فيه عن مطالبه، وتنازل عن طلبه السابق بدفع الجزية (٥٠) .

والواقع ان التفوق العسكرى الذى حققه شمس الدين ايلدكز مكّنه من ارباب خصومه من الكرج وغيرهم وخصوصاً الخليفة العباسى المستضىء.

(٤٧) ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٥٣ : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٢ : حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٢٣١ : د. مسفر الغامدى ، الجهاد ضد الصليبيين ، ص ٢٨٩ : عصام الدين عبد الرؤوف ، بلاد الجزيرة ، ص ٢٤ .

(٤٨) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٤٩) الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٥٠) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢ - ٣ : الأصفهانى ، زبدة

التواريخ ، ص ٢٧ .

بأمر الله الحسن (٥٦٦ - ٥٧٥هـ / ١١٧٠ - ١١٧٩م) ، الذي كان قد أرسل الخلع والهدايا اليه بقصد صرفه عن دخول بغداد ، وذلك بعد ان سمع الخليفة العباسي بان ايلدكز سيصل الى بغداد لمطاردة احد خصومه في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م (٥١) .

وهكذا ظل شمس الدين ايلدكز قوياً في وجه خصومه حتى كثرت أملاكه بأذربيجان ، وبلاد الجبل ، وهمذان ، وأصفهان ، والرى وما والاها من البلاد . ويعود ذلك الى كثرة جيوشه التي قيل أنها بلغت أكثر من خمسين ألف جندياً . ولم يكن لرئيسه السلطان « أرسلان شاه » معه حكم ، إنما كانت له جراية تصل اليه . وكان ايلدكز عاقلاً حسن السيرة ، يجلس بنفسه للرعيه ويسمع شكوايهم «وينصف بعضهم من بعض» (٥٢) .

ولم يطل عمر ايلدكز بعد هذه المكانة التي حازها ، بل توفي في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م في مدينة نخجوان الواقعة بأذربيجان (٥٣) وبعد وفاة ايلدكز تولى الأمر بأذربيجان ابنه نصره الدين محمد البهلوان ، المعروف باسم جهان بهلوان (٥٦٨ - ٥٧٢هـ / ١١٧٣ - ١١٨٦م) . وكانت شخصيته لا تختلف كثيراً عن شخصية أخيه لأمه السلطان أرسلان شاه ، الذي لم يكن له حول ولا قوة . وقد استهل محمد البهلوان أعماله بالهجوم على مراغة سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م التي كانت تحت حكم أقسنقر الاحمديلى ، في الوقت الذي سير أخاه قزل أرسلان الى مدينة تبريز (٥٤) . ولكن صاحب مراغه ورجاله عرفوا قوة البهلوان ، فعقدوا معه صلحاً تم بموجبه رفع الحصار عن مراغه ، وتسليم تبريز له . فقبل البهلوان بذلك ، «وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز ، واعطاها أخاه قزل أرسلان ، ورحل

(٥١) المولوى ، صحائف الأخبار ، ص ورقة ٦٤٠ ب : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢١ .

(٥٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١١٩ ؛ انظر : حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف ، العالم الاسلامى ، ص ٦٢٢ .

(٥٣) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١١٩ ؛ الأصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٢٧٥ .

(٥٤) تبريز : مدينة من أشهر مدن أذربيجان ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٢٨٩ .

عن مراغه بعسكره « (٥٥) .

أما الكرج فقد استغلوا انشغال البهلوان بحروبه ضد صاحب مراغه ، وضد شمله التركمانى الذى كان قد أشاع الخوف فى بلاد الجبل وبغداد ، فهجموا على مدينة أنى - فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م - التى كان شمس الدين ايلدكز قد منحها لسقمان بن ابراهيم المعروف بشاهنشاه ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها ورتبوا فيها والياً (٥٦) .

ولكن لم يهنا الكرج طويلاً بما حققوه من نصر فى مدينة أنى ، اذ تمكن البهلوان ومعه ناصر الدين سقمان صاحب خلاط وبعض القوى الاسلامية من ضرب الكرج والانتصار عليهم ، حتى وافقوا على عقد الصلح مع المسلمين . وفرض عليهم ما أراده البهلوان ، الذى عاد بعد ذلك الى بلاده محملاً بالغنائم فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م (٥٧) .



والواقع ان القوة والمكانة اللتين حظى بهما الأتابك شمس الدين ايلدكز وابنه محمد البهلوان ، تعودان بالدرجة الأولى الى انهما حظيا بصحبة السلطان أرسلان شاه السلجوقى . ولذلك فإن وفاة هذا السلطان سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٨م كانت نذيراً بضعف أتابكة أذربيجان . وقد حرص محمد البهلوان على تعيين ابنه طغرل بن أرسلان الثالث (٥٧٠ - ٥٩٠هـ / ١١٧٤ - ١١٩٤م) الذى كان صبيّاً ، وخطب له فى المحرم من السنة المذكورة . واستمر البهلوان يتصرف فى البلاد تصرفاً ممدوحاً ، وكان نفوذه قد شمل جميع بلاد الجبل وهمذان والرى وأصفهان وآران وغيرها من البلاد (٥٨) .

(٥٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٣٤ .

(٥٦) ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٥ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٦٤ .

(٥٧) الفارقى ، ملخص تاريخ ميافارقين ، ورقة رقم ٢٠٨ ١ ؛ الزاوندى ، راحة الصدور ، ص ٤٢٨ ؛ الأصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٢٨٨ .

(٥٨) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٤٣ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٥ .
(مجلة المؤرخ العربى)

والى جانب ارتباط قوة البهلوان بارسلان شاه ، فان قوة أتابكة أذربيجان ارتبطت بعلاقاتهم الخارجية مع الكرج والقوى الاسلامية . ولذلك فان هيبة محمد البهلوان لا تقل عن هيبة وصلابة وقوة والده ، بدليل موقفه . - الذى يسترعى الانتباه - من الخليفة العباسى المستضىء بامر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) فقد رفض البيعة للخليفة المذكور الا بعد الحاح من رسول الخلافة صدر الدين شيخ الشيوخ . وقيل أنه لولا خوف البهلوان من عصيان كثير من عساكره ، لما أعلن البيعة للخليفة (٥٩) . وان دل هذا على شيء فانما يدل على اعتداده بنفسه وبقوته . وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين أن البهلوان شجع طغرل على انتزاع السلطة الزمنية من الخليفة ، الا أن ضعف السلطان السلجوقى حال دون تحقيق ماكان يصبو اليه (٦٠) .

ولا أدل على قوة وشهرة البهلوان محمد بأذربيجان والمشرق من أن عز الدين ابن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل ، عندما تعرض لخطر الهجوم من قبل صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م لم يجد حرجاً فى الاستعانة ضده بزعيم أذربيجان محمد البهلوان . ولكن عز الدين أدرك فى النهاية أن خطر البهلوان قد يكون أفدح من خطر صلاح الدين ، فعدل عن الاستنجاد به (٦١) . ولما كان صلاح الدين رحمه الله حريصاً على الاستيلاء على الموصل من الزنكيين ، فقد كتب الى الخليفة العباسى كتاباً أوضح فيه غرضه من الاستيلاء على الموصل ، وهو منع الزنكيين

(٥٩) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٤٩ ؛ الأصفهاني ، سنا البرق الشامى ، ص ١٧٤ وقد ذكر ابن الجوزى فى منتظمه أن سمعة البهلوان ساءت فى بغداد ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٠ .
(٦٠) بارتولد ، تركستان ، ص ٥٠٠ .

(٦١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٥٨ . وقد أشار ابن الأثير الى أن البهلوان أرسل من قبله قزل أرسلان الى الموصل بقصد اصلاح الأمر بين صلاح الدين والزنكيين فلم يتم ذلك - أما عز الدين مسعود بن قطب الدين فقد توفى سنة ٥٨٩ هـ انظر ترجمته كاملة فى كتاب ابن الأثير ، الباهر ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ وهذا بخلاف ما جاء فى كتاب الاعلاق الخطيره ، لابن شداد ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢٠ . ولزيد بن الايضاح عن حكام الموصل من بنى زنكى انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٣٥ .

من الخطبة لصاحب العجم (٦٢) - والمقصود به محمد البهلوان - الذي كان على علاقات سيئة بالخلافة في بغداد . لذلك سار صلاح الدين سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م متوجهاً الى الموصل ، ولكنه لم يتمكن من الاستمرار في حصارها بسبب استبسال أهلها وحرارة الجو، بالإضافة الى وصول خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط (٦٣) بمنطقة الجزيرة . وكانت تربطه بالبهلوان علاقات مصاهرة، اذ أنه كان زوجاً لاحدى بنات البهلوان . لذلك وجد صلاح الدين أن المسارعة في الاستيلاء على خلاط أولى من الاستيلاء على الموصل ، خوفاً عليها من السقوط بيد صاحب العجم . ولهذا غادر صلاح الدين الموصل الى خلاط بدعوة من أهلها والقائمين عليها « مكرأ وخديعة » منهم . وكان غرضهم من ذلك دفع البهلوان الذي كان هو الآخر قد وصل قريباً منها « وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبين صلاح الدين ، ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له » (٦٤) . وان دل هذا على شيء فأنما يدل على أن ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن كان لها دور في تسيير الحوادث بخلاط ، والا فان البهلوان ليس في قوة صلاح الدين ولا كثرة عساكره . كذلك لا يستبعد أن يكون لأهل الجزيرة

(٦٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٦ ؛ عبد الله الغامدي ، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٨٨ ولزيد من التفصيل عن هذه الرسالة . انظر : نص الرسالة الثانية التي أرسلها صلاح الدين الى الخليفة العباسي . محمد القزاز ، الحياة السياسية في العراق ، ص ٢٨٥ .

(٦٣) شاه أرمن : هو ناصر الدين سكرمان الثاني بن ابراهيم . توفي في ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ . وتولى أمر خلاط بعده سيف الدين بكتيمور مملوك ظهير الدين ابراهيم شاه أرمن بن سكرمان . زامباور ، معجم الأنساب ، ص ٢٤٩ .

(٦٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٦٩ . ود نكر ابن واصل أن أهل خلاط ولوا أمرهم للامير سيف الدين بن بكتيمور الذي تمكن من تخويف كسلا من البهلوان وصلاح الدين بصاحبه ، وبهذه الطريقة عاد كل منهما الى بلاده . ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ . أما العيني فيذكر أن البهلوان أرسل الى صلاح الدين عند محاولة الأخير الاستيلاء على خلاط وقال له : ان هذه بلاد ابنتي والمصلحة أن تعود ، فعاد صلاح الدين الى محاصرة الموصل للمرة الثالثة . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢ ، ص ١٨ .

انظر ابن الوردي ، تنمة المختصر ، ج ١ ، ص ١٤٣ ؛ ابن شداد الاعلاق الخطبة .

ج ٣ ، ق ٢ ، ص ٤٥١ ؛ المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٩ .

وميافارقين (٦٥) ميول الى العجم أكثر من ميلهم الى صلاح الدين، الذي أصبح مكروها لدى الزنكيين بصفة خاصة وسكان الجزيرة بصفة عامة، نظرا لسياسته تجاه البيت الزنكي عندما كان يعمل على توحيد الجبهة الاسلامية (٦٦) .

ولم تطل حياة محمد البهلوان لنرى هل سيحقق في جهاده ضد الكرج ما حققه صلاح الدين ضد الصليبيين بالشام . ذلك أن صلاح الدين عندما كان يحارب في اقليم الجزيرة وشمال الشام ، كان يهدف الى توحيد قوى المسلمين ضد الصليبيين في بيت المقدس - مما مكنه فيما بعد من تطهير أولى القبلتين من سيطرة المغتصبين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م (٦٧) - أما محمد البهلوان، فان جهوده ضد القوى الاسلامية لم تسفر عن نتائج ذات بال . ويبدو أن سبب ذلك انما كان تشتت قواه بين الكرج والامارات الاسلامية في فارس والخلافة العباسية في بغداد .

وفي أوج المكانة التي حققها البهلوان بين معاصريه لم يمهله أجله طويلا ، اذ توفي في أول سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م . وكان كما وصفه معظم المؤرخين عادلا حسن السيرة عاقلا حلما ، ذا سياسة حسنة في الملك ، ظلت البلاد في عهده آمنة والرعايا في اطمئنان (٦٨) .

(٦٥) ميافارقين : مدينة مشهورة بديار بكر ، بمنطقة الجزيرة . فتحت على يد بن غنم زمن عمر بن الخطاب . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٢٨ وما بعدها ؛ القزويني ، آثار البلاد ، ص ٥٦٥ .

(٦٦) حامد غنيم : الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، وفي هذا الصدد يعلق الأستاذ الدكتور حامد غنيم بقوله : ان صلاح الدين لم تكن تحركاته في منطقة الجزيرة بدافع السيطرة أو الرغبة في الانتقام ، وانما كانت بدافع توحيد الجبهة الاسلامية .

(٦٧) ابن واصل . مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ : الأصفهاني ، سنا البرق الشامي ، ص ٣٠٩ ، حسنين ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢٣٨ - ٢٤٨ .

(٦٨) المولوي ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤٠ ب ، ويذكر أن الوفاة كانت سنة ٥٨٢هـ ، أما ابن الاثير في كامله فيذكر أن الوفاة كانت سنة ٥٨٢هـ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ؛ عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، ص ١٤٥ .

وقد اتصف محمد البهلوان بالشجاعة وقوة الشخصية، مما مكنه من فرض سيطرته على كامل البلاد التي كانت لوالده . بل لقد تمكن من اخضاع الكرج والحد من طغيانهم على بلاد المسلمين ، وصار له نفوذ بمنطقة الجزيرة الفراتية كما مر بنا ، كما أنه وقف موقفا صلبا أمام رسل الخلافة عند المبايعة للخليفة العباسي (٦٩) .

وليست هذه الأسباب وحدها هي الدالة على قوة شخصية محمد البهلوان، بل ان هناك الكثير من الدلائل الأخرى . من ذلك ما أعقب وفاته من فتن تفجرت بين السنة والشيعة ، وبين الشافعية والحنابلة . ففي أصفهان ذكر أن الخسائر المادية والبشرية نتيجة الفتن الداخلية فاقت « ما يجلب عن الوصف » . ولم تقتصر الفتنة بين السنة والشيعة على أصفهان بل تعدتها الى مدينة الري التي قتل من أهلها العدد الكبير « وتفرق أهلها » . كل ذلك بسبب عدم وجود الشخصية الكبيرة التي تستطيع أن تخمد مثل هذه الفتن (٧٠) . وفي جانب آخر من جوانب شخصية البهلوان ومدى ما أحدثته وفاته من فراغ ، ان السلطان طغرل بن أرسلان خرج وأعلن العصيان على خليفة البهلوان قزل أرسلان « ولحق به جماعة من الأمراء والجند فاستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قزل حروب » ولما لم يجد مظفر الدين قزل أرسلان بداً من مجابهة طغرل ، أرسل الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥ م) يستنجد به فلبى الخليفة طلب طغرل سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وأرسل له جيشاً جعل على قيادته الوزير جلال الدين بن يونس (٧١) ولكنه منى بالهزيمة . وازاء ذلك أمر الخليفة « بنقض دار السلطنة ببغداد . فهدمت الى الأرض

(٦٩) انظر ما سبق ، ص ١٥ .

(٧٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٧٤ .

(٧١) الوزير جلال الدين بن يونس : أبو المظفر عبيد الله بن يونس جلال الدين ، قتله ابن القصاب سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م . ابن الجوزي ، فضائل القدس ، مقدمة المحقق ص ٣٨ . والوزير له ترجمة كاملة في كتاب النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي ، ج ٦ ، ص ١٤٢ . وجاء في ذيل الروضتين أن الوزير ابن القصاب سلم ابن يونس الى ولده أحمد وأوصاه بقتله ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ، ص ٩ .

وعفى أثرها « (٧٢) .

ولم تتح الفتن الداخلية فرصة للاتابك قزل أرسلان لجهاد الكرج ، نظرا لانشغاله بالفتنة التي قامت بينه وبين السلطان طغرل الثالث ، بالإضافة الى انشغاله بالتزاع مع أبناء أخيه نصره الدين محمد البهلوان (٧٣) . ولما كانت سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م قتل الاتابك قزل أرسلان بتدبير من زوجته وبعض أمراء العراق تعاطفاً مع السلطان طغرل الثالث الذي كان على علاقات سيئة معه (٧٤) . وكان نهذه الخطوة أثرها في اضعاف أتابكة أذربيجان . ولم يتوقف الضعف في صفوف أتابكة أذربيجان عند هذا الحد بل أن أبا بكر بن البهلوان هرب من همذان وتوجه صوب نخجوان حيث لقي من أهلها ترحيباً ، فتمكن من بسط نفوذه على آران وأذربيجان التي أصبحت فيما بعد مركزاً لبنى ايلدكز (٧٥) .



أما بالنسبة لابناء نصره الدين محمد البهلوان - أينانج محمود وأمير اميران عمر - فقد ساءهم ماوصل اليه حال أخيهما أبى بكر ، فحشدا قواتهما من الأوياش والبطالين وساروا الى تبريز . وقد تمكنا من الاستيلاء عليها ثم واصلا سيرهما باتجاه نخجوان لملاقاة أبى بكر ، الا أن أبا بكر

(٧٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٨٩ - ١٩٧ ؛ انظر عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٧ . وقد أشار ابن الأثير الى أن صلاح الدين قد علق على حملة الخليفة وقال : ان مصيرها الهزيمة المحققة نظرا لعدم معرفة الوزير بفنون الحرب . (٧٣) الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ . وجاء في بعض المراجع أن السلطان صلاح الدين حاول الاصلاح بين قزل وطغرل فلم يفلح في الأمر ، ونحن نشك في ذلك . انظر : سعد الغامدي ، أوضاع الدول الاسلامية ، ص ٦٥ - ٦٦ ؛ حافظ حمدي : المشرق الاسلامي ، ص ١٠٦ .

(٧٤) ابن شداد ، النواير السلطانية ، ص ١٩٢ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ؛ عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ، ص ١٢٩ ؛ براون ، تاريخ الأدب في إيران ، ص ٥٠٩ .

(٧٥) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٥٠ ؛ الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٥٧٥ .

تمكن من هزيمتهما شر هزيمة (٧٦) .

ولم تتوقف سلسلة الحوادث بين الاتابكة ، فقد كان اينانج محمود بهمذان عقب وفاة مظفر الدين قزل أرسلان، وتولى أخوه أبو بكر بن البهلوان السلطة، فجمع جموعه بقصد محاربة أبي بكر؛ إلا أن الأنباء وصلته في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م تفيد أن السلطان طغرل حشد قواته وتوجه صوب همذان للاستيلاء عليها . وفعلا تمكن من الاستيلاء عليها في الوقت الذي هرب اينانج محمود وتحصن بالري ، واستنجد بالسلطان الخوارزمي تكش (٥٦٨ - ٥٩٧هـ/١١٧٢ - ١٢٠٠م) (٧٧) ضد السلطان طغرل ، الذي كان قد تزوج بأم اينانج محمود قتيبه خاتون - طمعا في «المال والملك» . ولما كانت سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م قدم تكش نجدة له ، وتمكن من الاستيلاء على بعض قلاع الري (٧٨) .

ولم تطل اقامة تكش بهمذان، بل عاد الى بلاده بعد أن عقد صلحا مع السلطان طغرل الثالث . على أن السلطان نقض الهدنة بينه وبين تكش فعاد تكش الى الري مرة ثانية، وتمكن من ملاقاته السلطان سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م ، وفي معركة غير متكافئة دارت بين الطرفين قتل السلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة بفارس والعراق . وتسلم السلطان خوارزمشاه ، همذان وبعض بلاد الجبل ، وسلمها الى اينانج، وعاد الى بلاده ؛ إلا أن اينانج كفر النعمه وعاد الى قتال الوالى الخوارزمي بالري (٧٩) .

(٧٦) الأصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٢٠٢ . ويشير عبد النعيم حسنين في كتابه دولة السلاجقة ، ص ١٢٠ الى أن الحرب نشبت بشكل كبير وفي فترات متعددة .
(٧٧) عن أسيرة خوارزمشاه ونسب هذه الأسرة . انظر : بارتولد ، تركستان ، ص ٥١١ حيث هناك شجرة تبين نسب هذه الأسرة .

(٧٨) المولوى : صحائف الأخبار ، ورقة ١٦٤١ .

(٧٩) المولوى ، صحائف الأخبار ، ورقة ١٦٤١ ؛ الراوندى ، راحة الصدور ، ص ٣٧١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ١٢٥ ؛ الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢٧٦ ؛ الأصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٣١٢ - ٣١٤ وقد جاء فى حاشية زبدة التواريخ رقم ١ ، ص ٣١٤ أن لسلطان علاء الدين خوارزمشاه تكش لما احتل همذان ، ومعظم مدن وقلاع العراق ، ثقطع كثيرا منها لأمرائه ومماليكه .

على أن اينانج محمود لم يستطع المحافظة على مكاسبه في الري وأصفهان فتمكن الوالي الخوارزمي الجديد من إجباره على مغادرة الري . ولذا توجه صوب العراق لطلب النجدة من الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) والوزير ابن القصاب الذي كان بخوزستان (٨٠) . وكان أن تمكن ابن القصاب من إجبار الخوارزميين على الخروج من الري ، كما استولى على همذان ، إلا أن قتلغ اينانج - مثلما فعل مع الخوارزميين في السابق - كفر النعمة وعصى على الوزير « فهرب وتحصن بالري » . ولكن الوزير تمكن من أخذها منه فهرب « اينانج ومن معه الى آوه » (٨١) وفي خضم هذا الصراع ، ورد على ابن القصاب رسول خوارزمشاه يطلب البلاد ، فلم يجبه . فما كان من خوارزمشاه إلا أن أرسل قوة عسكرية وصلت الى همذان سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م . ولكن الوزير مات قبل وصولها (٨٢) ، ولم تتمكن قوات الوزير والخليفة من الصمود أمام قوات الخوارزميين فهزمت وتفرقت (٨٣) .

فاقطع أصفهان لقتلغ اينانج وهمذان لفاراغوز الاتابكي ، أما الري فلأنه يونس خان . ولزيد من التفصيل انظر : سعد الغامدي ، أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي . ص ٧٤ - ٧٧ .

(٨٠) كان الوزير مؤيد الدين علي بن محمد بن القصاب قد خرج من بغداد لنجدة بعض رجال بني شمله المتنافسين على الحكم : سعد بن حذيفة ، أوضاع الدول الاسلامية ، ص ٩٠ . وخوزستان : اسم لولاية كبيرة تشبه أرض العراق وجوها ، وهي تنسب الى سكانها المعروفين باسم الخوز . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ . (٨١) آوه : قرية مشهورة بين زنجان وهمذان ، خرج منها العديد من العلماء . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٨٤ . (٨٢) كان ابن القصاب قد تسلم الوزارة سنة ٥٩٠ هـ بعد قتل سلفه ابن يونس ، وكان يميل الى الشيعة الأمر الذي جعله ينكل بأهل السنة ، وخصوصا الحنابلة الذين كان على رأسهم عبد الرحمن بن الجوزي الذي نفى الى واسط ومكث بها خمس سنوات . انظر : ابن الجوزي ، فضائل القدس ، مقدمة المحقق ، ص ٣٨ : أبو شامة ، ذيل الروضتين ، ص ٩ .

(٨٣) المولوي ، صحائف الأخبار ، ورقة ٦٤١ ب ، ص ٢٣٥ : سعد بن حذيفة : الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي ، ص ٩٠ وما بعدها . أما ابن الأثير فيشير في حوادث ٥٩١ هـ الى أن قوات الخلافة تمكنت من ملاحقة جيوش الخوارزميين وظفرت بشيء كثير ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٥ .

وعندما رأى الخوارزميون أن البقاء فى ذلك الاقليم ليس فى صالح قواتهم عادوا الى خراسان ومنها الى جرجانية (٨٤) باقليم خوارزم، بعد أن استنابوا على الرى وهمذان وبلاد الجبل مملوك السلطان تكش المسمى مياجن، وهو الذى تمكن فى سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م من قتل الأتابك قتلغ اينانج (٨٥) .



أما الأتابك أميراميران عمر بن البهلوان فقد توجه فى خضم هذا النزاع الى شروان (٨٦) وتزوج من ابنة صاحبها الذى تمكن من اقناعه بالدخول فى حلف مع الكرج ضد أبى بكر بن البهلوان . وكدليل على حسن النية توجه أميراميران وصاحبه الى تفليس وقابلا الملكة الكرجية ثمار الكبرى Tamara (٥٨٠ - ٦٠٩هـ / ١١٨٤ - ١٢١٢م) (٨٧) التى أمدتهم بمساعدات عسكرية كبيرة، جعلت قيادتها لزوجها المسمى داود سوسلان . وكان أن تمكنوا من هزيمة أبى بكر البهلوان سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م عند بيلقان (٨٨) كما تمكنوا من الاستيلاء على كنجه ونصبوا عليها أميراميران عمر وعادوا الى بلادهم (٨٩) .

ولم يطل عمر أميراميران عمر عقب دخوله كنجه ، اذ توفى بعد اثنين وعشرين يوماً من دخولها ، فقدم اليها أبو بكر بن البهلوان ودخلها

-
- (٨٤) جرجانية : أشهر مدن إقليم خوارزم ، كانت عاصمة الدولة الخوارزمية ، تقع على نهر جيحون . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
- (٨٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤١ب . و قتلغ اينانج أخو الأتابك أبو بكر من أسرة ايلدكز ، وهو ابن لجهان بهلوان حكم فى الفترة من (١١٩١-١٢١٠م) انظر : بارتولد ، تركستان ، ص ٤٩٩ ، حاشية رقم ١٤٣ .
- (٨٦) شروان : مدينة تقع قرب بحر الخزر من نواحي مدينة باب الأبواب ، محمد شيت خطاب ، أرمينية بلاد الروم ، ص ٢٩ .
- (٨٧) عفاف صبره ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٢٧ .
- (٨٨) بيلقان : مدينة تقع فى السهل الممتد بين التقاء نهر الرسى ونهر الكر، وهى إحدى المدن التى بناها قيادة للدفاع عن المنطقة من هجمات الخزر ، وهى قريبة من باب الأبواب ، محمد شيت خطاب ، أرمينية بلاد الروم ، ص ٢٩ .
- (٨٩) الاصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٨ .

ورتب أمورها ، وعين عليها حاكماً من قبله ثم عاد الى نخجوان (٩٠) .

أما الكرج فانهم بعد سماعهم نبأ وفاة حليفهم وصنيعتهم بكنجه لم يتورعوا عن اعداد حملة عسكرية كبيرة لعلهم يستعيدوا بها هذه المدينة . ولكنهم عجزوا عن ذلك بعد حصار طويل ، فتوجهوا صوب نخجوان التي بها أبو بكر البهلوان . فلما علم بمقدمهم هرب الى تبريز ، وترك المدينة وأهلها يواجهون مصيرهم المحتوم على يد الكرج الذين أسروا من أهلها ما لا يعلمه الا الله (٩١) .

ولم يقف أمر تصدع بيت أتابكة أذربيجان من بنى ايلدكز عند حد الانقسام السياسى وضياح الأراضى بل تعداه الى أن أبى بكر بن البهلوان وغيره من كبار رجال بيته وقادته كانوا منهمكين فى الشراب ليلاً ونهاراً مما سهل للكرج الاستيلاء على معظم اقليم أذربيجان . وقد استمروا فى توسعهم حتى كانت سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م عندما خرج الكرج فى جموع كبيرة وتوجهوا الى مدينة دوين القريبة من حدودهم وفرضوا عليها حصاراً طويلاً . ولما لم يجد أهلها قدرة على الصمود استنجدوا بابن البهلوان أبى بكر ولكنه لم يتمكن من نجدهم ، فتمكن الكرج من الاستيلاء على المدينة وذلك فى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م وفعلوا بأهلها من المسلمين ما تقشعر له الجلود ، فى الوقت الذى لم يتمكن ابن البهلوان من تقديم مساعدات لأهلها . وقد صور المولوى صمت ابن البهلوان وعدم نجدهم للمسلمين بقوله « فكأنهم ينادون صخرة صماء فكررُوا الاستغاثة فازداد صمتاً وقسوة حتى فعل الكفار ما أرادوا . . . بعد تخريب البلاد والقرى . قال الله يرحم العباد » (٩٢) .

(٩٠) الأصفهاني ، زبدة التواريخ و ص ٣٠٧ - ٣٠٨ ، وجاء فى الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة أن أبى بكر قد أوعز الى بعض رجاله قتل أخيه أميراميران غمر .

(٩١) نفس المصدر ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٩٢) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤١ ب ؛ انظر كذلك ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٦٠ ؛ الأصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ الغساني ، المسجد المسبوك ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٣٨ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

ويبدو أن هجمات الكرج على أملاك أتابكة أذربيجان لم تكن نتيجة لضعف أبى بكر البهلوان وانشغاله باللهو والشراب فحسب ، وإنما ترجع أيضاً الى الفتن الداخلية وظهور بعض الشخصيات القيادية من مماليك البهلوان وأولاده . ففي سنة ١٢٠٣هـ / ١٢٠٣م تمكن أحد مماليك أبى بكر ابن البهلوان ، ويدعى أيتغمش ، من قتل والى الرى ويدعى المملوك كوكجا ، واستولى عليها . وحتى يضى على هذا العمل الشرعية حمل معه أوزبك بن البهلوان (٩٣) .

تلك الحوادث وغيرها ، كقيلة باضعاف جانب أتابكة أذربيجان . ولهذا أغار الكرج على أراضى أذربيجان، وتمكنوا فى سنة ١٢٠٤هـ / ١٢٠٤م من الاستيلاء على مدينة مرند التابعة لأقليم أذربيجان ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل ، حتى غدت مضرب الأمثال فى الدمار والابادة (٩٤) .



ولم تترك هذه الأوضاع القائمة بين أتابكة أذربيجان وبعض من ناحية ، وبينهم وبين الكرج من ناحية أخرى . فرصة لتقوية جبهتهم الداخلية . ولذلك لجأ أبو بكر - بعد أن عرف عجزه عن محاربة الكرج - الى مصاهرتهم ، فلما كانت سنة ١٢٠٥هـ / ١٢٠٥م تزوج ابنة ملك الكرج « فسكنت غاراتهم على بلاد المسلمين » (٩٥) .

وبالرغم من المصاهرة التى تمت بين أبى بكر والكرج فإن أوضاعه

(٩٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٦٥ . أما الرى فقد كان البهلوان قد استولى عليها وعلى ما جاورها من بلاد الجبل سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م . أما أيتغمش فيذكر ابن الأثير فى كامله أنه شدد الحرب على الاسماعيلية بايران ولولا انشغاله بأبى بكر بن البهلوان لامكنه الاستيلاء على قلعة الموت، ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٨٢ .
(٩٤) الاصفهاني ، زبدة التواريخ ، ص ٣٠٩ . ومرند : من مشاهير مدن أذربيجان ، بينها وبين تبريز مسيرة يومين على الأقدام . ياقوت . معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

(٩٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ ١ : انظر : الذهبى ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ؛ ابن الوردى تنمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٧٧ ؛ ابن خلدون ، العير ، ج ٥ ، ص ٣ .

السياسية الداخلية لم تتحسن ولم تستقر ؛ اذ نظر بعض قادة المسلمين الى هذا الزواج السياسى على أنه منتهى الذل والخضوع . ولذلك اتفق صاحب مراغه علاء الدين مع صاحب أربل مظفر الدين كوكبرى سنة ٦٠٢م هـ / ١٢٠٥م على قصد أذربيجان وأخذها من صاحبها أبى بكر بن البهلوان بسبب مواقفه السلبية تجاه الكرج . فلما عرف أبو بكر أن هذا الحلف قصد تبريز مقر اقامته ، حشد قواته واستنجد بايتغمش مملوكه بالرى ، فقدم اليه . وكان لأيتغمش دور كبير فى تفكيك هذا الحلف بحيث عاد صاحب أربل الى بلده . أما صاحب مراغه فقد صالح أبى بكر بن البهلوان وايتغمش على تسليم حصن من حصونه مقابل اقطاعه مدينتين صغيرتين تابعتين لمراغه ، على أن يعود أيتغمش الى بلاده (٩٦) .

أما الكرج فقد استغلوا انشغال البهلوان بمشاكله مع القوى الاسلامية ، فأغاروا فى نفس السنة على أرمينية وحاولوا الاستيلاء على خلاط . ولكن حماسة المسلمين ورغبتهم فى الجهاد مع كثير من علمائهم أجبرت الكرج على العودة بعد أن قتلوا وأسروا منهم أعداداً كبيرة . ولكنهم عادوا فى سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة قرص (٩٧) من أعمال خلاط « وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد ، فان لله وانا اليه راجعون » (٩٨) .

وفى ظل هذه الأوضاع المتردية للمسلمين ، وجد الكرج أن الفرصة مواتية لهم للهجوم على اماره خلاط بأرمينية ، مستغلين فى ذلك انشغال أبى بكر بن البهلوان بأذربيجان بفتنه الداخلية ولهوه ، فصبوا جام غضبهم على اماره خلاط بأرمينية . وكان من المتوقع أن يقف أبو بكر بن البهلوان الى جانب صاحب خلاط . ولكنه للأسف لم يسع الى ذلك بل قام فى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م بهجوم على مراغه ، وتمكن من الاستيلاء عليها عقب وفاة

(٩٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٨٢ .

ج٤ ، ص ٢٢٢ .

(٩٧) قرص : مدينة بأرمينية من نواحي خلاط ، ياقوت ، معجم البلدان ،

(٩٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص ٢٨٩ ؛ انظر : ابن الساعى ، الجامع

المختصر ، ج٥ ، ص ٢٠٦ .

صاحبها علاء الدين قراسنقر الأحمدى الذى لم يخلفه أحد من أسرته فى حكم بلاده (٩٩) .

وبالرغم من الأخطار المحدقة بأبى بكر بن البهلوان فإنه « قد بقى على فسقه وشربه ٠٠٠ حتى توفى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م بمدينة تبريز، تجاوز الله عن سيئاته » (١٠٠) . وقد مكث فى حكم أذربيجان أكثر من عشرين سنة ، فتولى الأمر بعده أخوه مظفر الدين أوزبك بن البهلوان محمد بن شمس الدين ايلدكز ، وكان قبل توليه الأمر مقيما ببلاد الجبل عند المملوك أيتغمش ، وقبله عند كوكجا . وفى بداية أمره حاول أن يصلح المفاصل التى انتشرت فى أيام أخيه ، لكن النزاعات الداخلية لم تدع مجالا للإصلاح . وقد تمكن أحد المماليك المسمى منكلى فى سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م من طرد أيتغمش من الرى وأجبره على الخروج منها فوجد الأخير أن الأفضل له الذهاب الى بغداد للاستنجاد بالخليفة الناصر (٥٧٥هـ / ٦٢٢هـ) (١٠١) .

على أن هذا التصرف من قبل منكلى كان له أثره على القوى الإسلامية ، فتكون ضده حلف من الخليفة العباسى ، وجلال الدين (١١٢) صاحب الاسماعيلىة، وأوزبك بن البهلوان ، لقتال منكلى وأخذ البلاد من يده . وقد تمكن هذا الحلف من هزيمته وقتله واقتسام بلاده التى استولى عليها من أيتغمش ، وقسمت بين أعضاء الحلف ، وكان النصيب الأوفر من بلاده لأوزبك بن البهلوان ، وصاحب قلاع الاسماعيلىة (١٠٣) .

(٩٩) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٩٧ .

(١٠٠) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ : انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٤٩ .

(١٠١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٠٥ : الذهبى ، تاريخ الاسلام ، (١٠٢) جلال الدين حسن الثالث بن محمد الثانى كان دس له البسم فتوفى سنة ٦٠٧هـ ، وتولى بعده زعامة الاسماعيلىة علاء الدين محمد الثالث الذى عارض الاسماعيلىة فى كثير من معتقداتهم ، وأقام فى بلاده الأذان والجمعة والجماعة فى الصلاة ، انظر : زامباور ، معجم الانساب ، ص ٣٢٩ .

(١٠٣) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ .

أما أزيك فقد سلم نصيبه من بلاد الجبل الى مملوك أخيه المسمى أغلمش وذلك سنة ١٦٢هـ/١٢١٥م ، وهى السنة التى أرسل فيها رأس منكلى الى بغداد كدليل على التخلص منه (١٠٤) .

ولما كانت طائفة الاسماعيلية لا يؤمن جانبها ، فقد قام بعض رجال هذه الطائفة باغتيال أغلمش ، فأصبحت بلاده مطمعا للطامعين سواء الاسماعيلية أم الخوارزميين أم صاحب فارس سعد بن زنكى (١٠٥) ، وكان أن تسابق الجميع للاستيلاء عليها، إلا أن علاء الدين محمد خوارزمشاه زعيم الخوارزميين (٥٩٧ - ٦١٨هـ/ ١٢٠٠ - ١٢٢١م) تمكن من الاستيلاء على بلاد الجبل والرى وهمذان بعد أن أسر سعد بن زنكى ، وأجبر أزيك على مغادرة أصفهان الى أذربيجان . وأستقرت القاعدة بينه وبين أزيك صاحب أذربيجان على أن يخطب له أزيك ببلاده ويدخل فى طاعته (١٠٦) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل قام الأتابك أزيك بضرب السكة باسم السلطان الخوارزمى وأرسل اليه الهدايا والتحف . على أنه أعتذر عن دفع ما طلبه السلطان من أموال بسبب قلة دخل البلاد ، وكثرة الانفاق على المجاهدين ضد الكرج . ولما عرف السلطان هذا الأمر تجاوز عن المال المطلوب من أزيك، وأرسل الى الكرج يحذرهم من الاعتداء على أذربيجان باعتبارها أصبحت من أملاكه الخاصة (١٠٧) .

(١٠٤) نفس المصدر ، ورقة ٦٤٤-١ .

(١٠٥) هو سعد الاول بن زنكى تولى أمر أتابكية فارس من أسرة بنى سلغر فى سنة ٥٩٩ هـ وأسر خوارزمشاه سنة ٦١٢ هـ وأعادها عاملا على بلاد فارس ، وكانت علاقاته طيبة مع جلال الدين منكبرى زعيم الخوارزميين انظر : زامباور ، معجم الأنساب ، ص ٣٥٠ .

(١٠٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣١٣ : الجوينى ، تاريخ جهانكشاي ، ج ٢ ، ص ٨ : حافظ حمدى ، الدولة الخوارزمية ، ص ٤٧ .

(١٠٧) النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين ، ص ٥٨ : ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ١٢٨ : فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ ، ج ١ ، ص ٧١ : عفاف صبرة ، دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٩٣ .

وهكذا تعتبر هذه الخطوة نقطة تحول فى تاريخ أتابكية أذربيجان لم يسبق لها مثيل من قبل فى اعلان الطاعة للخوارزمين . ولا يخرج ذلك عن كونه تعبيراً عن قوة طموح علاء الدين محمد خوارزمشاه ، الذى كان قد قضى على الغوريين (١٠٨) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد ساعد على ذلك ضعف أربك ، اذ سلك مسلك أخيه فى ادمان الشرب والأنهماك فى ملاذه حتى تمكن الكرج والمغول من الاستيلاء على معظم أملاكه .



ولم يقف تدهور أتابكة أذربيجان عند هذا الحد من اقتطاع أراضيها ، وخصوصاً تلك التى ببلاد الجبل والرى وهمذان وآران على يد الكرج أو الخوارزميين ، بل ظهر على المسرح عدو جديد (المغول) اجتاح المشرق بكامله . ذلك أنه حدث سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م أن وصلت جموع هذا العدو الى أذربيجان . وعندما اقتربوا من تبريز التى كان بها أربك فانه « لم يخرج اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بضدده من ادمان الشرب ليلاً ونهاراً » وارسل اليهم الأموال والدواب والهدايا ، فلم يتعرضوا لبلاده واتجهوا الى موقان (١٠٩) على ساحل بحر قزوين (١١٠) .

ويبدو أن المغول قنعوا مؤقتاً بما حصلوا عليه من هدايا وتحف من أربك ، فاتجهوا صوب بلاد الكرج ، وقد انضم اليهم أحد مماليك أربك ويسمى أقوش ، وماروا حتى وصلوا قرب تفليس بعد أن هزموا الكرج بزعامة ملكهم جورج لاشا الرابع George IV (٦٠٩ - ٦١٩هـ / ١٣١٢ - ١٢٢٣م) فى نهاية سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م (١١١) .

(١٠٨) لمعرفة كيفية القضاء على الغوريين انظر : عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ، ص ٦٣ - ٦٥ .

(١٠٩) موقان : ولاية عظيمة بأذربيجان بين أردبيل وتبريز، ويوجد بموقان عدد من القرى الجبلية ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ .

(١١٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٢٥ - ٢٣٦ : انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٧ : الذهبى ، المختار ، ص ١٠٠ : عصام عبد الرؤوف ، الدول الاسلامية المستقلة ، ص ٣٦٥ .

(١١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٩ : ابن واصل ، مفرج

ولم يتوقف المغول عند هذا الحد بل تمكنوا في سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م من الاستيلاء على مراغه ، وتابعوا سيرهم حتى وصلوا حدود العراق بعد الاستيلاء على همذان . ومن همذان سار المغول مرة ثانية الى أذربيجان واتجهوا ضوب تبريز التي كانت تحت حكم شمس الدين الطغرائي (١١٢) بعد أن هرب منها أزيك الى نخجوان . ولما عرف الأهالي بهرب أميرهم افتدوا أنفسهم بأموال كثيرة ، وتركوها وتوجهوا الى بيلقان سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م . وبعد الاستيلاء عليها وقتل معظم أهلها توجهوا الى كنجه « وهي أم بلاد آران » ولكنهم عدلوا عنها بسبب معرفتهم بقوة أهلها وشدة مراسهم على الحرب وقبلوا من أهلها « المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم » (١١٣) . ونتيجة للضعف الذي أصاب حكام أذربيجان من أسرة ايلدكز فضلا عن الكرج على يد المغول ، فان الكرج لم يستكينوا لهذا الوضع بل قاموا في سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م بهجوم على آران ، وتمكنوا من دخول بيلقان التي لم يكن أهلها على استعداد لمحاربة الكرج ، فأعملوا فيهم السيف . هذا في الوقت الذي كان أزيك قابعا في تبريز « لا يتحرك في اصلاح ولا يتجه لخير بل قنع بالأكل والشرب والنساء فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم » (١١٤) .

وعلى الرغم من هذه الأخطار المحدقة بالمسلمين من جانب المغول والكرج في الشرق والصليبيين في الشام ، فان نزاعاتهم الإقليمية العنيفة لم تنقطع . ففي سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م قام صاحب الموصل بدر الدين

الكروب ، ج ٤ ، ص ٥٣ ، حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية ، ص ٥٦ ؛ ونسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ ؛ عفاف صبره ، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٥٢٧ .

(١١٢) شمس الدين الغرائي : لم أقف له على ترجمة .
(١١٣) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ص ٤٢٤ ؛ انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٥٤ .
(١١٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٤٩ ؛ انظر : الغساني ، المسجد النبوي ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ عفاف صبره ، دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٨٥ .

لؤلؤ (١١٥) بالاستيلاء على قلعة شوش (١١٦) ، وأجبر صاحبها - عماد الدين زنكى بن نور الدين أرسلان شاه - على التوجه الى أزيك بن البهلوان لطلب النجدة منه . على أنه لم يجد منه مساعدة للعودة الى بلاده « فبقى عنده ولم يعد الى الموصل » (١١٧) . واستمرراً للضعف والخذلان الذى أصاب أزيك فانه فى سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، وحينما وصل المغول الى تبريز لم يسع الى المحافظة على المسلمين الخوارزميين الذين لجأوا اليه ، بل قتل كثيراً منهم وأسر البعض وسلمهم مع جملة من الهدايا الى المغول الذين هاجموا بلاده ، فعادوا عنه « وعادوا عن بلاده نحو خراسان » (١١٨) . وأن دل هذا على شيء فانما يدل على ضعف وهوان المسلمين بعضهم على بعض . ولم يعد فى مقدور أزيك بن البهلوان الدفاع عن بلاده ، لا من المغول ولا من الكرج الذين كانوا قد استغلوا هذه الأوضاع المتردية فقاموا فى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م وتوجهوا الى كنجه الا أن أهلها تمكنوا من الدفاع عنها ، واعادوا الكرج من حيث أتوا . على أن الكرج تمادوا فى غيهم تجاه المسلمين فخرجوا مرة أخرى فى عهد الملكة روسودان Roussoudan (١٢٢٣ - ١٢٤٨م) من تفليس الى بلاد أزيك بأذربيجان . ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمة الكرج فى أحد المضايق ، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة (١١٩) .

-
- (١١٥) بدر الدين لؤلؤ : الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكى ، صاحب الموصل توفى عن عمر يناهز الثمانين ، حكم الموصل ، حوالى خمسين سنة ، وقام من بعده ابنه الصالح اسماعيل وكانت وفاته سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م . انظر : ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٨٩ .
- (١١٦) قلعة شوش : قلعة عظيمة العلو قرب عقر الحميدية ، من أعمال الموصل ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .
- (١١٧) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٢ ب .
- (١١٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٣ ؛ عصام الدين عبد الرؤوف ، الدول الاسلامية المستقلة فى الشرق ، ص ٢٦٥ .
- (١١٩) الاصفهاني ، البستان الجامع ، ورقة ١٩٠ ب ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٧ . وقد ذكر العيني أن ملكة الكرج روسودان قامت بعد وفاة زوجها وتزوجت من مغيث الدين طغرل شاه ابن صاحب آرزن الروم . العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ص ٤٢٨ .

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الكرج فى محاولتهم الأخيرة للاستيلاء على أذربيجان فإن ابن الأثير صور حالة زعماء المسلمين وما أصابهم على يد الكرج والتتار فى تلك الآونة ، وما كان عليه حالهم من الخذلان فقال : ان ملوك المسلمين لا تتعدى همة الكثير منهم بطنه وفرجه (١٢٠) .

وعلى الرغم من أن القوى المتصارعة بفارس وأذربيجان فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، لم تحدد أيا منها يمكن أن تكون لها السيادة المطلقة على بقية القسوى فإن قوة المغول كانت هى القوة التى استولت على أكبر مساحة جغرافية من فارس والعراق وأرمينية وأذربيجان . على أن قوتهم لم تتخذ لها مركزا سياسيا تنطلق منه الى بقية المراكز ، فلا هم لهم الا التخريب والتدمير ثم الرحيل ، ولما كان الخوارزميون أكبر القوى الاسلامية التى تعرضت للضربات الموجهة والمفجعة من بين جميع القوى ، فقد أفرز هذا الضغط المغولى زعامة اسلامية جديدة ممثلة فى شخصية جلال الدين منكبرى (١٢١) ، وما بقى معه من القوات الخوارزمية المشردة . ذلك أنه ركز همه على تجميع وحدة المسلمين فى الجنوب الشرقى والجنوب الغربى من ايران بعد عودته من الهند سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ولم تأت سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م حتى أصبحت قوة جلال الدين القوة الضاربة فى فارس وأذربيجان والعراق العجمى (١٢٢) .

ولما كان جلال الدين منكبرى يطمح فى توحيد القوى الاسلامية فانه تمكن فى سنة ٦٢٣ / ١٢٢٦م من الاستيلاء على مراغه وتبريز وكنجه بعد أن هرب الأتابك أزيك بن البهلوان تاركاً زوجته وأفراد أسرته

(١٢٠) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٣٦ .

(١٢١) جلال الدين منكبرى : محمود علاء الدين محمد خوارزمشاه ، على يد جده زالت الدولة السلجوقية ، ولاء والده ولاية العهد بعد الغزو المغولى للدولة الخوارزمية . انتصر على المغول فى معركة بيروان سنة ٦٢٠هـ . تمكن أحد فلاحى خلاط من قتله غيلة سنة ٦٢٨هـ . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٣٢ .

(١٢٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٥٧ : العرينى ، المغول ، ص ١٦٩ .

بتبريز . ومن تبريز نقل جلال الدين منكبرتي زوجة أزيك الى قلعة خوى
معززة مكرمة (١٢٣) .

وفى تبريز أحسن جلال الدين منكبرتي الى سكانها ، ووعدهم بأخذ
الثأر من الكرج الذين لم تنقطع غاراتهم على المسلمين . ولم يقف عند
هذا الحد بل خرج الى بلادهم وانزل بهم هزيمة ساحقة، واستولى على
عاصمتهم تفليس . ولكنه لم يقيم في بلادهم بل عاد الى تبريز حيث بلغه
أن سكانها حاولوا التعاون مع أنصار أزيك وانتقم ممن كان وراء هذا
التدبير ، وتزوج من زوجة أزيك بعد أن ثبت لديه طلاقها من زوجها
السابق ، وأجبر أزيك على الاحتماء بقلعة كنج (١٢٤) .

ولم تطل حياة أزيك بعد هذه الضربات المتلاحقة، فقد وافته منيته
فى تلك السنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م بعد خمسة عشرة سنة أمضاها فى حكم
أتابكية أذربيجان . وخلفه ولد له اسمه خاموس فتولى أمره مملوك لأبيه
اسمه قراجه؛ إلا أن أمر بنى ايلدكز كان قد انفرط . وبذلك انقرضت أتابكية
أذربيجان من بنى ايلدكز (١٢٥) .



(١٢٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٥٩ ؛ العرينى ، المغول ، ص ١٦٨ ؛
براون ، تاريخ الالب فى ايران ، ص ٥٧١ . وخوى : ويقال لها مدينة حسنة على
نهر يجرى شمالا فيصب فى نهر أرس Arazes وهى ذات سور عظيم وبساتين
كثيرة بها عين ماء حار ماؤها فى الشتاء بارد فى الصيف ، ويتبع المدينة أكثر من
ثمانين قرية . انظر : ليسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(١٢٤) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ،
ص ٣٦٠ - ٣٦٧ . جاء فى كتاب معجم الانساب لزامباور ، ص ٢٤٩ أن زوجة أزيك
هى فلانة بنت طغرل بن أرسلان السلجوقى .

(١٢٥) المولوى ، صحائف الاخبار ، ورقة ٦٤٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ،
ج ٩ ، ص ٣٦٧ .

الختاتمة

وبعد فان هذه دراسة متواضعة عن أتابكة أذربيجان من أسرة شمس الیدن ايلدكز التى امتد حكمها لأذربيجان وبلاد الجبل فى الفترة من ٥٤١هـ حتى ٦٢٢هـ. وقد تمكن زعماء هذه الأسرة من فرض سيطرتهم على البلاد السلجوقية وتحكموا فى أمر الدولة السلجوقية فترة زمنية . كذلك تمكن زعماء هذه الأسرة من الوقوف فى وجه الكرج الجورجان الذين كانوا يحاولون ما بين حين وآخر مد نفوذهم على بلاد الاسلا . وقد أضحت فى دراستى لهذه الامارة العلاقات الايجابية والسلبية لهذه الأسرة مع القوى السياسية وغيرها فى فارس والعراق واقليم الجزيرة وأرمينية . وكيف أن زعماء هذه الأتابكية ذهب كثير من جهودهم فى حروب اقليمية ضيقة اكتشفها نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، مما شجع الكرج على احتلال كثير من بلاد المسلمين . وقد ادرك صلاح الدين عدم جدوى الدخول فى نزاع مع زعماء هذه الأتابكية التى قد تصرفه عن جهاد الصليبيين فى الشام .

ومما توصلت اليه فى دراسة هذا الموضوع بيان التحول فى ضعف هذه الأتابكية عقب وفاة محمد البهلوان وتمرد الرعايا والسلطين السلاجقة على خلفائه ، الأمر الذى أدى الى أن استعان هؤلاء الخلفاء بقوى خارجية كالخلافة العباسية ، والدولة الخوارزمية والكرج أحياناً . وكان لهذا التصرف من قبل بعض أفراد هذه الأسرة أثره فى ضياع هيبتهم أمام خصومهم. ثم ان الدراسة أوضحت تلك المواقف المعيبة لبعض زعماء هذه الأتابكية وانغماسهم فى الشراب واللهو وعدم الاستعداد لحماية مكاسب أسلافهم أو حتى القيام بفريضة الجهاد ضد الكرج . وكانت حصيلة هذه المواقف السلبية من زعماء هذه الأسرة أن تعرضت أملاكهم الى طغيان الكرج واستبدادهم بالاستيلاء على معظم أراضيهم . هذا فضلا عن عدم قدرة هذه الأسرة على الوقوف والتصدي للمغول ولقوة جلال الدين منكبرتى زعيم الخوارزميين فيما بعد ، وهو الذى تمكن من القضاء على هذه الأتابكية وضم الى حوزته ما كان قد بقى فى أيديهم من أملاك سنة ٦٢٢هـ، ثم توج جهوده بالاستيلاء على تفليس من الكرج فيما بعد .

المصادر والمراجع

* المخطوطات :

- الأصفهاني (محمد بن محمد صفى الدين الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهاني ت ٥٩٧ ق/١٢٠١م) .
البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان .
صورة بمركز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ١٠٢٨
- الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى ، ٧٥٢هـ)
ملخص تاريخ ميفارقين . صورة بمركز البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ١٢٦٦ .
- المولوى (أحمد رده بن لطف الله المولوى الرومى ، ت ١١١٦هـ)
صحائف الأخبار فى وقائع الأعصار ، صورة بمركز البحث بجامعة أم القرى تحت الرقم ١٠٤٢) .

* المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير (أبو الحسن بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠هـ)
- ١ - الكامل فى التاريخ ٩ أجزاء ، طبعة بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ٢ - التاريخ الباهر - الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، ط ، القاهرة .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو الحسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ ، ط القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ابن الجوزى (أبو الفرجة عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ت ٥٩٧هـ / ١٠٢١م)

- ١ - فضائل القدس ، ط
- ٢ - المنتظم ، ج ١٠ ، ط بيروت .
- ابن حوقل : (أبو القاسم محمد بن علي ، ت ق ٤ هـ) .
صورة الأرض ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط بيروت ١٩٧٥ م .
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ،
ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٤ م) وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، ط
بيروت ١٣٩٧ هـ .
- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد بن أيدير ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م)
الجواهر الثمين ، تحقيق د . سعيد عاشور ، ط مكة .
- ابن الساعي (أبو طالب علي بن أنجب المعروف بابن الساعي
الخازن ، ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م)
الجامع المختصر ج ٩ ، تحقيق مصطفى جواد ، ط بغداد ١٣٥٣ هـ .
- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن مانع ت ٦٣٢ هـ / ١١٣٤ م)
النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ،
١٣٨٤ هـ) .
- ابن شداد (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم
الطبي ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج ٣ ، ق ٢ ،
تحقيق يحيى عباره ، ط دمشق ١٩٧٨ م .
- ابن ظافر الأزدي (جمال الدين أبي الحسن علي بن ظافر بن
الحسين بن غازي الطبي ، ت ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م)
أخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية ، تحقيق محمد
الزهراني ، ط المدينة المنورة سنة ١٤٠٨ هـ .

- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج بن هارون ، المعروف ، بابن العبرى ت ٦٦٠هـ/١٢٨٦م) .
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨م .
- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)
زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى دهان ، ط دمشق ١٣٧٠هـ/١٩٥١م .
- ابن الحنبلى (أبو الفرج عبد الحى بن على بن محمد ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٨ أجزاء ، ط بيروت .
- الغسانى (الملك الأشرف الغسانى ، ت ٨٠٣هـ)
العسجد المسبوك جزآن تحقيق ، شاكى عبد المنعم ، ط بغداد ١٣٩٥هـ
- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه بن القلانسى ، ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨م .
- ابن كثير (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)
البداية والنهاية ١٢ جزء ، ط بيروت ١٩٦٦م .
- ابن واصل (جمال الدين بن محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ/١٣٩٨م)
مفرج الكروب ، ج ٢ ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة ١٩٥٣م والجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة ، ١٩٧٢م .
- ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن أبى الفوارس ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
تتمة المختصر ، تحقيق أحمد البدرأوى ، ط بيروت ١٣٨٩هـ .
- أبو شامه (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)

- ١ - كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزآن ، ط القاهرة ١٢٨٨ هـ .
- ٢ - ذيل الروضتين ، نشر ومراجعة السيد عزت العطار ، ط بيروت ١٩٧٤ م .
- أبو الفدا (الملك المؤيد بن عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م)
المختصر فى أخبار البشر - ٣ أجزاء - بيروت .
- الأصفهانى (أبو عبد الله معاد الدين محمد بن بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م)
 - ١ - الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد صبح ، ط القاهرة ١٩٦٥ م .
 - ٢ - تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح النبزارى ، ط بيروت ١٩٧٨ م .
- النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن محمد المنشى كان حياً سنة ٦٣٩ هـ)
سيرة جلال الدين منكبرى ، تحقيق حافظ حمدى ، ط القاهرة ١٩٥٣ م .
- * المراجع الحديثة :
 - أحمد السعيد سليمان :
تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، جزآن ، ط القاهرة ١٩٦٧ م .
 - بدرى محمد فهد :
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ١٣٩٣ هـ .
 - براون أدورد جرانبيل :
تاريخ الأدب فى ايران ، ترجمة ابراهيم الشواربى ، ط القاهرة ١٣٧٣ هـ .

- حافظ حمدى :
١ - الدولة الخوارزمية ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .
٢ - الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط القاهرة ١٩٥٠م .
- حامد غنيم أبو سعيد :
الجبهة الاسلامية فى عصر الحروب الصليبية ، ج ١ ، ط القاهرة ١٩٧١م .
- حسن ابراهيم حسن :
تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٤ ، ط القاهرة ١٩٦٧م .
- حسن أحمد محمود وأحمد الشريف :
العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ط القاهرة ، بدون تاريخ .
- حسن الباشا :
الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ، ط القاهرة ١٩٨٣م .
- حسنين ربيع :
دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، ط القاهرة ، ١٩٨٣م .
- حسين أمين :
تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ط بغداد ، ١٣٨٥هـ .
- حسين قاسم أمين :
البابكية أو انتفاضة الشعب الأذربيجانى ، ط بيروت ١٩٦٦م .
- حسين مؤنس :
نور الدين محمود ، ط بيروت ١٤٠٨هـ .
- رنسيماستيفين :
تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ أجزاء ترجمة السيد البار العرينى ، ط بيروت ١٩٦٧م .
- زامبور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ط بيروت بدون تاريخ .

- سعد محمد حذيفة الغامدى :
- ١ - أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ .
- ٢ - الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى ، ط مؤسسة الرسالة .
- سنعيد عاشور :
- الحركة الصليبية جزآن ، ط القاهرة ١٩٧٦ م .
- السيد الباز العرينى :
- المغول ، ط القاهرة بدون تاريخ .
- صابر محمد دياب :
- ١ - أرمينية ، ط القاهرة ١٩٣٨ هـ .
- ٢ - المسلمون وجهادهم ضد الروم ، ط القاهرة ١٤٠٤ هـ .
- عبد الله سعيد الغامدى :
- صلاح الدين والصليبيون ، ط بيروت ١٤٠٤ هـ .
- عبد النعيم حسنين :
- ١ - سلاجقة إيران والعراق ، ط القاهرة ، ١٣٩٠ هـ .
- ٢ - دولة السلاجقة ، ط القاهرة ١٣٩٥ هـ .
- عصام الدين عبد الرؤوف :
- ١ - بلاد الجزيرة فى أواخر العصر العباسى ، ط القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٢ - الدول الاسلامية المستقلة ، ط بيروت ، بدون تاريخ .
- عليه الجنزورى :
- امارة الرها الصليبية ، ط القاهرة بدون تاريخ .
- على محمد الغامدى :
- بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، ط بيروت ١٤٠٤ هـ .
- عفاف صبره :
- دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية ، ط القاهرة ، ١٤٠٦ هـ .

- عماد الدين خليل :
عماد الدين زنكى ، ط بيروت ١٣٩١ هـ .
- فؤاد الصياد :
المغول فى التاريخ ، ج ١ ، ط بيروت ١٩٨٠ م .
- كى ليسترنج :
بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة كوركيس عواد ، وبشير فرانسيس ،
ط بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- محمد شيت خطاب :
أرمينية بلاد الروم ، ط بيروت ١٤١١ هـ .
- محمد صالح القزاز :
الحياة السياسية فى العراق فى العصر العباسى الأخير ، ط النجف ،
١٣٩١ هـ .
- مريزن عسيري :
الحياة العلمية فى العراق فى العصر السلجوقى ، ط مكة ١٤٠٧ هـ .
- مسفر سالم الغامدى :
الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الاسلامى ، ط جدة ١٤٠٦ هـ .

بعض أضواء جديدة على وظيفة ناظر البيمارستان المنصوري

د . ليلي عبد الجواد (١)

يعتبر البيمارستان المنصوري من أشهر البيمارستانات (٢) التي اقيمت في الدولة الاسلامية ، فضلا عن أنه يعتبر ظاهرة حضارية مميزة لعصر سلاطين المماليك بوجه عام وعصر المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م) بوجه خاص .

وقم أقام المنصور قلاوون هذا البيمارستان في الدار القطبية (٣) بخط بين القصرين ؛ وكانت هذه الدار في يد مؤسسة خاتون ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، حينما أرضل اليها المنصور قلاوون الأمير علم الدين سنجر الشجاعى (٤) ، ليشتري منها هذه الدار . ويروى العيني أن مؤسسة خاتون لم تلتفت اليه ، وردته ردا جميلا ، فأرسل اليها السلطان قلاوون الطواشى حسام الدين ، وعرفها ان السلطان يقصد

(١) أستاذ مساعد بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة .

(٢) البيمارستان أو المارستان ويقال كذلك المرستان لفظ فارسي مركب من مقطعين (بيمار) بمعنى المريض (وستان) بمعنى محل أو مكان أو دار ، أى أن البيمارستان هو مستشفى لمعالجة جميع الأمراض ، ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على المكان الذى يعد لاقامة المجانين . انظر المقرئى السلوك ، ج١ ، ق٣ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ص ٧١٦ ، حاشية ٦ ، أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩م ، ص ٤ . هذا ويذكر الخالدى أن البيمارستان كلمة فارسية تعنى بيت الضعيف ، انظر المقصد الرقيق ، مخطوط ، ورقة ١٢٣ .

(٣) الدار القطبية تنسب إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، انظر المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص ٤٠٦ .

(٤) انظر ترجمة علم الدين سنجر الشجاعى فى : ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج٦ ، ص ٨٠ - ٨٣ ، النجوم ، ح٨ ، ص ٥١ - ٥٢ .

أن يعمر هذه الدار مارستاناً ، ويقف عليه الأوقاف ؛ فقالت له : كما يروى العيني - « شئء يكون لنا فيه أجر ففيه السمع والطاعة ، أما لأجل السكنى فنحن أحق بالسكنى من غيرنا » (٥) .

ويتضح من رواية العيني أن مؤسسة خاتون قبلت بيع هذه الدار للسلطان طالما أنه سيستغلها في عمل خيري ، رأت فيه حسن الأجر والثواب .

وفي ١٨ ربيع الأول ٦٨٢هـ / ١٧ يونيو ١٢٨٣م عهد السلطان المنصور قلاوون إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بالاشراف على عمارة هذه الدار لتكون مارستاناً فأظهر الاهتمام والاحتفال بما لم يسمع بمثله ، وتممه في مدة يسيرة ، اذ اكتملت عمارة البيمارستان في ربيع الآخر / يونيو من العام التالي (٦٨٣هـ / ١٢٨٤م) أى أن عمارته لم تستغرق سوى أحد عشر شهراً (٦) .

وأفتتح السلطان المنصور قلاوون هذا البيمارستان في حفل مشهود حيث جلس به ومعه الأمراء والقضاة والعلماء . ويحدثنا النويرى عن مراسيم هذا الاحتفال فيذكر أن بعضاً ممن شهد الحفل أخبره بأن السلطان استدعى قديحاً من الشراب فشربه ، ثم قال [قد وقفت هذا على ملثى فمن دونى] . وأوقفه السلطان على الملك والمملوك والجندى والأمير ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والانثى (٧) . وجاء هذا

(٥) العيني ، عقد الجمان ، ج٢ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص ٢٥٧ .

(٦) المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، م٢ ، ص ٤٠٦ ، السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص ٧١٦ - ٧١٧ ، النويرى نهاية الارب ، ج٢١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١٠٦ ، القاهرة ١٩٩٢م ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٧ ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٤٢م ، ص ٢٧٨ ، العيني ، عقد الجمان ، ج٢ ، تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٨م ، ص ٣٢٦ ، وانظر أيضاً : أحمد عيسى تاريخ البيمارستانات ص ٨٥ ، محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٧) النويرى ، نهاية الارب ، ج٢١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، وانظر أيضاً المقرئى ، المواعظ ، م٢ ، ص ٤٠٦ ، ابن الفرات ، م٨ ، ص ٩ ، وانظر كذلك أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٨٦ .

اعلانا صريحا من السلطان المنصور بأباحة استخدام البيمارستان لجميع الطبقات، العليا منها والدنيا، دون تفرقة بين غنى وفقير أو رجل وامرأة.

وقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفره/ ١٠ ابريل ١٢٨٦م (٨) على ذلك اذ جاء فيها : « وهذا البيمارستان الذى وقفه مولانا السلطان المنصور قلاوون ٠٠٠ لداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيها ٠٠٠ على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم ٠٠٠ » (٩).

وأوقف السلطان المنصور قلاوون الكثير من املاكه للصرف على مصالح البيمارستان ، حتى يضمن له الاستمرار فى أداء مهمته وتحقيق الغرض الذى أنشأ من أجله . وكانت هذه المخصصات تشمل رباعاً (١٠) وبساتين وقياسر (١١) وحوانيت وحمامات واحكاراً ، وغير ذلك من ضياع الشام وما يتحصل من أجر ذلك وريعه وغلاته فى كل شهر (١٢) .

أما عن تفاصيل هذه الأوقاف فقد وردت فى وثيقتى وقف المنصور

(٨) قام بنشر هذه الوثيقة د. محمد أمين وأوردها فى ملاحق كتاب ابن حبيب ، تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه ، الجزء الاول ، الذى قام بتحقيقه كذلك القاهرة ١٩٧٦م .

(٩) انظر نص الوثيقة فى تذكرة النبىه ، ج ١ ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(١٠) رباع ومفردها ربع ويقصد به فى العمارة فى العصر المملوكى مبنى به مجموعات من الوحدات السكنية وغالبا تعلو خان أو وكالة أو حوانيت ، وكل مجموعة من الوحدات السكنية لها مدخل وسلم خاص بها ربع ، أى من الممكن أن يكون بالمبنى الواحد أكثر من ربع . انظر : محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، مصر ١٩٩٠م ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(١١) قياسر مفردها قيسارية وهى وحدة معمارية تشبه سوقا مستقلا ، تحيط بها من الخارج حوانيت وفى الداخل صحن داخلى تحيط به حوانيت أيضا وحواصل، ويكون لها عدة مداخل ، وتعلوها وحدات سكنية يسكنها فى الغالب الصناع الذين يبيعون انتاجهم بالحوانيت .

انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم ، المصطلحات المعمارية ، ص ٩٢ .

(١٢) المقرئى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٠٦ ، ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩ ،

بيروت ١٩٣٩م ، وانظر أيضا احمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٨٥ .

قلاوون المؤرختين فى ١٢ صفر/ ١٠ ابريل ، ٢١ صفر/ ١٩ ابريل عام
١٢٨٦هـ/ ١٢٨٦م (١٣) على النحو التالى :

الرباع ومنها «الربع الكامل المعروف بالعلمى أرضا وبناء،الذى هو
بالقاهرة المحروسة بالقرب من قيسارية جهاركس ٠٠٠٠ ويشتمل هذا الربع
على ثلاث فرجات ٠٠٠ وعدة حوانيت ٠٠٠٠» (١٤) .

ومن البساتين تذكر وثيقة قلاوون « جميع البستان المعروف بظاهر
القاهرة المحروسة خارج باب الشعرية والفتوح ٠٠٠٠ ومساحته أحد
وعشرون فدانا وربع فدان وسدس فدان وثمان فدان ٠٠٠» (١٥) .

أما القياسر فمنها جميع القيسارية التى بالقاهرة المحروسة بأول بين
القصرين ٠٠٠ وتشتمل على حوانيت ٠٠٠ وجملة ما فى القيسارية من
الحوانيت بطناً وظهراً ثلاثة وستون حانوتاً وأربعة مقاعد ٠٠٠» (١٦)
وقيسارية أخرى بالقاهرة المحروسة بين القصرين التى سفلها حوانيت
وعلوها دسترقات ٠٠٠ (١٧) وبباطن هذه القيسارية حوانيت عدتها ستة
وثلاثون حانوتاً ٠٠٠ (١٨) . وقيسارية ثالثة تقع بجوار الحمام المعروف
بحمام البيطرة ٠٠٠ وتشتمل على حوانيت متجاورة ومتقابلة عدتها
اثنان وخمسون حانوتاً ٠٠» (١٩) .

ومن الحمامات : جميع الحمام الواقع بجوار المصنع المعلق (أى

(١٢) قام بنشر هاتين الوثيقتين د . محمد محمد أمين . انظر ابن حبيب ، تذكرة
النبية ، ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٤) لمزيد من التفاصيل عن محتويات هذا الربع انظر وثيقة وقف المنصور
قلاوون فى تذكرة النبیه ، ١ ، ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

(١٥) وثائق المنصور قلاوون ، ص ٣٢٨ - ٣٤١ .

(١٦) وثائق المنصور قلاوون ، ص ٢٤١ - ٢٤٤ .

(١٧) مسترقات مفردة مسترقة وهى عبارة عن خزانة توجد فى مكان بين
أدواربنى وهى التى نسميها الآن المسروقة . انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم،
المصطلحات المعمارية ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(١٨) وثائق وقف المنصور قلاوون ، ص ٣٤٤ - ٣٤٦ .

(١٩) وثائق وقف المنصور قلاوون ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

حوض خزن المياه) (٢٠) ، وكذلك جميع الحمامين المتجاورين بالقاهرة المحروسة بخط الخرشف (٢١) وأسطبل الجميزة (٢٢) .

وقد قدر ابن عبد الظاهر الدخل السنوى الذى كان يتوافر من ريع هذه الأوقاف المتعددة التى شملها كتاب وقف المنصور قلاوون على مصالح البيمارستان ، فقال : « كانت أوقاف البيمارستان تشتمل فى كل سنة على ستين ألف دينار » (٢٣) . فى حين قدر المقرئى هذا الدخل بالدرهم فقال : « انه كان يتوافر من جملة الأملاك الموقوفة على البيمارستان فى مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم فى السنة » (٢٤) .

وتحدث ابن شاهين الظاهرى عن كيفية توزيع هذا الريع فذكر ان المنصور قلاوون قرر وقفه فى كل سنة أربعين ألف مثقال ذهب ، وأفرد من ذلك بعمارته وخدامه أربعة آلاف ، وقرر مصروفه فى كل يوم مائة مثقال (٢٥) .

والى جانب أوقاف المنصور قلاوون على مصالح البيمارستان المنصورى كانت هناك أوقافاً أخرى من أمثلتها وقف السيدة جانم عتيقة الجمالى يوسف وزوجة الأمير يشبك خازندار الملك المنصور قلاوون ، اذ توجد وثيقة وقف أخرى مثبتة بالهامش الأيمن لوثيقة السلطان المنصور قلاوون المؤرخة فى عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ، وهذه الوثيقة باسم السيدة

(٢٠) عن المصنع انظر محمد محمد أمين وليلى ابراهيم المصطلحات المعمارية . ص ١٠٨ .

(٢١) خط الخرشف يقع بين حارة برجوان والكافورى . وعنه انظر المقرئى ، المواعظ ، م ٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحمامات انظر وثائق المنصور قلاوون ، ص ٣٥٢ ، أما عن أسطبل الجميزة فيقع بجوار القصر الغربى الفاطمى ، وعرف بهذا الاسم لوجود شجرة جميز كبيرة فى وسطه ، انظر المقرئى ، المواعظ ، ح ١ ، ص ٤٦٤ .

(٢٣) نقلا عن ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ١ ، ق ١ ، ص ٣٥٢ .

(٢٤) المقرئى ، المواعظ ، م ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٢٥) ابن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، تحقيق بولس رويس ، باريس ١٨٩٤م ، ص ٢٩ .

جانم (٢٦) . وتنص على ايقاف « مائة وثمانية وستون فدانا بناحية أطفيح ، وقد أوقفت السيدة المذكورة ثلث ريع هذا الوقف على مصالح تربتها ٠٠٠ أما ثلثي ريع هذه الأراضى فقد أوقفتها على مصالح البيمارستان المنصورى المحددة فى كتاب وقفه على مصالح المرضى به وأرباب وظائفه طبقا لشروط الواقف « (٢٧) .

وأهتم عدد من السلاطين بعد المنصور قلاوون بوقف الأوقاف على مصالح البيمارستان المنصورى أسوة بالسلطان المنصور . ومن هؤلاء المنصور حاجى آخر أحفاد قلاوون فقد أصدر مرسوما مؤرخا فى ١٧ ذى الحجة سنة ٧٩١هـ / ٨ ديسمبر ١٣٨٨م ونصه : « برز المرسوم الشريف السلطانى الملكى المنصورى خلد الله ملكه ان ينعم على مستحقى ريع وقف البيمارستان المنصورى ما يخص بيت المال السلطانى من ارث من يتوفى من أرباب وظائفه ومباشريه وسكان أوقافه ٠٠٠ نعمة مستمرة على الدوام والاستمرار لا يتغير حكمها ولا يندرس رسمها ، ولعنة الله على من يسعى فى تبديله أو ابطاله ، فمن بدله بعد ما سمعه فأثمه على الذين يبدلونه « (٢٨) .

وخصص السلطان الاشرف برسباى كذلك فى جمادى الأولى ٨٣٤هـ / يناير ١٤٣٠م ثلث ريع ناحية كنيسة سردوس (٢٨) على مصالح البيمارستان

(٢٦) وهى وثيقة رقم ٧٠٦ جليل أوقاف ، وقد قام بنشرها محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك . رسالة دكتورة غير منشورة ، آداب سوهاج ١٩٨٠م ، ص ١٢٨ ، ص ١٠٤ .

(٢٧) محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ١٢٨ .

(٢٨) انظر

Van Berchem : *Materiaux pour Un Corpus Inscriptorum Arabicarum*, P.1, p. 134 — Egypt, Paris, 1903

وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ٨٧ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار ، القاهرة ١٩٦٦م ، ج ٢ ، ص ١٢١٧ .

(٢٩) سردوس قرية تابعة لمدينة بسوق الغربية ، وتقع شمالها بنحو خمسة كيلو مترات ونصف .

المنصوري، وذلك فى وثيقة وقفه المسجلة بواجهة خانقائه بالصحراء (٣٠) .

كذلك أوقف طبيب العظام الشهير (المجبر) أبو زكريا يحيى بن موسى فى عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م عدة أوقاف على البيمارستان المنصوري ، ومنها ما يقع خارج باب زويلة وهى عبارة عن قاعة واسطبل ومطبخ ، وقاعة أخرى كبيرة ومنافع وحقوق . وقد جعل أبو زكريا ريع هذه الأوقاف ثلاثة اثلث ، ثلث للبيمارستان المنصوري ، وثلث للحرم المكي، وثلث لمدينة طيبة الشريفة (أى المدينة لمنورة) . وفى حالة تعذر صرف ريع هذه الأوقاف على فقراء ومساكين الحرمين الشريفين ، يؤول الريع الى البيمارستان المنصوري (٣١) .

وأوقف الطبيب أبو زكريا أيضا أوقافا أخرى خارج القاهرة المحروسة وعند باب الفتوح وباب الشعرية ، ومنها الدار الواقعة بزقاق الكحل ، واشترط أبو زكريا ان يقسم ريع هذه الأوقاف بالسوية بين البيمارستان المنصوري وبين الخانقاه الصلاحية بدار سعيد السعداء . وإذا تعذر الصرف على الخانقاة ، ينقل الريع الى البيمارستان المنصوري . كذلك اشترط أبو زكريا مشاركة ناظر البيمارستان المنصوري والخانقاة الصلاحية لناظر وقفه (٣٢) .

يتضح مما سبق أن البيمارستان المنصوري كانت له أوقاف عديدة منذ نشأته وطيلة عصر سلاطين المماليك . وطبقا لنظام الوقف الاسلامى كان لكل وقف ناظر ، يتولى ادارة شئونه ورعاية مصالحه . وجرت العادة فى العصر المملوكى أن يتولى الواقف النظر فى أوقافه أثناء حياته ، ثم يعهد بذلك من بعده لأولاده وذريته أو لمن يعينهم من الأمراء الذين يخلفونه فى وظيفته ، أو الشيوخ أو القضاة . وربما قد يكون النظر مشاركة

Van Berchem, I, p.p. 369-370

(٣٠)

وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ١٠٥ .

(٣١) انظر وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا ، محفظة ٢٤ حجة ١٥٤ (وثائق

محكمة الاحوال الشخصية والولاية على النفس) .

(٣٢) انظر وثيقة وقف الطبيب أبو زكريا .

بين أحد الأمراء بحكم منصبه أو أبناء الواقف أو عتقائه (٣٣) .

وفيما يختص بالبيمارستان المنصوري نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة في ٢١ صفر سنة ٦٨٥هـ على « ان السلطان المنصور قلاوون جعل النظر في هذا الوقف والولاية عليه لنفسه الشريفة . . . أيام حياته . . . ثم من بعده . . . للأمثل فالأمثل من أولاده وأولاد أولاده أن سفلوا ، ثم الأمثل فالأمثل من عتقائه ، ثم لحاكم المسلمين الشافعى المذهب بالقاهرة ومصر المحروستين ، فان لم يكن فللحاكم على أى مذهب كان . » (٣٤) .

وهكذا فان السلطان المنصور كان هو الناظر على البيمارستان المنصوري وأوقافه . غير أن مشاغله الكثيرة كانت تجعل من الصعب عليه مباشرة النظر على هذا البيمارستان وأوقافه بنفسه ، لذلك كان يلجأ الى تعيين نائب عنه ، وقد نصت الوثيقة على ذلك اذ جاء فيها « وله ان يستنيب عنه فى ذلك ان شاء » (٣٥) . ولذلك وكل السلطان المنصور الأمير عز الدين ايبك الافرم الصالحى أمير جندار (٣٦) فى النظر على ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم (٣٧) . وورد ذلك مفصلا فى وثيقة وقف المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفر ٦٨٥هـ اذ نصت على : « فتقدم أمره الشريف العالى . . الى ولى دولته . . والمتشرف بخدمته والمخصوص فى هذا الوقف بوكالته ، الجنب الأميرى الأجلى . . أبى سعيد ايبك بن عبد الله الملكى الصالحى النجمى المعروف بالافرم

(٣٣) انظر وثيقة وقف الأمير أخور كبير قراقجا الحصنى ، دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم ، بحث منشور بمجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، م ١٨ ، ٢ ، ديسمبر ١٩٥٦م ، ص ٣٠٤ .

(٣٤) انظر نص وثائق المنصور قلاوون فى ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبیه ، ١ ، ص ٣٩٢ ، ٣٦٩ .

(٣٥) انظر وثيقة قلاوون ، ص ٣٩٢ .

(٣٦) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ٣ ، ص ١٣٠ -

١٣٢ ، النجوم ، ١ ، ص ٨٠ - ٨١ ، العينى ، عقد الجمان ، ٣ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣٧) المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، م ٢ ، ص ٤٠٧ .

أمير جاندار الملكى المنصورى السيفى . . . ان يقف عنه . . ويحبس ويسبل جميع ما هو جار فى ملك السلطان الملك المنصور « (٣٨) .

ومن الواضح أن اختيار السلطان المنصور قلاوون وقع على واحد من كبار الأمراء بالديار المصرية ، ممن يحتلون مكانة كبيرة عنده ليوليه النظر على أوقاف البيمارستان المنصورى نيابة عنه . وقد عبر القلقشندى عن هذا الاختيار فى عبارة نصها : « ويتولى النظر فيها عادة من العسكريين أكبر الأمراء بالديار المصرية » (٣٩) .

وبعد وفاة السلطان المنصور قلاوون فى ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م كان من الطبيعى أن يخلفه ابنائؤه فى نظر البيمارستان المنصورى طبقا لنص وثائق وقف المنصور قلاوون نفسه ، غير أن المصادر لم تذكر شيئا عن ذلك خلال سلطنة الاشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣م) بينما تذكر المصادر أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ولى - الأمير جمال الدين أقوش بن عبد الله الاشرفى (٤٠) - نظر هذا البيمارستان فى جمادى الآخرة ٧٢٣هـ / يونيه ١٩٢٣م وذلك كنائب عنه . وكان هذا الأمير يجلس رأس الميمنة ، ويقوم له السلطان ، وإذا دخل ميمنة عن غيره (٤١) . وهذا يعنى أن من ينوب عن السلطان فى نظر البيمارستان المنصورى كان على درجة من سمو المكانة بحيث يجلس رأس الميمنة فى حضرة السلطان .

وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون ارتقى عرش السلطنة ابنه المنصور أبى بكر فى (٣٤٢هـ / ١٣٤٢م) وعين فى عهده الأمير جنكلى بن البابا (٤٢) ناظرا للبيمارستان المنصورى بالنيابة فى ٣ صفر ٧٤٣هـ / ٩

(٣٨) انظر وثيقة وقف المنصور قلاوون ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٣٩) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ح ٤ ، ص ٢٨ .

(٤٠) من ممالك الاشرف خليل ، ولى نيابة الكرك ، فنيابة دمشق ، وتوفى فى

٧٣٦هـ / ١٣٣٥م ، انظر ترجمته فى المنهل الصافى ، ح ٢ ، ص ٢٧ - ٣٠ .

(٤١) ابن تغرى بردى ، المنهل ، ح ٢ ، ص ٢٧ .

(٤٢) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى ، المنهل ، ح ٥ ، ص ٢٢ - ٢٤ ، النجوم

يوليو ١٣٤٢م . فجلس هذا الأمير بدوره رأس الميمنة كعادة من يلى هذا المنصب (٤٣) .

ومن المعروف أنه خلال عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده كان السلاطين صغاراً ضعافاً ، ولذلك تولى أمرهم اتابكة العساكر ، وأصبح هؤلاء هم المتحكمون فى البلاد، وصاروا القائمين بأمورها مقام السلاطين، لذلك آلت اليهم وظيفة نيابة نظر البيمارستان المنصورى . يذكر القلقشندى فى هذا الصدد « ويكون نظر البيمارستان المنصورى بالقاهرة مع اتابك العساكر » (٤٤) . وعلى سبيل المثال حدث خلال سلطنة الاشرف شعبان الثانية (٧٦٨ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٦ - ١٣٧٦م) أن تولى عدد من الاتابكة نيابة نظر البيمارستان المنصورى ، ومن هؤلاء منكلى بغا الشمسى (٤٥) (فى رجب ٧٦٩ / فبراير ١٣٦٨م) (٤٦) ثم الجاى اليوسفى (٤٧) فى (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) وخلفه بعد وفاته (١٠ محرم ٧٧٥هـ / ٣ يوليو ١٣٧٣م) أيدمر الشمسى (٤٨) فى الاتابكية ونظر البيمارستان المنصورى (٤٩) .

كذلك تولى عدد من الاتابكة نيابة نظر البيمارستان المنصورى فى عهد المنصور على بن الاشرف شعبان (٧٧٨ - ٧٨٣هـ / ١٣٧٦ - ١٣٨١م)

-
- ١٠ د . ص ١٤٢ - ١٤٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، د ٢ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، الصفدى ، أعيان العصر وأعيان النصر ، مخطوط ، د ١ ، ورقة ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (٤٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، د ١٠ ، ص ١٤٤ .
- (٤٤) القلقشندى ، صبح الاعشى ، د ٤ ، ص ١٨٤ .
- (٤٥) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ، د ٥ ، ص ١٣٧ ، المنهل ، د ٦ ، ص ٢٣٧ . النجوم ، د ١١ ، ص ٤٩ ، ١٢٤ - ١٢٥ .
- (٤٦) المقرئى ، السلوك ، د ٣ ، ق ١ ، ص ١٥٧ .
- (٤٧) انظر ترجمته فى المنهل ، د ٢ ، ص ٤٠ - ٤٤ .
- (٤٨) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ، د ١ ، ص ٤٥٨ ، المنهل ، د ٢ ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .
- (٤٩) المقرئى ، السلوك ، د ٢ ، ق ١ ، ص ٢٣٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، د ١ ، ق ٢ ، ص ١٤٢ ، ابن يقماق ، الجواهر الثمين ، د ٢ ، ص ٢٣٦ .

ومن هؤلاء الأمير قرطاي الطازي (٥٠) في (المحرم ٧٧٩هـ/مايو ١٣٧٧م) ثم خلفه الأمير اينبك البدرى (٥١) بعد وفاته في (صفر ٧٧٩هـ/يونيه ١٣٧٧م) (٥٢) .

ومع بداية عصر دولة المماليك الجراكسة وارتقاء السلطان الظاهر برقوق العرش في (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) أصبح زمام الأمور في يده لكونه سلطاناً رشيداً . لذلك تولى نظر البيمارستان المنصوري كناظر شرعى عملاً بما جاء في وثائق وقف المنصور قلاوون ، وخرج برقوق بنفسه لتفقد أحوال البيمارستان ، فتذكر المصادر (٥٣) في رجب من عام ٧٨٥هـ/١٣٨٣م أن السلطان برقوق نزل بالبيمارستان المنصوري ، وتفقد أحواله وعاد المرضى ، ووصاهم بالضعفاء وبالأوقاف والمستاجرات . ثم ما لبث السلطان برقوق أن اناب عنه في نظر البيمارستان المنصوري عذب من الاتابكة وذلك لكثرة مشاغله ، ومن هؤلاء الاتابكة : الأمير سيف الدين قرا دمرداش (٥٤) في جمادى الأولى ٧٩١هـ/مايو ١٣٨٩م (٥٥) . والأمير سيف الدين كمشبقا الكبير (٥٦) وذلك خلال سلطنة برقوق الثانية (٧٩٢ - ٨٠٢هـ/ ١٣٨٩ - ١٣٩٩م) ، وتحدث فيه كمشبقا على العادة (٥٧) . وبعد

-
- (٥٠) انظر ترجمة قرطاي في ابن حجر ، انباء الغمر ، ج١ ، ص ٢٥٦ .
 (٥١) انظر ترجمة اينبك البدرى في المهمل ، ج٢ ، ص ٢٢١ - ٢٢٤ .
 (٥٢) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٢٠٣ ، ليلى عبد الجواد ، اتابك العمساكر ، ص ٧٨ .
 (٥٣) الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ٧٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج٢ ، ص ١٣٤ ، النجوم ، ج١١ ، ص ٢٣٥ .
 (٥٤) انظر ترجمة قرا دمرداش في ابن حجر ، الدرر ، ج٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
 (٥٥) انظر ابن الفرات ، م٩ ، ج١ ، ص ٧٤ ، المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٦٠٦ .
 (٥٦) انظر ترجمة كمشبقا في السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج٢ ، ص ٧٧ - ٧٩ ، محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتائج العلمى ، ج١ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .
 (٥٧) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٧٦٦ ، ابن الفرات ، م٩ ، ج٢ ، ص ٣٠١ .

القبض على كمشينا الحموى فى شعبان ٥٨٠٠هـ/نوفمبر ١٣٩٧م خلع
السلطان على الأمير ايتمش البجاسى (٥٨) بأتابكية العساكر وباستقراره
فى نظر البيمارستان المنصورى (٥٩) .

ومنذ ذلك التاريخ الذى تولى فيه ايتمش البجاسى اتابكية العساكر
ونياية نظر البيمارستان المنصورى (شعبان ٨٠٠هـ/نوفمبر ١٣٩٧م)
استمرت نياية نظر البيمارستان المنصورى مع كل من يلى الاتابكية بمصر ،
كما يذكر ابن تغرى بردى (٦٠) . وبذلك جرى العرف على أن تكون
ولاية نظر البيمارستان المنصورى لاتابك العساكر بالديار المصرية . ومع
ذلك فقد اهتم السلاطين بالاشراف على البيمارستان المنصورى وبصفة
خاصة فى فترة شغور الاتابكية . ومن أمثلة هؤلاء السلطان المؤيد شيخ
والسلطان برسباى . ويذكر ابن حجر « ان السلطان مؤيد شيخ ركب
هو وولده الأمير ابراهيم فى ١٦ جمادى الاولى ٨٢١هـ/٢٢ يونيه ١٤١٨م
والأمراء ، ونزل الى البيمارستان المنصورى وهو بثياب جلوسه ، فزار
المرضى ، وتفقد أحوالهم ، ثم دخل الى المجانين وتفقد أحوالهم
كذلك » (٦١) .

أما عن السلطان برسباى فقد نزل من القلعة فى ربيع الآخر ٨٣٧هـ/
نوفمبر ١٤٣٣م بعد الخدمة ، وصحبته القاضى عبد الباسط ناظر الجيش
والكمال ابن البارزى كاتب السر ، والتاج الشويكى والى القاهرة ، وتوجه
الى البيمارستان لتفقد أحواله ، وليلى التحدث فيه بنفسه - لأنه لم يول
نظره أحداً بعد الأمير سودون عبد الرحمن ، والاتابكية شاغرة منذ عزله
منها - ولما وصل السلطان الى البيمارستان رسم للطواشى صفى الدين

(٥٨) انظر ترجمة ايتمشى البجاسى فى الضوء اللامع ، ح ٢ ، ص ٢٢٤ ، المنهل
ح ٣ ، ص ١٤٢ - ١٥١ .

(٥٩) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ح ١٢ ، ص ٧٩ ، المقرئى ، السلوك ، ح ٣ ،
ق ٢ ، ص ٨٩٧ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ، ح ١ ، ص ٤٦٢ ، ابن اياس ، بدائع ،
ح ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ .

(٦٠) النجوم ، ح ١٢ ، ص ٧٩ .

(٦١) ابن حجر ، انباء الغمر ، ح ٧ ، ص ٢٠٧ .

جواهر الخازندار ان يتكلم على البيمارستان لما عساه يحدث من أمور ،
فاستمر على ذلك حتى عين السلطان برسبای اينال الحكيم (٦٢) في
الاتابكية في (رجب ٨٣٧هـ / ١٤٣٤م) ونظر البيمارستان المنصوري في
شعبان من نفس العام (٦٣) .

وكان الأمير الكبير الذي يلي نيابة النظر بالبيمارستان المنصوري
يعهد بدوره الى أحد المتعممين بنظر البيمارستان المنصوري نيابة عنه ،
وذلك لكثرة أعبائه ومشاغله . ويشترط فيه كما يذكر الخالدي أن يكون
« ممن يؤهله نظره ، ولا ينفرد به في أمر مهم ، بل عليه بمراجعة الأمير
الكبير وتوقيعه » (٦٤) .

لذلك لا غرابة في أن يضع القلقشندى صحابة أو نيابة نظر
البيمارستان المنصوري بين الوظائف الديوانية ، وكذلك بين الوظائف
الدينية معا ، فهو يذكر عند ترتيبه للوظائف الديوانية أن « الوظيفة
الثالثة والعشرين لأرباب الوظائف الديوانية هي صحابة ديوان البيمارستان
وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث فيه ناظر البيمارستان » (٦٥) .

وقد وضع القلقشندى صحابة نظر البيمارستان بين الوظائف
الديوانية على أساس أن السلطان هو الذي يعين صاحبها ، لا بوصفه سلطاناً
وانما بوصفه ناظراً شرعياً على أوقاف البيمارستان المنصوري . وذكر
القلقشندى أيضاً صحابة نظر البيمارستان المنصوري عند ذكره لأرباب
الوظائف الدينية فقال : « والمتحدثون على جهات البر العامة المصلحة :
كنظر الاحباس والبيمارستان المنصوري وما أشبه ذلك فتوليته الى

(٦٢) انظر ترجمة اينال الحكيم في المنهل ، ج ٣ ، ص ١٩٦ - ١٩٩ .

(٦٣) المقرئ ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٩٠٧ - ٩٠٨ ، ٩١٢ ، ابن تغري

بردي ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٢٧ - ٤٠ ، الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ ،

٢٨٢ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٦٤) الخالدي ، المقصد الرفيع ، ورقة ١٣٢ .

(٦٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٤ .

نوابها ... « (٦٦) .

ويرجع اختيار أحد المتعممين بالذات ليلى صحابة نظر البيمارستان المنصوري الى أن هذه الوظيفة من الوظائف الأكثر حساسية ، اذ تتعلق بالنواحي المالية ، ولذلك لابد وان تتوفر في صاحبها الامانة والكفاية والعدل والأهلية، الى جانب الاخلاق العالية والعلم الوفير وقوة الشخصية، حتى يصبح باستطاعته القيام بواجبات هذه الوظيفة ومسئولياتها بجدارة وعلم وعلى الوجه الأكمل . وقد جاء في نسخة توقيع كتبت لأحد صحابة نظر البيمارستان ذكر للصفات التي يجب ان يتحلى بها الناظر ومنها « النزاهة والتعفف ، وكرم السجايا والطباع ، وسعة الصدر في تلقي المهمات الى جانب حسن معرفته واطلاعه » (٦٧) . وهذه من الشروط الأساسية التي كان يجب توافرها في المتعممين من مشايخ وقضاة ومحتسبين وغيرهم ، مما دفع من يتولوا صحابة نظار البيمارستان المنصوري من الأمراء الى اختيار المتعممين نواباً عنهم في نظر البيمارستان المنصوري . وقد توافرت هذه الشروط في عدد كبير من المتعممين الذين تولوا نيابة النظر بالبيمارستان المنصوري ، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر شهاب الدين أحمد بن عبادة الأنصاري الذي كان يتصف كما تذكر المصادر (٦٨) بالنزاهة والأخلاق العالية فضلاً عما عرف عنه من حرمة قوية، وما تمتع به من خبرة في الشؤون المالية ، حتى أنه كان وكيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمتحدث في أملاكه .

كذلك أتصف القاضي فخر الدين عثمان بن مصطفى التركمانى (٦٩) بالأخلاق العالية والعلم الوفير والشخصية القوية والامانة، مما جعل الأمير

(٦٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ح ٩ ، ص ٢٥٦ ، ح ١١ ، ص ٢٨ .

وانظر أيضا : ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف المالك ، ص ١١٥ .

(٦٧) انظر نسخة التوقيع في القلقشندي ، صبح الاعشى ، ح ١١ ، ص ٢٦٢ .

(٦٨) انظر ابن حجر ، الدرر ، ح ١ ، ص ٢٢٢ ، المقرئزي ، السلوك ، ح ٢ ،

ق ١ ، ص ٨٢ .

(٦٩) ولد في ٦٦٠هـ ، وتفق على مذهب الحنفية وبرع فيه ، وشرح الجامع

الكبير في عدة مجلدات ، انظر ترجمته في الدرر ، ح ٣ ، ص ٤٩ .

جمال الدين أقوش (٧٠) يعهد اليه نيابة نظر البيمارستان المنصوري ،
وظل يشغل هذا المنصب حتى توفي في عام ٧٣١هـ / ١٣٣٠م (٧١) .

ومن المتعممين أيضا الذين اتصفوا بالكفاءة والأمانة ضياء الدين
يوسف الشهير بابن خطيب بيت الآبار الشامي (٧٢) . ويذكر اليوسفي
أنه أظهر في مباشرة البيمارستان « النهض والكفاية والأمانة » (٧٣) .
ومن أجل ذلك ولي نيابة نظر البيمارستان المنصوري ثلاث مرات .

ومن جهة أخرى فانه من المتعممين - الذين تولوا نيابة نظر
البيمارستان - من افتقر الى الشروط السابقة فكانت تنقصه الكفاءة والمقدرة ،
مع كثرة مهادة رجال الدولة . ومن هؤلاء : علاء الدين بن الاطروش (٧٤)
الذي باشر نيابة نظر البيمارستان المنصوري بعد عزل الضياء الشامي في
١١ ذى القعدة ٧٤٥هـ / ١٧ مارس ١٣٤٥م وحتى المحرم من عام ٧٥٢هـ /
مارس ١٣٥٠م ، عندما قام السلطان الصالح الحسن بن محمد بن قلاوون
بعزله واعاد الضياء الشامي ثانية . ويذكر المقرئى أن من الاسباب التي
دفعته السلطان الى عزله جهل ابن الاطروش بالحساب وهو شرط أساسى
يجب توافره فيمن يتولى نيابة النظر بالبيمارستان المنصوري ، فقد جاء في
كتاب الوقف : « ويكون الناظر عارفا بالحساب وأمور الكتابة » (٧٥) .
هذا الى جانب عدم اهتمام ابن الاطروش بالكشف على أحوال المرضى

(٧٠) عن جمال الدين أقوش انظر ما سبق .

(٧١) المقرئى السلوك ، ح ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٤٠ - ٢٤١ .

(٧٢) انظر ترجمة ابن خطيب بيت الآبار في ابن حجر ، الدرر ، ح ٥ ، ص

٢٥٧ - ٢٥٨ ، الصفدى ، أعيان العصر وأعوان النصر ، مخطوط ، ح ٢ ، ورقة ٢٠٢ .

(٧٣) اليوسفي ، نزهة الناظر في تاريخ الناصر ، ص ٢٩٦ - ٢٧٩ وانظر أيضا

المقرئى ، السلوك ، ح ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٩٤ ، ٤١٤ .

(٧٤) هو علاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن الاطروش الحنفى توفي

٧٥٨هـ / ١٣٥٦م .

انظر المقرئى ، السلوك ، ح ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ،

ح ٣ ، ص ٣٢٧ .

حتى تلفت فراشهم على قول المقریزی (٧٦) - بعد أن مضى عليها ثلاث سنين ولم تغير . وبذلك اساء ابن الاطروش التصرف ووجب عزله .

ورغم عزل ابن الاطروش الا أنه لم تكد تمضى شهور حتى عاد الى نيابة نظر البیمارستان المنصوری ، وذلك فى شعبان ٧٥٢هـ / اكتوبر ١٣٥١م رغم عدم أهليته وذلك « بعناية جماعة من الأمراء لكثرة مهاداته لهم » كما يذكر المقریزی (٧٧) . وزاد الموقف سوءاً ان القاضى ابن الاطروش أنفرد بالكلام فى البیمارستان وتعطل نظره من متحدث تركى ، وذلك خلال الفترة من (٧٥٢ - ٧٥٥هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤م) . ويرجع ذلك لانه كان يكثر من مهادة أمراء الدولة ومدبريها (٧٨) . وهكذا يبدو واضحاً أن بعض رجال الدولة عندما ساءت أحوالها كانوا لا يتخرجون عن التوسط لبعض الأفراد الجهلاء ممن يفتقرون الى الكفاية والمقدرة لتعيينهم فى المناصب الحساسة والخطيرة فى الدولة مثل نيابة نظر البیمارستان المنصوری .

ومن المتعممين الذين اساءوا السيرة واهملوا واجبهم ولم يكونوا أهلاً لتولى نيابة نظر البیمارستان المنصوری ولى الدين السفطى (٧٩) الذى استقر فى نظر البیمارستان فى (ربيع الآخر ٨٤٩هـ / يوليو ١٤٤٥م) . وقد تولى هذه الوظيفة وغيرها من الوظائف التى كانت فى يده ، مثل نظر الكسوة ووكالة بيت المال ومشیخة الجمالية وغيرها ، عن طريق الرشوة ، وببذل قدره ثمانية آلاف دينار (٨٠) . وكانت سيرته فى النظر

(٧٥) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٨٣٥ - ٨٣٦ .

(٧٦) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٣٦ .

(٧٧) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٨٥٢ .

(٧٨) المقریزی ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٧ - ٨ .

(٧٩) أصله من سقط الحناء بالوجه البحرى ، وتقع فى محافظة الشرقية حالياً .

انظر ترجمته فى المنهل ، ج ٤ ، ص ٢٠١ ، السخاوى ، الذيل على رفع الأمر ، ص

٢٤٥ - ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، التبر المسبوك ، ص ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ،

ج ١٥ ، ص ٥٥٥ - ٥٥٨ ، السيوطى ، نظم العقيان ، ص ١٣٩ .

(٨٠) السخاوى ، الذيل ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، التبر المسبوك ، ص ١٤٤ ، ٣٣٥ ،

ابن حجر ، انباء ، ج ٩ ، ص ٢٢٤ .

- كما يذكر ابن تغرى بردى - سيرة سيئة « فأخذ ما لا يستحقه واعطاه لمن لا يستحقه ، وأجمع الناس على أنه كان يخرب الأوقاف ويأخذ منها شيئاً لنفسه » (٨١) .

كذلك يذكر ابن تغرى بردى : « أنه سلك فى الناس طريقاً غير محمودة من الحط على الفقهاء والترسيم عليهم ، ولا سيما المتحدثون على الأوقاف والمباشرون على الأوقاف ، فانهم قاسوا منه خطوباً ومحنأ » (٨٢) . كما أنه - على نحو ما يذكر ابن تغرى بردى فى موضع آخر - « امعن فى أذاهم وبهدلتهم بالضرب والحبس والترسيم وقطع معاليم (رواتب) جماعة كبيرة من الطلبة المرتبة على الأوقاف الجارية تحت نظره . ولقى منه الناس شدائد كثيرة ، وصار لا يمكن المرضى من دخول البيمارستان للتمريض به الا برسالة ، ثم يخرج المريض بعد أيام قليلة » (٨٣) .

أما السخاوى فيذكر عنه أنه أكثر التحرى فى المريض المنزل فيه بحيث زاد عن الحد ، وقل من المرضى فيه العدد ، وتحاشى الناس المجيء اليه بأنفسهم أو بمرضاهم ، وأمر بمسح دهاليزه وكنسه ، وعدم التمكين من المشى فيه بالنعال حتى ان السخاوى يذكر ان الشيخ أبا عبد الله الراعى أنشده فى هذا المعنى :

مرستانكم يشكو الخلاء وما به
من الكنس والمسح الذى ليس ينفع
وناظره اذ جار فى حكمه له
فيمنعه المرضى ومن ذا يجعجع (٨٤)

ونظراً لتعسف السفطى فقد نفرت منه القلوب وكثر الدعاء عليه

-
- (٨١) حوادث الدهور ، ج١ ، ص ٩٥ ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٣٧١ .
(٨٢) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور فى مدى الايام والشهور ، ج ١ ، ص ١١٢ :
(٨٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٥٥٧ .
(٨٤) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٨٧ .

حتى ان ابن تغرى بردى يذكر « ولقد شاهدت بعض الناس يدعو عليه
فى الملتزم بالببيت العتيق فى هدوء الليل » (٨٥) .

حقيقة ان السفطى بذل جهده فى تنمية أوقاف البيمارستان
ومسأجراته وسائر جهاته حتى الاحكار ، واهتم بتحصيل ريعه . كذلك
أكثر التحرى فى مرضى البيمارستان والحرص على نظافته بكنسه ومسحه؛
الا أنه ضيق على مباشريه وعلى مرضاه كذلك (٨٦) . ونتيجة لذلك
تجمعت له من الأوقاف أموال كثيرة تفوق الوصف كما يذكر السخاوى (٨٧) .
حتى أنه صعد الى السلطان جقمق فى سلخ ذى الحجة ٥٨١هـ / ١٤٤٧م
بأربعة عشر ألف دينار من حاصل البيمارستان فعرضها عليه فشكره على
ذلك ، وغفل عن كونه لم يعمل فيه بمراد الواقف وان هذه المتحصلات
مخصصة لمرضى البيمارستان (٨٨) . غير ان السلطان جقمق (٨٤٢ -
١٤٣٨هـ / ١٤٥٣م) مالبث أن اصدر أمراً بعزل ولى الدين السفطى
ومصادرته (ربيع الآخر ٨٥٢هـ / يونية ١٤٤٨م) بعد أن ثبت قبح أفعاله
واظهار معايبه ، ووضع السلطان يده على أكثر ما نماه من متحصل
البيمارستان وغيره (٨٩) .

وممن باشر نيابة النظر من المتعممين ولم يكن أهلاً لها أيضاً يوسف
السمين نائباً عن أبيه أبى الفتح المنوفى (٩٠) اذ مشى - كما يذكر
الصيرفى - مع أهل البيمارستان على قالب لا يرضون عنه ، وصار
لا يلتفت اليهم ، وانفرد بالكلمة مع وجود القاضى عبد الباسط الجيعان ،

(٨٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ح ١٥ ، ص ٥٥٧ .

(٨٦) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٢٢٥ - ٢٣٦ ، الذيل على رفع الأصغر ،
ص ٢٤٨ .

(٨٧) التبر المسبوك ، ص ٢٣٦ ، الذيل ، ص ٢٤٨ .

(٨٨) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ١٨٧ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ،
ح ١ ، ص ١١٥ .

(٨٩) السخاوى ، الذيل على رفع الأصغر ، ص ٢٥١ ، ابن تغرى بردى النجوم ،
ح ١٥ ، ص ٢٨٢ ، ٥٥٧ - ٥٥٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٩٠) انظر ترجمة أبو الفتح المنوفى فى السخاوى ، الضوء اللامع ، ح ٩ ، ص
١٧٩ ، الصيرفى ، انباء الهمر ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

كما أنه اساء التصرف فى أموال البيمارستان ، فصار يتغذى فى كل يوم فى البيمارستان بمائتى درهم ويأخذ ذلك من صيرفى البيمارستان أو أحد من جباته ، ويتصرف فيه تصرف الملاك (٩١) .

هذا بالإضافة الى ان يوسف السمين لم يعمل بمشورة الاتابك ازبك ابن ططخ (٩٢) ، فقد حدث أن شخصاً من فراشى البيمارستان يسمى أحمد بن الصلف نزل عن ثيابه فى البيمارستان أو عن فراشه ، وأمضى يوسف السمين ذلك بخطه من غير مشورة الاتابكى ازبك ، وهو الناظر الحقيقى للبيمارستان . لذلك أمر ازبك فى ذى الحجة ٨٧٦هـ/مايو ١٤٧٢م بضربه ويطحه ، فضرب ضرباً مبرحاً على اخفافه نحواً من خمسمائة عصى ، ثم أمر الاتابكى بصفعه فصفع من المماليك الى أن اخرجوه من البيمارستان (٩٣) . وارجع الصيرفى سبب عدم أهلية يوسف السمين الى أنه « كان شاباً صغيراً بلا لحية عديم الأدب » (٩٤) .

وبالإضافة الى ما سبق ، فاننا نلاحظ على نواب نظار البيمارستان المنصورى من المتعممين أيضاً عدة ملاحظات : -

أولاً - ان ناظر البيمارستان المنصورى من المتعممين كان يشغل عدة وظائف الى جانب نظارته للبيمارستان : فقد جمع الضياء الشامى بن خطيب بيت الآبار بين نظر البيمارستان المنصورى ونظر الأوقاف وحسبة القاهرة فتذكر المصادر ان السلطان بحث عن محتسب ناهض ، وولى ناهض فشكر له الناس فى ضياء الدين ناظر البيمارستان والأوقاف فاستدعاه السلطان وولاه الحسبة (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وجمع بذلك بينها وبين نظر البيمارستان ونظر الأوقاف (٩٥) . وعندما عزل الضياء من

(٩١) الصيرفى ، انباء الهضر ، ص ٤٢٨ - ٤٣٩ .

(٩٢) تولى ازبك صحابة نظر البيمارستان المنصورى فى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م واستمر يشغل هذا المنصب حتى عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م . انظر ترجمته فى السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج٢ ، ص

(٩٣) الصيرفى ، انباء الهضر ، ص ٤٢٨ - ٤٣٩ .

(٩٤) الصيرفى ، انباء الهضر ، ص ٤٢٨ .

(٩٥) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ، المقرئى ، السلوك ، ج٢ ،

ق٢ ، ص ٣٩٤ ، ٤١٤ .

هذه الوظائف تولى عوضه الحسبة ونظر البيمارستان علاء الدين
الاطروش وجمع بذلك بين الوظيفتين (٩٦) .

وفى جمادى الآخرة ٧٦٦هـ/مارس ١٣٦٥م خلع على القاضي
تاج الدين المعروف بشاهد الجمالى (٩٧) واستقر فى وكالة الخاص
بالإضافة الى نظارة البيمارستان المنصوى (٩٨) . كذلك جمع صاحب
كريم الدين شاکر بن ابراهيم بن غنام (٩٩) بين نظر البيمارستان
المنصورى وبين الوزارة الى جانب نظر البيوت ونظر دار الطراز
(٧٧٤هـ/١٣٧٣م) (١٠٠) . وفى رجب ٧٧٥هـ/يناير ١٣٧٤م خلع على
برهان الدين بن بهاء الدين بن الحلى (١٠١) ناظر بيت المال ، واستقر
فى نظر البيمارستان المنصورى مضافاً لما بيده من الوظائف (١٠٢) .
وخلع أيضاً على محتسب القاهرة جمال الدين محمود العجمى (١٠٣)
فى ربيع الآخر ٧٨٠هـ/اغسطس ١٣٧٨م واستقر فى نظر البيمارستان

-
- (٩٦) الشجاعى ، تاريخ الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٢٧٤ .
(٩٧) شغل تاج الدين بن شاهد الجمالى عدة مناصب منها مفتى دار العدل ،
وشاهد الجيش ووكيل الخاص وغيرها ، وتوفى ٧٧٢هـ/١٢٧١م . انظر المقرئى ،
السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٩٢ ، ابن تقي بردى ، النجوم ، ج ١١ ، ص ١١٨ .
(٩٨) عين شاهد الجمالى فى نظر البيمارستان المنصورى (٧٦٢هـ/١٣٦١م)
من قبل السلطان الملك المنصور واستمر فى نظارته حتى وفاته شعبان ٧٧٢هـ/فبراير
١٣٧١م . انظر : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٩٩ ، ١٩١ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ،
ق ٢ ، ص ١٨٠ ، ١٠٢ .
(٩٩) انظر ترجمة ابن غنام فى الدرر ، ج ١ ، ص ٢٠١ .
(١٠٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٢١ ، ابن حجر ، انباء الغمر ،
ج ١ ، ص ٧٧ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٢٨ .
(١٠١) انظر ترجمة برهان الدين الحلى فى ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ،
ص ١٥٩ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٢٩ .
(١٠٣) وهو قاضى القضاة الحنفية جمال الدين أبو الثناء محمود بن نور الدين
على الشهير بالعجمى الرومى . انظر الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ،
ص ٤٥٠ - ٤٥١ .
وانظر أيضاً أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، ص ١٧٦ .

المنصوري نيابة عن الأمير بركة (١٠٤) . وجمع بذلك بين الحسبة ونظر
البيمارستان شأنه في ذلك شأن الضياء الشامي وابن الاطروش .

وخلع السلطان الظاهر برقوق في شوال ٧٩٤هـ / أغسطس ١٣٩٢م
على الشريف فخر الدين ناظر البيمارستان المنصوري نيابة عن الأمير
سيف الدين كمشبغا الكبير (١٠٥) - وولاه مشيخة الشيوخ بخانقاه
سرياقوس (١٠٦) . وفي ربيع الآخر ٨١٥هـ / أغسطس ١٤١٢م أستقر شهاب
الدين أحمد الصفدي موقع الأمير شيخ في نظر البيمارستان المنصوري
عوضاً عن كاتب السرفتح الله ومعها نظر الاحباس عوضاً عن تاج الدين
عبد الوهاب بن نصر الله (١٠٧) . وخلع أيضاً على القاضي نور الدين
ابن مفلح (١٠٨) ناظر البيمارستان المنصوري واستقر - في شوال
٨٤٠هـ / ابريل ١٤٣٧م - وكيل بيت المال عوضاً عن شمس الدين محمد بن
يوسف ، وجمع بذلك بين نظارة البيمارستان ووكالة بيت المال (١٠٩) .

وشغل أيضاً أبو الخير النحاس (١١٠) ناظر البيمارستان المنصوري
(ربيع الآخر ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) عدة وظائف منها نظر الجوالي ونظر

-
- (١٠٤) المقرئ ، السلوك ، ح ٣ ، ق ١ ، ص ٢٣٥ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ١ ،
ق ٢ ، ص ٢٢٠ : وانظر ترجمة بركة في المنهل ح ٣ ، ص ٢٥١ - ٢٥٥ .
(١٠٥) عن الأمير كمشبغا انظر ما سبق .
(١٠٦) ابن الفرات ، م ٩ ، ح ٢ ، ص ٢٠٩ ، الصيرفي ، نزهة النفوس ، ح ١ ،
ص ٣٤٨ . المقرئ ، السلوك ، ح ٢ ، ق ٢ ، ص ٧٧١ .
(١٠٧) ابن تغري بردي ، النجوم ، ح ١٢ ، ص ٢٠٥ ، ح ١٤ ، ص ١٤٢ ، ابن
حجر ، انباء ، ح ٧ ، ص ٦٦ .
(١٠٨) شغل القاضي نور الدين بن مفلح نظر البيمارستان منذ عام ٨٢٢هـ / ١٤٢٩م
وحتى وفاته ٨٤١هـ / ١٤٣٧م وفي عهود الاتاكة جارقطلو ، وسودون عبد الرحمن ،
واينال الجكمي وجقمق العلاني . انظر الملاحق .
(١٠٩) انظر الصيرفي ، نزهة ، ح ٣ ، ص ٢٨٤ ، المقرئ ، السلوك ، ح ٤ ،
ق ٢ ، ص ١٠٠٩ ، ابن حجر ، انباء ، ح ٩ ، ص ٢٤٥ ، ابن اياس ، بدائع ، ح ٢ ، ص ٧٦ .
(١١٠) عن أبو الخير النحاس انظر : السخاوي ، النيل على رفيع الأمر ، ص
٢٥١ ، ابن تغري بردي ، النجوم ، ح ١٥ ، ص ٢٨٢ ، ٥٥٧ - ٥٥٨ ، ابن اياس ،
بدائع ، ح ٢ ، ص ٢٦٢ .

الكسوة ووكالة بيت المال وغيرها من الوظائف التي كان يشغلها سلفه
ولى الدين السفطى (١١١) . وتذكر المصادر أيضا أنه فى جمادى الآخرة
٨٥٤هـ/يوليو ١٤٥٠م خلع على شرف الدين موسى التتائى (١١٢)
باستقراره فى جميع الوظائف التي كان يشغلها أبو الخير النحاس وهى
عدة وظائف من أهمها نظير البيمارستان المنصورى ، ونظر الجوالى
ونظر الكسوة ووكالة بيت المال ونظر خاتقاه سعيد السعداء ، ووكيل
السلطان وعدة وظائف أخرى دينية ومباشرات (١١٣) . يتضح مما سبق
ان نظار البيمارستان المتعممين جمعوا بين نظارة البيمارستان المنصورى
وعدة وظائف أخرى، ولم يكن عملهم قاصراً على نظر البيمارستان وحده .

ثانياً - اتخذ بعض المتعممين ممن تولوا نظر البيمارستان المنصورى
نواباً عنهم فى نظر البيمارستان، فقد استناب القاضى محب الدين محمد بن
الأشقر (١١٤) . - حينما استقر فى نظر البيمارستان المنصورى فى ربيع
الآخر ٨٤٢هـ/أكتوبر ١٤٣٨ - عنه أخاه البدر حسين (١١٥) . فى
نظر البيمارستان المنصورى . وظل البدر حسين يلى النظر نيابة عن
محب الدين الأشقر حتى مات الأول فى ٨٤٧هـ/١٤٣م (١١٦) . وعندما

(١١١) ابن تفرى بردى ، حواث الدهور ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ابن اياس ، بدائع
ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(١١٢) موسى التتائى أصله من قرية تتاء وهى قرية بالمنوفية ، ولد بها ونشأ
أيضا ، انظر ترجمته فى الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ ، الدليل الشافى ،
ج ٢ ، ص ٧٥٠ .

(١١٣) ابن تفرى بردى ، حواث الدهور ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، النجوم ، ج ١٥ ،
٤١٧ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى نيل السلوك ، ص ٣١٩ ، ابن اياس ، بدائع ،
ج ٢ ، ص ٢٨٠ .

(١١٤) انظر ترجمة محب الدين بن الاشقر فى السخاوى ، الضوء اللامع ،
ج ٨ ، ص ١٤٢ ، الذيل على رفع الأمر ، ص ٣٦٦ - ٣٦٨ ، الميوطى ، نظم العقيان فى
تاريخ الاعيان ، ص ١٥٣ .

(١١٥) حسين بن عثمان بن بدر الدين انظر ترجمته فى السخاوى ، التبر
المسبوك ، ص ٧٩ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٩ ، ص ٢٥١ .
(١١٦) السخاوى ، رفع الامر ، ص ٢٧٥ .

خلع على شرف الدين عبد الباسط بن البقرى (١١٧) بنظارة البيمارستان المنصوري في المحرم ٨٧٠هـ/أغسطس ١٤٦٥م أناب عنه الشيخ جلال الدين ابن الأمانة (١١٨) في نظر البيمارستان المنصوري (١١٩) .

غير ان السلطان كان يعترض على ذلك في بعض الأحيان فعندما خلع على القاضي فتح الدين أبى الفتح المنوفى (١٢٠) واستقر في نظر البيمارستان المنصوري ونظر الأوقاف (جمادى الآخرة ٨٧٤هـ/ديسمبر ١٤٦٩م) ، اراد أبو الفتح - كما يروى الصيرفى (١٢١) - ان يجعل له نائبا بالبيمارستان، كما كان للذى قبله وهو ابن البقرى ، فطلب القاضي تاج الدين الاخميمى (١٢٢) وقرره في نيابته ، وتوجه القاضي تاج الدين الى البيمارستان ، فبلغ السلطان ذلك فأرسل اليه غلاما من الطشتخاناه ليمنع القاضي تاج الدين من التكلم في البيمارستان ، فحصل له بذلك نوعاً من الكسر (١٢٣) .

وأستمر أبو الفتح المنوفى يلى النظر على البيمارستان والأوقاف بنفسه حتى (شعبان ٨٧٦هـ/يناير ١٤٧٢م) عندما خلع عليه السلطان وأستقر في شادية بندر جدة ، وطلب منه السطلنا أن يسافر بنفسه من

(١١٧) هو عبد الباسط بن يحيى شرف الدين بن العلم بن البقرى . انظر ترجمته في الضوء اللامع ، ح ٤ ، ص ٣١ .

(١١٨) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عثمان الجلال ويعرف بابن الامانة . انظر ترجمته في السخاوى ، الضوء اللامع ، ح ٤ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(١١٩) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

(١٢٠) هو أحد أعيان الممالك السلطانية وعمل في خدمة السلطان قايتباى وشغل وظيفة ثانى قلم ، انظر السخاوى ، الضوء ، ح ٩ ، ص ١٧٩ ، الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(١٢١) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

(١٢٢) هو محمد بن ابراهيم التاج عبد الوهاب الاخميمى الاصل ، القاهرى الشافعى ويعرف بالتاج الاخميمى ، انظر ترجمته في السخاوى ، الضوء اللامع ، ح ٦ ، ص ٢٥٨ .

(١٢٣) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٨ .

غير أن يرسل نائبا من جهته ، ولذلك باشر نظر البيمارستان المنصوري عنه ابنه يوسف السمين (١٢٤) .

ثالثا - حدث أحيانا أن تولى عدة أفراد من أسرة واحدة منصب ناظر البيمارستان المنصوري . من ذلك ما حدث خلال سلطنة الناصر فرج بن برقوق (٨٠٢ - ٨١٥ هـ / ١٣٩٩ - ١٤١٢ م) ان أكثر من فرد من أسرة محمد بن أحمد بن عبد الملك الشمسي الدميري القاهري المالكي تولوا ذلك المنصب . ومن هؤلاء القاضي شمس الدين محمد بن أحمد الدميري (١٢٥) الذي ولى نظر البيمارستان المنصوري نيابة عن الاتابك بيبرس الدوادار (١٢٦) . وعن نظارته يذكر السخاوي « أنه كان عارفاً بالمباشرة ، وحصل من البيمارستان مالا كثيراً جداً ، وفره مما كان غيره يصرفه في وجوه البر وغيرها ، واتفق ان الناصر أخذ منه في بعض التجاريد جملة مستكثرة » (١٢٧) . كذلك تولى نظر البيمارستان المنصوري ابنه وهو محمد زين الدين بن القاضي شمس الدين محمد بن أحمد الدميري ، وقد سار على قاعدة أبيه حيث تحدث في البيمارستان المنصوري نيابة عن الأمير الكبير . هذا الى جانب توليه حسبة القاهرة مراراً (١٢٨) . واستمر ابنه محمد بن زين الدين (١٢٩) في مشاركة

(١٢٤) الصيرفي ، انباء الهصر ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(١٢٥) كان القاضي شمس الدين أيضا مفتيا لدار العدل كما ولى الحسبة عدة مرات . انظر ترجمته في الضوء ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، الدليل الشافي ، ج ٢ ، ص ٥٩٢ . ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

(١٢٦) ولى بيبرس الدوادار نظر البيمارستان المنصوري من قبل الناصر فرج في رجب ٨٠٢ هـ / مارس ٤٠٠ م ، انظر ترجمته في المنهل ، ج ٢ ، ص ٤٨١ - ٤٨٣ . الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢١ .

(١٢٧) الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ .

(١٢٨) انظر السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ٢٣ - ٢٤ ، القرينى ، السلوك ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٤٨٩ ، الصيرفي ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٨ ، ص ٢٢١ ؛ ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(١٢٩) انظر ترجمته في الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ١٩٥ ، وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ١٢٧ .

البيمارستان (١٣٠) . وهكذا تعاقب أفراد أسرة الدميرى فى نظر
البيمارستان المنصورى واحداً بعد آخر .

رابعاً - يتضح من خلال تراجم المتعممين الذين تولوا نظر
البيمارستان المنصورى أن منهم من كان شافعى المذهب ومنهم أيضاً من
كان حنفياً أو مالكياً وإن كانت الغالبية العظمى منهم على المذهب الشافعى
وذلك عملاً بما جاء فى وثيقة المنصور قلاوون من أنه « يكون النظر لحاكم
المسلمين الشافعى المذهب بالقاهرة ومصر المحروستين ، فإن لم يكن
فللحاكم على أى مذهب » (١٣١) . ومن النظار الحنفية القاضى فخرالدين
عثمان بن ابراهيم بن مصطفى التركمانى (١٣٢) . والقاضى جمال الدين
محمود العجمى قاضى قضاة الحنفية (١٣٣) ، والشيخ محمد بن محمد
النسفى أمير الدين الخلواتى (١٣٤) وكان من أئمة الحنفية ، والقاضى
نور الدين عمر بن مفلح (١٣٥) ، والقاضى محب الدين بن الأشقر (١٣٦) ،
كما كان القاضى علاء الدين بن الاطروش حنفى المذهب كذلك (١٣٧) .

-
- (١٣٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٩ ، ص ١٩٥ .
(١٣١) انظر نص الوثيقة فى ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبىه ، ج ١ ، ص
٣٦٩ ، ٣٩٢ .
(١٣٢) عنه انظر ما سبق ، ص ، وانظر أيضاً ابن حجر ، الدرر ، ج ٢ ،
ص ٤٩ ، السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٢٤٠ .
(١٣٣) عنه انظر ما سبق ، وانظر أيضاً الصيرفى ، نزهة النفوس ،
ج ١ ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ .
(١٣٤) انظر ترجمته فى النجوم ، ج ١١ ، ص ٢١٣ ، الدليل ، ج ٢ ، ص ٦٨٤ ،
الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ١ ، ص ١٦٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٢ ، ص
٢٧٦ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٨٤ ، ٥٧٢ .
(١٣٥) انظر ما سبق .
(١٣٦) وهو خليفة نور الدين بن مفلح فى نظر البيمارستان المنصورى، ولىه منذ
ربيع الآخر ٨٤٢هـ/سبتمبر ١٤٣٨م ، وحتى ربيع الآخر من عام ٨٤٩هـ/يوليو ١٤٤٧م .
انظر السخاوى ، الذيل ، ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٩ ، ص
٣١ ، السيوطى ، نظم العقيان ، ص ٥٣ ، ابن اياس ، بدائع ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
(١٣٧) انظر ما سبق ، انظر أيضاً المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ،
ص ٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٢٢٧ .

ومن النظار المالكية القاضي تاج الدين أبو عبد الله محمد المعروف بابن شاهد الجمالى . وأفراد أسرة الدميرى الثلاثة كانوا مالكية أيضا وكذلك القاضي ناصر الدين محمد بن المخلطة (١٣٨) وكان أحد نواب الحكم المالكية وأحد أخصاء الملك الأشرف أينال (١٣٩) .

مراسيم تعيين ناظر البيمارستان المنصورى :

تبدأ مراسيم تعيين ناظر البيمارستان المنصورى بأن يكتب لصاحبها توقيع (١٤٠) بنظارة البيمارستان المنصورى ثم يخلع عليه السلطان الخلع ويلبسه التشريف (١٤١) وأخيراً ينزل الناظر الى البيمارستان فى موكب حافل .

أما عن التوقيع فكان يكتب - كما يذكر الخالدى (١٤٢) - وكذلك صاحب التثقيف (١٤٣) - فى قطع النصف ، بقلم الثلث . وكانت كتابة التواقيع قد أصبحت مختصة بأرباب الوظائف الدينية والديوانية من المتعممين بصفة خاصة . وتوقفت التواقيع التى كانت تكتب لأرباب السيوف فى فترة من الفترات الا أنه استثنى من هذه القاعدة بعض أرباب السيوف ومن بينهم صحابة نظر البيمارستان المنصورى حيث ظل يكتب لهم تواقيع بنظر البيمارستان (١٤٤) .

(١٣٨) انظر ترجمته ابن المخلطة فى الضوء ، ج ١٠ ، ص ٢٧ ، النجوم ، ج ٦ ، ص ١٧٠ .

(١٣٩) تولى ابن المخلطة نظر البيمارستان المنصورى فى ربيع الآخر ٨٥٧هـ / أبريل ١٤٥٣م ، انظر ابن تغرى بردى ، حواشي الدهور ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(١٤٠) التوقيع يقصد به قرار التعيين فى منصب ناظر البيمارستان المنصورى .
(١٤١) التشريف وهو الخلعة أو الملابس المهداة من السلطان الى كبار الأمراء ورجال الدولة فى مناسبات خاصة ، ومن أهمها التعيين فى الوظائف الكبرى . انظر سعيد عاشور ، العصر المملوكى ، ص ٤١١ .

(١٤٢) المقصد الرفيع ، مخطوط ، ورقة ١٢٤ .

(١٤٣) ابن ناظر الجيش (المحبى) ، كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق رودلف فسلى ، القاهرة ١٩٨٧م ، ص ١٤٥ .

(١٤٤) المحبى ، تثقيف التعريف ، ص ١٤٥ ، وانظر أيضا القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ١١٤ .

وقد أورد القلقشندى صورتى توقيع احدهما لمن تولى صحابة نظر
البيمارستان المنصورى من أرباب السيوف، والآخرى لمن تولاهما من أرباب
الأقلام أو من المتعممين . أما عن صورة التوقيع الأولى فكانت تكتب على
النحو التالى : -

« توقيع شريف ان يفوض الى المقر الكريم أو الجنب الكريم أو
العالى (قدر رتبته) الأميرى الكبيرى الفلانى ، فلان الناصرى مثلا :
اعز الله أنصاره ، أو نصرته أو ضاعف الله تعالى نعمته (بحسب مايليق
به) - نظر البيمارستان المعمور المنصورى على أجمل العوائد وأكمل
القواعد ، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور على ما شرح
فيه « (١٤٥) .

وأما عن نسخة توقيع أرباب الأقلام من المتعممين والتي أورها
القلقشندى كذلك ، فكانت من انشاء الشيخ شهاب الدين محمود
الحلبى (١٤٦) . وتستهل بالحمد لله والثناء عليه ثم بالشهادة والصلاة
على رسول الله وعلى أصحابه ، ثم يأتى ذكر ما يليق بالوظيفة والمتولى
لها ، اذ نص التوقيع على أنه يكتب بنظارة البيمارستان الى الشخص
الذى « تحققنا صلاحه ، وتيقنا نجاحه ، وأعتقدنا تنميه أمواله ، وأعتمدنا
فى مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله » (١٤٧) . ثم يذكر اسم
الشخص الذى كتب له التوقيع بعد ذكر الاوصاف التى يجب أن تتوافر
فيه ، ثم يفوض اليه نظر أوقاف البيمارستان المنصورى (١٤٨) .

وبمقابلة توقيع أرباب السيوف مع توقيع أرباب الأقلام يتضح ان
الأول جاء مختصراً وقاصراً على القاب الأمير الكبير ، اما الثانى فقد

(١٤٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ١١ ، ص ١١٧ .

(١٤٦) انظر نص التوقيع عند القلقشندى ، صبح الاعشى ، ١١ ، ص ٢٥٩ -

٢٦٢ .

(١٤٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ١١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، وانظر أيضاً

المحبى ، تثقيب التعريف ، ص ١٤٦ .

(١٤٨) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ١١ ، ص ٢٦١ .

جاء مفصلاً ومركزاً على الصفات التي يجب أن يتحلى بها ناظر
البيمارستان ، والمهام الملقاة على عاتقه مما يدل على أن عبء نظـر
البيمارستان المنصوري وقع على عاتق المتعممين بالدرجة الأولى .

وبعد أن يكتب لصحابة نظر البيمارستان المنصوري ونوابه التوقيع ،
كان السلطان يخلع عليهم خلعة نظر البيمارستان وتشريفه اذ كان للناظر
تشريف خاص . ففي ١٩ من المحرم ٧٧٩هـ / ٢٩ مايو ١٣٧٧م أستقر الأمير
قرطاي في نظـر البيمارستان ، ونزل اليه بتشريفه على نحو ما يذكر
المقريزي (١٤٩) . وفي ٢١ جمادى الآخرة ٨٠٨هـ / ١٥ ديسمبر ١٤٠٥م
أستقر يشبك الشعباني في نظر البيمارستان المنصوري ، ونزل اليه ،
وعليه التشريف السلطاني على العادة (١٥٠) . وخلع السلطان الناصر
فرج على الأمير الكبير تمرتاش (دمرداش) الحمدي تشريفاً بنظر
البيمارستان المنصوري في المحرم ٨١٤هـ / مايو ١٤١١م (١٥١) . وخلع
السلطان جقمق على الأمير اينال العلائي في شعبان ٤٨٩هـ / نوفمبر
١٤٤٥م خلعة نظر البيمارستان المنصوري (١٥٢) . وفي ربيع الآخر
٨٥٢هـ / يونيه ١٤٤٨م خلع على الأمير اينال العلائي ثانية ، وألبس خلعة
الاستمرار في نظر البيمارستان المنصوري وهي : « فوقاني بطرز
ذهب » (١٥٣) . وخلع السلطان تمرغا كذلك على الاتابك قايتباي في
جمادى الأولى ٨٧٢هـ / ديسمبر ١٤٦٧م خلعة نظر البيمارستان
المنصوري (١٥٤) .

ولم تكن خلع صحابة نظـر البيمارستان المنصوري قاصرة على

-
- (١٤) المقريزي ، السلوك ، ح ٢ ، ق ١ ، ص ٣٠٤ .
(١٥٠) المقريزي ، السلوك ، ح ٤ ، ق ١ ، ص ١٠ . وانظر أيضاً : الصيرفي ،
نزهة النفوس ، ح ١ ، ص ٢١٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ٧٤٣ .
(١٥١) المقريزي ، السلوك ، ح ٤ ، ق ١ ، ص ١٧٥ ، وانظر أيضاً ابن تغري
بردي ، النجوم ، ح ١٢ ، ص ١٢٠ .
(١٥٢) ابن تغري بردي ، النجوم ، ح ١٥ ، ص ٢٧٠ .
(١٥٣) السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٢٠٨ ، ابن تغري بردي ، حوادث
الدهور ، ح ١ ، ص ١٢٣ .
(١٥٤) ابن تغري بردي ، النجوم ، ح ١٦ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

الأمراء وأرباب السيوف دون المتعممين فقد شملت الجميع فتذكر المصادر أنه فى ربيع الآخر سنة ٨٤٩هـ/يوليو ١٤٤٥م لبس الشيخ ولى الدين السفطى أو الولوى السفطى خلعة ونزل الى البيمارستان (١٥٥) . كذلك لبس أبو الخير النحاس فى ١١ ربيع الآخر ٨٥٢هـ/١٥ يونية ١٤٤٨م خلعة نظر البيمارستان المنصورى عوضاً عن السفطى ، وفى جمادى الآخرة ٨٥٤/يوليو ١٤٥٠م لبس شرف الدين موسى التتائى خفاً ومهمازاً عوضاً عن أبى الخير النحاس وشغل نظر البيمارستان المنصورى (١٥٦) .

وبعد أن يرتدى صحابة نظر البيمارستان الخلع والتشريف كانوا ينزلون اليه فى موكب كبير ؛ فيذكر ابن اياس فى جمادى الأولى ٧٧٤هـ/نوفمبر ١٣٧٢م أن السلطان « اخلع على الآتابكى الجاى اليوسفى وقرره ناظر البيمارستان ، فنزل من القلعة فى موكب حفل » (١٥٧) . كذلك يذكر ابن اياس فى موضع آخر ان الأمير اينال العللى بعد أن أخلع عليه بنظارة البيمارستان المنصورى « نزل من القلعة فى موكب حافل » (١٥٨) ويذكر الصيرفى أيضاً أنه خلع فى صفر ٨٧٣هـ/أغسطس ١٤٦٨م على ازبك ططخ خلعة البيمارستان المنصورى . . . وتوجه اليه فى محفل عظيم وهوتك جسيم » (١٥٩) . ويلاحظ ان الأمثلة السابقة قاصرة على أرباب السيوف دون أرباب الاقلام من المتعممين وذلك لأن المصادر لا تذكر أية أمثلة خاصة بهؤلاء المتعممين .

وكان رنك ناظر البيمارستان المنصورى من أرباب السيوف يضرب على البيمارستان ، فيذكر ابن تغرى بردى فى ١٣ ربيع الأول ٨٣٧هـ/٢٩ أكتوبر ١٤٣٣م ضرب رنك السلطان برمسباى على البيمارستان المنصورى بالقاهرة ، وكانت العادة جرت من عدة سنين أن كل من يلى

(١٥٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ٢ ، ص ٢٥٠ ، السخاوى ، الذيل ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، التبر المسبوك ، ص ٢٢٥، ١٤٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ح ٩ ، ص ٢٢٤ .

(١٥٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ح ١٥ ، ص ٤١٧ .

(١٥٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ١١٢ .

(١٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ح ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٥٩) الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥ .

الامرة الكبرى يكون هو الناظر على البيمارستان المنصوري ، فلما نفذت هذه الوظيفة تكلم السلطان على نظرها وضرب اسمه على بابها (١٦٠) .
وفي ٢٤ صفر ٨٧٣هـ / ٥ سبتمبر ١٤٦٨م وبعد أن خلع على الاتابك ازبك ابن ططخ بنظر البيمارستان ، نزل اليه فكشفه . . . وضربت رنوكه على نحو ما يذكر الصيرفي (١٦١) .

مهام صحابة نظر البيمارستان المنصوري :

تعددت مهام ناظر البيمارستان المنصوري وتنوعت بين فنية وإدارية ومالية ، فالناظر باعتباره المسئول الأول عن أوقاف البيمارستان كان عليه ان يقوم برعاية هذه الأوقاف وعمارتها واصلاحها والعمل على انمائها وزيادة ريعها وحسن استغلالها طبقا لشرط الواقف . وقد حددت وثائق وقف المنصور قلاون على البيمارستان المنصوري مهام ناظر البيمارستان ورتبتها على النحو التالي :

أولا - تأجير أوقاف البيمارستان المنصوري فقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون على أن يقوم الناظر بنفسه أو نائبه بتأجير أوقاف البيمارستان ، وان تكون مدة الاجارة ثلاث سنوات فما دونها بأجرة المثل فما فموقها « ولا يدخل عقد على عقد » (١٦٢) . وينطبق هذا على العقارات ، وكذلك على الأراضي التي تدخل في وقف البيمارستان .

كذلك على الناظر أن يتحرى عن الشخص الذي يؤجر له العقار فيؤكد من أنه - كما تذكر الوثيقة - « ليس متشرداً ولا متعذراً ولا تخشى سطوته ، ولا لمن ينسى الوقف في يده » (١٦٣) . وهذا يعني أنه يجب على الناظر أن يتحرى الدقة عند تأجيره لأوقاف البيمارستان .

(١٦٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٥ ، ص ٣٦ .

(١٦١) الصيرفي ، انباء الهصر ، ص ١٥ .

(١٦٢) انظر نص وثيقة وقف المنصور قلاوون في ملاحق تذكرة النبيه ، ج ١ ،

ص ٣٦١ ، ٣٩١ .

(١٦٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦١ .

ثانيا : عمارة البيمارستان واصلاح أوقافه : -

كان على ناظر البيمارستان أن يقوم بعمارة البيمارستان وأوقافه ، والقيام بأعمال الاصلاح والترميم اللازمة له . فقد جاء فى وثيقة وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصورى والمؤرخة فى (١٢ صفر ٦٨٥ هـ) ما يلى : « يبدأ الناظر بعمارة ما تجب عمارته فى الوقف والبيمارستان من اصلاح وترميم أو بناء هديم ، على وجه لا ضرر فيه ولا ضرار ، ولا اجحاف بأحد فى عمل ولا اضرار » (١٦٤) وجاء أيضا فى وثيقة وقف قلاوون المؤرخة (٢١ صفر ٦٨٥ هـ) : « وعلى الناظر ان يقوم بعمارة الموقوف وممرته باصلاحه وتجديد ما تهدم من بنيائه ، وانشاء ابنية على ما يراه الناظر سفلا وعلوا بالآت العمارة ، على ما يراه مما تظهر فيه المصلحة ويعود بالنفع على الوقف وأهله » (١٦٥) .

ومن أمثلة عمليات الاصلاح والترميم التى قام بها صحابة نظر البيمارستان المنصورى ، عملية العمارة والاصلاح والترميم التى قام بها الأمير جمال الدين أقوش ، وذلك فى مستهل عام ٧٢٦ هـ / ديسمبر ١٣٢٤م؛ فقد أمر باخلاء الدواوين والقاعات من المرضى ، ولم يبق بالبيمارستان الا بعض المرضى ذوى الحالات الخطيرة ، وشرع فى العمارة . واستمرت عمليات الاصلاح والترميم شهورا حتى انتهت فى يوم الثلاثاء ١١ جمادى الأولى ٧٢٦ هـ / يوليو ١٣٢٦م باضافة قاعة جديدة الى قاعات البيمارستان المنصورى . وقد أجرى أقوش هذه العمارة وما أضافه من قاعة جديدة من ماله الخاص دون مال الوقف (١٦٧) .

(١٦٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(١٦٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٩١ .

(١٦٦) لمزيد من التفاصيل انظر : المقرئى ، المواعظ والاعتبار ، ٢م ، ص ٤٠٧ ،

السلوك ، ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٢ ، محمد سيف ، منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ١٠٤ .

(١٦٧) المقرئى ، السلوك ، ٢ ، ق ١ ، ص ٢٧٤ ، المواعظ ، ٢م ، ص ٤٠٧ ،

وانظر أيضا أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات ، ص ٩٤ - ٩٥ ، محمد سيف

منشآت ، ص ١٠٤ .

وقام الأمير صرغتمش (١٦٨) أيضا بعمليات ترميم واصلاح للبيمارستان المنصوري وأوقفه عندما تولى صحابة نظر البيمارستان فى ذى القعدة ٧٥٥هـ / نوفمبر ١٣٥٤م من قبل السلطان الناصر حسن . فقد أهتم صرغتمش بالكشف على ما يحتاج اليه البيمارستان وأوقفه من العمارة ، وركب مع القاضى ابن خطيب بيت الآبار - وكان الأمير صرغتمش قد ولاه أمر التحدث فى البيمارستان - ومعهما المهندسون لكشف ما يحتاج اليه البيمارستان من العمارة . ويذكر المقرئزى «أنه كتب تقدير المصروف ثلثمائة ألف درهم ، فرسم بالشروع فى العمارة ، فغمرت الأوقاف حتى ترقع ما فسد منها ونودى بحماية من سكن فيها » (١٦٩) .

كذلك قام الأمير جارقطلوا بن عبد الله الظاهرى (١٧٠) عندما تولى صحابة نظر البيمارستان المنصوري فى ٥ جمادى الآخرة ٨٣١هـ / ٢٣ مارس ١٤٢٨م بعملية ترميم واصلاح أخرى لأوقاف البيمارستان ، فيذكر الصيرفى (١٧١) انه ابتداء فى أول رمضان ٨٣٢هـ / ٤ يونية ١٤٢٩م بهدم حوانيت الصيارف وسوق الكتب وحوانيت الدواوين . . فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية وهى جارية فى وقف البيمارستان المنصوري لتجدد عمارتها فى أيام ناظرها المقر الاتابكى جارقطلوا والقاضى نورالدين ابن مفلح (١٧٢) .

ثالثا - قيام الناظر بتحصيل ريع الأوقاف :-

فقد اشترطت وثيقة وقف المنصور قلاوون على ناظر البيمارستان

-
- (١٦٨) انظر ترجمة صرغتمش فى المنهل ، ح ٦ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ ، الدرر ، ح ٢ ، ص ٣٠٥ : المقرئزى ، المواعظ ، م ٢ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .
- (١٦٩) المقرئزى ، السلوك ، ح ٣ ، ق ١ ، ص ٨ .
- (١٧٠) انظر ترجمة جارقطلوا فى المنهل ، ح ٤ ، ص ٢١٢ - ٢١٥ ، الضوء اللامع ، ح ٣ ، ص ٥١ .
- (١٧١) نزهة النفوس ، ح ٢ ، ص ١٥٩ .
- (١٧٢) انظر ترجمة القاضى نور الدين بن مفلح عند السخاوى ، الضوء اللامع ، ح ٦ ، ص ٣٩ ، وانظر أيضا ابن تبرى بردى ، النجوم ، ح ١٥ ، ص ٢٢٠ ، المقرئزى ، السلوك ، ح ٤ ، ق ٢ ، ص ١٩٦٥ .

المنصوري أن يتحرى الدقة ويتبع كافة الحيل فى تحصيل ريع الأوقاف على أكمل وجه ، فقد نصت على أن : -

« يتحرى الناظر فى تحصيل ريع الوقف أحسن الحيل على حسب الامكان ، ويطلب ذلك حيث كان فى كل جهة ومكان ، بحيث لا يفرط ولا يفرط . . ولا يهمل حقا معينا ، ولا يغفل عن أمر يكون صلاحه بينا » (١٧٣) .

وأظهر بعض النظار نوعاً من التشدد فى تحصيل ايجارات أوقاف البيمارستان . ومن هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الجاولى (١٧٤) ، الذى ولى صحابة نظر البيمارستان المنصوري فى جمادى الآخرة ٧٣٥هـ / فبراير ١٣٣٥م - فيذكر اليوسفى (١٧٥) أنه اتفق فى ولاية علم الدين سنجر للبيمارستان أمور كثيرة من العسف ، فانه طلب حساب البيمارستان ، فوجد فيه مائة ألف درهم متأخرة من البواقي بقيت على سكان الدكاكين وسكان الرباع من الأوقاف وشيء من القروض على الناس ، فطالب بها ، ورسم ان يستخلصها من الناس ، وكان منهم متأخر من عشرين سنة وأقل ، وشعر الناس بالم كبر ، وعرفه بعضهم ان جميع أموال هذا البيمارستان صدقة لله تعالى من صاحبها ، فلم يلتفت الى ذلك ، واشتد امره على الناس ، والقى ببعضهم فى السجون بسبب هذا الدين . وهكذا أظهر الجاولى نوعاً من التشدد فى جباية أموال الأوقاف الخاصة بالبيمارستان المنصوري ، ولعل تشدده هذا ينبع من حرصه على ريع البيمارستان ودخوله .

وبلغ من تشدد الأمير سنجر الجاولى أيضا أنه لم يخرج مال الصدقة من ريع البيمارستان ؛ فيذكر المقرئى فى حوادث عام ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م « فيها كثر ضبط الأمير علم الدين سنجر الجاولى لأوقاف البيمارستان ،

(١٧٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(١٧٤) انظر ترجمة سنجر الجاولى فى المنهل ، ج ٦ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ؛ الصفدى ، اعيان العصر ، مخطوط ، ورقة ٤٠٧ - ٤٠٩ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٦ ، ص ١٠٦ .

(١٧٥) نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

وتوقفه فيما يصرف منه للصدقات « (١٧٦) مما دفع السلطان الى أن يرسل اليه ، ويطلب منه الا يضيق على الناس لأن المرستان كله صدقة (١٧٧) ، خاصة بعد أن تشدد كذلك فى الاشربة والأدوية ، فكان اذا طلب أحد اشياف (١٧٨) للعين يعد له واحدة بعد واحدة ، واذا كتب له أربع أواق شراب أو غيره يصرفها أوقيتين ، وضيق على سائر مباشرى البيمارستان وغيرهم من الفقراء والصعاليك - كما يذكر اليوسفى (١٧٩) .

رابعاً - تعيين موظفى البيمارستان : -

من مهام الناظر أيضا تعيين جميع موظفى البيمارستان بداية من شيخ الطب أو رئيس الأطباء وحتى القومة ؛ فتذكر وثيقة وقف المنصور قلاوون : « ويصرف الناظر لمن ينصبه شيخاً . . . للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه فى الأوقات التى يعينها له الناظر » (١٨٠) .

ويقوم الناظر أيضا بتعيين جميع أطباء البيمارستان من طبائعية (أى أطباء الأمراض الباطنية) وكحالحين (أطباء العيون) وجراحيين (أى من يقومون بالعمليات الجراحية) ، وله الحرية فى تحديد اعدادهم كما يتراءى له (١٨١) . ولم تقتصر مهمة الناظر على مجرد تعيين اطباء البيمارستان ، بل كان عليه أن يشرف على سير أعمالهم ، وكيفية تطبيقهم لنظام المناوبة ، ويكون ذلك بأذن منه ، فقد نصت الوثيقة على : « يباشر

(١٧٦) المقرئى ، السلوك ، ح ٢ ، ق ٢ ، ص ٤١٣ .

(١٧٦) المقرئى ، السلوك ، ح ٢ ، ق ٢ ، ص ٤١٣ .

(١٧٧) المقرئى ، السلوك ، ح ٢ ، ق ٢ ، ص ٤١٣ ، اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

(١٧٨) الاشياف عبارة عن دواء معسوق يستعمل للعيون كما أنها أيضا الدواء الذى يعمل منه قمعا أو تلييسة (قتيلة) لمعالجة أمراض المستقيم . انظر محمد محدد أمين ، الاوقاف ، ص ١٦٣ ، هامش ١ ، محمد سيف منشآت الرعاية الاجتماعية ، ص ٥٧ .

(١٧٩) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٥٥ .

(١٨٠) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٦ .

(١٨١) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٥ .

الاطباء المرضى المختلين - الرجال والنساء - بهذا البيمارستان مجتمعين أو متناوبين ... بأذن الناظر فى التناوب « (١٨٢) .

ويعين الناظر أيضا خازناً وأميناً - وهما أشبه بالصيدلى والمرضى فى عصرنا الحديث - ، فتنص وثيقة وقف قلاوون على : « ويرتب رجلين مسلمين موصوفين بالديانة والأمانة يكون أحدهما (خازن) لخزن حاصل التفرقة ... ويكون الآخر (أميناً) ... وللناظر أن يزيد عليهما فى العدة اذا لم يكفيا ما اشترط عليهما مباشرته « (١٨٣) .

ويرتب الناظر أيضا القومة من الرجال والنساء لخدمة المرضى ... وهو الذى يحدد عدد هؤلاء القومة والفراشين بحيث لا يزيد فى العدد كما تذكر الوثيقة (١٨٤) .

وكان السلطان المنصور قلاوون - بصفته الناظر الشرعى لهذا البيمارستان أول من قام بترتيب الحكماء الطبائعية والكحاليين والجرائحين والمجبرين بهذا البيمارستان « (١٨٥) . ويذكر اليوسفى أيضا أن الأمير علم الدين سنجر الجاولى رتب فى المرستان جماعة من الحكماء لم يكونوا مستحقين ، وتدخل السلطان ، ورسم بصرف اثنين من هؤلاء الحكماء الذين استجدهم الأمير علم الدين بالمرستان (١٨٦) .

وقد اهتم ناظر البيمارستان المنصور بانتظام العمل فى البيمارستان وانتظام العاملين فى أداء أعمالهم ومداومتهم عليها ، فكان الأمير جمال الدين أقوش يدخل اليهم على غفلة ، ويتفقدهم ، ويجد بعضهم لم يحضر فى الليل ، وكذلك يصعد الى علو الماذنة ، ويتفقد المؤذنين ، ويعلم من حضر ومن غاب ، فيجد جماعة ، ويدخل أماكن الدرس وغيرها ، فيجد من حضر ويعرف من غاب ، وذات يوم نزل من الخدمة ، وأوصى

(١٨٢) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(١٨٣) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(١٨٤) انظر نص الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(١٨٥) انظر النويرى ، نهاية الارب ، ح ٣١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن الفرات ، م ٨ ، ص ٩ .

(١٨٦) نزمة الناظر ، ص ٢٥٥ .

أن يحضر سائر من له وظيفة فى بیمارستان ، ونزل فوجد الجميع قد حضروا ، فسلم لماليكه العصى بأيديهم ، وراح يدعوهم الواحد بعد الآخر ، وكل من دخل أخذته أيدي مماليكه بالعصى على أكتافه ضرباً مؤلماً الى أن فعل بالجميع هذا . ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع أحد موظفى بیمارستان عن وظيفته أبداً كما يروى اليوسفى (١٨٧) .

خامساً - الصرف على مصالح بیمارستان من ريع أوقافه : -

من مهام الناظر أيضاً ما يتعلق بالنواحى المالية ، لأن الناظر بعامة هو « من ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ، ويرفع اليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ، ويرد ما يرد » (١٨٩) . أى أن الناظر أشبه بالمشرف المالى أو بمعنى آخر المشرف الرسمى على الايراد والمصرف ، ولديه جميع البيانات الخاصة بالمتحصلات والمصروفات والبواقى والفوائض والمتأخرات (١٩٠) .

وحددت نسخة توقيع ناظر بیمارستان المنصورى من أرباب الاقلام مهام الناظر المالية ومنها : « اقامة وظائفها واعتبار مصارفها . . . وتمييز حواصلها بما يستدعى اليها من الاصناف التى يعز وجودها . . . وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثق من أيدي امنائه وثقاته » (١٩١) .

وكان الناظر يقوم بالصرف على مصالح بیمارستان من ريع أوقافه ، وقد حددت وثيقة وقف المنصور قلاوون أوجه الصرف هذه على النحو التالى : -

١ - صرف رواتب العاملين بالبیمارستان من مشد وناظر ومشارف

-
- (١٨٧) اليوسفى ، نزهة الناظر ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(١٨٨) المقرئى ، السلوك ، ج٢، ق١ ، ص ٨ ، محمد سيف ، منشآت ، ص ١٠٥ .
(١٨٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ ، ضوء الصبح ، ص ٣٤٧ .
(١٩٠) محمد قنديل البقلی ، التعريف بمصطلحات صبح الاعشى ، ص ٣٤١ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج ٣ ، ص ١١٧٧ .
(١٩١) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

وشاهد وكاتب وخازن (١٩٢) » فيصرف لكل منهم من ريع هذا الوقف
أجرة مثله عن تصرفه فى ذلك وفعله « (١٩٣) . ويصرف الناظر أيضا
رواتب الخازن والأمين (أى الصيدلى والممرض) من ريع الوقف من غير
حيف ولا شطط ، كما نصت الوثيقة (١٩٤) . كذلك يقوم الناظر بصرف
رواتب الأطباء بمختلف تخصصاتهم فتنص الوثيقة على : » ويصرف
الناظر ... لأطباء المسلمين الطبائعين والكحالين والجراحيين بحسب
ما يقتضيه الزمان ... وهو مخير فى تقرير الجامكيات ما لم يكن فى
ذلك حيف ولا شطط « (١٩٥) . ونصت الوثيقة كذلك على » ان يصرف
الناظر لمن ينصب شيخاً للاشتغال بعلم الطب ... ما يرى صرفه
اليه « (١٩٦) . ويقوم الناظر أيضا بصرف رواتب القومة والفراشين من
الرجال والنساء بهذا بیمارستان نظير قيامهم بخدمة المرضى، فقد نصت
الوثيقة على أن » يصرف الناظر للقومة والفراشين ... ما يرى صرفه
الى كل منهم بحسب عمله ... على ما يراه من التقدير بحيث لا يزيد
فى المقادير عن الحاجة اليه فى ذلك « (١٩٧) .

٢ - المشتريات : وتتضمن - كما جاء فى الوثيقة - شراء احتياجات
البیمارستان من سرر حديد أو خشب ولحف محشوة قطناً وطراريح (١٩٨)

(١٩٢) المشارف عمله طلب التفاصيل الكاملة عن أية جهة من الجهات الضريبية
التي تقع فى دائرة عمله ويدخل فى عهده جميع المتحصلات المالية بعد ختمها .
انظر محمد قنديل . التعريف ، ص ٢١٢ . وعن الشاهد انظر القلقشندي ، صبح
الاعشى ، ج ٥ . ص ٤٦٦ ، محمد قنديل ، التعريف ، ص ١٩١ . وعن الخازن ، انظر
القلقشندي ، ج ٤ ، ص ٢١ .

(١٩٣) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(١٩٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(١٩٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٥ .

(١٩٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٣٦ .

(١٩٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، وانظر أيضا النويزي ، نهاية الارب ،

ج ٣١ ، ص ١٠٧ ، ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٩ .

(١٩٨) الطراريح هي كل ما يطرح ويفرش وهي المراتب والحشايا ، وهي المرتبة

أو الكرسي الذى توضع عليه وسادة طرية . انظر محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٣ ،

حاشية ٢ .

(مجلة المؤرخ العربى)

محشوة بالقطن أيضا ، وملاحف قطن ، ومخاد طرح أو آدم لطيفة حسب ما يتراءى للناظر ، وهو مخير بين أن يشتري هذه الأشياء أو المفروشات جهازة أو يشتريها قماش ، ويصرف أجرة خياطتها وثمان حشوها ، ويحيث يوفر لكل مريض الفرش الذى يتلاءم مع مرضه (١٩٩) .

وتشمل المشتريات أيضا شراء الأدوات التى يستعملها المرضى ومنها فخار برسم أغذيتهم ، وأقداح زجاج ، وخزف برسم اشريتهم ، وكيزان وأباريق فخار ، وقصارى فخار وسرج وقناديل وزيت للوقود . كذلك يصرف الناظر ثمن مكبات خوص لأجل تغطية أغذيتهم عند صرفها ، وثمان مراوح خوص لأجل استعمالها أيام الحر وفى فصل الصيف ليعبد بها الذباب (٢٠٠) .

هذا الى جانب شراء المواد التى تستخدم فى صناعة الأدوية وتحضيرها ، فقد نصت الوثيقة على أن يصرف الناظر ثمن سكر لصنع الاشربة المختلفة وعمل المعاجين ، وثمان ما يحتاج اليه من فواكه وخمائر ، وثمان ما يحتاج اليه من الأدوية والعقاقير والمعاجين والمراهم والاكحال والشياقات والذرورات (٢٠١) والسفوفات (٢٠٢) والترياقات (٢٠٣) والاقراص وغير ذلك (٢٠٤) .

٣ - الصرف على جهات البر ومنها تجهيز ودفن من يميت من المرضى فى البيمارستان ومن يميت بين أهله خاصة من الفقراء ، فتنص الوثيقة على:

(١٩٩) انظر الوثيقة . ص ٣٦٢ . وانظر أيضا ، المقريزى ، المواعظ ، م ٢ ، ص ٤٠٦ .
(٢٠٠) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٤ ، وانظر أيضا محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٣ .
(٢٠١) الذرورات هى الادوية القاطعة للدم فى الجراحات وانتفاخ الشرايين ، وتنفع فى علل الانف والبواسير والرعاف والاورام . انظر محمد سيف ، منشآت ، حاشية ٢ ، ص ٥٧ .

(٢٠٢) السفوفات هى الادوية المعسكة أو المسهلة وهى على شكل مسحوق يأخذ بواسطة الفم . انظر محمد سيف ، منشآت ، ص ٥٧ ، حاشية ٣ .
(٢٠٣) الترياقات جمع ترياق وهو دواء مركب لعلاج السموم ، انظر محمد محمد أمين ، الاوقاف ، ص ١٦٤ ، حاشية ١ .
(٢٠٤) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٣ .

« ويصرف الناظر ما تدعو الحاجة اليه من تكفين من يموت بهذا
البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء، فيصرف اليه ما يحتاج
اليه برسم غسله وثمان كفته وحنوطه وأجرة غاسله وحافر قبره ومواراته
فى قبره على السنة النبوية والحالة المرضية » (٢٠٥) . ونصت الوثيقة
كذلك على : « وان مات بين أهله صرف اليه الناظر فى يوم تجهيزه
وتغسيله وتكفينه وحمله الى مدفنه ومواراته فى قبره ما يليق به بين
أهله » (٢٠٦) .

كذلك حرص الناظر على صرف اعانات للخارجين من البيمارستان
بعد شفائهم فقد نصت الوثيقة على : « ومن حصل له الشفاء والعافية ممن
هو مقيم بالبيمارستان صرف اليه الناظر عن ريع هذا الوقف كسوة ...
وذلك وفق ما يراه ، ويؤدى اليه اجتهاده ويحسب ما تدعو اليه
الحاجة » (٢٠٧) .

وقد أظهر بعض نظار البيمارستان كفاءة كبيرة فى ادارة حسابات
البيمارستان ومن هؤلاء النويرى ، الذى باشر نظره فى شوال ٧٠٣هـ /
١٣٠٣م) وحتى آخر رمضان من عام ٧٠٧هـ / مارس ١٣٠٧م ويذكر فى
هذا الصدد : « باشرت نظر البيمارستان المنصورى وما معه من الأوقاف
المنصورية ... ورفع الى حساب المياومة » (٢٠٨) .

وبفضل مباشرة النويرى انتظمت الى حد كبير حسابات البيمارستان
المنصورى وزادت ايراداته وريع أوقافه ، حتى عهد خليفته شهاب الدين
ابن عباد (٢٠٩) اذ حدث فى عام ٧١١هـ / ١٣١١م ان اشترى السلطان

(٢٠٥) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(٤٠٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ .

(٢٠٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٢٠٨) انظر النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، وانظر أيضا أمينة

محمد جمال الدين ، النويرى وكتابه نهاية الارب ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٥٥ .

(٢٠٩) انظر ترجمة ابن عباد فى الدرر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ، وانظر أيضا السلوك

ج ٢ ، ق ١ ، ص ٥٥ .

الناصر محمد بن قلاوون جواهر من تجار الفرنجة بمصر وغيرها من الحاجيات بمبلغ ستة عشر ألف دينار ، واحالهم بها على كريم الدين اكرم (٢١٠) . ناظر الخاص ، غير أنه لم يكن لديه شيء من هذا المبلغ ، فاستشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة (٢١١) والصالح الشرابيشي فحسنا له ان يستعين بايرادات البيمارستان المنصوري . مما يدل على مدى الثقة التي تمتعت بها حسابات هذا البيمارستان (٢١٢) .

ومما يدل أيضا على انتظام حسابات البيمارستان وزيادة ريع أوقافه بفضل كفاءة نظاره ومعرفتهم بالحساب ما يذكره المقرئ من ان الأمير جمال الدين أقوش عندما استقر ناظراً على البيمارستان في جمادى الآخرة ٧٢٣هـ/يونيه ١٣٢٣م « وجد حاصله أربعمائة ألف درهم ، سوى السكر وغيره قيمته مائة ألف درهم » (٢١٣) .

وتزايد أيضا ريع أوقاف البيمارستان في عهد الأمير صرغتمش بفضل كفاءته وكفاءة نائبه ضياء الدين يوسف بن بيت الآبار لتصل الى « أربعين ألف درهم في الشهر » (٢١٤) . وظلت دخول أوقاف البيمارستان في زيادة حتى أن الرحالة ابن بطوطة يذكر : « ان مجباه ألف دينار كل يوم » (٢١٥) .

وقد حددت وثيقة وقف المنصور قلاوون ما يجب ان يفعله الناظر في

-
- (٢١٠) عبد كريم الدين اكرم انظر ، الدرر ، ١ ، ص ٤٢٩ - ٤٣١ ، السلوك .
ح ٢ ، ق ١ ، ص ٩٥ .
- (٢١١) هو على بن جلال الدولة الشيزري ولد بشيزر ثم قدم مصر وياشر شد العمارة وخدم عند أحمد بن عبادة في نظر الخاص والاقواف ، توفي بشيزر سنة ٧٣٩هـ . انظر ترجمته في الدرر ، ح ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .
- (٢١٢) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٢٤٠ ، المقرئ ، السلوك ، ح ٢ ، ق ١ ، ص ١٢ ، وانظر أيضا أمينة جمال الدين ، النويري ، ص ٥٧ .
- (٢١٣) المقرئ ، السلوك ، ح ٢ ، ق ١ ، ص ٢٤٧ .
- (٢١٤) المقرئ ، السلوك ، ح ٢ ، ق ١ ، ص ٨ .
- (٢١٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ٢٢ .

حالة اذا ما نقص ريع أوقاف البيمارستان عن استيعاب المصاريف التى سبق ذكرها ، اذ نصت على : « أن يقدم الناظر صرف الأهم فالمهم من ذلك ... ويقدم الاحوج فالاحوج بحسب ما تقضيه المصلحة ... وعلى الناظر فى هذا الوقت ان .. لا يقدم صاحب جاه على ضعيف ولا قوى على من هو أضعف منه ، ولا متأهل على غريب بل يقدم من فى الصرف اليه » (٢١٦) .

معاونو ناظر البيمارستان المنصورى :

كان يعاون الناظر فى أداء مهامه مجموعة من الموظفين، فقد ورد فى وثيقة المنصور قلاوون المؤرخة فى ١٢ صفر ٦٨٥هـ من بين موظفى البيمارستان « الخزان الامناء والمباشرين وغيرهم » (٢١٧) . ونصت الوثيقة فى موضع آخر على أنه « ليس للناظر .. أن ينزل بهذا البيمارستان ... من المباشرين ولا من أرباب الوظائف يهودياً ولا نصرانياً » (٢١٨) . وكان من بين هؤلاء المباشرين «مباشرو العمارة» ويقوم هؤلاء بشراء المواد اللازمة لعمل الترميمات والاصلاحات اللازمة ، مع مراقبة مختلف الابنية الموقوفة واستخدام الصناع والعمال . وقد حدد النويرى اختصاصاتهم - بوصفه ممن تولوا نظر البيمارستان المنصورى - فذكر : « اما العمارة فلها مباشرون ينفردون بها من ابتياع الأصناف ، واستعمال الصناع ، ومرمية الأوقاف وغير ذلك مما يدخل فى وظيفتهم ... ويكتبون فى كل شهر استحقاق (٢١٩) بثمن الأصناف وأرباب الأجر » (٢٢٠) ثم يرسلون هذا السجل أو الاستحقاق الى الناظر ليتولى عملية الصرف وسداد الأموال الى مستحقيها (٢٢١) .

(٢١٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٨ .

(٢١٧) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٠ .

(٢١٨) انظر الوثيقة ، ص ٣١٧ .

(٢١٩) يقصد بالاستحقاق اجراء سجلهاو جريدة بما هو مستحق لأرباب الجامكيات

أى الرواتب . انظر النويرى ، نهاية الارب ، ح ٣١ ، تحقيق السيد الباز العرينى ، ص ١٠٨ ، حاشية ٤ .

(٢٢٠) النويرى ، نهاية الارب ، ح ٣١ ، ص ١٠٩ .

(٢٢١) حياة الحجى ، البيمارستان المنصورى ، ص ٢١ .

ويعاون الناظر فى تحصيل ايجارات أوقاف البيمارستان عدد آخر من المباشرين ويعرف هؤلاء « بمباشرى الصندوق والرباع » ويحدد النويرى أيضا اختصاصاتهم بقوله : « واليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف فى الخلق والسكون والمعطل ، واستخراج الأموال ، ومحاسبات المستأجرين ، وصرف الأموال بمقتضى حواله (٢٢٣) » .

ويساعد الناظر أيضا جماعة ثالثة من المباشرين يعرفون باسم « مباشرى الادارة » ومهمتهم ابتياع ما يحتاج اليه البيمارستان من الأصناف ، وضبط ما يدخل الى المكان وما يخرج منه خاصة من غير أن يكون لهم تعلق فى استخراج (٢٢٤) ، ويكتبون فى كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين ، يكتبه العامل ، ويكتب عليه الشهور ، ويأمر الناظر بصرفه ، ويخلد فى ديوان الصندوق ويعرفه على حكمه (٢٢٥) .

وقد خصصت لهؤلاء المباشرين أجور نظير قيامهم بهذا العمل ، فقد نصت وثيقة وقف المنصور قلاوون على : « ثم ما فضل بعد ذلك صرف منه الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى ايجار ذلك ، واستخراج أجرته وعمارته » (٢٢٦) .

وكان لصحابة نظر البيمارستان المنصورى ديوان يطلق عليه

(٢٢٢) الحواله وثيقة تجيز لحاملها ان ينال ما هو مستحق له من المرتبات من المتحصل من الجهات المقررة له بها . انظر النويرى ، نهاية الارب ، ٣١ ، ص ١٠٦ ، حاشية ٥ .

(٢٢٣) النويرى ، نهاية الارب ، ٣١ ، ص ١٠٩ .

(٢٢٤) صندوق المستخرج أو ديوان الصندوق يختص بالنظر فى جهات الوقف ، وما طرأ عليها من زيادة أو ركود أو تعطيل ، كما يختص باستخراج الأموال ومحاسبات المستأجرين وصرف الأموال . انظر النويرى ، نهاية الارب ، ٣١ ، ص ١٠٩ ، حاشية ٣ .

(٢٢٥) النويرى ، نهاية الارب ، ٣١ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، وانظر أيضا المقرئى ، المواظ ، ٢م ، ص ٤٠٧ .

(٢٢٦) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

القلقشندى اسم « ديوان صحابة نظر البيمارستان » (٢٢٧) وليس هذا بالغريب لأن من تولوا صحابة نظر البيمارستان المنصوري أو نيابته كانوا من كبار الأمراء بالديار المصرية . وجرت العادة أن يكون لكل أمير ديوان . وقد تألف ديوان صحابة نظر البيمارستان على نحو ما جاء فى وثيقة المنصور قلاوون من « مشد وناظر ومشار وشاهد وكاتب وخازن » (٢٢٨) . ويلاحظ هنا أن المشد تقدم على الناظر مما يظهر أهمية وظيفته للبيمارستان . والمشد أو الشاد لفظ استخدم فى دولة المماليك للدلالة على موظف كان له حق التقوية وما يتبع ذلك من سلطان المراقبة والاشراف والتفتيش والمعاونة والتوجيه والتعمير والاستثمار وغير ذلك . وتدل هذه اللفظة على وظائف مختلفة لكل منها اختصاصاتها بحسب نوع الشد الذى يتولاه الموظف ، وكثيراً ما أضيف كلمة شاد الى اسم الادارة أو الجهة التى يتولى الموظف شدها ، مثال ذلك شاد الاحباس ، وشاد الأوقاف ، وشاد العمارة ، وشاد البيمارستان وغيرها (٢٢٩) .

ونظراً لأن وظيفة المشد جاءت فى الوثيقة غير متبوعة بما يوضح نوعية هذا الشد ، فضلاً عن كونها من وظائف ديوان صحابة نظر البيمارستان ، فمن المحتمل أن يقصد بالمشد هنا مشد عمائر البيمارستان وما يتبعه من أوقاف . وكان واجب هذا المشد أن يحرص على مصالح الوقف والمستحقين له ، بأن يجدد ويصلح مباني الوقف ، وأن يشرف على أرباب الصناعات المختلفة فى العمائر ، ويحثهم على العمل مع الرفق بهم ، والا يستعمل أحداً فوق طاقته ، وعليه أيضاً أن يمكنه من الأكل ، وان يطلق مسراحه أوقات الصلوات؛ ومن عمله أيضاً أنه يعاون فى جباية ريع الوقف (٢٣٠) .

ولم تذكر المصادر اسماً من تولوا وظيفة الشد بديوان صحابة نظر

(٢٢٧) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ح ٤ ، ص ٢٤ .

(٢٢٨) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٢ .

(٢٢٩) حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ح ٢ ، ص ٦٠٥ - ٦٠٧ .

(٢٣٠) السبكى ، معبد النعم ، ص ١٢٩ ، وانظر أيضاً حسن الباشا ، الفنون

الاسلامية والوظائف ، ح ٢ ، ص ٦١٧ .

البيمارستان المنصوري، اللهم الا الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى عهد اليه السلطان المنصور قلاوون بشد عمارة البيمارستان عند بنائه (٢٣١) .

أما الناظر فهو الذى ينظر فى الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع اليه حسابها لينظر فيه ويتأمله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد (٢٣٢) أى أنه المشرف الرسمى على جميع إيرادات الديوان ومصروفاته ؛ ولا بد من توقيعه على كل ما يخرج من الديوان من أوراق (٢٣٣) .

وعن المشارف يذكر ابن مماتى (٢٣٤) ان أمره جار على أمر الناظر وهو يزيد على الناظر بأن يكون الحاصل من المستخرج فى مودعه وتحت حوطته بعد أن يكون مختوماً عليه ، ومهمته أيضاً هو والناظر ضبط عامل الديوان والشد منه .

ومن موظفى ديوان صحابة نظر البيمارستان أيضاً الشاهد والكاتب والخازن . أما الشاهد فهو الذى يشهد بمتعلقات الديوان نفياً وأثباتاً (٢٣٥) . وقيل أيضاً أنه هو الذى يضبط كل شئ مما هو شاهد فيه ، وعليه أن يكتب الحساب الموافق لتعليقه وعليه أيضاً ضبط الحواصل لا غير (٢٣٦) .

ونظراً لأن تشكيل ديوان البيمارستان يخلو من العامل فان الكاتب هنا يجرى مجرى العامل فى كل ما يتعلق به أى أنه يتولى عمل الحسابات

-
- (٢٣١) انظر ما سبق ص ٢ ، وانظر أيضاً بيبرس المنصورى ، مختار الاخبار ، تحقيق عبد الحميد صالح مزوان ، القاهرة ١٩٩٢م ، ص ٨٥ .
- (٢٣٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ح ٥ ، ص ٤٦٥ .
- (٢٣٣) انظر حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٨٤ ، محمد قنديل البقلى ، التعريف ، ص ٢٤١ .
- (٢٣٤) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣٠٢ : ٣٠٣ .
- (٢٣٥) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ح ٥ ، ص ٤٦٦ ؛ وانظر أيضاً محمد قنديل ، التعريف ، ص ١٩١ .
- (٢٣٦) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ ، وحاشية ٨ .

ورفعها والكتابة على ما يرفعه غيره من معاملته منها بالصحة
والموافقة (٢٣٧) .

أما الخازن فهو الذى يتولى خزن الغلات واخراجها ، ويلزمه عمل
الأعمال بها ، ويطلب بما قد يعجز منها (٢٣٨) . وهنا تجدر الإشارة
الى أنه كان بالبيمارستان المنصورى أكثر من خازن ، فقد نصت وثيقة المنصور
قلاوون على ذلك اذ جاء فيها « والخزان الامناء . . » (٢٣٩) . ولكن مما
يؤسف له ان المصادر لم تذكر اسماء من تولوا وظائف ديوان صحابة نظر
البيمارستان المنصورى .



يتضح من العرض السابق لمهام ناظر البيمارستان المنصورى انها
كانت كثيرة ومتعددة ، مما تطلب أن يساعده فى تأديتها مجموعة من
الموظفين سواء داخل ديوان البيمارستان أم خارجه . ونظرا لتعدد مهام
صحابة نظر البيمارستان المنصورى فكان ولا بد أن يتولى هذه الوظيفة
شخص مؤهل فكريا واداريا وماليا وعلميا بل وفنيا أيضا حتى يصبح
بامكانه القيام بواجباته ومسئوليته بجدارة وليحقق الأهداف المرجو من
وراء نشأة البيمارستان . وقد أظهر العديد من نظار البيمارستان المنصورى
فيما بين القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، الرابع عشر والخامس عشر
الميلاديين ، كفاءة ومقدرة ، وكانوا أهلا لتولى هذا ، المنصب ، وأن كانت هناك
قلة قد تسلفت هذا المنصب وهى تفتقر الى المقدرة والكفاءة والاستحقاق
والأهلية والجدارة ، وذلك عن طريق المهادة والبذل والرشوة . وازدادت هذه
الظاهرة فشوا فى الشطر الأخير من دولة سلاطين المماليك عندما اختلت
نظمها وساعت أحوالها وتفشت فيها الأمراض الاجتماعية التى أدت الى
سقوطها .

(٢٣٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٠٢ .

(٢٣٨) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٠٦ وعن الخازن انظر أيضا

القلقشندي ، صبح الاعشى ، ح ٥ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ ، محمد قنديل ، مصطلحات ، ص ١١٣ .

(٢٣٩) انظر الوثيقة ، ص ٣٦٠ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الوثائق :

— وثائق وقف المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري ، دراسة ونشر وتحقيق محمد أمين : ملاحق ابن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه .
الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٦م .

— وثيقة وقف الطيب أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن موسى رئيس المجبرين والجرائحين بالبيمارستان المنصوري على مصالح البيمارستان وغيره .
محفظه ٢٤/حجـة ١٥٤ مؤرخه ٢٢ ذو الحجـة/٨٧١هـ وثائق محكمة الأحوال الشخصية (الولاية على النفس) .

— وثيقة الأمير أخور كبير قراقجا الحسنى
دراسة ونشر وتحقيق عبد اللطيف ابراهيم ، مجلة كلية الآداب /
جامعة القاهرة ، م ١٨ ، ح ٢ ديسمبر ١٩٥٦م .

ثانيا : المخطوطات :

— الخالدي (محمد بن عطف الله ت ١٥/هـ ١٥٠٠م)
المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا - مخطوط مصور بمكتبة
جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .

— صلاح الدين الصفدي (خليل بن ابيك ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م)
اعيان العصر واعوان النصر
ثلاثة أجزاء - مخطوط مصور عن مجموعة عاطف أفندي ، المكتبة
السليمانية استانبول .
معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية ، المانيا ١٩٩٠م .

ثالثا : المصادر العربية :

- ابن اياس (محمد بن أحمد ت ٥٩٣٠/١٥٢٣م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
٥ أجزاء ، فيسبان (١٩٧٥ - ١٩٨٣م) .
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبوالمحسن يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
الأجزاء من ٧ - ١٢ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
ح ١٣ تحقيق فهم شلتوت ، القاهرة ١٩٧٠م
ح ١٤ تحقيق جمال محمد محرز وفهم شلتوت القاهرة ١٩٧١م .
ح ١٥ تحقيق ابراهيم طرخان ، القاهرة ١٩٧١م
ح ١٦ تحقيق جمال الدين الشيال وفهم شلتوت ، القاهرة
١٩٧٢م
= حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور
ح ١ تحقيق فهم شلتوت ، القاهرة ١٩٩٠م .
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى الأجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ،
٦ تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٨٤ - ١٩٩٠م
والأجزاء ٣ ، ٥ تحقيق نبيل عبد العزيز ، القاهرة ١٩٨٦ -
١٩٨٨م .
- ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على
ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م)
— انباء الغمر بابناء العمر ، تسعة أجزاء فى خمسة مجلدات ،
بيروت ١٩٨٦م .
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة
تحقيق محمد سيد جاد الحق ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦م .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)
— تذكرة النبىه فى أيام المنصور وبنيه

- الجزء الأول ، حوادث وتراجم (٦٧٨ - ١٢٧٩/٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م)
تحقيق محمد محمد أمين ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين)
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك
تحقيق بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)
تاريخ ابن الفرات
الجزء السابع تحقيق قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٤٢ م
الجزء الثامن تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين ، بيروت
١٩٣٩ م .
الجزء التاسع تحقيق قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٣٦ م .
- ابن مماتي : كتاب قوانين الدواوين : تحقيق عزيز سوريال عطية ،
القاهرة ١٩٩١ م .
- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م)
معيد النعيم ومبيد النقم
تحقيق محمد علي النجار ، أبو زيد شلبي ، محمد أبو العيون ،
القاهرة ١٩٤٨ م .
- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر بن عمان
ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م)
— التبر المسبوك في ذيل السلوك .
— تصحيح أحمد زكي ، بولاق - مصر ١٨٩٦ م .
— الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة
تحقيق جودة هلال د . محمد محمود صبح ، مصر ، بدون تاريخ .
— الضوء اللامع لأهل القرن التاسع .
١٢ جزء ، القاهرة ١٣٥٤ - ١٣٥٥ هـ .

— السيوطى (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ /
١٥٠٥ م)
نظم العقيان فى أعيان الأعيان
(تراجم مشاهير القرن التاسع الهجرى)
حرره فيليب حتى ، المطبعة السورية الأمريكية فى نيويورك ،
١٩٢٧ م .

— الشجاعى (شمس الدين الشجاعى)
— تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده
حققه وعربه الى الألمانية برياره شيفر
القسم الأول : النص العربى فيسباند ، ١٠٧٨ م .

— الصيرفى (الجوهري على بن داود ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م)
— نزهة النفوس والابدان فى تواريخ أهل الزمان
أربعة أجزاء ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٤ م ،
١٩٩٤ م .

— انباء الهصر بأبناء العصر
تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠ م .

— القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
— صبح الأعشى فى صناعة الانشا
١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٢ - ١٩٢٢ م
— ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر
طبع وتصحيح محمود سلامة ، مصر ١٩٠٦ م .

— محب الدين (تقى الدين عبد الرحمن الشهير بابن ناظر الجيش
كتاب تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف
تحقيق رودلف فسلى
منشورات المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٧ م .

- المقرئى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)
السلوك لمعرفة دول الملوك
الأجزاء من ١ - ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة .
الأجزاء ٣ ، ٤ تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٧٠م ، ١٩٧٢م .
— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
مجلدان ، بيروت بدون تاريخ عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ .
- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)
— نهاية الارب فى فنون الأدب
ح ١٣ تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة ١٩٩٢م .
- اليوسفى (موسى محمد بن يحيى ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م)
نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر
تحقيق ودراسة محمد حطيط ، بيروت ١٩٨٦م .
- رابعاً : المراجع العربية :
- أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩م .
— حسن الباشا ، الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ،
ح ٢ ، ح ٣ ، القاهرة ١٩٦٦م .
- حياة ناصر الحجى ، « البيمارستان المنصورى منذ تأسيسه وحتى
نهاية القرن ٨هـ / ١٤م » بحث منشور فى المجلة العربية للعلوم
الانسانية ، م ٨ ، العدد ٢٩ ، الكويت ، شتاء ١٩٨٨م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور :
— العصر المالىكى فى مصر والشام - القاهرة ، ١٩٩٤ .
— حضارة الاسلام - القاهرة ، ١٩٨٨ .
- محمد حمزة اسماعيل الحداد ، السلطان المنصور قلاوون
(تاريخ - أحوال مصر فى عهده - منشأته المعمارية) القاهرة ،
١٩٩٣م .

- محمد سيف النصر أبو الفتوح ، « منشآت الرعاية الاجتماعية في القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك » .
رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة أسيوط ، ١٩٨٠م .
- محمد قنديل البقلی ، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، القاهرة ١٩٨٤م .
- محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م)
دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ١٩٨٠م .
- محمد محمد أمين وليلى على ابراهيم ، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م) ، مصر ، ١٩٩٠م .

خامسا : المراجع الأجنبية :

Van Berchem, · Corpus Inscriptorum Arabicarum, Première Partie. (Egypte — Paris, 1903)

هبة الله بن ملكا ونظرتة الى المعارف والعلوم

د • مريزن سعيد عسيري (*)

مقدمة :

حفل تاريخ الحضارة الاسلامية بالعديد من الشخصيات العلمية البارزة التي كان لها دور رائد في تطور العلوم بشكل عام ، بل أن بعضهم أنجز من الأعمال العلمية ما يمكن اعتباره اكتشافات جديدة اثرت في مسيرة الحضارة البشرية .

وقد تناول المستشرقون العديد من هذه الشخصيات الاسلامية بالدراسة والتحليل ، وقضى البعض منهم سنين عديدة في دراسة آثار هؤلاء العلماء ، مثلما فعل المستشرق سخاو مع البيروني • حتى أوضح أن ذلك العالم من أعظم الشخصيات التي ظهرت في العصور الوسطى ، وأنه لولا دراساته لتأخرت مسيرة علم الفلك قروناً عديدة .

ومن علماء المسلمين الجديرين باهتمام الباحثين ، أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي ، الذي تبدو عبقريته في كتابه (الاعتبار في الحكمة) • ويعتبر هذا الكتاب أفضل ما ظهر حتى عصره في موضوع الحكمة ، إذ اشتمل على دراسات قيمة كانت وليدة أفكاره المحضة بعد أن حرر فكره من آراء السابقين • لقد حاول بشكل جدي أن يقدم دراسة مبنية على الفكر والتأمل وأعمال العقل في صحيفة الوجود ، كما قال ، فعالج في دراساته تاريخ المعرفة والعلم : بداياتها وتكونها وكيف تتم ، والعلاقة بين المعرفة والعلم ، حتى توصل الى اكتشاف المعرفة العلمية (الابستمولوجيا) وكان ذلك أجمل ما تحدث عنه في الجزء الأول من

() أستاذ مشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية - جامعة أم القرى •
(مجلة المؤرخ العربي)

كتابه المخصص لدراسة علم المنطق . أما الجزء الثانى من كتابه ، فقد خصصه للحديث عن العلوم الطبيعية بأقسامها وتفصيلاتها . ومن يطلع على هذا الجزء من كتابه هذا ويتفحص دراساته ومباحثه بروية وتأمل ، يدرك أن المؤلف قدم دراسات جديدة ، وتوصل الى حقائق علمية محضة ، دعمها بالبرهان والدليل العقلى . ويبدو أن أغلب ما توصل اليه من جديد كان سببه اعتماده فى ذلك على الملاحظة الدقيقة ، والتجربة أحيانا ، ثم استنباط النتائج . كل ذلك أدى به الى أن يحلل ويفسر الكثير من الظواهر الطبيعية بشكل واقعى ومنطقى . وهكذا فإن ما توصل اليه علماء عصر النهضة الأوروبية فى كثير من الانجازات سبقهم اليها هبة الله بن ملكا ، وخاصة فيما يتعلق بظواهر الحركة والجاذبية وحركة المياه الجوفية ولاسيما العيون الفواره ، وغير ذلك كثير .

أما الجزء الثالث من كتابه هذا فقد أفردده للحديث عن الالهيات وما واره الطبيعة . وعلى الرغم من اقتفائه منهج أرسطو فى دراسته هذه ، الا أنه لم يتبعه فى رأيه ولم يقر آراء من اتبعه من الحكماء والفلاسفة ، بل كانت آراؤه مبنية على تفكيره الخاص وما توصل اليه بعقله . وقد شهد له شيخ الاسلام ابن تيمية بذلك .

وفى هذه الدراسة نقدم عرضا عن شخصية ابن ملكا وحياته العلمية ، مما نعتبره المدخل أو الخطوة الأولى لدراسة آرائه وأفكاره فيما يخص المعرفة والعلم ، وخاصة ان كتابه المعتبر فى الحكمة لم يجد حتى اليوم الاهتمام الذى يستحقه من قبل الباحثين فى تاريخ العلوم الاسلامية .

وتنقسم هذه الدراسة الى قسمين : -

القسم الأول : ونتناول الحديث فيه عن شخصية المؤلف وحياته العلمية وأهمية كتابه (المعتبر فى الحكمة) .

والقسم الثانى : وقد افردناه لآرائه ودراساته فى المعارف والعلوم .



القسم الأول

ابن ملكا حياته ، ثقافته ومصنفاته

حياته :

هو أوحّد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي ملكا البغدادي ، ولد في بلد (١) ، ولكن نشأته وإقامته كانت ببغداد .

وعلى الرغم من المكانة العالية التي حظى بها في حياته سواء في النواحي الثقافية والعلمية والتطبيعية أو الاجتماعية ، إلا أن المصادر المختلفة التي كتبت عنه لا تعطينا صورة كاملة ومفصلة عن أحداث حياته . ويكفي أن نعرف أن الرجل كان من أساطين المعرفة ، ومن الفلاسفة القلائل الذين يظهرون على مسرح التاريخ بين الأونة والأخرى ، وقد لقب بأوحد الزمان ، وبفيلسوف العراقيين (٢) ، ولم يعرف في الفترة الواقعة بعد ابن سينا من بلغ رتبته في العلوم الحكيمة ، بل إن مباحثه ودراساته فيها فاقت من ظهر قبله على مر العصور ، ومن جاء بعده حتى غروب شمس الحضارة الإسلامية .

ومع علو مكانته ، وأهمية كتابه « المعتبر في الحكمة » إلا أن تقييم جهوده في هذا الكتاب لم يتم إلا في العصور اللاحقة ، لا سيما في العصر الحديث .

والواقع أنه مما يستثير الدهشة حقاً أن شخصية لها هذه المكانة من سمو الفكر تظل بعيدة عن أضواء الباحثين ، في حين حظى غيرها بالكثير من التقدير والاحترام في كتب التراجم وكتابات المؤرخين . ذلك أنه على الرغم من كثرة كتب التاريخ والتراجم التي ظهرت في زمنه أو

(١) بلد : ذكر ياقوت عدة مواضع بهذا الاسم ، على أن الأرجح منها وهو ما يعني هنا أنها مدينة قديمة على نجلة فوق الموصل ، وينسب لهذه البلدة العديد من العلماء المسلمين . ياقوت : معجم البلدان ج١ ، ص ٤٨١ .

(٢) البيهقي : تاريخ حكماء الإسلام ، ص ١٥٢ .

بعده بقليل الا أن أحداً لم يعطه حقه من العناية ، اللهم سوى تلك المؤلفات التي ظهرت بعده والتي تعرضت لسير الأطباء والحكماء ، ومع ذلك فإن هذه الاشارات الى ابن ملكا وكتابه جاءت غير كافية ولا تتوازي مع شهرته الفكرية وما تميز به عن نظرائه فى العصور الاسلامية .

من ذلك أن المصادر لم تمدنا بمعلومات كافية عن ولادته ببلد ، وكذلك سنة وفاته ثم تحظ باتفاق بين سائر من كتب عنه . ومثل ذلك يقال عن اسلامه وحياته .

يقول البيهقى أنه توفى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م . ويعلل لوفاته بأنه لم يوفق فى علاج السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه (٣) بسبب قولنج (٤) أصابه ، فخاف ابن ملكا على نفسه فمات ضحوة ، لاسيما وأن والد مسعود السلطان محمد بن ملكشاه (٥) كان قد اتهمه بالتقصير فى مداواة قبل ذلك ، مما أدى الى حبسه فترة من الزمن (٦) . على أن الصفدى يذكر أنه توفى سنة ٥٦٠ / ١١٤٦م (٧) .

أما سنة ولادته فلا تذكر المصادر شيئاً عنها ، سوى أن البعض ذكر مدة حياته ، فجعلها البيهقى تسعين عاماً (٨) . أما ابن أبى اصبعة

(٣) مسعود بن محمد بن ملكشاه ، عقد له الخليفة المقتفى بالسلطنة سنة ٥٣١هـ / ١١٢٦م . كانت ولايته مليئة بالاحداث والحروب بينه وبين أهله من أبناء البيت السلجوقى توفى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م . صدر الدين الحسينى زبدة التواريخ . ص ٢٠٧ - ٢٢٩ ، الحسينى : العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ص ١١٧ .

(٤) القولنج : مرض معوى مؤلم يتعصر معه خروج ما يخرج بالطبع ، والقولنج بالحقيقة اسم لما كان السبب فيه فى الامعاء الغلاظ قولون . ابن سينا : القانون ح ٢ ، ص ٤٥٢ .

(٥) غياث الدين أبى شجاع محمد طبر بن ملكشاه تولى السلطة بعد وفاة أخيه بركيارق سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م وتوفى سنة ٥١١هـ / ١١١٧م . صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٦٧ - ١٧١ .

(٦) تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٧) نكت الهميان ، ص ٣٠٤ .

(٨) تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

فجعلها ثمانين عاما (٩) ، وبهذا الاختلاف الذى ذكرته المصادر فى سنة وفاته وكم عاش من السنين لا يمكن بحال وعلى وجه التأكيد اعطاء سنة محددة لولادته . على أنه من المؤكد انه ولد بعد منتصف القرن الخامس الهجرى .

كان ابن ملكا يهودى النحلة ثم اسلم . وتذكر المصادر روايات مختلفة أيضا عن كيفية اسلامه (١٠) ، ولا تهمنا هذه الروايات كثيرا بقدر ما يهمنا ان الاسلام جلب عليه السعادة ، واعطاه مركزاً مرموقاً بين عامة الناس وخاصتهم ، فعاش عيشة هنيئة ، وقصده طلاب الطب والحكمة من الآفاق لينهلوا من علمه ومعارفه (١١) .

على أنه جاء فى المصادر أن ابن ملكا كانت أخلاقه لا تتسم وسمعه الحكيم والطبيب . ذلك أنه عرف بالكبر ، هذا علاوة على التنافر الذى كان بينه وبين معاصره الطبيب الحاذق أبى الحسن هبة الله بن صاعد ابن التلميذ (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) (١٢) . ويذكر البعض فى ذلك أحداثاً حدثت بينهما ، حتى نقد بعضهما الآخر فى مجلس الخليفة (١٣) .

يذكر ابن خلكان ان ابن التلميذ كان يكره ذلك الكبر فى ابن ملكا ، فقال فيه (١٤) :

نا صديق يهودى حماقته اذا تكلم تبدو فيه من فيه
ينيه والكلب اعز منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه

(٩) عيون الانبياء ، ٢٧٦ .

(١٠) البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ ، القفطى : اخبار العلماء ،

٢٢٥ - ٢٢٦ ، صدر الدين الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ ؛ الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ص ٨٠ ؛ ابن أبى اصيبعة : عيون الانبياء ، ص ٣٧٥ .

(١١) القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ .

(١٢) ، (١٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٧٤ ؛ ابن أبى اصيبعة :

عيون الانبياء ، ص ٣٤٩ - ٣٧٦ .

(١٤) وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٧٤ .

وكذلك هجاه البديع الاسطرلابى بقوله (١٥) :

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه أبو البركات فى طرفى نقىض
فهذا بالتواضع فى الثريا وهذا بالتكبر فى الحضيض

ويتفق ما قاله الاسطرلابى مع الواقع ، لأن أمين الدولة بن التلميذ كان مشهوراً بنبل الأخلاق والكرم والمروءة ، حتى ان تلامذة المدرسة كانوا يأتون اليه عند مرضهم فيطبيبهم بدون مقابل ، ويقوم بخدمتهم حتى اذا شفى احدهم وهبه دينارين وصرفه (١٦) .

أما كيف استطاع أن يتحصل بادية الأمر على علوم الطب والحكمة فتذكر المصادر أن أبا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين (١٧) كان متفرداً فى عصره بعلوم الطب ، وكان له مجلس علمى يتناوب فيه التلامذة عليه . على أنه لم يكن يستقبل التلامذة اليهود فى مجلسه . وكان ابن ملكا يرغب فى أن يلتقى به ويتعلم على يديه ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا . وقد دعاه ذلك الى أن طلب من بواب ابن هبة الله ان يسمح له بالجلوس فى دهليز يستطيع السماع منه لدروس ابن هبة الله ، وما يجرى فى مجلسه من مناقشات وبحث . وبعد مدة سنة طرح فى مجلس الشيخ مسألة دار حولها النقاش دون أن يتوصلوا بأمرها الى جواب شاف . وحينئذ دخل ابن ملكا بعد استئذانه ، وطلب منه ان يدلى برأيه فى المسألة ، فتكلم عليها بأحسن الكلام ، وأعجب الشيخ بذكائه وفصاحته وقال : « من يكون بهذا المثابه ما نستحل أن نمنعه من العلم ، وقربه من ذلك الوقت ، وصار من أجل تلامذته » (١٨) .

(١٥) وفيات الاعيان ، ج١ ، ص ٧٥ ؛ القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ ؛ ابن أبى اصيبعة ، عيون الانباء ، ص ٢٥٠ .

(١٦) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٥٠ .

(١٧) كان سعيد بن هبة الله من المتميزين فى عصره بصناعة الطب ، ومشهوراً فى علوم الحكمة ، خدم بالطب الخليفة المقتدى والمستظهر . وكان موجوداً الى سنة ١٠٩٥هـ / ١٠٩٥م . وله مصنفات حسان فى الطب . ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٤٢ .

(١٨) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ ؛ الشهرزورى : نزهة الأرواح ، ج٢ ، ص ٧٩ .

وهكذا كان تلقيه العلم على يد الشيخ سعيد بن هبة الله الذي لازمه مدة واستملاه كتابه الشهير « التلخيص النظامي » (١٩) . وعندما شعر ابن ملكا بأنه نال حظا جيدا من العلم ، بدأ يمارس أعمال الطب والمداواة واشتهر في الآفاق ، وأصبح له مجلس علم مشهور ، قصده التلامذة من كل مكان ، لا سيما من أهل بغداد الذين استفادوا منه كثيرا ونهلوا من معارفه وعلومه (٢٠) ، وكان أشهرهم ممن كان يملئ عليهم كتابه المعتبر عندما عمى في أواخر أيامه : جمال الدين بن فضلان ، وابن الدهان المنجم ، وابن يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب الاعتبار المشهور ، والمهذب بن النقاش (٢١) ، وهؤلاء الأربعة كانوا من كبار الأطباء والحكماء الذين اشتهروا في زمنهم .

ثقافته :

لقب ابن ملكا بأوحد الزمان (٢٢) وفيلسوف العراقيين (٢٣) ، مما يشير الى تفرد في عصره بالثقافة وسعة المعرفة والتفنن في العلوم . وعلى الرغم من شهرته الطبية ، إلا أنه لم يعرف في عصره والعصور اللاحقة ، ولم يشتهر إلا بكتابه (المعتبر في الحكمة) اذ كان له اهتمام بالغ بالعلوم الحكمية وفطرة فائقة فيها (٢٤) ، حتى نال مرتبة أرسطو ، وكان له طبع وقاد (٢٥) .

وقد اثنى عليه شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله (٢٦) في بعض كتبه التي أفردتها للرد على الفلاسفة والمناطقة ومن

(١٩) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٢٤٢ ؛ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٦ ، ص ٧٥ .

(٢٠) القفطي : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ .

(٢١) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٥ .

(٢٢) نفسه ، ص ٣٧٤ .

(٢٣) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

(٢٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٢٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٢٦) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

سار على نهجهم من علماء المسلمين ، وذلك على الرغم من اختلافه معه فى بعض الأمور ، فجعله من حذاق الحكماء (٢٧) ومن أئمة الفلاسفة وأساطينهم (٢٨) ، وقال عنه : « وأما أبو البركات صاحب « الاعتبار » ونحوه ، فكانوا بسبب عدم تقليدهم لأولئك ، وسلوكهم طريق النظر العقلى بلا تقليد ، واستنارتهم بأنوار النبوات ، اصلح قولاً (٣٠) » .

كذلك قال عنه : « وأبو البركات لما كان معتبراً لما ذكره أئمة المشائين لا يقلدهم ، ولا يتعصب لهم ، كما يفعله غيره مثل ابن سينا وأمثاله - نبه على أن ما ذكره وأصحابه فى هذا الموضع مما لم تعرف صحته ولا منفعته » (٣١) .

وكان من أهم ما أعجب به ابن تيمية فى ابن ملكا ، اعتماده فكره وتمثيله لعقله ، وتقليب الأمور والتفكير فيها دون أن يقلد من سبقه من الفلاسفة ، فرد عليهم الكثير من المسائل ، وأثبت ذلك بالدليل العقلى . يقول ابن تيمية : « وأبو البركات وأمثاله قد ردوا على أرسطو ما شاء الله ، لأنهم يقولون : إنما قصدنا الحق ، ليس قصدنا التعصب لقائل معين ، ولا لقول معين » (٣٢) .

ويعلل شيخ الاسلام هذا التوجه السليم لابن ملكا فى رده أقوال القدماء وتابعيهم قائلاً : « ولكن ابن سينا نشأ بين المتكلمين والنفاه للصفات ، وابن رشد نشأ بين الكلابية ، وأبو البركات نشأ ببغداد بين

(٢٧) أشهر من أن يعرف عاش بالشام ومصر ، كثير البحث فى فنون الحكمة ، من علماء الاصلاح المشاهير ، له العشرات من المصنفات أشهرها فى التفسير والاصول توفى ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م . الكتبى : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٧١ .

(٢٨) درء تعارض العقل والنقل ، ج ٢ ، ص ٥٤٧ .

(٢٩) منهاج السنه النبوية ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، كتاب الرد على المنطقيين ، ص ٢٣٢ .

(٣٠) منهاج السنه النبوية ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

(٣١) درء تعارض العقل والنقل ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٣٢) كتاب الرد على المنطقيين ، ص ٢٠٧ .

علماء السنة والحديث ، فكان كل من هؤلاء بعده عن الحق بحسب بعده عن معرفة آثار الرسل ، وقربه من الحق بحسب قربه من ذلك « (٣٣) .

وفى ميدان العلوم الطبيعية (٣٤) كان لهبة الله بن ملكا آراء رائعة وصائبة ، رد فيها على أقوال القدماء كأرسطو وأمثاله من علماء اليونان ، وعلى ابن سينا وغيره من علماء الطبيعة فى الاسلام ، وناقش العديد (٣٥) من مسائل الطبيعة كالحركة والسكون وصور الأجسام الطبيعية وبسائطها ، والسماء ، والقمر والكواكب والمجرات والافلاك ومحركاتها وغاياتها ، والحر والبرد ، والجبال والبحار والأودية والانهار والعيون والآبار ، والزلازل والمعادن ، وعلاقة الكيمياء بالعلم الطبيعى ، والحيوان والنبات وخواص كل منهما وصفاته وطبائعه .

ومما كان يعتبره القدماء فى باب الآثار العلوية ، وهو جزء من العلم الطبيعى الذى يرتبط بالأرض ، ناقش ابن ملكا موضوعات الرياح ، كالسحاب والمطر والثلج والبرد ، والرعد والبرق والصواعق وقوس قزح .

كل ذلك من الأمور التى كانت موضع دراسة ونقاش منذ العصور القديمة حتى العصور الاسلامية . على أن الشئ المهم والجديد فى دراسة ابن ملكا أنه كما ذكرنا لم يقف عند حدود علوم القدماء مثل أرسطو ، فعلى الرغم من تقديره لهذا العالم الا أن كتابه المعتبر باجمعه كأنما وضع على شكل ردود علمية منطقية مدعمة بالبرهان على ما تركه أرسطو فى كتبه المنطقية والطبيعية وما وراء الطبيعة ، اذ لم يتبعه ابن ملكا ولم يسر على ما سار عليه بقوة من علماء الطبيعة المسلمين الذين كانوا ينظرون الى دراسات أرسطو فى هذا الباب كمسلمات لاتقبل الجدل أو التغيير .

(٢٢) منهاج السنه النبوية ، ج١ ، ص ٢٥٤ .

(٢٤) يبقول ابن ملكا العلوم الطبيعية هى : العلوم الناطرة فيما تقع عليه الحواس من الطبيعيات كالأجسام وأحوالها ، وما يصدر عنها من حركاتها وأفعالها وما يفعل ذلك فيها من قوى ، والأمور غير المحسوسة فان هذا العلم يتعرض لأظهرها فإظهارها أولا ويترقى منه الى الأخرى ، والأظهر عندنا من ذلك هو الأعراف والاقدم .
المعتبر ، ج٢ ، ص ٦ .

(٢٥) انظر الجزء الثانى من كتابه المعتبر .

حقاً ان بعض آراء أرسطو لاسيما فيما يخص العلم الطبيعي المبني على التجربة صادف نقداً وتعديلاً لدى بعض العلماء المسلمين قبل ابن ملكا ، مثل شكوك جابر بن حيان الكوفي في كتابه « البحث » . ولكن ابن ملكا درس تلك العلوم عند القدماء دراسة وافية كاملة وفاحصة ، ثم أعمل فكره فيها بترو ، وقاس كل ذلك على الحكم العقلي بعد أن تحرر فكره من مؤثرات القدماء . لذلك جاءت دراساته في العلم الطبيعي أكثر نضوجاً ، وأعمق تحليلاً ، وأقرب الى الواقع . يقول في كتابه : « فكنت اجتهد بالفكر والنظر في تحصيل المعاني وفهمها والعلوم وتحقيقها ، فيوافق في شيء لبعض ، ويخالف في شيء آخر لبعض من أقوال القدماء في أقاويلهم ، وتحصل بأشباع النظر في صحيفة الوجود من ذلك » (٣٦) .

ان ما ذكره ابن ملكا هنا ماهو الا دليل على نجاح منهجه الذي أعتمده في دراساته ، والذي أدى الى ما قام به من أعمال علمية بعد ذلك عن طريقين :

الأول : التعلم بالقصد والارادة ، « وهو الذي يكون بالأخبار والاستخبار والتأمل والاعتبار وأعمال الأذهان والأفكار ، فيتعلم من المعلمين ويتبصر من المبصرين » (٣٧) ، وكان هذا الطريق هو الذي بدأ به ابن ملكا حياته العلمية مع شيخه سعيد بن هبة الله .

والثاني : التعلم بالطبع والاتفاق : والمعلم في هذه الحالة هو العقل والتفكير ، وهي المرحلة الثانية لابن ملكا ، بعدما أخذ حقه من علم المشايخ وحصل من المعرفة ما يمكن أن يبدأ به طريق المعرفة والتعلم الذاتي . وهذا هو العامل الأساسي الذي استطاع ابن ملكا عن طريقه تأليف كتابه المعتبر ، فيقول ان هذا النوع من التلامذة « يعلمهم الزمان بتردد الأذهان والعقول والأفكار في موجودات الاعيان ومتصورات الأذهان وتكرار نظرهم وتكررها فيها عليهم » (٣٨) .

(٣٦) المعتبر ، ج ١ ، ص ٢ .

(٣٧) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٣٨) ابن ملكا : المعتبر ، ج ٢ ، ص ٢ .

أما تفننه في العلوم الطبية علما وعملا ، فالمصادر تثني عليه كثيرا في هذا الباب ، فما كاد اسمه يشتهر حتى طلبه للتطبيب والمعالجة خلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة ، وقصده التلامذة لتعلم الطب على يديه (٣٩) . وهكذا عمل في خدمة الخليفة المسترشد بالله (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م) (٤٠) ، وكذلك خدم الخليفة المستنجد (ت ٥٦٦د / ١١٧٠م) (٤١) ، وخدم من سلاطين السلاجقة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٢) . أما السلطان محمود بن محمد (٤٣) فقد صحبه كثيرا وقام على طبيبه وتطبيب أهل بيته (٤٤) .

وتذكر المصادر أنه كانت له معالجات لطيفة « فكان موفق المعالجة لطيف الإشارة » . ومن أجمل معالجاته التي أوردها لنا ابن أبي أصيبعة والتي استخدم فيها علمه كحكيم وعالم نفس (٤٥) مع خبرته الطبية ، أنه عالج أحد المرضى ببغداد ، ظل زمانا يتوهم أن على رأسه دنا لا يفارقه أبدا ، وما استطاع الاطباء فهم مرضه ولا أفادوه ، حتى عرض على ابن ملكا الذي عالجه من نفس الطريق الذي كان يعاني منه المريض ، اذ أمر غلاما بإدارة خشبة من فوق رأسه ، وآخر رمى جرة أمام المريض الذي صاح لكسرهم اياها ، فآثر فيه الوهم وبريء من علته . وقال ابن أبي أصيبعة عن ذلك : « وهذا باب عظيم في المداوة » (٤٦) .

-
- (٢٩) القفطي : اخبار العلماء ، ص ٢٢٥ .
(٤٠) صدر الدين الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ .
(٤١) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٢٧٤ .
(٤٢) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .
(٤٣) محمود بن محمد بن ملكشاه ، كانت أيامه فقيرة ، وزاد الأمر فقرا وسوءا فتنته مع الخليفة المسترشد ، الا أنه كان قوى المعرفة بالعربية حافظا للشعار ، عارفا بالسير والتواريخ توفي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م . الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٩٥ .
(٤٤) القفطي : اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٤٥) كان متفنا في هذا الباب الى حد بعيد ، جعله من أجزاء العلم الطبيعي . وألف فيه مقالة رائعة تدل على فهم ووعي وإدراك بمسائل النفس ومدى تأثيرها على الانسان في صحته ومرضه ، ولا أعتقد أن أحدا تناول هذا الموضوع بمثل هذا الفهم والدقة والجدية ، مما جاء به ابن ملكا (المعتبر ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٤٤٤) .
(٤٦) عيون الانباء ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

وهناك اشارات لطيفة ومعالجات جميلة ذكرتها المصادر ولا مكان لها هنا ، وهى تدل بشكل أو آخر على أن ابن ملكا كان من حذاق الأطباء فى زمنه ، حتى أن الاطباء أنفسهم كانوا يأتون اليه فى بيته وفى مجلسه العلمى فيسألونه عن بعض الأمراض ، وكيف يتعاملون معها ، فيجيب عنها بخطه ، وينقلون ذلك عنه فى أوراق ، حتى أجمع من تلك الأسئلة والأجوبة كتابا ظلوا يقرؤونه ويتناقلونه فيما بينهم(٤٧) .

مؤلفاته :

يقول ابن أبى اصبيعة ان تصانيفه ودراساته كانت فى نهاية الجودة والاتقان(٤٨) ، وتنقسم كتبه الى قسمين(٤٩) :

الأول : يشتمل على مصنفاته فى الحكمة وعلوم الطبيعة وهى : -

- المعتبر فى الحكمة ، وهو من أهم كتبه وأجلها ، بل أنه أهم ما كتب فى الحكمة فى زمانه .
- مقاله فى سبب ظهور الكواكب ليلا واختفائها نهارا .
- رسالة فى العقل وماهيته .
- كتاب النفس(٥٠) .

الثانى : كتبه الطبية ، وليس له فى هذا الباب من المصنفات التى تصل الى درجة كتبه الحكمية . ويبدو أنه اشتهر بالطب العملى والممارسة العملية دون التأليفية . ومن كتبه الطبية :

(٤٧) القفطى ، اخبار العلماء ، ص ٢٢٦ .

(٤٨) عيون الانباء ، ص ٣٧٤ .

(٤٩) نفسه ، ص ٣٧٦ : البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، ص ١٥٢ .

(٥٠) ذكره البيهقى ولا نعلم هل المقصود به مقالته فى النفس الموجودة بالجزء الثانى من كتابه المعتبر ، أم أنه كتاب آخر ، والارجح أن الكتاب هو نفس المقالة اذ ربما دونها النساخ لأهميتها فى كتاب مفصل عن المعتبر ليسهل تداولها ، وليستفيد منها التلامذة .

- اختصاره للتشريح .
- كتاب الاقرباذين (٥١) .
- مقالة فى الدواء الذى ألفه المسمى برشعثا ؛ استقصى فيه صفته وشرح أدويته .
- مقاله فى معجون ألفه وسماه أمين الأرواح .

على أن الذى يهمنى من كتبه هذه مما له علاقة بهذه الدراسة ، هو كتابه « المعتبر فى الحكمة » وهو من أجل الكتب التى ظهرت فى عصره فضلا عن العصور الاسلامية اللاحقة الى أيام ابن تيمية ، الذى أكمل ما بدأه ابن ملكا فى تحقيق ودراسة ماله علاقة بموضوع الالهيات . ذلك أن ابن تيمية تناول هذا الموضوع بكل اقتدار ورد فيه على أقوال الفلاسفة القدماء والمحدثين بمنطق العقل والنقل .

ولا نريد أن نتعرض لدراسات وابحاث أبى عبد الله محمد بن عمر ابن الحسين القرشى التيمى المعروف بفخر الدين الرازى (٥٢) والذى عاش فى الفترة الواقعة بين ابن ملكا وابن تيمية . ذلك أنه يلاحظ أن ابن تيمية اختلف معه فى كثير من القضايا ، ورد عليه فى مسائل كثيرة مما أورده فى كتابه « المباحث المشرفية » اذ أن توجهه فى كتابه هو توجه الفلاسفة المشائيين (٥٣) على الرغم من مخالفته لهم فى كثير من قضايا

(٥١) الأقرباذين . وهى الكتب التى تبحث فى علم الأدوية المفردة والمركبة . ابن سينا : القانون ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٥٢) كان من الأئمة فى أصول الشافعية والعقائد الأشعرية ، متفننا سائر العلوم الشرعية والحكمية ، قوى النظر فى صناعة الطب ومباحثها عارفا بالأدب كان يسمى فى هراه بشيخ الاسلام ، ولقبه ابن أبى اصبيعة بسيد الحكماء المحدثين ، له عشرات المصنفات ، أشهرها فى الحكمة كتابه « المباحث المشرفية » . ابن أبى اصبيعة : عيون الانباء ، ص ٤٦٢ .

(٥٣) المشاؤون : فى اليونانية معناها ما ينجز أو الانجاز أثناء السير ، وهم اتباع فلسفة أرسطو ، وقد وجدت هذه المدرسة المشائية لما يقرب من ألف عام حتى عام ٥٢٩م ، وكانت مركزا عظيما للعلم القديم : روزنتال : الموسوعة الفلسفية ، ص ٤٧٨ .

الالهيات ، وعليه فان اللقاء الفكرى فى هذه القضايا بين ابن تيمية وبين ابن ملكا أكثر اتفاقا وأشمل منه فيما بين ابن تيمية والفخر الرازى . ذلك أن ابن ملكا على الرغم من تقديره لأرسطو الا أنه لم يكن يقول بقوله ولا يأخذ برأيه ولا برأى أحد من المشائين ، انما كان يقول بفكره ويبع عقله فى دراسة المسائل المتعلقة فى الالهيات بين الاسلام والفلسفة .

يقول القفطى عن ابن ملكا وكتابه المعتبر : « وقف على كتب المتقدمين والمتأخرين فى هذا الشأن واعتبرها واختبرها ، فلما صفت لديه وانتهى أمرها اليه صنف فيها كتابا سماه المعتبر ، أخلاه من النوع الرياضى ، وأتى فيه بالمنطق والطبيعى والالهى ، فجاءت عبارته فصيحة ، ومقاصده فى ذلك الطريق صحيحة ، وهو أحسن كتاب صنف فى هذا الشأن فى هذا الزمان » (٥٤) .

ويقول ابن ملكا فى الدافع الذى دعاه الى تأليف كتابه هذا (٥٥) ، انه كان من عادة القدماء قبل أرسطو فى العلوم أنهم يتناقلونها بالرواية والشفاهة ، وكانوا لأجل الحفاظ على قيمة العلم لا يعطونه الا ذوى الفطنة من المتعلمين ، فكان علمهم لا يصل الا الى أهله ممن كانوا يتوسمون فيه الاستعداد والقدرة على حمله وأدائه لمن بعده .

ثم أنه فى فترات لاحقة قل عدد العلماء وقصرت الهمم وتداعت العلوم لقلة المتعلمين ، فأخذ العلماء فى تدوين الكتب الحافظة لهذه العلوم ، واستخدموا فيها الغامض من العبارات والخفى من الاشارات حتى لا يفهمها الا أهل الفطنة . واضطر مع ذلك من جاء بعدهم من العلماء والمتعلمين الى اختصار وشرح هذه الكتب لتسهيل على المتعلمين ، فخلطوا أفكارهم ونزعاتهم المختلفة بتلك الكتب « حتى كثرت الكتب والتصانيف وخالط أهلها فيها كثير من غير أهلها ، واختلط فيها كلام الفضلاء المجودين بكلام الجهال المقصرين » (٥٦) .

(٥٤) اخبار العلماء ، ص ٢٢٤ .

(٥٥) المعتبر ، ج ١ ، ص ٢ - ٣ .

(٥٦) المعتبر ، ج ١ ، ص ٣ .

ويقول أنه نظر فيما تركه الفلاسفة القدماء واللاحقين فيما يتعلق بالعلوم الحكمية ، وصرف في ذلك وقتا وجهدا عظيما بسبب استغلاق كتب القدماء ، وصعوبة فهمها ، واختصارها ، واختلال عبارتها ، بسبب نقلها بين اللغات . أما كتب اللاحقين منهم فانه كان يعوزها وضوح الشروحات ، والدليل والحجة ، فكان يشوبها الغموض والاعراض : « فيتعذر الفهم لأجل العبارة والشرح ، والعلم لأجل الدليل والبيئة ، فكنت أجتهد بالفكر والنظر في تحصيل المعانى وفهمها والعلوم وتحقيقها » (٥٧) .

ويؤكد ابن ملكا أن أغلب دراساته وأبحاثه في كتابه هذا انما هي من تحرير فكره ، التى وافق فى بعضها ما توصل اليه القدماء ، والبعض الآخر كان مخالفا لآرائهم . وقد توصل الى ذلك عن طريق التفكير والتأمل فى صحيفة الوجود (٥٨) ، وكان يسجل ملاحظاته وأفكاره فى أوراق مبعثرة « فلما كثرت تلك الأوراق وتحصل فيها من العلوم ما لا يسهل تضييعه ، مع تكرار الالتماس ممن تتعين اجابتهم ، الى تصنيف هذا الكتاب فى العلوم الحكمية الوجودية الطبيعية والالهية . وسميته بالكتاب المعتبر لأننى ضمنته ما عرفته واعتبرته وحقت النظر فيه وتممته ؛ لا ما نقلته عن غير فهم أو فهمته وقبلته من غير نظر واعتبار . ولم أوافق على ما اعتمدت عليه فيه من الآراء والمذاهب كبيرا لكبره ولا خالفت صغيرا لصغره ، بل كان الحق من ذلك هو الغرض ، والموافقة والمخالفة فيه بالعرض » (٥٩) .

وعلى الرغم من أنه انتهج فى تأليف كتابه هذا منهج أرسطو فى الترتيب والتنظيم ، الا أن دراسته لكل مسألة كانت تتم باستعراض آراء المعتبرين من أهل الحكمة . ثم يدلى هو بوجهة نظره فى كل مسألة يخالف فيها القدماء مع تدعيمها بالبيانات والحجج والبراهين . ويؤكد انه وضع جميع تلك المسائل وحكمها بالعقل « ثم تعقبته بالاعتبار واعتمدت من

(٥٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٣ .

(٥٨) نفسه ، ج ١ ، ص ٢ .

(٥٩) نفسه ، ج ١ ، ص ٤ .

جملتها على ما رجحت به فى المعقول لغة الميزان واقتصر وثبت بالدليل والبرهان ، ورفضت ما عداه كائنا ما كان وممن كان» (٦٠) .

ويشتمل كتابه هذا على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ويشتمل على العلوم المنطقية ، ويقع تحته ثمان مقالات ، كل مقالة تحتوى على عدة فصول ، ماعدا المقالات الثلاث الأخيرة ففي السادسة فصل ، والسابعة فصلان ، والثامنة فصل واحد .

وتحدث فى مقالاته هذه عن المعرفة ، والعلوم ، والقياس ، والبرهان والجدل .

القسم الثانى : وقد افردته للحديث عن العلوم الطبيعية وجعله فى ستة أجزاء ، تحدث فيها عن علم الحركة ، وصور الأجسام الطبيعية وخواصها وقواها ، والتغير والاستحالة والكون والفساد ، والاثار العلوية ، والنبات والحيوان ، وعلم النفس .

القسم الثالث : وكان حديثه فيه عن إلهيات ، وما وراء الطبيعة ، وجعل هذا القسم فى مقالتين .

وبوجه عام فإن لدراسات ابن ملكا فى كتابه هذا من الأهمية والقوة والنضوج ما يمكن القول معه بأنه أفضل الكتب التى عرفت فى تاريخ الاسلام فى بابيه . ولقد شهد له بذلك شيخ الاسلام ابن تيمية ، وأكثر من النقولات عنه . واستشهد بأرائه فى الرد على أفكار القدماء والمحدثين من الفلاسفة فيما يتعلق بالإلهيات . وأشار فى كتبه الى ردود ابن ملكا عليهم ووافقهم فى ذلك ، على الرغم من أن هناك مسائل خالفه فيها ، وناقش مواضع الخلاف فى ذلك .

والمجال لا يسمح بإيراد ذلك كله ولكن نذكر على سبيل المثال ، علاوة على ما سبق ذكره :

* مناقشته لمسألة قدم العالم ومخالفته لابن ملكا فى جميع تلك المسائل (٦١) .

* ثناءه على ابن ملكا لقوله باثبات الصفات ، اذ يقول « واما أساطين الفلاسفة فهم مثبتون للصفات ، كما قد نقلنا أقوالهم فى غير هذا الموضع ، وكذلك كثير من أئمتهم المتأخرين كأبى البركات وأمثاله » (٦٢) .

* وفى موضع آخر يثنى عليه فى رده على قدماء الفلاسفة وتابعيهم ممن هم على طريق المشائين ولم يقلدهم فيما ذهبوا اليه فقال : « وأما أبو البركات ونحوه ... فأثبت علم الرب بالجزئيات ورد على سلفه جيدا ، وكذلك أثبت صفات الرب وأفعاله وبين ما بينه من خطأ سلفه ، ورأى فساد قولهم فى أسباب الحوادث ، فعدل عن ذلك الى أن اثبت للرب ما يقوم به الارادات الموجبة للحوادث (٦٣) .

* ذكر اختلاف الفلاسفة فى مسألة نفى المعانى عن الرب سبحانه ، وعدم مسايرة ابن ملكا لأرائهم فى ذلك ، ولذلك سماه بالحاذق اذ يقول : « ولهذا كان الحاذق من هؤلاء كأبى الحسن البصرى ، وأبى البركات صاحب المعتبر وغيرهما ، قد خالفوهم فى ذلك ، وبينوا أنه ليس لهم دليل عقلى بنفى ذلك ، وأن الأدلة العقلية والشرعية توجب ثبوت ذلك » (٦٤) .

* مخالفة ابن ملكا لأرسطو واتباعه فى مسألة اثبات قيام الافعال الاختيارية لله تعالى ، فقال ان ابن ملكا يثبت ذلك (٦٥) .

(٦١) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ، ج ١ ، ص ١٧٨ - ١٩٤ - ١٩٥ - ٢١٩ -

٢٢٨ ، درء تعارض العقل والنقل ، ج ٢ ص ١٦٤ - ١٧٢ .

(٦٢) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، الرد على المنطقيين ، ص ٢٣٢ - ٣١٤ - ٣٧٠ .

(٦٣) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٦٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٤٧ .

(٦٥) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(مجلة المؤرخ العربى)

* اما فى مسألة علم الله تعالى وما ذكره الفلاسفة فى ذلك مثل أرسطو وابن رشد وابن سينا ، فقد اعتمد ابن تيمية دراسة ابن ملكا لأرائهم وردوده عليهم فى هذه المسألة وتفريعاتها المختلفة ، وأيده فى أغلب ما ذهب اليه (٦٦) .



القسم الثانى

نظرة ابن ملكا الى المعارف والعلوم

أفرد ابن ملكا الجزء الأول من كتابه (المعتبر فى الحكمة) للحديث عن العلوم المنطقية ، وجعله فى خمس مقالات بين فيها وجهة نظره ومنهجه فى البحث العلمى . وأعتمد فى ذلك على قناعاته الشخصية فى فلسفة المعارف والعلوم ، والعلم والتعليم ، مستشهدا بأراء بعض الفلاسفة القدماء ، وبخاصة أرسطوطاليس الذى يميل كثيرا الى آرائه فيما يخص هذا الجزء (٦٧) .

واتسمت مباحثه فى كتابه عامة - وفى هذا الجزء بشكل واضح - بالنضج واتساع المعرفة ، والقدرة على التحليل والربط الواضح الموثق بين جميع مقالاته ودراساته ، اذ كتب فى المعرفة الانسانية ، والعلوم من باب

(٦٦) درء تعارض العقل والنقل ، ح ٩ ، صص ٣٩٧ - ٤٣٤ ، ح ١٠ ، صص ٣ - ١١ ، صص ١٠١ - ١٠٤ .

(٦٧) أرسطوطاليس : ابن بيقوماخس ، من أولاد اسقليبيادوس أبو الطب عند اليونانيين ، من أعمدة الحكمة السبعة ، كان متفنا فى العلوم الطبية ، وعلوم الحكمة فى الاخلاق والسياسة والطبيعة . تتلمذ على أفلاطون عشرين سنة ، حتى أخلفه مكانه فى دار التعليم ، وبعد وفاته خرج أرسطو الى لوفيون واتخذ بها دارا لتعليم الحكمة المنسوبة الى المشائين ، وقد صنف ما يزيد على مئة كتاب . ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٠٧ ، المبشر بن فائق : مختار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ١٧٨ ، القفطى : اخبار العلماء ، ص ٢١ ، ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء ، ص ٨٦ .

واسع كان فيه أكثر دقة ووضوحا وادراكا لما يكتبه من آخرين تناولوا نفس هذه المواضيع بالدراسة .

وفى هذه الدراسة الموجزة لم نأت على مباحث ابن ملكا جميعها لندرسها دراسة كاملة مستوفاة من كافة جوانبها، وبكل دقائقها وتفصيلها، وإنما اقتصرنا على ما له علاقة بأرائه فى تطور المعرفة الانسانية ، وتاريخ العلوم ، والكيفية التى يمكن بواسطتها الحصول على المعارف والعلوم . وبعبارة أخرى فإن حديثنا يقتصر على علاج القضايا التالية :

- أولا : مذهبه فى المعرفة .
- ثانيا : مذهبه فى العلوم وتحصيلها .
- ثالثا : نظرتة الى العلوم وتصنيفها .

أولا : مذهبه فى المعرفة :

فى تعرضه لهذه الناحية عامة نجد ابن ملكا لا يتوقف عند آراء القدماء ، بل يذكر فحوى دراساتهم وآرائهم ، ثم يعقب على كل قضية ناقشوها برأيه الخاص فيما يوافقهم فيه ، أو ما يخالفهم ، مدعما رأيه بالأدلة والحجج والبراهين فيما يرمى اليه لايضاح وجهات نظره التى يطرحها فى كل مسألة (٦٨) .

ذلك أنه يبدأ حديثه عن المعارف والعلوم وكيف تكونت بشكل عام ، وماهى علاقتها بالمنطق ، ويوضح فى ذلك آراء قدامى المفكرين الذين نقلوا فكرهم الى تلامذتهم وفق تتابع الأجيال، سماعا ومشاهدة لا تدويننا . ثم يعرض موقف أولئك التلامذة من الآراء والأفكار التى استقوها من أساتذتهم . ذلك أن عدم الفهم واللبس وسوء الظن كانت فى رأيه هى السمة العامة لكافة المتعلمين بسبب عدم اتفاق القدامى واختلاف آرائهم وتباين مشاربهم ومذاهبهم فى النظر الى المنطق وعلاقته بالمعارف والعلوم (٦٩) .

(٦٨) ابن ملكا : المعتبر ، ص ٧ .

(٦٩) نفسه ، ج ١ ، ص ٥ .

وكان أن أخذ أصحاب الهمم من الباحثين اللاحقين يتشككون فى آراء السابقين ، فقالوا مادام الاختلاف قد سرى بين كبار أساتذتهم فان القضية لن تقف عند حد معين يمكن الوصول معه الى حقيقة ثابتة غير قابلة للتغيير مع مرور الزمن . لذلك بدأوا بأنفسهم فى دراسة هذه القضية والبحث فيها « فدعا هذا الفكر وأمثاله من أهل النظر من العلماء والمتعلمين الى طلب ما لأجله يصل الى علم الحق ومعرفته ، من الطالبين من يصل ، ويضل عنه من يضل ، ويقصر من يقصر ، ويصيب فيه من يصيب ، ويخطئ فيه من يخطئ ، فقالوا فى ذلك أقوالا متفرقة (٧٠) .

فعندما ظهر أرسطو كانت الأقوال فى المعارف والعلوم قد هذبتهما الأنظار ، وأتمتها الافكار فألف فى ذلك كله كتابا أسماه علم المنطق (٧١) تناول فيه فنون الأنحاء التعليمية الفكرية النظرية وبين فيه الأسباب الكامنة وراء اختلاف المفكرين فى مذاهبهم وعلومهم حتى وصل منهم الى الصواب من وصل وأخطأ من أخطأ (٧٢) .

(٧٠) ابن ملكا : المعتبر ، ج ١ ، ص ٥ ، ويلاحظ أنه منذ بداية القرن التاسع عشر ظهرت مئات من الدراسات التى تناولت موضوع تطور العلم والمعرفة فى التاريخ. وعقدت حول ذلك المؤتمرات وتضافرت جهود مؤرخى العلم وعلماء الطبيعة لصياغة اتجاه جديد لمنطق التطور العلمى ، تناولت حركة العلم ، وتحليل تطور بنيته ، ومناهج تحصيل المعارف ، وتعددت بذلك وتعقدت الدراسات بتعدد وتطور المعرفة ، وظهر اتجاه جديد لدراسة مظاهر اطراد التقدم العلمى : وعرف هذا الاتجاه باسم (علم العلم) Scienology or Science of Science

حتى ان دراسة توماس كون Thomas Khun والتى تعد أهم الدراسات الحديثة فى هذا الميدان تعرضت للنقد من قبل المفكرين لأنه اعتبر دراسات القدماء فى هذا الباب على قدم المساواة مع دراسات علماء العصور الوسطى وبداية الحديثة . وهذا يعنى ان هناك احتمالا لعودة نظرية قديمة لتحل محل أخرى جديدة . كون : ابنية الثورات العلمية ، ص ٩ - ١٠ ، ص ١٦ ، كما وانظر ، ص ٣٠ - ٣١ . (٧١) وهى مجموعة مقالات فى المنطق ، ذكرها ابن النديم بقوله « ترتيب كتبه فى المنطقيات وهى تسعة كتب ، نقلت جميعها الى اللغة العربية وكان لحنين فى ذلك النصيب الأوفر ، كما شرحت ، واختصرت من قبل الكثير من المفكرين فى الدولة الاسلامية » . الفهرست ، ص ٢٠٨ - ٢١٠ ، كذلك انظر ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء ، ص ١٠٤ .

(٧٢) ابن ملكا : المعتبر ، ج ١ ، ص ٥ .

ثم تعرض ابن ملكا بعد ذلك لموقف العلماء الذين خدموا مختلف علوم الحكمة ، وذكر اختلافهم فى علاقة علم انطق بمسألة تحقيق المعارف والعلوم ، وجعلهم على قسمين :

القسم الأول يقول : أن موضوع المنطق هو : « ما به يتوصل الى معرفة المجهولات والعلم بها ، وهو المعانى السابقة الى أذهان الناس قبل نظرهم فيما يرومون تحصيله من المعارف والعلوم الاكتسابية ، فانه يستعملها فى ذلك بتصرفه فيها تصرفا يكسبها صورا تأليفية » (٧٣) .

أما مطالب هذا العلم من وجهة نظرهم فهى « أنه كيف يتوصل الانسان بالمعرفة والعلم السابقين الى تحصيل المعرفة والعلم المكتسبين بالطلب وعلى أى وجه » (٧٤) .

وأما غاية هذا العلم فى نظر هؤلاء المفكرين فهى « افادة ما يتوصل به الانسان الى اكتساب المعارف والعلوم المجهولة ، ومعرفة الحق فيها من الباطل والصدق مما يقال فيها من الكذب » (٧٩) .

هذا عن القسم الأول . وفى القسم الثانى قالوا : ان موضوع المنطق هو الألفاظ من حيث دلالتها على المعانى ، وهذا رأى خطاه ابن ملكا وقال : ان ذلك هو مما له علاقة بعلم اللغات (٧٦) .

وغرض المنطق ومنفعته على هذا رأى يدل على أن استخدام الألفاظ هنا بالعرض فقط أى للمفاوضة فى العلوم ، فالتصرف هنا يكون بالذهن فى تعرف المجهولات من المعارف والعلوم ، بناء على المعارف والمجهولات السابقة ، من غير حاجة الى الألفاظ (٧٧) .

(٧٣) ابن ملكا : الاعتبار ، ج ١ ، ص ٦ .

(٧٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٦ .

(٧٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٦ .

(٧٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٦ .

(٧٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٦ .

ويحاول ابن ملكا الجمع بين آراء القسمين الأول والثانى ويبدى وجهة نظره فيقول أنه قد تحصل مما قيل أن (٧٨) :

متفعة علم المنطق هى : هداية الأذهان الى حقائق المعارف والعلوم وردها عن الزلل والزيغ فيها .

وغرضه هو : معرفة ما به تكون الهداية والرد كيف يكونان .

وموضوعه هو : ما به يتوصل الى الهداية والرد المذكورين من المعارف والعلوم السابقة الى الأذهان من حيث يتوصل بها الى ذلك .

اما مطلوباته فهى : القوانين التى تستفاد من المعارف والعلوم المكتسبة من جهة المعارف والعلوم السابقة الى الأذهان .

وقبل ان نتعرف على وجهة نظره فى دراسته للمنطق ، ينبغى أن نوضح أسبقية ابن ملكا على غاليليو (٨٩) وديكارت فى الكشف عن عمل هذا العلم وغرضه ودلالته فى دراسة العلوم ، اذ يقول : « وأما العلوم فقد عرفت أنها تنقسم الى ثلاثة أصناف ، علم الموجودات ، وعلم المعلومات ، وعلم العلم . فعلم الموجودات قيل فيه فى الطبيعيات ، وعلم المعلومات قيل فيه فى علم النفس ، وعلم العلم قيل فيه فى الفن المنطقى » (٨٠) ومن هذا يبدو أنه أطلق على المنطق علم العلم .

ويؤكد أحد الباحثين المحدثين أن القرن السابع عشر الميلادى هو البداية الفعلية التى عرف فيها المنطق بعلم العلوم على يد غاليليو الذى اعتمد فى دراسته للميكانيكا على الرياضيات ، لتصبح الموافقة تامة بين العلم الرياضى وظواهر الطبيعة (٨١) « وهكذا قام منطق العلوم على

(٧٨) نفسه ، ح ١ ، ص ٧ .

(٧٩) غاليليو : عالم طبيعى فلكى وفيلسوف ، له آراء فى الميكانيكا وعلم الحركة ، وكان يؤمن بالملاحظة والتجربة فى العلوم . روزنتال : الموسوعة الفلسفية ، ص ٣١٧ .

(٨٠) ابن ملكا : الاعتبار ، ح ٣ ، ص ٢١٤ .

(٨١) وهذا هو ما فعله ابن ملكا فى دراسته لعلم الحركة ، اذ اتبع المنهج الرياضى فى ذلك انظر الجزء الثانى من كتابه الاعتبار .

• المنطق الأرسطى « (٨٢) •

ويؤكد هذا الباحث بعد ذلك أن ديكارت (ت. ١٦٥٠م) (٨٣) هو المؤسس الحقيقي لمدرسة رفض منطق أرسطو كمتعار للعلم ، وكذلك من جاء بعده من الفلاسفة (٨٤) •

لقد كان ابن ملكا من فلاسفة وحكماء العصور الوسطى ، وكان يرى أن المنطق هو العلم الذى يدرس العلوم ، وهذا هو ما جاء به بنعبد العالى فى حق منطق غاليليو وديكارت اذ يقول : « موضوع هذا المنطق الجديد هو العلم ، انه علم العلوم ، أى العلم الذى يتخذ موضوعا له العلوم ، ليسجل الطرق التى يتبعها العلماء فى ميادينهم المختلفة فينتقد تلك الطرق » (٨٥) •

وكما ذكرنا سابقا فان ابن ملكا فى كتابه هذا لا يقف عند حدود أقوال القدماء ومن جاء بعدهم حتى حكماء الدولة الاسلامية ، بل كانت له رؤية وفلسفة خاصة فى كثير مما قالوه ، بحكم التطور الذى حظيت به العلوم فى تاريخ الدولة الاسلامية • وهو يؤكد أن نفوس العلماء تختلف فى الطبائع والغرائز والتوجهات الفكرية ، وأن ما يدلى به من رأى حول موضوع المعارف والعلوم وعلاقتها بالمنطق انما يعبر عن وجهة نظره التى يؤمن بها فى ظل التوجه الفكرى والتطور المعرفى الذى وصل الى ما وصل اليه فى زمنه ؛ فيقول :

ان العلوم منها أولية ومنها تعليمية (٨٦) :

(٨٢) بنعبد العالى : الأبيستمولوجيا ، ص ٢٩ •

(٨٣) ديكارت : فيلسوف فرنسى ، من رواد الفلسفة فى العصر الحديث ، وكان أيضا رياضيا متمكنا واستهدف ديكارت فى تفكيره ثلاثة أمور هى : ايجاد علم يقينى ، تطبيق هذا العلم بشكل عملى ، ايجاد وسيلة لحل المشكلة القائمة بين الدين المسيحى والعلوم ، له مؤلفات كثيرة • نفسه ، ص ٤٨٨ - ٤٩٩ •

(٨٤) بنعبد العالى : الأبيستمولوجيا ، ص ٢٩ •

(٨٥) نفسه ، ص ٣٠ •

(٨٦) ابن ملكا : الاعتبار ، ص ٧ •

فالأولية هي : الحكمة الغريزية الموجودة بالفطرة في بعض النفوس .
والتعليمية هي : القوانين الصادرة عن تلك الفطرة ، يتعلمها فاقد
الحكمة الغريزية من واجدها .

وجعل واجدى الحكمة على قسمين :

فهناك واجد على فطرته وغريزته .

وواجد فسدت فطرته بما طرأ عليها من آراء وتعاليم أخرى .
وكذلك فاقدو الحكمة جعلهم قسمين قابل للحكمة وغير قابل ، فالقابل
لها هو من ليست لديه حكمة غريزية بالفطرة ، وهذا النوع بامكانه
الاهتداء اليها بالتعلم .

وأما غير القابل للحكمة فهو من انعدمت لديه الحكمة الغريزية
بالفطرة وبالتعلم بالطبع .

أما وجهة نظره في رأى من قال ان موضوع المنطق هو الألفاظ من
حيث دلالتها على المعانى ، وبالتالي في المعارف والعلوم ، فيقول : ان
العلم والتعليم يحتاجان الى الألفاظ ضرورة ، ولكن بالعرض من جهة
مفاوضة العلم للمتعلم عموما ، وذلك معروف فيما تلقنه الناس وتعلموه
من اللغات ، على انه لكل علم ألفاظ اختصت وعرفت به دون غيره من
العلوم الأخرى (٨٧) .

وتحدث ابن ملكا بعد ذلك في معرض حديثه عن الألفاظ ، مما له
علاقة بعلم المنطق الى نسبة تلك الألفاظ الى معانيها ، ومفهوماتها ،
واختلاف أوضاعها ودلالاتها ، وبين أيضا دلالتها فيما يخص موجودات
الأعيان - ما يشاهده الانسان - ومتصورات الأذهان في تحقيق المعارف
والعلوم (٨٨) .

(٨٧) ابن ملكا : الاعتبار ، ج١ ، ص ٧ - ٨ .

(٨٨) نفسه ، ج١ ، ص ٨ - ١٦ .

وتتبع بعد ذلك ما قاله الحكماء فى الأوصاف الذاتية والعرضية وكيفياتها المتنوعة ، ودلالاتها فى تحديد المعارف . وهنا ناقش وجهة نظر أحد الحكماء وما ارتآه فى ذلك حيث أتى فى دراسته هذه بالفكرة تلو الأخرى ، ورد عليها بوجهة نظره المدعمة بالبراهين (٨٩) .

ويقول أن معرفة الأشياء انما تتحقق بمعرفة صفاتها الذاتية المميزة والمعرفة لها بالتحديد ، دون ان يكون للأوصاف العرضية أهمية كبرى فى تحديد ذلك الشيء المعروف (٩٠) . ويؤكد فى ذلك أن « كل سائل عن شيء فهو يعرفه من جهة بها اهتدى الى طلبه والسؤال عنه ، ويجعله من جهات لأجلها افتقر الى الطلب والسؤال ، فكل سائل انما يوفى جوابه من المجيب اذا أجابه عما جهل لا عما علم ، وتترتب فى ذلك المعارف فى تمامها ونقصانها وعمومها وخصوصها » (٩١) .

ثم تحدث المؤلف عن التصور والفهم والمعرفة والعلم والفرق بينها فقال :

ان الصورة فى الأذهان مما يشاهده الانسان يسمى تصورا ، وأن دلالة الألفاظ يسمى فهما ، وأن الموافقة بعد التمثيل والادراك يسمى معرفة (٩٢) .

ويفرق بين العلم والمعرفة ، فيقول أن ما : « صدق فى الأذهان يسمى علما ، ولأن المعرفة بالمفردات والعلم بالمؤلفات وكل مؤلف فيه أفراد هو مؤلف منها ، ففى كل علم معرفة هى تصور مفرداته ، ولأنه ليس فى كل مفردات تأليف بل قد تلحظ المفردات من غير تأليف ، فلذلك لا ينعكس الأمر ولا يكون مع كل معرفة علم . فالمعرفة قبل العلم وأعم منه وقوعا ، اذ يكون مع كل علم معرفة وليس مع كل معرفة علم » (٩٣) .

(٨٩) نفسه ، ج ١ ، صص ٢٢ - ٢٩ .

(٩٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٩١) ابن ملكا : الاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٩٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٩٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ .

ويقول فى ذلك أيضا أن المعرفة محصول الأمور الجزئية ومعانيها، والعلم محصول المعانى الكلية ، ويؤكد على أهمية وجهة نظره هذه فى الفرق بين المعرفة والعلم قائلا : «فلنستعمل ذلك ونفهمه بحسب ما قررناه، وإن كان لغيرنا أن يستعمله ويفهمه على ما يريد» (٩٤) .

ثم انتقل بعد ذلك الى تحديد أنواع المعرفة فى كمالها فيقول : ان الانسان قد يتحصل على معرفة ناقصة ، أو تامة ، أو خاصة ، أو عامة (٩٥) .

فالمعرفة الناقصة هى : معرفة الشئ ببعض أوصافه أو معانيه الذاتية .
والمعرفة التامة هى : معرفة الشئ بسائر أوصافه ومعانيه الذاتية .
والمعرفة الخاصة هى : كالمعرفة التامة من جهة أن المعروف بها يعرف بما يتميز به عن غيره .

وأما المعرفة العامة فهى انقص المعارف لأن المعرفة تتم بأعم المعانى .

وتحدث ابن ملكا - وفى فصول متعددة - عن الطرق والكيفيات المتعددة والمختلفة التى يمكن عن طريقها الحصول على المعارف والعلوم، فقال بادىء ذى بدء ان كل ما يستفيدة الانسان من المعارف والعلوم بوجه عام اما أن يكون تحصيله من غير طلب وبغير قصد ، واما أن يكون تحصيله بقصد ونيل بعد طلب فيستنبطه ويدركه . ولكن مع ذلك فان « كل مجهول يروم الانسان معرفته ويطلب العلم به ، فلا بد أن يكون طلبه له بعد معرفة تقدمت الطلب ، ... فكل ما يطلبه الانسان فهو يعرفه من جهة بها يهتدى الى طلبه ، ويجعله من جهة لأجلها يحتاج الى طلبه» (٩٦) .

ونجده يعارض قدماء الحكماء فى تسميتهم للمستفاد من المعارف

(٩٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٩٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٧ .

(٩٦) ابن ملكا : الاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٠ .

والعلوم بروية وطلب تعليمًا وتعلما ، وأن ما ينتج عن ذلك يسمى علما .
ذلك أنهم ربطوا ذلك بما سموه بالأسباب المؤدية الى السانح والمطلوب من
المعارف والعلوم ، فيختلف ابن ملكا معهم ويقول : « لكن ليس الأسباب
كلها علوما ومعارف » (٩٧) .

وتناول هنا بالتفصيل أسباب طلب العلوم والمعارف ، فيؤكد « أن
المستفاد من المعارف والعلوم بقصد وطلب يكون طلبه من جملة أسباب
حصوله واستفادته لا محاله ، لأنه يحصل ويستفاد اذا طلب » (٩٨) ،
وبناء على كلامه هذا فهو يجزم أن المعارف والعلوم المتحصلة والسابقة
للمعارف والعلوم المجهولة هي أسباب لطلبها ؛ والطلب من أسباب
أصابتها . أما كيف يكون المجهول المطلوب معروفا ومعلوما ، فيعلل ذلك
ويجعله تبعا لوجوه المعرفة ، اذ أن منها « كلية وجزئية ذاتية ، وعرضية
عامية ناقصة وتامة خاصة جنسية ونوعية » (٩٩) ، فالمطلوب يعرف من
وجوه منها ويؤدي طلبها الى معرفة المجهول منها .

وأما عن الطرق والقوانين التي يمكن بواسطتها الحصول على
المجهولات بالطلب فيقول : أنها كثيرة ومتعددة وذلك بحسب كثرة جهات
المطلوب في المعرفة والجهل ، ومن ضمن هذه الطرق (١٠٠) :

- ١ - ما يكون باحضار المطلوب لمعرفته بالحس ، أو الصوت ، أو
الرائحة ، أو الطعم .
- ٢ - ومنها ما يكون بتمثيله ، كمن يسأل عن لون فيقال هو مثل هذا .
- ٣ - ومنها ما يكون بتنبيه النفس وتذكيرها كمن يسأل عن الغضب فيقال
له هو ما تشعر به من حالك وقت كذا .
- ٤ - ومنها ما يمكن معرفته بالاستدلال والتفكير .

(٩٧) نفسه ، ح ١ ، ص ٤٠

(٩٨) نفسه ، ح ١ ، ص ٤١ .

(٩٩) نفسه ، ح ١ ، ص ٤١ .

(١٠٠) ابن ملكا : المعتبر ، ح ١ ، ص ٤٧ .

٥ - ومنها ما يمكن معرفته عن طريق الخبر . وهذا النوع من المعارف والذي يتم عن طريق الألفاظ المقولة لا يؤدي الى معرفة المجهولات الا بالعرض .

٦ - ومن المعارف ما يمكن الحصول عليه بتصفية الذهن ، وصرفه عن جميع ماذكر من وجود المعرفة ، حتى يتوصل الى معرفة المطلوب بطريق العقل والتفكير .

والمعرفة فى كيفية الحصول عليها تنقسم عند ابن ملكا الى اكتسابية وأولية .

فالمعرفة الاكتسابية هى ما اجتمع فيها الحد الحقيقى (١٠١) ، والحد الرسمى (١٠٢) . فالحد الحقيقى يفيد معرفة حقيقة ذاتية ، والرسم يفيد معرفة عرضية ، ومحصول الاثنين يسمى بالمعرفة الاكتسابية (١٠٣) .

أما المعرفة الأولية فهى ما عدا ذلك من المعارف كمحصول المشاهدات الحسية والادراكات الذهنية والاطلاعات العقلية (١٠٤) .

ويقول أيضا ان من المعارف والعلوم مالا يكتسب ولا يكتسب به غيره ، كمعرفة البسائط التى هى مفردات الحقائق ، وكذلك ان من العلوم ما يمكن الوصول الى حقائقها بالفعل وبدون حجة ، فبذلك لا يكون هذا العلم المتحصل أوليا ولا اكتسابيا (١٠٥) .

ولذلك فان المعارف والعلوم عند ابن ملكا تستفاد كلها وتستحصل

(١٠١) الحد الحقيقى : وهو عبار عما يميز الشئ عن غيره بذاتيته . فاذا ذكر مع ذلك جميع ذاتياته العامة والخاصة فهو تام ، والا فيعتبر ناقصا . الامدى : المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، ص ٧٤ .

(١٠٢) الحد الرسمى : وهو عبارة عما يميز الشئ عن غيره تميزا غير ذاتى ، وتماه ونقصانه بما به تمام الحد ونقصانه . نفسه ، ص ٧٤ .

(١٠٣) ابن ملكا : المعتبر ، ح ١ ، ص ٤٤ .

(١٠٤) ابن ملكا : المعتبر ، ح ١ ، ص ٤٤ .

(١٠٥) نفسه ، ح ١ ، ص ٤٥ .

بعد عدم معرفتها ، ولا يدخل ذلك لديه تحت عنوان المعارف والعلوم المكتسبة ، فما يكتسب من المعارف والعلوم إنما هو استفادة معرفة بمعرفة ، وعلم بعلم متقدم عليه تقدم السبب على المسبب ، وفي هذه الحالة لا بد من علم أولى (١٠٦) ، ولا يجب مع ذلك كله ان تهمل دلالات الألفاظ ومواقعها في معرفة وجوه اكتساب المعارف .

ولا أرى أن هناك بونا شاسعا فيما ذكره ابن ملكا هنا في تفرقة بين المعارف الأولية والمعارف العلمية ، اذ نلاحظ أنه بنى المعرفة العلمية على معرفة مكتسبة مبنية على معارف أولية ، وهذا هو نفس ما نادى به باشلار (١٠٧) فيما سماه بالأبستمولوجيا « نظرية المعرفة العلمية » التي تختلف عن نظرية المعرفة العلمية « التي تختلف عن نظرية المعرفة التقليدية بأنها تبحث في المعرفة العلمية ، وأنها تدرس كل علم من العلوم على حدة (١٠٨) . وهذا ما قاله ابن ملكا : فالمعرفة اليقينية عنده هي تلك المعرفة التي توصل اليها بمعرفة مكتسبة مبنية على معرفة أولية . أما فيما يخص تفصيل دراسة المعرفة للعلوم كلا على حدة ، فنجد ابن ملكا يقول في حديثه عن الألفاظ المستخدمة في المعارف والعلوم : « ولكل تعليم وتعلم ضرورة الى ألفاظ ، وهي موجودة فيما تلقنه الناس ونشئوا على تعلمه من اللغات وعلى طريق الخصوص في علم علم من جهة ألفاظ يختص وضعها وعرفها بذلك العلم » (١٠٩) .

ثم تحدث بعد ذلك عن الأوقايل المعرفة ودورها في تحديد المعارف المكتسبة من حيث أنها تجرى على الألفاظ ، تتداول في المفاوضات والمحاورات ، في التعلم والتعليم . وجعل هناك ثلاثة أنواع من

(١٠٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(١٠٧) باشلار : فرنسي اشتهر بدراساته في فلسفة العلم ولد سنة ١٨٨٤م ، عين أستاذا لتاريخ العلوم وفلسفتها في السوربون وله في ذلك العديد من المؤلفات . بدوى : موسوعة الفلسفة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

(١٠٨) بنعبد العالي : درس الأبستمولوجيا ، ص ٨ - ٢٩ .

(١٠٩) ابن ملكا : الاعتبار ، ج ١ ، ص ٧ - ٨ .

الألفاظ (١١٠) :

الأول منها : ما يقال لتعرف بها المعانى التى هى أسماء موضوعة لها ، وهى لا تفيد فى معرفة المجهول . وهذا التعريف عام لسائر الألفاظ من حيث هى ألفاظ .

والثانى : ألفاظ تقال لتعرف بها ألفاظ أخرى موضوعه للمعانى التى هى أيضا أسماء موضوعة لها . وهذا التعريف يعرض للألفاظ المختصة بتعليم الاصطلاحات اللغوية ، وتفسير بعضها لبعض .

والثالث من الألفاظ : ما يقال لتعرف بالمعانى التى هى أسماء موضوعة لها معانى أخرى غير التى هى موضوعة لها . وهذا النوع هو التعريف الاكتسابى المخصوص تعلمه بهذا العلم ، وهذا منه :

التعريف بالحد : وهو قول معرف بجملته لشيء واحد هو المحدود لدلالته بمفردات ألفاظه على آحاد معانيه الذاتية التى هى أجزاء مقومة لحقيقته (١١١) .

التعريف بالرسم : وهو قول بجملته لشيء واحد هو المرسوم ، لدلالته بمفردات ألفاظه على أوصاف يتميز بها عن جميع ما عداه تميزا عرضيا (١١٢) .

تعريف التمثيل : وذلك يكون بتعريف الشيء بنظائره واشباهه (١١٣) .

يقول ابن ملكا أن الأقاويل المعرفة بالحدود والرسومات وتمثيلات لها اعاقات تحول دون فهم المعارف ، وبالتالي لا يتم الوصول اليها ، الا اذا كانت تلك الأقاويل صحيحة وقامة ، أما ما يتمثل فيه الاعاقة فهو

(١١٠) نفسه ، ح ١ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(١١١) نفسه ، ح ١ ، ص ٤٧ .

(١١٢) نفسه ، ح ١ ، ص ٤٨ .

(١١٣) ابن ملكا : الاعتبار ، ح ١ ، ص ٤٨ .

الفاقد والناقص من الأقاويل المعرفة (١١٤) ، وفسر ذلك كله ثم أجمل مراده بقوله : « وبالجمله فان المعرفة تكون ذاتية أو عرضية ، واكتساب الذاتية يكون بالأقاويل المؤلفة من أسماء المعانى الذاتية ، أعنى الحدود . واكتساب العرضية يكون بالأقاويل المؤلفة من أسماء المعانى العرضية ، أعنى الرسوم والتمثيلات . ومحصول التمثيلات يرجع الى محصول الرسوم ، لأن المماثلة والمشابهة والمخالفة أوصاف عرضية ، ومنها تلتئم الأقاويل التمثيلية ، فأفضل الحدود ما اشتمل على سائر الأوصاف الذاتية بترتيب يتقدم فيه عامها على خاصها ، وأعرفها على ما ليس بأعرف ، ودل بالفاظ معروفة مألوفة عند المعرف وأختصر الألفاظ مع استيفاء المعانى » (١١٥) .

وفى حديثه عن الأقاويل المعرفة يقول : أن هناك وسائل يمكن استخدامها ؛ وهى تعين على اكتساب الأقاويل المعرفة ، ويتم ذلك بتصرفات عقلية محكومة بقوانين تعليمية ، وهى جمع وتفريق وجودى وذهنى لما يتصرف العقل فيه ويتوصل اليه به (١١٦) .

وعرف الجمع بأنه اكتساب المفردات المتكثرة ، الذوات وحسدة عرضية وجعله قسمين (١١٧) .

تأليفى وهو الذى تتميز آحاده فى اجتماعها ، والتركيبى وهو الذى تختلط آحاده وتتحد أجزاءه ولا يدرك كل منها لوحده .

وقسم التأليفى الى قسمين وجودى - موجود فى العيان - ، وذهنى . وكذلك التركيبى جعله قسمين وجودى ، وذهنى ، والوجودى جعله أيضا قسمين طبيعى وصناعى ، وأعطى الأمثلة لكل نوع من أنواع تقسيمات الجمع (١١٨) .

(١١٤) نفسه ، ح ١ ، ص ٥٠ - ٥١ .

(١١٥) نفسه ، ح ١ ، ص ٥٤ .

(١١٦) نفسه ، ح ١ ، ص ٥٥ .

(١١٧) نفسه ، ح ١ ، ص ٥٥ .

(١١٨) ابن ملكا : الاعتبار ، ح ١ ، ص ٥٥ .

أما التفريق فعرفه بأنه تكثر الوحدات العرضية ، وتمييز الأحاد الاجتماعية الاختلاطية التركيبية والتأليفية ، فان وحدة الواحد قد تكون ذاتية وقد تكون عرضية (١١٩) .

وقسمه الى قسمين تفريق أحاد التأليف ويسمى قسمة وتفريفا ، والثانى هو تمييز احاد التركيب ويسمى تحليلا . والقسمة جعلها قسمة كلى الى جزئياته ، وجعله على ثمانية أنواع ، وقسمة الكل الى أجزاء متشابهة (١٢٠) .

وأما التحليل فيقول أنه مقابل ومعاكس للتركيب ، فهو فى مقابلة التركيب الذهنى يكون فى المعانى الكلية ويسمى تحليل الحد والرسم . وأما فى مقابلة التركيب الوجودى فيسمى التحليل بالعكس ، وهو اما طبيعى - كتحليل جسم الانسان الى الاخلاط - ، واما صناعى فذلك كتحليل السكنجيين (١٢١) الى الخل والعسل (١٢٢) .

وفى الكيفية التى يمكن بواسطتها استفادة الحدود والرسوم يقول : ان الحدود ما دامت عبارة عن معان مؤلفة ، فذلك تحصيلا انما يتم بتحصيل المعانى المفردة التى تتألف منها الحدود ، وقد تعرف مفردات الحقائق برسوم وصفات عرضية (١٢٣) .

وبناء على ذلك فان اكتساب الحدود انما يتم أولا عن طريق تحصيل البسائط المفردة التى تكون حقائق المحدود ، ويتم ذلك عن طريق التدبير العقلى ، وكذلك الرسوم فان تحصيل بسائطها من الأوصاف العرضية انما

(١١٩) نفسه ، ج١ ، ص ٥٦ .

(١٢٠) نفسه ، ج١ ، ص ٥٦ .

(١٢١) السكنجيين : هو المركب من الخل والعسل ، ثم يسمى بهذا الاسم ، وان

كان مكان العسل سكر أو مكان الخل لب السفرجل . وأنواعه واخلاطه كثيرة .

الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ابن سينا : القانون ، ج٢ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(١٢٢) ابن ملكا : المعتبر ، ج١ ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(١٢٣) نفسه ، ج١ ، ص ٦١ .

يتم بالتحليل والتدبر ، أو الوجودى ، أو الاستدلالى (١٢٤) .

ثانيا : مذهبه فى العلوم وتحصيلها :

وبعد حديثه عن المعرفة والفرق بينها وبين العلم ، أكد أن العلوم « تكون بالفاظ ومعان مؤلفة ، والأقاويل هى الألفاظ الدالة عليها من حيث هى علوم لا من حيث هى معان » (١٢٥) ويقول ان العلوم يلزمها الصدق والكذب ، اذا ما نسبت الى الوجود فى الموافقة والمخالفة . على أن التصديق والتكذيب لتلك العلوم ينطوى تحت حكم النفس لها وفيها (١٢٦) . وقسم المعلومات المتحصلة الى صنفين :

الأول : وهو ما سماه بالعلم ، وهو انحكم فى القضايا بالاثبات والنفى (١٢٧) .

الثانى : وهو المعلومات المبنية على الأمور الوجودية التى تلك معانيها ، على أنه يستثنى من ذلك أشياء لا يحكم بمعانيها على أمور وجودية ، اذ أن من المعلومات ما يتقدم على الموجودات وتكون أسبابا للعلوم (١٢٨) .

ويقسم ابن ملكا المعلومات عامة - وهو ما عناه بالقضايا (١٢٩) - الى حملية وشرطية (١٣٠) فالحملية هى التى تحكم بشئ ويسمى

(١٢٤) ابن ملكا : الاعتبار ، ج١ ، ص ٦١ .

(١٢٥) ابن ملكا : الاعتبار فى الحكمة ، ج١ ، ص ٧٠ . يقول د. كارتاب :

« ونحن نقصد بالعلم هنا مجموع العبارات المعروفة ، ولست أعنى العبارات التى يصوغها العلماء فحسب ، بل انى أقصد كذلك العبارات التى نصادفها فى حياتنا العادية فليس من الممكن فصل هذه عن تلك فصلا دقيقا ، بنعبد العالى : درس الأبيستيمولوجيا ، ص ٤٨ .

(١٢٦) نفسه ، ج١ ، ص ٧٠ .

(١٢٧) نفسه ج١ ، ص ٧٠ .

(١٢٨) نفسه ، ج١ ، ص ٧٠ .

(١٢٩) القضية : هى القول الحازم ، مثل فلان كاتب ، أو فلان ليس بكاتب .

الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ .

(١٣٠) ابن ملكا : الاعتبار فى الحكمة ، ج١ ، ص ٧٠ .

(مجلة المؤرخ العربى .)

محمولا أنه لشيء يسمى موضوعا ، أو أنه ليس له حكما متصلا ، والحكم بأنه له يسمى ايجابا ، وبأنه ليس له يسمى سلبا (١٣١) ، والحكم بالاثبات والنفي فى القضايا الحملية اذا كان ذلك حتما غير متوقف على شرط مجهول كقوله « الشمس طالعة » (١٣٢) .

وأما الشرطية فانها تقع تحت شرط مجهول الحكم والحصول ، معلوم اللزوم كقوله « ان كانت الشمس طالعة فالنهار موجود » اذ ان الحكم بوجود النهار فى هذه القضية غير جازم بل متوقف على شرط مجهول وهو طلوع الشمس (١٣٣) .

وفرق بين القضايا الحملية والشرطية بأن الحملية بسيطة اذا ما قيست على الشرطية . وفى الشرطية تركيب لأن أجزاء القضية الشرطية قضيتان حمليتان قد صارتا قضية واحدة من أجل الحكم (١٣٤) .

ويذكر بعد ذلك تفاصيل كثيرة عن القضايا الحملية والشرطية حسب موضوعها حين يكون جزئيا أو كليا ، وما يمكن أن تتصف به كل قضية منها اما أن تكون محصورة أو مهمة أو مخصوصة (١٣٥) .

م تحدث عن جهات (١٣٦) القضايا والعوارض الخارجية التى يمكن أن تؤثر فيها ، بحيث لا يمكن معها الحصول على معلومة محددة ، فذلك يقال فيه ممكن لأنه ليس على الوصف الذى قيل أنه ممكن ولا يمتنع

(١٢١) نفسه . ج ١ ، ص ٧٠ .

(١٢٢) نفسه . ج ١ ، ص ٧٢ .

(١٢٣) ابن ملكا : الاعتبار فى الحكمة ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(١٢٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(١٢٥) الاعتبار ، ج ١ ، ص ٧٥ ، وفى تعريف القضايا المهمة والمحصورة

والمخصوصة . انظر الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٠ .

(١٣٦) الجهات : هى ما فى الالهام من الظنون والاعتقادات على الحقيقة .

ابن ملكا : الاعتبار ، ج ١ ، ص ٨٤ .

ان يكون عليه ، كأن يقال : الهواء بارد أو غير بارد ، فانه لا يكون باردا بذاته ولا يمتنع عنه الحر والبرد بسبب العوارض الخارجية (١٣٧) .

طرق الاستدلال :

وفى الكيفية التى يمكن بواسطتها الحصول على المعرفة والعلم ، يتحدث ابن ملكا فى ذلك عن طريقين هما :

الأول : القياس (١٣٨):

يقول أن القياس له دور رئيسى فى سبيل الحصول على المعرفة والعلم ، وذلك بتألف القضايا بعضها مع بعض على صورة يستفاد بعلمها الحاصل علم بمجهول (١٣٩) . على أنه لا يمكن أن يكون العلم الحاصل موجبا للعلم المستفاد كيفما اتفق ، وانما لابد من اعمال العقل والتفكر فى المجهول والمعلوم ، اذ لو كان الأمر كذلك فان الانسان لا يحتاج فى تعلم العلوم المكتسبة من العلوم الحاصلة الى فكر وزمان ، ذلك أن العقل سينتهى من أول علم بمعلوم الى أقصى حدود المعلومات المكتسبة بغير كلفة ولا فكر ولا روية وفى أقصر زمان (١٤٠)

وذلك سيؤدى الى الغاء الفكر والتروى ، وهذا ليس من الأمور المنطقية عند العلماء ، اذ أن « العلم الحاصل انما يفيد علما بمجهول يحصلها الذهن بالروية والتفكير عن طريق البحث والطلب ، فيؤدى ذلك البحث والتفكير الى علم المجهول بالمعلوم واستفادته به » (١٤١) وذلك

(١٣٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(١٣٨) القياس : عبارة عن قول مؤلف من أقوال ، يلزم عن تسليمها لذاتها قول آخر ، فان كان المطلوب أو نقيضه مذكورا فيه سمى استثنائيا ، وان كان غير مذكور فيه سمى اقترانا .

الأمدى : المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين ، ص ٨١ ، الجرجاني: التعريفات ، ص ١٩٠ .

(١٣٩) ابن ملكا : المعتبر ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(١٤٠) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٤١) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠ .

بواحد من الطرق التالية :

* اما بغريزة النفس وفطرتها كهداية الطفل الى الرضاع .
* واما بالبحث والتفكير فى المعلومات التى تؤدى الى الصواب الموجب
لذلك العلم المستفاد بالعلم السابق .

* واما بطريق تعليمى قانونى يعلمه أهل النظر والاعتبار من أرباب
الغرائز المطبوعة ، والفطر السليمة المهمة (١٤٢) ، وهذا الأخير
هو ما عناه ابن ملكا ، فيدور القياس فى الوصول الى العلوم
والمعارف عن طريق العلم بالمعلوم الذى يؤدى الى العلم بالمجهول ،
لنسبة وصلة موجودة بينهما تؤدى الى اعمال الفكر فى استخراج تلك
الصلة المجهولة (١٤٣) .

وفى هذه الحالة قد يهتدى الانسان الى ذلك بعد زمان طويل من
الدراسة والبحث والتفكير . وقد يتوصل اليها الهاما أو بمحض المصادفة
فى زمن قصير جدا ، وفى الحالتين هو ما حصل للقديماء من العلماء
» فقد نظروا فى المعلومات وحكموا فى العلوم ، وقالوا الصدق من غير
أن يعرفوا كيفية علمهم ونظرهم كيف كان ، وقد سبق الى العلوم والقول
فيها من سبق قبل أن تكتب هذه الكتب المنطقية» (١٤٤) .

ويؤكد ابن ملكا أن القضية الموجبة والسالبة فى الحملات ، والقضية
الشرطية والجزائية فى الشرطيات تسمى اذا دخلت فى تركيب القرائن
القياسية مقدمة (١٤٥) ، وهو القول السابق علمه وتقريره فى الذهن
ليستتبع بالعلم المطلوب . وهذه القرائن القياسية بعضها مفيد ومنتج
ويؤدى الى العلم بالمجهول ، والبعض منها لا يؤدى الى ذلك (١٤٦) .

(١٤٢) ابن ملكا : الاعتبار ، ح ١ ، ص ١١٠ .

(١٤٣) نفسه ، ح ١ ، ص ١١٠ .

(١٤٤) نفسه ، ح ١ ، ص ١١٣ .

(١٤٥) المقدمة : هى القضية تقدم فى صنعة القياس ، الخوارزمى : مفاتيح

العلوم ، ص ١٢٠ .

(١٤٦) ابن ملكا : الاعتبار . ح ١ ، ص ١١٣ .

على أن القرائن المنتجة تختلف من جهة مقدماتها وما فيها من علم حاصل،
فان منها ما علمه يقينى ، ومنها ما يغلب عليه الظن الصادق . ومنها ما هو
مقنع . ومنها المعلومة الموهمة والمغلطة ، ومنها ما يؤثر فى النفس من
غير ظن ولا تصديق (١٤٧) .

ويعقد ابن ملكا بعد ذلك دراسة مطولة يذكر فيها عكوس
المقدمات (١٤٨) ، والقرائن القياسية (١٤٩) ، وضروب القياسات من
القضايا المطلقة ، وأشكال القياسات وضروبها من القضايا الضرورية
والممكنة والمختلطة ، والمقاييس المؤلفة من القضايا الشرطية الاستثنائية
والاقتترانية ، والقياسات المركبة ، واكتساب المقدمات ، وتحليل القياسات
ودور ذلك كله فى استقرار النتائج ومعرفة الصادقة منها من الكاذبة (١٥٠) .

وعن الوسائل القياسية التى يمكن التوصل عن طريقها الى العلم
والمعرفة ، ذكر ابن ملكا طرقا متعددة تناولها الكثير من العلماء المسلمين
بالدراسة والبحث كالرازى ، وابن سينا ، والغزالى . وما زالت الى
اليوم موضوع دراسة العلماء ، ولا زالت قابلة للبحث والنقاش وهى :-

١ - قياس التمثيل (١٥١) : قال ابن ملكا أنه يتكون من أربعة
حدود : أكبر كلى ، وأوسط كلى محمول على الأصغر لأنه محمول على

(١٤٧) نفسه ، ح ١ ، ص ١١٢ .

(١٤٨) العكس فى المقدمة : هو تصنيف محمولها موضوعا وموضوعها محمولا مع
بقائها على ما كانت عليه من الايجاب والسلب . نفسه ، ح ١ ، ص ١١٧ .

(١٤٩) القرائن القياسية : هى قول مؤلف من أقوال فيها مواضع تصديق وتكذيب،
وموضع التصديق والتكذيب فى القول هو الحكم الجازم أو الشرطى . نفسه ،
ح ١ ، ص ١٢٢ .

(١٥٠) نفسه ، صص ١١٧ - ١٧٤ .

(١١) التمثيل : هو ما يعبر عنه بالقياس فى اصطلاح الفقهاء . الامدى : المبين
ص ٨٨ .

ويقول الجرجاني : « هو اثبات حكم واحد فى جزئى لثبوته فى جزئه آخر لمعنى
مشترك بينهما ، والفقهاء يسمونه قياسا . التعريفات ، ص ٦٩ .

شبيهه فيكون الأصغر وشبيهه حدين ، والأكبر يحمل على الأوسط لحمله على شبيهه الأصغر كما يكون الأكبر (١٥٢) .

٢ - قياس المقاومة (١٥٣) : وهى مقدمة تؤخذ كبرى لانتاج قضية مقابلة لمقدمات القياس حتى يبطل بذلك القياس المعقود (١٥٤) .

٣ - قياس الرأى : وهو عبارة عن مقدمة كلية يميل اليها السامعون ولا تردّها الأذهان ببديعتها ، تؤخذ فى قياسات خطبية وجدلية (١٥٥) .

٤ - قياس العلامة : ويجعلها قضية اما ضرورية واما محمودة مظنونه ، يكون الحد الأوسط فى القياس الكلى منها علامة لوجود شىء ، وهو اما أن يصلح أن يكون حدا أو وسطا موضوعا لهما ، واما أن يصلح أن تجعل الأوسط محمولا عليهما جميعا (١٥٦) .

٥ - قياس الفراسة (١٥٧) : جعله علما قائما بذاته من جملة العلم الطبيعى ، يكون للأنفس السليمة ، غريزة يصدر عنها الحكم لذاتها وطباعها . وهذا علم ذلك الحكم الذى هو للنفس بغريزتها وفطرتها من غير تعليم معلم ، كما تصدر الأشياء الطبيعية عن القوى الفعالة من غير فكر ولا روية (١٥٨) .

(١٢) ابن ملكا : المعتبر ، ١ ، ص ٢٠١ .

(١٥٢) يقول الأمدى ان المقاومة عبارة عن قياس مؤلف ، لابطال مقدمة فى قياس آخر باثبات قضية أخرى هى أشد عموما منها ، مخالفة لها فى الكيف على سبيل التخيل . المبين . ص ٨٧ .

(١٥٤) ابن ملكا : المعتبر ، ١ ، ص ٢٠١ .

(١٥٥) نفسه ، ١ ، ص ٢٠١ .

(١٥٦) نفسه ، ١ ، ص ٢٠٢ ، كذلك انظر الأمدى : المبين ، ص ٨٩ ، وانظر

أمثلة كل حالة فى المصدرين .

(١٥٧) الفراسة : هو ما يعبر عنه عند الفقهاء بقياس الدلالة . الأمدى :

المبين ، ص ٨٨ .

(١٥٨) ابن ملكا : المعتبر ، ١ ، ص ٢٠٢ .

٦ - القياس البرهاني (١٥٩) : وخصص ابن ملكا لعلم البرهان مقالة كاملة تقع في سبعة فصول ، وفي حديثه عن قياس البرهان يقول : أنه مرحلة أخيرة من مراحل البحث للحصول على المعرفة الحقة ، أو المعلومة الصادقة ، فكان أن تحدث عن الأقاويل المعرفة في التعليم والتعلم بالعبارة . وتبعه الحديث في التعليم والتعلم في الأقاويل المعنوية التي سماها بالقياسات . وتبين من ذلك أن التعليم فيه يكون من أشياء لأشياء بأشياء ، فالذي منه فهو المقدمات ؛ وأما الذي له فالنتائج ، وأما الذي به فصور القياسات والقرائن المنتجة الموجبة للعلم ، فالقياس بعلم النتائج من المقدمات تصور القرائن في القياسات ، فيلزم فيه تصديق النتيجة من تصديق المقدمات ، إذا كانت على صورة الاقتران المنتج (١٦٠) .

وذلك كله يبين كيفية انتقال الذهن من تصديقه بالمقدمات الى تصديقه بالنتيجة (١٦١) .

ثم يقول في تحديد البرهان : ان القياسات المؤلفة من تلك المقدمات والنتائج التي تنتج فيها تسمى برهانية ، ويسمى القياس الذي يؤلف عنها برهانا . والبرهان هو الحجة التي تفيد العلم اليقين الذي لا شك فيه (١٦٢) .

والقياس البرهاني ما كان من جملة القياسات المنتجة مؤلفا من هذه المقدمات ، اذ أن القياس المؤلف من مقدمات لا ريب فيها بتأليف لا ريب فيه يفيد نتيجة يقينية الصدق لا ريب فيها (١٦٣) .

(١٥٩) البرهان : هو الحجة ، وهو عبارة عن قياس يقيني المادة ، فان كان الحد الأوسط منه هو العلة الموجبة للنسبة بين طرفي المطلوب سمي « برهانا ليا » ، وان لم يكن هو العلة الموجبة لنفس النسبة بل الموجبة للتصديق بوقوع النسبة سمي « برهانا انيا » . الامدي : المبين ، ص ٩٠ .

(١٦٠) ابن ملكا : المعتبر ، ج ١ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(١٦١) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

(١٦٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

(١٦٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

وأما من لا يشك فى شىء من ذلك فانه لا يشك فى النتيجة ولا يرتاب بها فهذا هو البرهان . والقياسات والنتائج البرهانية فالمقدمات هى القضايا التى تؤلف منها النقياسات لتحصل منها النتيجة التى هى المطلوب . والنتيجة هى قضية حصل العلم بها (١٦٤) .

وفى أثناء الحديث عن القياس البرهانى لم ينس ابن ملكا أهمية وضرورة الادراك العقلى والادراك الحسى ، أو أهميتهما معا فى تكوين المعارف والعلوم . فضرورة العقل هى : ما كان الحكم فيها بغريزة النفس وفطرة العقل ، حتى اذا ما تصور العاقل فيها القضية بمفهومها حكم بفطرته فيها بايجاب (١٦٥) .

أما ضرورة الحس فهى فيما كان من الحكم بمقتضى ما أدركه الحس فى المحسوسات، كنور الشمس وظلمة الليل وحرارة النار وبرودة الثلج . أو ما جربه الحس ، فان العقل يحكم فى ذلك بما أدركه الحس (١٦٦) .

ويتابع حديثه فى ذلك الى ان يقول : « فهذه هى أصناف المقدمات ولأوليات العقلية . والحسية منها هى مقدمات البرهان الذى تكتسب به العلوم الحكمية على نظام وترتيب كما قيل ، نتيجة عن مقدمة ، ومقدمة لنتيجة على ترتيب واجب فى الطبع ، وكل تعليم لا يجرى على نسقه وقانونه فليس من العلوم الحكمية » (١٦٧) .

٧ - القياس الجدلى (١٦٨) : وهى المسلمات التى لا يوقف أمرها على بيان ، بل تتسلم مع تصديق أو تكذيب ، أو من غير تصديق

(١٦٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(١٦٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(١٦٦) ابن ملكا : المعتبر ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(١٦٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

(١٦٨) الجدل : تقرير الخصم على ما يدعيه ، من حيث أقر حقا كان أو باطلا ، أو من حيث لا يقدر الخصم أن يعانده ، لاشتهار مذهبه ورأيه فيه . الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٤ .

ولا تكذيب (١٦٩) ، وتأليف هذه القياسات الجدلية من مقدمات ذائعة مشهورة ، اما على الاطلاق وهى التى يؤمن بها جمهور الناس ، واما ذائعة بالاضافة وهى التى يراها أكثر الأمم ويعتبرونها (١٧٠) .

الثانى : الاستقراء (١٧١):

يقول ابن ملكا : « الاستقراء هو أن يتبين وجود شئ كلى لشئ ، أو سلبه عنه لوجوده أو عدم وجوده فى جزئيات ذلك الكلى ، فيكون الشئ الذى يتبين به هو موضوعات الشئ المبين له ، فيكون الكلى المحمول بالايجاب والسلب كالطرف الأكبر ، وتلك الموضوعات كالطرف الأصغر . والكلى المحكوم عليه كالطرف الأوسط ليتبين بأحد الطرفين وجود الطرف الآخر للواسطة » (١٧٢) .

وابن ملكا هنا يتحدث عما يتحدث عنه الاستقراءيون فى العصر الحديث فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ، على الرغم من المعارضة الشديدة التى وجهت الى منهجهم الذى يؤكد على أهمية الاستقراء فى الوصول الى المعرفة العلمية ، فالاستقراءيون يقولون : ان العلوم الاستقرائية تتميز بانها تستخدم الطرق الاستقرائية Inductive Methods وهم بذلك يؤكدون على أن منطق الكشف العلمى يتفق مع المنطق الاستقرائى (١٧٣) . على أن بوهر (١٧٤) وهو من أشد معارضى

(١٦٩) ابن ملكا : المعتبر ، ١ ، ص ٢٠٨ .

(١٧٠) نفسه ، ١ ، ص ٢٣٤ .

(١٧١) الاستقراء : عبارة عما يوجب نسبة كلى الى آخر بايجاب أو سلب لتحقيق نسبة تلك الكيفية الى ما تحت الكلى المنسوب اليه من الموضوعات ، وقيل هو : تعديد الجزئيات ثم الحكم بالقضية الكلية بعد . الامدى : المبين ، ص ٨٧ ، وعرفه الخوارزمى بقوله : هو تعرف الشئ الكلى بجميع أشخاصه : مفاتيح العلوم ، ص ١٢٣ .

(١٧٢) ابن ملكا : المعتبر ، ١ ، ص ١٩٩ .

(١٧٣) محمد على : نظرية المعرفة العلمية ، ص ٤٣ .

(١٧٤) بوهر : كارل : باحث فى فلسفة العلوم أصله نمساوى ولد فى فيينا

المنهج الاستقرائي يقول « ان الاستدلال الاستقرائي الذى ينتقل من القضايا الجزئية الى القضايا الكلية التى تتسم بالعمومية Generality ليس له ما يبرره » (١٧٥) لأن ذلك قد يؤدى الى نتيجة كاذبة « والعلوم تتقدم من خلال محاولتها تكذيب القضايا الكلية » (١٧٦) .

ولقد اعتمد بيكون (ت١٦٢٦م) (١٧٧) أيضا فى دراسته للعلوم لا سيما الحركة ، على مبدأ الاستقراء الذى يعتمد على التجربة التى وضع لصلاحيتها ثمان نقاط (١٧٨) ، كان جابر بن حيان قد تحدث عنها فى كتابه « كتاب البحث » (١٧٩) ، وأخذها عنه كل من جاء بعده من علماء الطبيعة من المسلمين ، ومن بعدهم من الأوروبيين حتى روجر بيكون نفسه . وقد أفرد ابن ملكا فى الجزء الثانى من كتابه عدة فصول للحديث عن الحركة ، سواء عن حركة الافلاك ، أو الحركة الميكانيكية التى توصل فيها الى نتائج رائعة لا تختلف عما نعرفه اليوم (١٨٠) وقد اتبع فى دراسته تلك التجربة ثم أثبت ذلك كعلم عن طريق الاستقراء واستنباط النتائج .

ويجعل ابن ملكا الاستقراء شبيها بالقياس الاقترانى ، الا أنه يختلف معه بأن الشئ الذى يجب أن يكون حدا أصغر فى القياس يكون

-
- ١٩٠٢م ودرس الفيزياء والرياضيات والفلسفة فى جامعة فينا ، ثم أصبح أستاذا للمنطق فى جامعة لندن . بدوى ، موسوعة الفلسفة ، ج١ ، ص ٣٦٩ .
- (١٧٥) محمد على : نظرية المعرفة العلمية ، ص ٤٣ .
- (١٧٦) نفسه ، ص ٣٥ .
- (١٧٧) بيكون : فيلسوف وسياسى انجليزى ، كانت حياته مضطربة بالاحداث ، اشتغل بالفلسفة والعلوم والسياسة وصنف فيها مصنفات عديدة لمعلومات موسعة انظر ، بدوى : موسوعة الفلسفة ، ج١ ، صص ٢٩٢ - ٢٩٩ .
- (١٧٨) الجابرى : مدخل الى فلسفة العلوم ، ج٢ ، ص ٢٠ .
- (١٧٩) ميكروفيلم مركز البحث وحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٧٦ معارف عامة .
- (١٨٠) شوقى : تراث العرب فى الميكانيكا ، ص ٨٧ .

واسطة فى الاستقراء ، ولذلك فالاستقراء أقرب الى الأذهان ، والقياس أقدم بالطبع (١٨١) .

ثالثا : نظرتة الى العلوم وتصنيفها :

يقول ابن ملكا ان لكل علم منفرد خاص من العلوم موضوع واحد خاص به . وجعل ذلك سمة للعلوم النظرية والعملية . فالعلم النظرى ينظر فى ذلك الموضوع ويبحث عن أوصافه حتى يحصل له معلومة ، كالسماء لعلم الهيئة (١٨٢) .

وأما العلم العملى فينظر فى الموضوع لأجل عمل يعمله وتأثير يؤثر فيه ، فى أعراضه وخواصه التى له حسب ذلك العلم مثل بدن الانسان لصناعة الطب (١٨٣) .

والعلم الكلى له موضوع كلى ، وجزئيات ذلك الموضوع تكون نبعا لأجزاء ذلك العلم ومسائله ، فتكون الموضوعات فى القضايا - مطالب ذلك العلم - جزئيات لذلك الموضوع الكلى ، فتميزت العلوم بذلك عن بعضها البعض بتميز موضوعاتها (١٨٤) .

والموضوع الواحد عادة تشترك فيه العديد من العلوم ، ولكنها تختلف وتتباين فى الجهات ، فجسم الانسان لا يكون موضوعا لصناعة الطب من كل وجه ، بل من جهة ما يصح ويمرض فقط ، ولعلم الفراسة من جهة شكله وخلقته اللذين يستدل بهما على ملكته وخلقته (١٨٥) .

والعلم اليقيني عند ابن ملكا يمكن التوصل اليه فى ضوء العوامل التالية (١٨٦) :

-
- (١٨١) ابن ملكا . الاعتبار ، ج١ ، ص ٢٠٠ .
 - (١٨٢) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢١ .
 - (١٨٣) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢١ .
 - (١٨٤) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢١ .
 - (١٨٥) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٢ .
 - (١٨٦) ابن ملكا : الاعتبار ، ج١ ، ص ٢٢٢ .

- (أ) الموضوع : وهو مشترك لسائر المطالب والمسائل .
- (ب) المحمول (١٨٧) : والمحمولات كثيرة فى مسائله ، وهى الصفات والاعراض التى تعرض له بذاته .
- (ج) المبادئ : وهى التى تستخدم فى قياسات ذلك الموضوع مقدمات لها ، تبرهن العلوم .
- (د) المسائل وهى القضايا التى تبرهن فى العلوم .
- (هـ) الأغراض والغايات : وجعل هذا زيادة خاصة بالعلوم العملية ، وغرضها تحقيق علة العمل كالصحة لصناعة الطب . فالعلوم قد تكون المسائل المعلومة فيها هى الغايات المطلوبة ، وليست الأعمال هى الغايات . ومثال ما تقدم عن صناعة الطب ، فموضوعها بدن الانسان ، ومبادئها تكون من العلم الطبيعى والحس والتجربة . ومسائلها هى : كيف تحفظ الصحة ويزال المرض وبماذا . ومحمولاتها المصح والممرض والنافع والضار ، وغايتها حفظ الصحة وإزالة المرض (١٨٨) .

أن هذا الطريق الذى اتبعه ابن ملكا والمتمثل فى النقاط الخمس السابقة الذكر هى الفكرة الأساسية التى أعتمد عليها فرانسيس بيكون (ت ١٦٢٦م) وكذلك ديكارت (ت ١٦٥٠م) ، فى نظريتهما الى المعرفة والعلوم ، وكيفية الحصول على الحقيقة العلمية بالتجريب فى العلوم التطبيقية . اما المنهج الفرضى الاستنتاجى والذى دعى اليه ديكارت (١٨٩) فهو يتمثل حقيقة فيما أكده ابن ملكا ، اذ يقول ديكارت :

« لقد عملت أولا على الحصول على المبادئ الأولى التى هى علة كل ما يوجد ، ثم بحثت بعد ذلك عن الموجودات العامة التى ننسبها الى

(١٨٧) المحمول : هو ما يحكم على شئ آخر بأنه هو أو ليس هو . الأمدى : المبين ، ص ٧٥ .

(١٨٨) ابن ملكا : المعتبر ، ج ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(١٨٩) الجابرى : مدخل الى فلسفة العلوم ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

هذه الأسباب الأولى» (١٩٠) .

ويعلل ابن ملكا سبب تفصيل العلوم الى الأصناف التى فصلت اليها ، ولم تبق علما واحدا ، فيقول : ان سبب ذلك يعود الى المتعلمين فى تعلمهم . ذلك أن المجهولات انما تعرف وتعلم بأمور هى اعرف منها وأسبق علما ، وذلك نفسه يؤدى الى تعلم علم ثان وثالث ورابع ، اذ أن العلوم والمعلومات لو اتسقت على نسق واحد بترتيب واحد من أعرف الى ما ليس باعرف ، لصح ان يكون العلم واحدا (١٩١) .

على أن ذلك لا يمكن أن يكون سنة ، فتشعبت العلوم الجزئية عن الكلية بتشعب الموضوعات ومبادئ البيانات ، والمطالب فى النظريات ، والأغراض فى العمليات . فخرجت من العلم الكلى علوم أخرى تتحد معه فى الموضوع وتختلف معه فى الجهات والغايات ، « فعلم الطب من العلوم الجزئية تحت العلم الطبيعى من حيث هو علم نظرى ، ومن جهة غايته العملية فهو صناعة خاصة مخالفة للعلم الطبيعى فى الغاية دون الموضوع» (١٩٢) .

وفى مسألة تصنيف العلوم الحكمية وترتيبها يقول : أن العلوم منها ما هو موجود فى الأعيان - المحسوسة منها - ومنها الذهنية ، ومن الموجودات ما هو متقدم فى المعرفة ، ومنها ما هو متأخر فى المعرفة ، فالعلوم مترتبة على ذلك النحو أيضا فمنها ما هو أولى بالتأخير وهو المتأخر فى المعرفة عن ذلك المتقدم (١٩٣) .

ولذلك تصنفت العلوم الى أصناف عدة ، ولم ترتب فى التعليم على شكل مسائل متتالية يشتمل عليها علم واحد ، فخرج من العلوم الحكمية (١٩٤) :

(١٩٠) ابن ملكا : الاعتبار ، ج٢ ، ص ٥٣ .

(١٩١) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٣ .

(١٩٢) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٤ .

(١٩٣) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٥ .

(١٩٤) ابن ملكا : الاعتبار ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

- (أ) علم المنطق .
- (ب) علم الطبيعات .
- (ج) علم الرياضيات .
- (د) علم الالهيات .

وكذلك صنفت العلوم الذهنية الى (١٩٥) :

- (أ) ذهنية صرفة لا يتعدى حكمها ما فى الأذهان .
- (ب) ذهنية يتعلق حكمها بأشياء وجودية .

والذهنية الصرفة منها علم العلم ، وهو المنطق الذى يفيد القوانبن العقلية التى لا بد منها فى عمليات التعلم والتعليم ، والقبول والرد ، والتصديق والتكذيب . ومنها العلم وهو علم الكميات ، أى المقادير والاعداد ويجمعها علم الهندسة ويشاركها علم العدد . وعلم الاعداد منه علم خواص الاعداد وهو الارثماطيقى ، ومنه علم الحساب الذى يتعلق بالجمع والتفريق فى الاعداد (١٩٦) .

وأما العلوم الذهنية التى يتعلق حكمها بأشياء وجودية فهى علم هيئة الأفلاك وحركاتها ، وهى أقرب الى الموجودات منها الى الذهنيات ، ولكنها نسبت الى الذهنية من أجل ارتباطها بالهندسة والحساب (١٩٧) .



وبعد ، فهذه صفحة من صفحات تاريخ العلوم عند المسلمين ، تعبر عن وجه مشرق من أوجه الحضارة الاسلامية ... وعن علم من أعلام الفكر الاسلامى فى صورة من صور البناء .

(١٩٥) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

(١٩٦) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

(١٩٧) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الخطية :

- جابر بن حيان : أبو موسى الكوفى (ت ٢٠٠هـ / ٨١٥م) كتاب
البحث (ميكرو فيلم مركز البحث العلمى و احياء التراث الاسلامى
بجامعة أم القرى (١٧٦ معارف عامة) .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

- ابن أبى اصبيعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة
السعدى (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) .
(عيون الانباء فى طبقات الأطباء) تحقيق د/نزار رضا ، منشورات
دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٣٨٥هـ ، ١٩٦٥م .

- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكى (ت
٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .

(النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) دار الكتب المصرية ،
المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

- ابن تيمية : أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحلیم (ت
٨٢٧هـ / ١٣٢٨م) .

(درء تعارض العقل والنقل) تحقيق الدكتور/محمد رشاد سالم
الأجزاء ٢ - ٣ - ٩ - ١٠ ، طبعة جامعة الامام محمد بن سعود
الاسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(منهاج السنة النبوية) تحقيق الدكتور/محمد رشاد سالم الأجزاء
١ - ٢ - ٥ ، طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م (كتاب الرد على المنطقيين) نشر ادارة ترجمان
السنة ، لاهور ، باكستان ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر
(ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .

(وفيات الأعيان وانباء الزمان) حققه د/احسان عباس ، دار
صادر ، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

— ان سينا : الشيخ الرئيس الحسين بن علي (ت ٤٢٨ هـ)
(القانون في الطب) مكتبة المثنى ، بغداد ، (د.ت) .

— ابن ملكا : أبو البركات هبة الله البغدادي (ت ٥٤٧هـ/١١٥٢م)
(الكتاب المعتبر في الحكمة) الأجزاء ١ - ٢ - ٣ دائرة المعارف
العثمانية ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ هـ .

— الآمدى : سيف الدين (٦٢١هـ/١٢٣٣م)
(المبين في شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين) تحقيق
د/حسن محمود الشافعى ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

— البيهقى : ظهير الدين أبى الحسن على بن زيد (ت ٥٦٥هـ/١١٧٠م)
(تاريخ حكماء الاسلام) تحقيق/محمد كرد على ، المجمع العلمى
العربى بدمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

— الجرجانى : على بن محمد الحسينى (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)
(التعريفات) مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٨م .

— الحسينى : الوزير محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام (ت
٧٤٣هـ/١٣٤٢م) .

(العراضة فى الحكاية السلجوقية) ترجمة د/عبد النعيم حسنين ،
حسين أمين ، جامعة بغداد ١٩٧٩م .

— الخوارزمى : محمد بن أحمد بن يوسف (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)
(مفاتيح العلوم) اعداد د/عبد اللطيف محمد العبد ، دار النهضة
العربية ، القاهرة ، (د.ت) .

— الشهرزورى : شمس الدين محمد بن محمود (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م)
(نزهة الأرواح وروضة الأفراح فى تاريخ الحكماء والفلاسفة)
جزآن ، الطبعة الأولى دائر المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ،
الهند ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

— صدر الدين الحسينى : أبو الحسن على بن ناصر (ت بعد ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) .

(زبدة التواريخ - أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) تحقيق د / محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ، دار اقرأ ، بيروت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

— الصفدى : صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .
(نكت الهميان فى نكت العميان) المطبعة الجمالية ، مصر ١٣٢٩هـ / ١٩١١م .

— القفطى : الوزير جمال الدين على بن القاضى الاشرف (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .

(اخبار العلماء بأخبار الحكماء) ، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت . لبنان (د . ت) .

— المبشر بن فاتك : الأمير أبو الوفا (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) .
(مختار الحكم ومحاسن الكلم) تحقيق د / عبد الرحمن بدوى ، الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٠م .

— ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م) .
(الفهرست) تحقيق جسداد بن على المازندراني ، ط ٣ ، دار المسيرة ١٩٨٨م .

— ياقوت : ابن عبد الله الحموى (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)
(معجم البلدان) دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

ثالثا : المراجع العربية :

— بدوى عبد الرحمن
(موسوعة الفلسفة) جزآن ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٤م .

(مجلة المؤرخ العربى)

- بنعبد العالى : عبد السلام ، يفوت : سالم
(درس الابيستيمولوجيا) دار تويقال للنشر المغرب ، الدار
البيضاء ١٩٨٥م .
- الجابرى : محمد عابد
(مدخل الى فلسفة العلوم) دراسات ونصوص فى الابيستيمولوجيا ،
ج٢ ، مطبعة دار النشر المغربية (د.ت) .
- روزنتال : م - يودين : ب .
(الموسوعة الفلسفية) ترجمة سمير كرم الطبعة الثانية ، دار
الطليعة - بيروت ١٩٨٠م .
- شوقى : جلال
(تراث العرب فى الميكانيكا) ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٣م .
- كون : توماس .
(بنية الثورات العلمية) ترجمة شوقى جلال ، سلسلة عالم المعرفة ،
الكويت ١٩٩٢م .
- محمد على : د/ماهر عبد القادر .
(نظرية المعرفة العلمية) دار النهضة العربية ، بيروت ١٤٠٥هـ /
١٩٨٥م .

وثيقة عربية نادرة فى أرشيف البندقية

أ.د. عبد المنعم ماجد(*)

لفظة الأرشيف أصلها فى كلمة : « Archeia » (١) ، وتعنى وثائق ومخطوطات ومستندات وأوراق هامة ؛ فيما يتعلق بدولة أو بلدة أو أسرة ؛ وان أصبحت تعنى دارا ومستودعا للمستندات ، بمعنى خزانة الوثائق فى اللغة العربية .

ويعود أرشيف البندقية المعروف باسم : أرشيف دولة البندقية "Archivio di Stato di Venezia" ؛ أكبر أرشيف أوربي ؛ لوجود عدد كبير من الوثائق الأصلية فيه ، مع أن هذا الأرشيف تعرض للحريق عدة مرات .

وقد بدأت البندقية تهتم بأرشيدها منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولذلك فان وثائقها الأولى المسماة : "Patti" - أى الأحداث العامة ، وهى فى تسعة أجزاء - تعتبر أقدم مجموعة من الوثائق الأصلية . وبالإضافة الى هذه المجموعة ظهرت بعد ذلك مجموعات أخرى من الوثائق بعناوين متباينة ؛ تتصدرها مجموعة : "Commemoriali" ، أى سجلات الأحداث الهامة . وإذا كانت مجموعة : "Patti" ؛ لا تمس العلاقات مع مصر الا فى حدود ضيقة ؛ فان مجموعة : "Commemoriali" ، على العكس تستكمل ما نقص منها لتنوعها ؛ كما أنها شديدة الصلة بمصر . ذلك أن هذه المجموعة تشتمل على مراسلات عديدة بين سلاطين المماليك فى مصر وأدواق - دوقات - البندقية "Ducis Venecia" ، من أيام بيبرس حتى الغورى ، أى الى وقت سقوط دولة سلاطين المماليك فى مصر ؛ بحيث غدت هذه المراسلات روتينية بين كل سلطان ودوق . ثم انها لم تقتصر

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

على المراسلات بين السلاطين والأدواق فقط ، وإنما امتدت أيضا الى موظفيهم الكبار ، مثل تلك المراسلات بين أمير الاسكندرية ودوج البندقية (٢) . كذلك توجد نماذج متعددة مترجمة ، عن أحوال البنادقية فى مصر ، مثل : تعليمات السلطان الى أمير الاسكندرية ، بخصوص كيفية التعامل مع البنادقة والامتيازات المنسوحة لهم فى معاملاتهم التجارية مع سلطان مصر وهو الأمر الذى يتضح فى شكل اتفاقيات ؛ تعتبر نموذجا للتعامل التجارى (٣) . كذلك توجد وثائق خاصة بتجار من البنادقة كانوا يترددون على مصر وسجلوا ذكرياتهم فيها . وهؤلاء قاموا برحلات فى مواسم كل مدة وهو ما عبر عنه باللفظة العربية : المدة "Mudda" (٤) ؛ لتعنى مواسم النقل البحرى ووصول السفن ورحيلها ؛ هذا كله بالاضافة الى مذكرات القناصل والسفراء البنادقة . وتنقسم هذه المجموعة الكبيرة الى أقسام من عشرين جزءا (٥) ؛ حيث يتناول الجزء الأول السنوات من ١٣٠٠ الى ١٣١٧م ، ويتناول الجزء العشرون السنوات من ١٥٠٢ الى ١٥٢٤م ، أى بعد انتهاء دولة سلاطين المماليك فى مصر . ومن الواضح ان هذه المجموعة ذات أهمية بالنسبة لتاريخ مصر ، وهى مفهرسة فهرسة جيدة ، وتضم تلك الفهارس ملخصات لها .

وهناك مجموعة أخرى فى هذا الأرشف تسمى بالايطالية "Senato Misti" ، وباللاتينية "Secreta" ، وهى خاصة بالمداولات السرية لمجلس السناتو البندقى "Senatus Veneta" أو ما عرف بمجلس الشيوخ البندقى "Comunis Signoria Venetiarum" ، وهى منسوخة بالحبر الأسود ، وتتطلب الماما بعلم الباليوجرافيا "Paléographie" أو الخبرة فى فهم مضمون نص قديم . وهذه المداولات السرية الهامة لمجلس السناتو ، تتناول فترة عريضة فى تاريخ البندقية ، تمتد من القرن الثالث عشر الميلادى الى القرن الثامن عشر الميلادى ، أى حتى سقوط جمهورية البندقية عام ١٧٩٧ ، وتقع فى عدة مجلدات ضخمة تضم آلاف الصفحات ، من الورق المصنوع من الرق ، وسطورها متقاربة جدا ، وجوانبها مملوءة بالحواشى ، وبعضها مكتوب على الوجهين ، وغلاف مجلداتها مصنوع من الخشب ، ولكى تصل الى الباحث تحمل اليه على عربة خاصة ؛ حيث يتناولها بكل حرص ؛ بسبب طبيعة ورقها .

ويعنينا من وثائق هذه المجموعة ما يتصل بتاريخ مصر ، وهو ما يتطلب دائماً القدرة على فك ألغاز نصوصها ، وبخاصة أنها غير مفهرسة ، ولا توجد عنها نبذ كما هو الحال بالنسبة للمجموعة السابقة ، لذلك فإن أغلبها لا يزال مجهولاً تماماً فى مجال البحث التاريخى فى الشرق والغرب .

وتوجد أيضاً بأرشيف البندقية مجموعة من وثائق الاتفاقيات فى ثلاثة أجزاء ، الأول بعنوان : "Albus" ، والثانى بعنوان "Blancus" والثالث بعنوان : "Pactorum — Pacta" وهذه الاتفاقيات كانت بين البندقية وغيرها من الدول ، فيما بين القرنين ١٤ و ١٥ ، ومنها عهود أمان للتجار البنادقة من قبل سلاطين مصر ، ليس فقط فى ثغر الاسكندرية ، وإنما أيضاً فى كافة أنحاء مصر "Totam Terram Aegypti" وهذه المجموعة من الوثائق الهامة ، مفهرسة فهرسة جيدة ؛ ومزودة بنبذ قيمة مختصرة منها .

وأخيراً ، توجد مجموعة من الوثائق غير المسجلة فى قوائم أرشيف البندقية ، وإنما توجد معلومات عنها فى مجلد مفرد ، يعرف باسم : "Regestri Bombaci" ؛ نسبة للعالم الايطالى الذى كتب نبذة بالايطالية عن كل وثيقة منها ؛ وهى مرتبة ترتيباً زمنياً "Redazione in ordine cronologico" مكتوبة باللغة التركية "Documenti Turci" ، أى أنها وثائق تركية .



وقد صدرت أغلب هذه الوثائق السابق ذكرها عن ديوان الانشاء البندقى "Chancelleria Ducati" ، وهى مكتوبة أو مترجمة الى اللاتينية ، أو الايطالية الدارجة على لهجة البنادقة المسماة : "Volgare" وهى التى تحولت الى الايطالية الحديثة . ومع وجود وثائق تركية فى هذا الأرشيف ؛ إلا أنه لا توجد فيه غير وثيقة مملوكية عربية واحدة ؛ وقد يفسر عدم وجود وثائق عربية أخرى فى أرشيف البندقية ؛ بأن البندقية كانت تبقى على أصول وثائقها بالعربية فى مصر لدى قناصلها أو عند التجار

المتردددين على مصر ، وتقنع هي بتسلم ترجمة لها ، وهذه التراجم هي التي تشكل وثائق في أرشيف البندقية الآن (٦) .

ومن ناحية أخرى ؛ فان وثائق البندقية التي لها علاقة بمصر ، والتي تعد بالآلاف لا توجد لها نصوص وتراجم في مؤلفات المسلمين المعاصرين ، وأغلبها يحتوى على مضمون من طرف واحد ، وهو أرشيف البندقية . حتى الاديب القلقشندي وحده الذى أورد نسخاً من وثائق قليلة جداً لها علاقة بالصلات بين البندقية ومصر ؛ نجد أن نصوصه غير أصلية ، وهى عبارة عن ردود لمراسلات وصلت من البندقية ؛ كما أنه لم يورد أى نص لوثيقة مرسله من قبل السلاطين أنفسهم الى حكام البندقية ؛ على الرغم من استمرار المكاتبات بين الجانبين .

ومع ذلك ؛ فانه من المؤكد أنه كان يوجد بديوان الانشاء المملوكى من يتولى كتابة المراسلات مع البندقية أو غيرها ، وترجمة الوارد منها الى العربية ، بمعنى أنه كان يوجد فيه من الكتاب من يعرفون اللسان الفرنجى ، الذى يعتبره القلقشندي من اللغات الأعجمية ، التي لها قلم يخصها وتكتب به (٧) . ولدينا أسماء بعض من كانوا يترجمون المراسلات الواردة من دولة البندقية ، مثل : شمس الدين سنقر ، وسيف الدين سودون ، فى أيام السلطان فرج (٨) . وكان لابد من أن تقرأ الترجمة على السلطان المملوكى ، ويعتمد ما يكتب به من جواب (٩) . وقد لاحظ القلقشندي أنه لا يوجد فى ديوان الانشاء البندقى من يراعون بصفة خاصة توافر الفصاحة والبلاغة فى مراسلاتهم (١٠) ، مثلاً هو الحال فى ديوان الانشاء المصرى ؛ كذلك ذكر القلقشندي أن المراسلات والخطابات التي نخرج من ديوان الانشاء المملوكى وتوجه الى الخارج كانت تختتم بالشمع الأحمر ، وهى طريقة مأخوذة عن الفرس ، أما الفرنجة ؛ فاتبعوا طريقة طى الكتاب (١١) ، والتوقيع عليه (١٢) .

والواقع أن وثائق أرشيف البندقية المتعلقة بمصر ؛ أصبحت معروفة لدى الباحثين الأوربيين على الخصوص ، مثل Mas-Latrie و Da Mosto ، و Baschet ، و Minotto ، و Rocca و Lombardo ، و Tafel ، وغيرهم . وفى المقابل نذكر أستاذ

علم الوثائق المصرى الأستاذ توفيق اسكندر ، خريج مدرسة الوثائق "L'Ecole des Chartes" ، فى باريس ، وقد ترجم لأول مرة الى العربية بعض الوثائق الخاصة بمصر فى أرشيف البندقية (١٣) .

أما الوثيقة المملوكية العربية الفريدة ، التى أطلعنا عليها فى مكان حفظها بأرشيف البندقية ، فتوجد فى مجموعة "Regestri Bombaci" وهى غير مسجلة مع غيرها من الوثائق التركية فى قوائم الأرشيف ، فى الحافظة (١٦) برقم (X2) . ولم تذكر اسمى مرسلها والمرسل اليه ؛ الا أنه يستدل من تاريخها فى ١٠ من شعبان سنة ٨٧٧هـ (٨ يناير ١٤٧٣) ؛ أن مرسلها هو السلطان الأشرف ، سيف الدين ، قايتباى (٨٧٣ - ٩٠١هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦م) وأن المرسل اليه هو الدوق نيقولا مارسيللو "Doge Nicola Marcello" وأن قاصده هو جيوفانى امو "Giovanni Emo" ، وهى من الناحية الشكلية ، مكتوبة بالخط النسخ ، وعلى وجه واحد من ورق رق أصفر ، وتقع فى حوالى عشرين طية متصلة مع بعضها بدون قطع ؛ وان كانت بدايتها مقطوعة ، وكل قطعة ٣٩ X ٢٧ سم ، وبآخر قطعة منها يوجد توقيع كاتبها فى صورة جميلة ولكن لا يمكن تبين اسمه .

ومن اليقين أنها وثيقة أصلية ؛ ويتبين من مضمونها ، أنها تلقى بعض الأضواء على العلاقات التجارية بين مصر والبندقية ، بمعنى أنها ليست اتفاقية بين أفراد وانما بين كيانيين سياسيين ، وبخاصة أن البندقية غدت بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد أغنى دولة فى حوض البحر المتوسط . وكان البحر المتوسط قد أصبح عندئذ حلقة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وعلى وجه الخصوص التجارة مع دولة سلاطين المماليك فى مصر . وقد عاد هذا النشاط التجارى على البندقية بالخير العميم حتى غدت دولة البندقية تمثل بداية الرأسمالية الأوروبية ؛ مما دفعها الى أن تسعى لأن تكون لها سياسة دولية تتفق وازدهارها الاقتصادى .

يضاف الى ذلك ، أن مضمون هذه الوثيقة يبين قوة الصلات

والروابط التجارية بين مصر والبندقية وقتذاك . فكانت ترد الى مصر من البندقية سبائك الذهب والفضة لسك العملة المملوكية ؛ واعتبر البنادقة وقتذاك ملوك الذهب فى العالم ، وصارت عملة البندقية المسماة : الدوكات الذهبية (١٥) "Ducato d'Oro" أكثر رواجاً فى مصر لجودتها (١٦) ، حتى غدا الدوكات البندقى أشبه بالدولار الأمريكى فى وقتنا اليوم . كذلك كان الجوخ البندقى الوارد الى مصر يفوق كل أنواع الأجواخ الأخرى ، وكان شائع الاستعمال عند المماليك . أما الصادرات الى البندقية من مصر ؛ فكانت أهمها التوابل والبهار . ومع أنه كانت لتجارة التوابل جماعة متخصصة اشتهر أفرادها بتجار الكارم (١٧) "Curiam" ؛ إلا أنه يظهر فى هذه الوثيقة احتكار سلاطين المماليك لها ؛ بحيث انهم قاموا مقام التجار فى تلك الغلة . وقد قامت البندقية بدور الوسيط فى نجارة التوابل "Transito" ؛ فتنقلها فى سفنها الى أوربا ، وتتقاضى عمولة باهظة مقابل ذلك (١٨) . وقد بلغ عدد أنواع التوابل ٣٨٦ نوعاً (١٩) ، منها الفلفل على وجه الخصوص ، وهو الذى كانت البندقية تدفع ثمنه لمصر ذهباً وفضة . وظهر أثر هذه الثروة فى عظمة منشآت المماليك فى مصر ، وفى النهضة الحضارية الضخمة التى عمت مصر فى ذلك العصر . وفى ذلك يقول ابن خلدون (٢٠) : « وليس أوفر اليوم فى الحضارة من مصر . فهى أم العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع » . أما القلقشندى (٢١) فيقول عن القاهرة انها : « أم الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهى فى وقتنا دار الخلافة ، كرسى الملك ، ومنبع الحكماء ، ومحط الرجال » .

ويتبين من خلال مضمون هذه الوثيقة العربية النادرة ؛ أن سلطان المماليك كان يسهل للبنادقة نشاطهم التجارى ليس فقط فى مصر ؛ ولكن فى بقية الأقطار الاسلامية التى تستظل بحكمه . كذلك كان السلطان يعامل قصاد الدوج بأعظم قدر من الحفاوة ، يفوق ما كان يحظى به قصاد ملوك الفرنج الواردين على أبواب السلطنة المملوكية . كذلك كان السلطان يحرص على صداقته ، ويكن له احتراماً كبيراً ؛ فيخاطبه بحضرة الدوج ، ويلقبه بالألقاب الكثيرة ، والنعوت والأدعية ، ويتبادل معه الهدايا .

كذلك يبين مضمون الوثيقة أن السلطان المملوكى كان متيقظاً تماماً فى معاملاته التجارية مع دوج البندقية ؛ بحيث تتفق تلك المعاملات مع ما هو معتمد بين الطرفين من قواعد وشروط . ففى هذه الوثيقة ينكر السلطان على الدوج وجود غش فى الذهب والفضة مما يرد من البندقية ، بل حتى فى الجوخ فهو غير كامل فى المقاس ، وردىء فى صناعته ، وأشار الى أن بعضه مقطوع من الوسط ؛ وذلك على عكس الفلفل المصدر من مصر اليه ؛ فانه سالم من التراب والبلل والخلط . ويطالب السلطان الدوج بتأديب الغشاشين ، ومنع الغش فى بضائعه وصاداته لأن ذلك يخالف ما جرى به العرف فى التعامل معه . كذلك يشكو السلطان من بحارة المركبين اللتين قامتا بالقرصنة فى الثغر السكندرى ؛ وانهم اعتدوا على امرأة مسلمة ، ويطلبه بالبحث عن الجناة وعقابهم - وهو فى ذلك لا يقبل عذراً ولا حجة .

وهكذا يتبين أن هذه الوثيقة على جانب كبير من الأهمية بوصفها الوثيقة العربية الوحيدة فى أرشيف البندقية التى لم تحقق حتى الآن . واذا كان أستاذ الوثائق الراحل توفيق اسكندر قد نقل مضمونها الى تلميذه ، فاننا نأمل أن نكون قد حققناها فى هذا البحث وفق القواعد المتبعة فى تحقيق النص العربى . وفيما يلى نص الوثيقة محققا .

نص الوثيقة السريية محققاً

بسم الله الرحمن الرحيم

الموقر ، المحتشم ، الخطير ، الباسل ، المفخم ، الضرغام (أ) ،
السميدع (ب) ، الهمام ، مجد الملة المسيحية ، جمال الطائفة الصليبية ،
دوج البندقية والمائسية (ج) ، دوج كراك (د) ، دنن (هـ) فى المعمودية ،
صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالى بهجته ، وجدد مسرته . على
أبوابنا الشريفة ، على يد المحتشم قاصده ، وأحطنا علماً بها ، وتقـدم
مثالنا (و) الشريف الى حضرة الدوج أعلمناه فيه بوصول القاصد المذكور ،
وبما عاملناه به من الاحسان بأعظم من جميع قصاصد ملوك الفرنج
الواردين على أبوابنا الشريفة ، لما نحققه من اخلاص حضرة الدوج فى
محبتنا ، ودعائه لمقامنا الشريف ، وأن مراسيمنا الشريفة برزت بقضاء
جميع أشغاله وضروراته ، على حكم ما سأل فيه صداقاتنا (ز) الشريفة ،
ورسمنا بكتابة مراسيم (ح) شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية بجميع
تجار البنادقة ، وأحوالهم عندنا مسددة ، ورسمنا أيضاً بأن فلفل ذخيرتنا
الشريفة ، الذى يعطى لهم يكون سالماً من التراب والبلل والخلط ، كل
ذلك لأجل خاطر حضرة الدوج ؛ وغير ذلك . مما نعرف به حضرة الدوج ،
أن الذهب والفضة ، التى صارت تصل فى القطايح وغيرها الى الثغر
السكندرى وغيره ، يوجد فيها الغش ؛ بحيث أن الماية درهم من الفضة
إذا أضيفت لم تقارب ستين درهماً ، وغالبها نحاس ، وأما القماش الذى
يصل الى أبوابنا الشريفة من المخمل المنقوش ؛ فغالبه مغشوش بالنحاس ،

(أ) الجمع ضراغمة أو ضراغيم .

(ب) ربما المسموع له .

(ج) ربما من الماس ، يعنى الكبار .

(د) لعله يقصد الأماكن التى يحكمها .

(هـ) أى لا شبيه له .

(و) هى ورقة رسمية فى ديوان الانشاء المملوكى .

(ز) فى الأصل : صداقاتنا .

(ح) هى ورقة رسمية فى ديوان الانشاء المملوكى .

وأما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة خمسة وخمسين ذراعاً ، وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ ثلاثين ذراعاً ، وفيه ما هو مقطوع من الوسط ، وتضرر تجار المسلمين بواسطة ذلك ، وتعجبنا كل العجب من هذه الأمور ، وكون يتفق من تجار حضرة الدوج ذلك ، ولا يقابل المعتمد لذلك بما يليق به من تعنيف وتأديب ؛ وقد أعلمنا حضرة الدوج بذلك كله ؛ ليصير على خاطره . ومما نعرفه به أن المركبين اللتين حضرتنا صحبه المحتشم قاصده ؛ تعرض من فيهما من الفرنج لجماعة من المسلمين بالمير(أ) الاسلامية ، وأخذوا منهم وأسروا ، ومن جملة ما اعتمدوه أنهم أخذوا امرأة مسلمة وفسقوا فيها ، وأنكرت حواطرنا الشريفة ذلك ؛ فانه لم يكن جرت عادة جماعة البنادقة أن يعتمدوا شيئاً منه ؛ فحضرة الدوج يطلب تجار البنادقة بأجمعهم ، ويعلمهم بذلك ، ويحتم عليهم أن لا يحضروا ذهباً ولا فضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخاً ولا قماشاً الا كاملاً ؛ على ما جرت به العادة القديمة ، وأنهم لا يعتمدوا قطع شيء من الخرق الجوخ ولا غيره ، ويؤكد عليهم في ذلك ، ويعرفهم أنهم متى حصل منهم شيء من ذلك ، من الآن ؛ يقابلهم على ذلك ، ويصغى حضرة الدوج لما يطالعه <أى القاصد> من المشافهة الصادرة عنا ، ويطلب حضرة الدوج البنادقة ، الذين كانوا بالمركبين المذكورتين ، ويقابلهم على ما اعتمدوه مع المسلمين ، ويلزمهم باعادة ما أخذوه بتمامه وكماله ، ويجهز ذلك والمرأة المسلمة الى أبوابنا الشريفة ، ويقابل الفرنجى البندقى الذى كان قبض عليه ورسمنا باطلاقة ، فانه هو الذى تحدى ، وفعل ذلك ، وأقدم عليه ، ولا يقبل له ؛ ولا لمن كان معه فى ذلك عذر(ب) . ولا حجة ، وأن حصل منهم تهاون فى ذلك ، فيجهزهم الى أبوابنا الشريفة ؛ لنقابلهم على ذلك بالعدالة الشريفة . وقد أعادنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب الشريف ، بعد أن أنعمت مقاصدنا الشريفة عليه ، وعلى جماعته بخلع(أ) شريفة ونفقة ، وجهزنا على يده لحضرة الدوج <و> على سبيل الهدية ، ما تضمنته القائمة المجهزة ،

(أ) أى أماكن التجار المسلمين . انظر Dozy : Suppl,2,p. 628.

(ب) فى الأصل : عذرا .

(أ) هى هدايا رسمية مثل الملابس والخيل وغيرها .

طى هذا المثل الشريف ، فحضرة الدوج يتسلم ذلك ، ويطيب خاطره
وخاطر تجار البنادقة ، ويعلمهم أنهم مشمولون بنظرنا الشريف ، وعنايتنا
الشاملة ؛ فنحيط علماً بذلك ، والله الموفق من كرمه ؛ ان شاء الله تعالى .

فى عاشر شعبان المكرم ، سنة سبع وسبعون وثمانمائة ، حسب
المرسوم الشريف . <و> الحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد
وآله وصحبه وسلم .

الهوامش

(١) أنظر Nuovo Archivi Veneta, 1906, p.160. : نعيم ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ١٩٧٣ ، ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) أنظر Commemoriali, TL. 1 (216)

(٣) نعيم ، طرق : أنظر .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٩ وما بعدها .

Volume I, 1300 — 1317. (٥)

II, 1317 — 1325.

III, 1325 — 1342.

IV, 1342 — 1353.

V, 1353 — 1358.

VI, 1358 — 1362.

VII, 1362 — 1376.

VIII, 1376 — 1395.

IX, 1395 — 1405.

X, 1405 — 1417.

XI, 1418 — 1427 e 1428.

XII, 1426 e 1427 — 1436.

XIII, 1435 e 1436 — 1446.

XIV, 1446 — 1455 e 1456.

XV, 1455 e 1436 — 1470 e 1471.

XVI, 1470 — 1482.

XVII, 1482 — 1495.

XVIII, 1495 — 1504.

XIX, 1502 e 1503 — 1513.

XX, 1502 — 1524.

(٦) أنظر . توفيق اسكندر ، سفارة ببيرو وبيرو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ ، مقدمة ، ص ٣ .

(٧) - صبح الاعشى ، ٣ ، ص ١٦٥ - ١٦٧ .

(٨) نفسه ، ٨ ص ٢٧ : انظر . جوزيف نسيم ، علاقات مصر بالممالك الإيطالية
فى ضوء وثائق صبح الأعشى ، مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية
١٩٧١ .

(٩) صبح ، ٦ ، ص ٢١٢ ، ٢١٦ .

(١٠) نفسه ، ٦ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠١ .

(١١) نفسه ، ٦ ، ص ٢٥٢ .

(١٢) انظر : Ency of Isl, (art Diplomatic) ,2ed, T 2, p.305.

(١٣) نص : Senato Secreta XXXIV f.30,33;

توفيق اسكندر ، انظر .

La Mission de Piero Diedo et la Cession de Chypre 1490. Le
Caire, 1956.

وترجمه الى العربية بعنوان : سفارة بييرو دييدو ، ومعاودة تنازل مصر عن
قبرص ص ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص أو ما بعدها .

- وتفاصيل ، انظر ، ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ،
دراسة تحليلية للازدهار والانحيار : القاهرة ١٩٨٨ ، صفحات ٢٢٧ - ٢٣٨ (أرسلت
البندقية مفيرها الخاص بييرو دييدو Piero Die do ، بصحبة ممثلها فى
قبرص ، وهو ماركو مالبيرو Marco Malipiro ، ومعه تعليمات بالشفرة وهدايا
من دوج Doge البندقية : يريا ليجو Parpadigo ؛ لعقد اتفاق مع
السلطان المملوكى قايت باى ، ليتنازل السلطان عن جزيرة قبرص ؛ لقاء جزية سنوية،
قدرها ١٦ ألف دوكات ؛ الا أن السفير البندقى توفى فى مصر ؛ فقام كاتب سره بورجى
Giovanni-Borghi بتجديد الاتفاق . فعقد قايت باى معه اتفاقية
التنازل ؛ عملت على حسب المراسيم الواجبة ، ووقع عليها القاضى والشهود ، والحقت
بها ترجمة باللغة الإيطالية الدارجة "Volgare" ، وهى الاتفاقية التى توجد
بنصها البندقى فى أرشيف البندقية Archivio Venet ، ومحررة فى ١٧
من ربيع الآخر سنة ٨٩٥/مارس ١٤٩٠ .

عنها ، انظر أيضا : نسيم ، الطرق التجارية وملاحق .

(١٤) انظر : Commemoriali, XVII fo 122, 124; Tomo v.

Libro 17.

(١٥) صبح ، ٣ ص ٤٤١ - ٢ .

(١٦) ابن حجر . انباء الغمر بأبناء العمر ، حسن حبشي ، ٢ ص ٤٠٦ .

Wiet : (١٧) صبح ، ٤ ص ٣٢ ، ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١ ؛ انظر .
Les Marchands d'epices sous les Mamloukos, Cahier Série VII
Fasc 3, Juin, 1955, p.55 sqq. Hist du Commerce, 2, p.59. :Heyd

ولعلها محرفة عن كاتم ، وهي البلد الأفريقي ؛ مما قد يعنى أن أصلها منها .

انظر . :Dozy Suppl, 2, p. 460

. ماجد ، نظم الماليك ، ط ٢ ، ١ ص ١٢٥ .

انظر .

(١٨) توفيق اسكندر ، سفارة ، ص ١٢ .

(١٩) الخطط ، بولاق ، ١ ص ٤٢٠ وما بعدها ؛ انظر . نعيم طرق التجارة ،

ص ١٩٧ .

(٢٠) المقدمة ، ص ٤٥٣ .

(٢١) صبح ، ٣ ص ٣٧١٠ .

النشاط التجاري بالسلط في القرن التاسع عشر وآثاره الاجتماعية

د. عبد العلیم علی أبو هیکل (*)

شهدت المنطقة الواقعة شرقی الأردن مع بداية القرن التاسع عشر نشاطا اقتصاديا ملحوظا خاصة في المجال الزراعي والتجاري لأسباب متعددة، منها ما ارتبط بآزدياد نشاط التجارة العالمية في تلك الحقبة، وجهود الدولة العثمانية في اصلاح بنيانها خاصة الجانب الاقتصادي منه، الأمر الذي يتمثل في صدور قانون الأراضي العثمانية عام ١٨٥٨م، وما ترتب على ذلك من ضرورة احكام القبضة على الولايات التابعة لها، وذلك

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة القاهرة .

(١) جاء ذكر هذه المدينة في المصادر العربية مرسوما على النحو التالي :

«الصلت» بفتح الصاد وسكون اللام، « بلدة وقلعة من جند الاردن وهي في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة منها، وهي تقابل أريحا، مشرفة على الغور . وينبع من تحت قلعة «الصلت» عين كبيرة ويجري ماؤها ويدخل في بلدة الصلت . وللصلت» بعثتين كثيرة، وحب الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد، وهي بلد عامر، أهل بالناس » .

انظر أبو الفدا : تقويم البلدان، طبعة باريس ١٨٤٠م، صص ٢٤٤/٢٤٥
كما ورد ذكرها بنفس الرسم عند المؤرخين المعاصرين مثل ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ح ١٠، حوادث سنة ٥١٢هـ، ص ٥٤٣ .

كذلك المقرئزي : كتاب السلوك، ح ١، ص ١٠٩، ٢٣٥، ٣١٨ .

أما المحدثون من المؤرخين والجغرافيين في عصرنا الحديث فقد استخدموا مصطلح « السلط » بفتح السين وسكون اللام والطاء . انظر على سبيل المثال ما صدر عن أهل المنطقة مثل كتاب أسماء المواقع الجغرافية في الاردن وفلسطين تأليف د. حسن عبد القادر، قسطندي نقولا أبو حمود، عادل شحاده كموشة، محمد محمود السرياني، عمان، ١٩٧٣، ص ٩٨ وغيرها .

وما ورد في كتاب سليمان موسى : الحركة العربية، بيروت ١٩٧٧، ص ٦٧٢ والمصادر والمراجع عن أهل المنطقة التي ورثت بالبحث . وقد أثرنا استخدام هذه الصورة الشائعة الاستعمال في المراجع الحديثة .

(مجلة المؤرخ العربي)

باتخاذ اجراءات أمنية وإدارية متتالية (٢) . وكان أن شهد النصف الثاني من ذلك القرن صدور سلسلة من القرارات التنظيمية المتعاقبة الخاصة بالولايات، كان منها نصيب الجزء الجنوبي انشرقى من بلاد الشام كبيراً، إذ استمر هذا الاقليم بما فيه بلدة « السلط » تابعاً للواء دمشق حتى عام ١٨٦١م عندما لحق بلواء حوران ومعه (عجلون وقضاء الكرك) .

على أن هذا التنظيم لم يستمر طويلاً ، ففي عام ١٨٦٨م ألحقت (السلط) ومعها (الكرك) ، و (الطفيلة) بلواء (البلقاء) ، وفي عام ١٨٧٩م ضم (قضاء معان والكرك) للواء نابلس . أما (قضاء السلط) الذي ألحقت به (عمان) فقد استمر تابعاً للبلقاء حتى عام ١٨٨٨م حيث انتقلت تبعيته الى (لواء حوران) ثم كانت الخطوة الأخيرة في هذه الحركة الادارية عام ١٨٩٣م بتشكيل (لواء معان) الذي شمل (الكرك والسلط مع معان) (٣) .

نلاحظ ان هذا التغيير السريع في التقسيم الإداري لم ينبع من فراغ وإنما كمنت وراءه - بالإضافة الى الهدف الرئيسي وهو النهوض بالدولة العثمانية (٤) - عوامل رئيسية جغرافية واقتصادية على النحو التالي :

فمن الناحية الجغرافية يمثل هذا الاقليم امتداداً صحراوياً مترامياً ، حافلاً بصعاب واضحة في التضاريس والبنية البشرية مما جعل الدولة عاجزة عن ضبط الاشراف عليه اجتماعياً واقتصادياً . وهكذا غدا هذا

-
- (٢) شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب ١٨٠٠/١٩١٤م .
ترجمة د . رؤوف عباس حامد ، ط ١ ، بيروت ١٩٩٠ ، ص ٤٠٣ .
(٣) أنظر تفاصيل هذا التقسيم الإداري لبلاد الشام في :
أ - د . أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني (حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، مجلد ١ ، مايو ١٩٥١ .
وكذلك ب - عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤/١٩١٤م القاهرة ١٩٦٩ ، صص ٧٩/٦١ .

- (٤) بازيلى : سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة د . يسر جابر ومراجعة د . منذر جابر ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٨ ، صص ٢٢٢/٢٢٣ .

الجزء من شرقى الأردن يمثل نقطة ضعف وسط عدد من الولايات العثمانية منها بلاد الشام التى تتصف بالنشاط والحيوية ووفرة الامكانيات الاقتصادية ، والحجاز بمركزه الدينى ، والعراق بموقعه الجغرافى الغنى، وفلسطين بموقعها الذى جعل منها حلقة ربط بين الشام ومصر (٥) .

أما العامل الاقتصادى فقد تمخض عنه العامل الأول عندما هيمنت قبائل البدو على ذلك الاقليم وفرضت نفوذها على القوافل التجارية المتنقلة بين الكيانات السابقة بتحصيل (رسوم العبور) أو (الاتاوة) مقابل التأمين ، كما كان يحدث بالنسبة لقوافل الحج أيضا .

وقد نظرت الدولة الى التجمعات البشرية المنتشرة فى ذلك الاقليم من بلاد الشام على أنها مجتمعات طفيلية لا أكثر تعتمد فى وجودها على ذلك التوافق بين المتطلبات الاقتصادية لأهل البادية من ناحية وبين طبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لانصاف المزارعين على ضفاف نهر الاردن من ناحية أخرى (٦) . أما وقد أضحت الرغبة ملحة فى توفير مزيد من الأموال لدفع عجلة الاصلاح الشامل للدولة الى الامام فقد بات ضروريا احكام الاشراف على هذه المواقع الهشة (٧) ، لاسيما أن هذه المنطقة احتوت على امكانيات زراعية واضحة جعلتها مؤهلة لانتاج الكثير من المحصولات ، فضلا عن وفرة بعض المعادن (٨) .

وكان المزارعون وخاصة فى اقليم السلط قد أقاموا عدداً من الأسواق البدائية التى اعتمدت أساسا على الانتاج الزراعى . ولما وجدوا أن هذا النشاط التجارى فى حاجة الى قدر من الحماية دفعوا الاتاوات لشيوخ

(٥) F.O.78/2016, Report from Rogers to Bulwer, 12/2/1861.

(٦) Lamar and Thompson : The Frontier in History, New Haven, N.4.1981, P.7.

(٧) مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، ح٢ ،

ط١ ، القاهرة ١٩٩٢ ، صص ١٠٤/٩٩ .

(٨) F.O.78/1118, From Wood to Clarendon, Damascus, 12/2/1855.

نقلا عن شارل عيسوى: التاريخ الاقتصادى - المصدر السابق ، صص ٤٥٢-٤٥٣ .

القبائل لتوفير هذه الحماية . وهكذا استفاد شيوخ البدو من هذا النشاط مما أدى الى قدر من الترابط بينهم وبين المزارعين المستقرين . وبالرغم من ندرة التزاوج بين القبائل والقرويين نتيجة لتباين التقاليد المتبعة فى هذا الشأن ، الا أن كثيراً من الروابط الاجتماعية الأخرى ربطت بين الطرفين ، وبخاصة فى مناسبات الأفراح والأحزان والأزياء وكرم الضيافة؛ حتى أن كثيراً من الرحالة الغربيين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر لم يتمكنوا من التمييز بين تصرفات المزارعين القرويين وحياة البدو فى تلك المنطقة (٩) .

ومع التوجهات الإصلاحية للدولة العثمانية صار من الصعب أن تستمر تلك الأوضاع على هذا النمط ، وخاصة بعد السماح للكثير من الجراكسة والتركمان الذين استقدمتهم الإدارة ، بتملك اقطاعات واسعة من الأراضى منذ عام ١٨٥١م فى أريد والسلط عام ١٨٧٦م والكرك ومعان .

وفيما يلى بيان بمساحة هذه الأراضى وتوزيعها ذلك عام ١٨٦٠م / ٢٧٧هـ (١٠) :

المنطقة	المساحة بالدونم للجراكسة والتركمان
أريد	٢٨٥٠ دونم
السلط	٣٠٣١ دونم
الكرك	١١٧٤ دونم

كذلك قدرت بعض المصادر عدد العائلات الجركسية فى ولايات

(٩) Burckhardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands

London, 1922, P.351 وكذلك :

Buckingham (J.S.) Travels Among The Arab Tribes- London 1925, P.50.

(١٠) أرشيف استانبول ، مجلس والا ، وثيقة رقم ١٩٧٠٢ فى ١٢ جمادى الآخرة

١٢٧٧هـ .

الفدان = ٤ دونم ، أو ١٠٢٨ هكتار

الشام بـ ٥٥٤٠ عائلة تركزوا فى القنيطرة وعمان ، والأخيرة قريبة من السلط (١١) (انظر الخريطة الملحقه) .

وكان أن أدى اقطاع الاراضى للجراكسة مع وضعهم الرئيسى كجماعات للحراسة الى استقطاب الى باتجاه الخط المستطيل شرقى نهر الاردن الذى يبدأ من جنوب نهر اليرموك بمنطقة اريد حتى الكرك الى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وفى المنتصف تقريباً (السلط) التى تقع فى الشمال الغربى لمدينة (عمان) حالياً .

وجاء هذا التركيز (الزراعى والاجتماعى) مواكبا لما شهدته بلاد الشام من تحول واضح ، وتدنى ملحوظ لمراكزها التجارية، خاصة (حلب) مع شمال البلاد وانتقال الاهتمام الى الجنوب وذلك نتيجة لعاملين :

أولهما : ما أصاب المنطقة الشمالية من الشام من كوارث متلاحقة خلال القرن التاسع عشر كزلزال عام ١٨٢٢م ، والصراعات الأهلية التى شهدتها النصف الأول من القرن حتى عام ١٨٦٠م ، ومذابح الأرمن عام ١٨٩٥م (١٢) ، وما أشارت اليه المصادر البريطانية من تعرض البلاد عام ١٨٨٠م للمجاعة التى أدت الى وفاة المئات وما خلفته من سلبيات اجتماعية وركود اقتصادى (١٣) .

ثانيهما : مؤثرات حركة التجارة العالمية وركود خطوط المواصلات التجارية عبر شمال الشام وانتقال هذا النشاط الى المناطق الجنوبية ، نظراً لانتقال مواقع المنافسة الأوربية من المراكز والمدن الايطالية الى الموانئ والطرق البحرية التجارية باتجاه الهند ، مما أدى الى انهيار مركز حلب التجارى منذ بداية القرن ١٨م (١٤) .

(١١) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(١٢) شارل عيسوى : المصدر السابق ، ص ٧٢/٧١ .

(١٣) F.O. 195/2766, From Henderson to Layard, 22/8/1880

(١٤) د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة.

(علاقة سورية التجارية بأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر) ~~طرابلس~~ بيروت ١٩٨٤ ، صص ٢٢٧/٢٢٨ .

وقد تمخضت تلك التطورات عن تحقيق حالة من التوازن بين المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية للسكان القدامى (من انصاف مزارعين والبدو) من ناحية والسكان الجدد من (الجراكسة) من ناحية أخرى ، وذلك على النحو التالي :

أولاً : زيادة رقعة الاستقرار الاجتماعى المصحوب بانتشار الأمن وهو ما كانت تنشده الدولة العثمانية والسكان جميعاً على حد سواء . وأدى هذا التطور الى زيادة حجم النشاط الاقتصادى وخاصة ما يتعلق بكثرة الكم الانتاجى فى المحصولات الزراعية ، الأمر الذى تطلب تحقيق قدر من التكامل والربط بين المواقع الحضرية شرقى وغربى نهر الاردن .

ثانياً : نتج عن هذا التوازن ظهور التحول التدريجى من الاقتصاد الاستهلاكى للبدو وانصاف المزارعين الى الاقتصاد الانتاجى لهم جميعاً ، فضلاً عن خلق سوق استهلاكى أشبع متطلبات السكان والدولة على حد سواء فى تحقيق الاستقرار بهذا الأقليم .

وانعكست هذه التطورات بصورة خاصة على موقعين أساسيين ، هما (السلط والكرك) ؛ وكانا حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر مجرد مواقع تجارية وأسواق استهلاكية بين الامتداد الصحراوى الشمالى لشبه الجزيرة العربية ، والمدن الفلسطينية وشمال الشام ، (السلط مع نابلس ، ثم المثلث الذى كانت القدس على رأسه ، وقاعدته السلط والكرك) . أنظر الخريطة الملحقة .

وعندما زار (بوركهارت - Burckhardt) السلط عام ١٨١٢م استطاع احصاء ما يقرب من عشرين حانوتاً تجارياً لمستلزمات السكان من البدو والقرويين (١٥) . ثم جاءت زيارة (باكنجهام Buckingham) بعد ذلك بأربع سنوات فوصف (السلط) بأنها أضحت مركزاً رئيسياً للتجار، وسوقاً يفد اليه كل ذى شأن لقضاء مستلزمات حياته (حيث أضحت من أشهر المراكز التجارية بالمنطقة ويقيم بها أكثر الناس ثراء) وضرب

مثلا على ذلك بتاجر يدعى (أيوب) بلغ اجمالى ثروته خمسة آلاف قرشاً أى ما يوازى أكثر من مائتين وخمسين جنيها استرليناً كما ذكر أن هناك أعداد كثيرة من التجار كان متوسط رأسمالهم ما قيمته عشرة جنيها استرلينية .

وبناء على تلك الملاحظات التى أوردها بوركهارت وباكنجهام عن أعداد التجار ورأسمالهم بالسلط نستطيع القول أن قيمة البضائع التجارية التى كان يتم التعامل بها فى الربح الأول من ق ١٩ لم تقل عن (٦٥٠) جنيها استرلينياً .

ولم تتوقف مهمة أصحاب المحلات التجارية فى السلط عند كونهم مصباً للحاصلات الواردة من القرى وفائض البدو ثم بيعها لأصحاب الحاجة، بل قام هؤلاء التجار أيضاً بما يشبه مهمة (الوكلاء التجاريين) نظير عمولة كانوا يحصلون عليها من تجار المدن الفلسطينية ودمشق وحمص وحلب وحماة، بعدما نقل كثير من هؤلاء التجار أنشطتهم باتجاه الجنوب، عندما تعرضوا للضغوط السابق ذكرها، ونظراً لارتفاع الأسعار فى (السلط) بما لا يقل عن ٥٠% عن مثيلاتها فى (دمشق) تبعاً لما رآه بوركهارت (١٧). وكانت أهم البضائع التى وجد لها سوق رائج هى (الملابس والمفروشات) باعتبارها من الضروريات الأساسية التى كان البدو فى أشد الحاجة إليها ، كما وصف باكنجهام محلات (أيوب) سابق الذكر بأنها أحتوت على الملابس القطنية الواردة من (نابلس) والملابس البدوية بمختلف أنواعها وأشكالها (١٨) والتى كانت ترد خصيصاً لبيعها للقبائل العربية ، كما لاحظ أيضاً انتشار الأسلحة والذخائر بشكل واضح فى محلات (السلط) وكان أشهر من مارسها تاجر يدعى (عبيد) ، حاز على ثقة الكثير من السكان فاتخذوه (تاجر جملة) ورئيساً لبقية أسواق المدينة (١٩) .

Buckingham (J.S.), Travels among The Arab Tribes, (١٦)
London, 1925 PP.34/35

Burckhardt Op.cit, P.351.

Buckingham, pp. 34/35.

Buckingham, op.cit, P.15.

(١٧)

(١٨)

(١٩)

وكانت درجة أنسياب البضائع تخضع للكيفية التي يتم بها تنظيم القوافل وحراستها بالقوة المسلحة بواسطة أفراد القبائل التي تمر القافلة عبر موطنها ودروبها الصحراوية خوفاً من هجمات اللصوص . وكما يقول باكنجهام (كانت هناك اتصالات قائمة ومستمرة بين المدن على ضفتي نهر الاردن شرقه وغربه ، من القدس الى الناصرة الى نابلس الى السلط وعجلون . ودخلت مع هذه المنظومة القرى المحيطة بتلك البقاع) حيث كانت القوافل الشهرية تمر عبر نابلس ، ويحصل أفراد الحراسة ورجال تأمين العبور على جزء من الأرباح مقابل الحماية (٢٠) . كذلك استطاع عدد من الرحالة العرب وغير العرب تكوين جماعات من بينهم للدفاع عن أنفسهم خلال هذه الرحلات .

أما الصادرات من السلط الى فلسطين وشمال الشام فقد تولى أمرها التجار والبدو من المدينة . وكان أبرز تلك الصادرات (السمن) و (الأخشاب) حيث توفرت كميات ضخمة منها ، كما لاحظ بوركهارت وجود كميات كبيرة من (ريش النعام) التي وجدوا لها سوقاً رائجة خاصة في مدينة دمشق (٢١) . كذلك مارس البدو جمع الصمغ واعداده للبيع باعتباره مادة أساسية لدباغة الجلود المنتشرة حينئذ في (القدس) وبعض (القلويات) من الأعشاب الصحراوية التي استخدمت كمادة ضرورية لصناعة الصابون الذي اشتهرت به نابلس .

وقدر بوركهارت حجم تجارة (السلط) في الصمغ بحمولة خمسمائة بعير سنوياً أي ما يقرب من مائتين وخمسين ألف رطل ، تراوح سعرها ما بين ١٥ الى ١٨ قرشاً لكل مائة رطل ، أي أن اجمالي تجارته كان حوالي ٢٥٠٠٠ قرشاً أو ما يقرب من ١٧٥٠ جنيهاً استرلينياً (٢٢) .

كذلك حدد المصدر نفسه حجم المواد المستخرجة من الأعشاب والمستخدم في صناعة الصابون، والتي كانت تصل الى (نابلس) بحمولة

Burckhardt, op.cit, P.342.

(٢٠)

Burckhardt, op.cit, P.351.

(٢١)

Ibid, P.351.

(٢٢)

سنوية تقدر بثلاثة آلاف من الابل أو (١٣٦٠٠) رطلا ، قدر ثمنها بحوالى ١٧٠٠ جنيها استرلينيا (٢٣) .

وفى خريف كل عام كان المحصول السنوى من عصارة تلك الأعشاب تقدمه القبائل البدوية الى مختار القرية أو للوالى . وكان تجار (نابلس) الذين احتكروا تلك التجارة يتوافدون على السلط لشراء تلك المواد . وتبعاً للاعراف القائمة اتخذ هؤلاء التجار لأنفسهم مقاراً خاصة بهم فى المدينة للاقامة اثناء جمعهم لتلك البضاعة ومن ثم ضرورة تحمل اعباء معيشتهم ومعهم رفاقهم ، مما كان يمثل فرصة لأهالى المدينة لتنشيط الحركة التجارية ، فقد كانت أشهر الخريف بمثابة (موسم) يس تفيده منه الأهالى كثيراً (٢٤) .

ومما ساعد أيضاً على ازدياد الحركة التجارية بالسلط ، ما كان يحصل عليه شيوخ القبائل من (خوة) تدفعها القوافل التجارية المارة بموطنهم . وكانت تتراوح بين (عشرة وخمسة قروش) تبعاً للمسافة التى تعبرها القافلة ، كما كان شيخ القبيلة يحصل أيضاً على (قرشين) مقابل الامداد بالمياه ومثلهما للخدمات الاضافية المقدمة لرجال القافلة كالحراسة والراحة مثلاً . وبذلك اذا كان عدد الابل المحملة بالقافلة (٢٠٠٠) فان على القافلة دفع (رسوم للقبائل) مقدارها (٣٠٠٠٠) قرش أو ١٥٠٠ جنيها استرلينيا ، مما حتم على التجار اضافة تلك الرسوم الى ثمن السلعة الأساسى . على أنه من الأمور الجديرة بالتسجيل أن تجار السلط كانوا يقومون بدفع تلك (الجبائية) على قوافلهم الى شيوخ القبائل ، فى حين رفضوا دفع أية مستحقات للسلطة العثمانية .

وفى اتجاه آخر اتسمت معدلات تدفق القوافل من شتى أنحاء بلاد الشام بالثبات وبخاصة من دمشق وفلسطين على قضاء السلط، وذلك عندما أخذت الأوضاع تتخذ فيها شكلاً أكثر استقراراً. وكان ذلك فى الوقت الذى استمرت القلاقل تحيط بمنطقة حوران وما حولها نظراً لاضطراب الأوضاع

الاجتماعية فى القرى بسبب الندرة السكانية وكثافة الضغط القبلى وما سببه كل ذلك من خلل فى الجزء الشمالى من بلاد الشام . وقد أفاضت المصادر والمراجع فى ذكر تلك الأوضاع والتعرض لها (٢٥) ، حيث لم يتحقق لها الاستقرار النسبى الا فى مواسم مرور قوافل الحج السنوية . وتهافت البدو لتحصيل (الخوة) ولو بالقوة خاصة عند مزيريب التى يلتقى عندها كثير من الدروب والطرق الصحراوية (٢٦) . ومن خلال هذا التباين فى الأوضاع نشطت (السلط) تجاريا ، وأمتدت تطلعات تجارها الى توثيق علاقتهم بالقبائل البدوية المجاورة حماية لأنفسهم وأموالهم وبضائعهم . ومع امتداد نفوذ السلطة العثمانية على تلك القبائل مع بداية عام ١٨٦٧م ، أخذ الحرفيون والبائعون يقدمون دون خشية على عرض بضائعهم ومحصولاتهم بشكل مباشر على البدو . ويحكى أحد أفراد الارمالية البروتستانتية فى السلط عن تلك الظاهرة فيقول : (خلال تفقدى للأسواق المجاورة لمدينة السلط عام ١٨٧٠م رغبة فى الحصول على بعض مستلزماتى المنزلية من الاوانى والمأكولات نظرا لانخفاض أسعار تلك الأسواق البدوية عن مثيلاتها داخل المدينة ، شدد انتباهى الكثير من الباعة الجائلين الوافدين من بيروت، والصاغة الوافدين من حلب والناصره ودمشق، وهم يجادلون البدو داخل خيامهم حول أسعار مالديهم من بضائع اشتملت على الأقمشة وبعض الحلى والأوانى المنزلية، مما جعلنى استغرق وقتاً طويلاً ومسافة أطول لامتداد القبائل ومواطنها المضاربة شرقى مدينة السلط لمسافة زادت على خمسة كيلومترات) . وقد حدث ذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر سواء باصدار قوانين تنظيم الطرق المعابر أو تحديد جزء من الموارد المالية للدولة يخصص للحماية والصيانة (٢٨) .

(٢٥) انظر فى ذلك مثلاً : ملحم خليل عبده وأندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨ .

وكذلك : Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria, London, 1969.

(٢٦) Hill (Gray), A Journey of Petra, 1896, London 1897.

(٢٧) P.M.R. (Protestant Missionaries Resident), Report from

F.A.Klein, Salt, October 1871.

(٢٨) على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادية ، دمشق ٢٤٢هـ ، صص ٢٤٣/٢٤٤ .

وقد أستثمر التجار الجدد القادمون من أنحاء الشام باتجاه السلط هذه التوجهات من قبل الدولة العثمانية وقاموا بافتتاح عدد من المحلات التجارية على جانبى تلك الطرق فى القسرى المطلة عليها وأوردت المصادر بيانا بالاعداد التقريبية لتلك المحلات على النحو التالى :

الطريق من السلط - مويلح - الزرقاء	٣٥ محلا
من السلط - عمان	٢٧ محلا
من القصر - الكرك	١٨ محلا
من الكرك - الطفيلة	٢٢ محلا (٢٩)

وكانت مقدمات هذا الاستقرار التجارى والأمنى عاملا مشجعا لمزيد من التجار للقدوم الى (السلط) وبالتالى ازدياد الاعداد السنوية والشهرية للقوافل التجارية القادمة من المدن الفلسطينية وشمال الشام بصورة ملحوظة ، حيث بلغت أعدادها وزيادتها على النحو التالى (٣٠):

العام	عدد دواب القافلة فى العام
١٨٦٠	٢٦٩٥
١٨٦٢	٢٨٠٢
١٨٦٤	٣٠٠٠
١٨٦٦	٣٠٥٠
١٨٦٨	٢٩٦٠
١٨٧٠	٣٢١٥

ومع ازدياد عدد القوافل القادمة الى السلط ، بدأ صغار التجار الذين توافدوا على المنطقة قبيل التركيز العثمانى بالدخول ضمن فئة كبار التجار الذين ازدادت أعدادهم بالضرورة ، واتسعت حلقة النشاط التجارى

F.O.406/26, Letter from Col. Burnaby to Russel
16/1/1861

(٢٩)

P. M. R./O/72/266, Annual Report from Protestant
Missionaries Resident in Salt, October 1871.

(٣٠)

وغدت أكثر قوة في أواخر عام ١٨٧٠م . وقد قدر عدد التجار الذين ارتفع رأس مالهم عن ٣٥٠.٠٠٠ قرشا بخمسة وثلاثين تاجرا عام ١٨٥١م ، ثم ارتفع هذا العدد الى ما يزيد على أربعة وثمانين في عام ١٨٧٠م، وهؤلاء اتخذوا من المدينة مركزاً لتجميع البضائع وتوزيعها على القرى والقبائل البدوية المحيطة (٣١) . ومع نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر بدأ سكان السلط يستشعرون مدى ما يتمتع به تجار (فلسطين) و (الشام) القادمون عليهم من استقرار وأمن على بضائعهم وأرواحهم ، وكيف انهم في وضعهم المالي غدوا أفضل بكثير مما كان عليه سكان المدينة الأصليين وتجارها (٣٢) .

وكان من الصعب على هؤلاء التجار الكبار الاعتماد في حماية أنفسهم وتجارتهم على البدو على نحو ما كان عليه الوضع عند بداية قدومهم أول مرة ، أو الركون فقط الى تبادل المنفعة بينهم وبين أنصاف المزارعين باعتبارهم شريان الامداد الرئيسى للتجارة (٣٣) . كذلك لم تكن هناك امكانية تحول هؤلاء التجار الذين انتشروا في اقليم البلقاء عامة والسلط بصفة خاصة الى ممارسة الزراعة مع القصور في عناصر قيامها (ندرة الأمطار) و (قلة خصوبة التربة) . مما حتم ضرورة الاستمرار في النشاط التجارى في ظل الأوضاع الجديدة التى فرضتها السلطة العثمانية . وكان أن ازداد النشاط التجارى سواء داخل بلاد الشام نفسها ، أو بين الأخيرة وأوربا منذ أواخر عام ١٨٥٦م ، وصارت (السلط) مركزاً رئيساً من مراكز التوجه التجارى نحو تلك البقاع (٣٤) ، وكان التركيز في بداية الأمر على هذا النشاط التجارى (المحدود) دون سواه ، والبعد عن الانغماس فى مجال الاستثمارات الأخرى داخل المنطقة .

ومما شجع أيضا على هذا الاتجاه ذلك التدفق المتزايد فى أعداد الوافدين الى (السلط) خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر من

Ibid (٢١)

C.M.S./O/36/11/ , From Khalil AL Jamal, 29/11/1879. (٢٢)

Schleher (Linda), The Huran Conflicts of The 1860, (٢٣)

London, 1881, P.174.

Ibid (٢٤)

دمشق وبغداد والقدس بهدف التجارة أو لتأدية فريضة الحج . واتخذ الوافدون من المدينة نقطة (التقاء) سواء للراحة أو المتاجرة بما معهم من بضائع . وأوردت المصادر بيانا تقريبا عن تلك الاعداد العابرة خلال الخمس سنوات الأولى من العقد التاسع للقرن التاسع عشر على النحو التالي (٣٥) :

أعداد الوفود			
العام	من دمشق	من فلسطين (يافا/ نابلس)	بغداد
١٨٩٢	٣٢٣٠	٢٨١٥	٢٠٥٥
١٨٩٣	٣٥٥٠	٣٣٧٠	٢٨٠٠
١٨٩٤	٤٢٠٠	٣٦٠٠	٤١٠٠
١٨٩٥	٥١٠٠	٤١٥٠	٤٥٥٦

ولا شك في أن الحبوب كانت تأتي على رأس قائمة السلع المتداولة، وحقق كبار التجار من المتاجرة فيها أرباحاً طائلة ، فكان سعر المكيال من القمح في السلط (قرشين) في عام ١٨٦٠م ، ثم وصل الى قرشين ونصف القرش في نوفمبر ١٨٦٩م . وفي موسم الجفاف قفز سعر القمح ووصل الى ذروته فبلغ أربعة عشر قرشا (٣٦) . وفي ذلك الوقت كان اقليم (حوران) في مركز متقدم لبلاد الشام في انتاج الحبوب وسرعان ما لحقت به السلط بعد عام ١٨٨٨م . وأوردت بعض المصادر بيانا عن مقدار انتاج بعض أقاليم الشام على النحو التالي (٣٧):

- N.A. 890/31, Report From U.S. Consulate Jerusalem, (٣٥)
Syria, to Tomas Cridler, Washington, August 1900.
L.P.J. (Latin Patriarchate of Jerusalem), MeM. of Jean (٣٦)
Morétain, 1869, PP.466/492
F.O.195/2097, From Richards to O'Connor, 3/10/1901 (٣٧)
نقلا عن شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادي ، ص ٤٦٥

الاقليم	عدد السكان	المساحة المنزرعة	القمح	الشعير
حوران	٥٣ر٥٤٠	٢٩٧ر١٧٥	١ر٠٦٣ر٧٤١	٤٤٧ر٧٠٨
جبل الدروز	٣٣ر٠٩٠	٢٤٥ر١٤٠	٧٩١ر٧٠٠	٤١٦ر٩٦٧
عجلون	٣٠ر٠٠٠	٢٢٥ر٠٠٠	١ر٦٨٠ر٠٠٠	٦٢٠ر٠٠٠

ولكثرة انتاج (حوران) من الحبوب اضطر مزارعو الاقليم الى دفع نصف الحمولة الى المكارى - صاحب الجمل - نظير نقله الى عكا (٣٨) ، التى نشطت تجاريا بسبب تدفق كميات الحبوب من حوران عليها ، والى (ميناء حيفا) حيث أكد مشاققة (أن الأكثرية من حبوب حوران تتجه نحو حيفا) (٣٩) . وأوضح تقرير آخر لنفس المصدر عام ١٨٩٩م أن ما مجموعه (٢ر٠٥٢ر٠٠٠) كيلة من مجموع انتاج حوران من الحبوب البالغ كميته (٥ر٩٢٠ر٢٥٠) كيلة كان يأتى من (عجلون) (٤٠) .

واذا كانت (حوران) قد تفوقت فى انتاجها من الحبوب وتصديرها الى الخارج أو ارسالها الى بلاد الشام الشمالية ، فان السلط ومعه الكرك ومعان قد تنوع انتاجها الزراعى بصورة ملحوظة عن غيرها من المناطق ، مما ساهم فى ازدياد نشاطها التجارى ؛ فكان انتاجها على النحو التالى :

(٣٨) عيموى : المصدر السابق ، ص ٣٦٠ .

N.A.890/O, Record Book, Damascus, Vol.I (٣٩)

(1900/1908) PP.269/270.

N.A.890/15, Report on The Trade of Damascus 16/9/1900 (٤٠)

المحصول	الكمية
القمح	٢٠٠ر٠٠٠ طن
الشعير	٥٦ر٠٠٠ طن
الذرة	٧٥ر٠٠٠ طن
السمسم	٢٠٠ر٠٠٠ كيلوجرام
الصمغ العربى	٢٠ر٠٠٠ »
البطيخ	٥ر٠٤٠ر٠٠٠ بالعدد
العنب	١ر٠٠٠ر٠٠٠ بالكيلو
الفاكهة عامة	١ر٠٠٠ر٠٠٠ بالكيلو
اعلاف حيوانية	١ر٥١٠ر٠٠٠ »
خضروات	٥٠٠ر٠٠٠ »
أخشاب	٥٠ر٠٠٠ »
بقول	١ر٦١٣ر٠٠٠ »
تبغ	٢١ر٥٠٠ »
العسدس	٤٢٠ر٠٠٠ »
زيت الزيتون	١٠ر٠٠٠ كيلو
زيتون	١٥ر٠٠٠ »
قطن خام	١٤٠ر٠٠٠ »
صوف	١٠ر٠٠٠ »
عسل وشمع	٧ر٠٠٠ »
محصولات أخرى متنوعة	١٠ر٠٠٠ (٤١)

يتضح من هذا الجدول الذى ورد ضمن أوراق الارشالية أن أرقامه اعتمدت على (التقريب) بما يعنى أن الأرقام تقديرية وتعبر عن رؤية خاصة، كما نعتقد أن هناك قصور لحق بتلك القائمة ، مثلما يبدو فيما ورد بها عن كمية انتاج (العنب) الطازج ، وهذا صحيح من حيث وجود زراعة

تلك الفاكهة بالمدينة وما حولها ، الا أن البيان لم يرد به شيء عن (الزبيب) خاصة وأن (السلط) معروفة بانتاجه وتصنيعه وتصدير كميات ضخمة منه الى المدن القريبة وبخاصة (القدس ونابلس) . وقد أورد القنصل امريكى بالقدس تأكيداً لذلك عندما ذكر أن كميات الزبيب التي ترد الى المدينة من مناطق انتاجه وتصنيعه في (السلط) بلغ متوسطها السنوى ٣٨٠ طن . أى ما يوازى في قيمته ١٩٠٠٠ دولاراً حسب التقدير الذى أورده عام ١٨٩٧م (٤٢) .

كذلك اغفل تقرير الارسالية (القلويات) المستخرجة من الأعشاب حيث ذكر القنصل الأمريكى أن الكميات المصدرة من (السلط) الى (نابلس) بغرض صناعة الصابون أو دباغة الجلود ، قد تراوحت سنوياً بين (٧٦٠) و (١٢٠٠) كيلو جرام فى عام ١٨٩٥م . ثم تراجع هذا الرقم بعد ذلك ليصبح المتوسط السنوى بين ٥٣٠ و ٨٥٠ كيلوجرام ، نتيجة للاتجاه نحو استخدام الكيماويات الصناعية الأرخص سعراً من قبل معامل الصابون ودباغة الجلود فى القدس ، من خلال التجار الأوربيين المقيمين فى القدس (٤٣) .

وعلى الرغم من تلك الملاحظات المتعلقة بالأرقام التى أوردتها وثائق الارسالية باعتبارها أرقاماً تقريبية غير محددة تحديداً دقيقاً ، مع اغفال بعض المنتجات الرئيسية التى اشتهرت بها (السلط) ، الا أن الحقيقة المؤكدة فى ذلك هى أن المدينة وتوابعها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر أضافت بانتاجها الزراعى ، مع ما كان يقوم به كبار التجار ، دفعة جديدة كثفت من خلاله نشاطها التجارى ، فأكدت المصادر الأمريكية أن ما يقرب من ٦٠٪ من الانتاج الزراعى للسلط كان يعد للتصدير باتجاه البلدان الواقعة غربى نهر الاردن (نابلس ، القدس ، حيفا) وإلى دمشق وحلب فى شمال الشام ، كما أن ١٥٪ من حجم التجارة كانت ترسل الى اقليم الحجاز ومصر وأوربا (٤٤) .

N.A. 890/O/17, Report From M.Wallace, Jerusalem (٤٢)

12/1/1898.

N.A.890/O/17, Op.cit. (٤٣)

Ibid— (٤٤)

وكان طبيعياً مع ازدياد هذا النشاط التجارى وتنوع مصادره ، أن تظهر فئة من كبار الرأسماليين ساهموا بقسط وافر فى اثراء النشاط التجارى من خلال ما كانوا يقدمونه من قروض عينية ومالية للتجار أو المزارعين . وقد بدا واضحاً أن أغلبية هؤلاء الرأسماليين كانوا من الوافدين الى السلط من فلسطين ومن نابلس بصفة خاصة . وصاحب عمليات الاقراض ارتباك واضح من خلال الأسلوب الذى كانت تتم به ، عندما تولت (المحكمة الشرعية) بالمدينة أمر تسجيل القروض ، وذلك نظراً للتفاوت الزمنى على مدار الأيام بين التوقيت الهجرى والميلادى ، وتمسك الأطراف المعنية بما يناسبها من توقيت لنهاية القرض . هذا بالإضافة الى أن كثيراً من الشهود الذين كانوا يوقعون على الصكوك المالية وقعوا فريسة للاغراء المالى لصالح أحد الاطراف فغيروا شهاداتهم رغبة أو رهبة ، نظراً لأن الأغلبية الساحقة منهم اتخذت مسألة الشهادة (حرفة للحصول على المال) (٤٥) .

ويتضح مما تضمنته سجلات المحكمة الشرعية لمدينة السلط خلال الفترة من عام ١٨٨٥م حتى ١٨٩٠م أن عدد قضايا القروض التى حكم فيها (١٢٤) قضية مالية ، وأن هناك (٦٠) قرضاً قدمت من التجار الفلسطينيين ، (٣٥) قرضاً من الدمشقيين كما بلغ عدد الذين حصلوا على قروض من مدينة السلط فى ذات الفترة (١١١) مواطناً (٤٦) .

ومع استمرار حلقة القروض المالية والعينية ، أضحت عناصر القوة لمدينة السلط بأيدى كبار الرأسماليين الذين وردت اسمائهم فى سجلات المحكمة الشرعية للمدينة ، ومن أبرز تلك الأسماء (عبد الرازق طوقان وداود أفندى طوقان وعبد الرحمن بك طوقان) وهم جميعاً كما هو واضح من أسرة واحدة ، ارتبطت أصولهم ونشأتهم بمدينة (نابلس) لكنهم هاجروا وأقاموا بالسلط خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ،

N.A.890/O/21, Report on The Trade of Jerusalem, (٤٥)
1/2/1900

(٤٦) المحكمة الشرعية بالسلط مجلد رقم ٢ ، ص ١١ ، والصورة لتلك السجلات، موجودة بمكتبة الكونجرس الأمريكى (القسم القانونى) تحت مسمى (محاكم شرعية - الشام) .

(مجلة المؤرخ العربى)

وغطت قائمة القروض التي مارسوها ثمان صفحات فى سجلات المحكمة الشرعية ، وبلغ عددها (٢٤٣) قرصاً قيمتها (٣٩٣٨٣ ر) قرشاً قدمت بشكل نقدي . أما قروضهم العينية فكانت على النحو التالى :

١٣٦٣٣ صاعاً من القمح و ٣٠٦٢ صاعاً من الشعير و ٢٢٢٧ ر قدرأ السمن . كذلك قدرت كمية الحبوب الموجودة بمخازنهم فى ذات المدينة بـ (٦٠٠٠) صاعاً من القمح و (٨٠٠) من الشعير (٤٧) .

وبالاضافة الى آل طوقان ، برز أيضاً اسم (الحاج عبد القادر جعبير) ، وتبعاً لما جاء فى ذات السجل بلغت قيمة القروض المقدمة منه (١٢٠٠٠ ر) قرشاً ، وعينياً (١٥٠٠٠ ر) صاعاً من القمح ، وحوث مخازنه (٧٠٠٠) صاعاً من القمح ، و (٢٠٠٠) من الشعير ، و قدرت السجلات قيمة ما يمتلكه من بضائع فى المدن الأخرى (دمشق وبيروت) بما قيمته (٤٠٠٠٠ ر) قرشاً (٤٨) . وتشير الملاحظات التى وردت فى السجلات المتعلقة بهذا الاسم الى أنه كان من الرجال الذين مارسوا عدداً من الأنشطة الاقتصادية المتنوعة . فبالاضافة الى ممارسة عمليات اقراض الأموال وتجارة الغلال واعدادها للتصدير ، فقد كان نشطاً أيضاً فى استيراد البضائع السورية واعدادها بالسلط من أجل الاستهلاك المحلى بها (٤٩) .

هذا بالاضافة الى وجود (كثرة) من أمثال هؤلاء الرأسماليين بالسلط بلغت قيمة رؤوس أموالهم فى عام ١٨٩٥ مبلغاً قدره (٦٥٠٠٠ ر) قرشاً (٥٠) ، وعلى جانب آخر شجع نمو رأس المال بالسلط أعداداً أخرى من مدن فلسطين ودمشق للقدوم الى السلط وأتجه نشاطهم بصفة خاصة

(٤٧) سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعوام (١٣١٥/١٣١٩هـ) ، صص ١٧٨/١٦٩ ، ٢ رمضان ١٣١٨هـ ، ٢٥ ديسمبر ١٩٠٠م .

(٤٨) نفس المصدر .

(٤٩) نفس المصدر .

(٥٠) سجلات المحكمة الشرعية بالسلط : المصدر السابق .

نحو الاستثمار الزراعى وامتلاك الاراضى حتى عام ١٨٩٥م ، وفقا
للمجدول التالى (٥١) :

العدد	رأس المال	متوسط الملكية بالدونم
١١	٣٥٠.٠٠٠ قرش	١٥٥ دونم
١٧	٢٨٠.٠٠٠ »	١١٠ »
١٣	١٩٠.٠٠٠ »	٩٥ »
٢٣	١٣٠.٠٠٠ »	٧٠ »

وكان الهدف من مجيء هؤلاء التجار الى السلط هو جمع أكبر قدر من الثروة والسيطرة على مركز رأس المال من خلال العمل كصيافة فى أول الأمر ، ثم ممارسة تجارة الحبوب التى تشتهر بها المنطقة ، الى جانب مباشرة عملية الاستيراد والتصدير ، واستطاعوا بمثل هذه السبل أن يصبحوا من كبار ملاك الاراض ليس فقط حول منطقة السلط بل تجاوزوها الى معظم أجزاء المنطقة الجنوبية الشرقية من بلاد الشام (٥٢) ، وما ان اقترب القرن التاسع عشر من نهايته حتى أضحي هؤلاء الرأسماليين (أمراء) خاصة من قدم منهم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث اقترنت اسمائهم بألقاب مميزة فى سجلات المحكمة الشرعية بالسلط فلقبوا بذوى المقام العالى والقدر الكبير، وألقاب أخرى تبدو فى النص التالى : -

(الكبير ، ذائع الصيت ، الموثوق فى أمانته السيد فايد أفندى ابن
المرحوم الرئيس الأمين عالى المقام والقدر التاجر السيد حسن أفندى
النابلسى) (٥٣) .

Jerusalem, 30/6/1896.

(٥١)

(٥٢) نفس المصدر ، والفدان = ٤ بونم .

(٥٣) المحكمة الشرعية للسلط ، سجل رقم ٤ ، ٢٢ جمادى الأولى ١٢٢٨هـ /

١ يونية ١٠١٠ .

وكان أن أضحى لتلك الفئة الجديدة سمة مميزة لحياتهم الاجتماعية فاتخذوا لاقامتهم القصور الفخمة التي استحضروا لبنائها عمالا من فلسطين ، وذلك وفق طابع من البناء مميز بعيد عن الطراز (الصحراوي) الغالب على بيوت السلط . واتسمت مباني هؤلاء الأغنياء بالفخامة والسعة ومظاهر الثراء ، وجرى بناؤها بأدوات فنية مستوردة من الخارج كما زينت بالفسيفساء على غرار ما تميزت به منشآت المدن التاريخية القديمة (٥٤) .

على أنه من الملاحظ أيضا أن تلك القصور لم تكن مجرد مبان للاقامة فقط ، انما ألحقت بها مخازن لحفظ البضائع ، وأخرى حولها اتخذت مقراً للبيع ، ويجوارها مكاتب لمباشرة النشاط الاقتصادي والأمور الادارية وللإشراف على الأرض والعمال بها (٥٥) . وخلصت المصادر في هذا الى أن العدد التقريبي للتجار في السلط بلغ ثمانمائة تاجراً في حين بلغ سكان المدينة وما حولها ٤٢٠٠ نسمة أي بنسبة ١ : ٥ (٥٦) . على أن تلك الأرقام لأعداد التجار عامة والتي أوردتها المصادر الأمريكية، لم تتوقف عند أعداد (كبار التجار) كما هو ملاحظ، وانما كانت الغالبية العظمى من تلك الأعداد مجرد (تجار وسطاء) اتخذوا من أعمال (السمسرة) و (تجارة الجملة) و (مباشرة أعمال الصيرفة) حرفة لهم ، وهم في هذا حلقة وصل بين الفئات العليا والدنيا، لكنهم ابتعدوا في كثير من الأحيان عن الإقامة الى جوار كبار الرأسماليين، (أملا في جمع أكبر عدد من الاتباع حتى يتمكنوا من جمع عناصر القوة) (٥٧) التي تدفع بهم الى فئة الرأسماليين . ومع ذلك فإن هؤلاء (الوسطاء) كانوا في نهاية الأمر بالنسبة لسكان المدينة والحضر من حولها معدودين من التجار (وأصحاب الأموال) (٥٨) .

N.A.890/O/15, From Wallace, Jerusalem, 14/11/1908. (٥٤)

N.A.890.3, From Selah Merrill, Annual Report on Affaires (٥٥)
in Palestine, Jerusalem, 1893.

Ibid .

(٥٦)

Ibid.

(٥٧)

N.A.890.3, Op.cit.

(٥٨)

وعلى جانب آخر فى التطور الاجتماعى للسلط وبشكل ملفت للنظر فقد تمكن تيار التدفق التجارى من سحب البساط من تحت أقدام المجتمع التقليدى (التداخل الزراعى البدوى) القائم منذ زمن بعيد حتى منتصف القرن التاسع عشر ليتجه بسرعة بعد ذلك نحو (مجتمع زراعى تجارى) بكل سماته وعلاقاته الانتاجية .

وقد جاء فى تقرير البطريكية البروتستانتية أن مجتمع السلط فى أواخر القرن التاسع عشر انقسم الى قسمين : الأول وهم السكان الأصليون الذين أرتبطت حياتهم وتجزأت بين طبيعة المجتمع الزراعى وقبائل الصحراء وربما خلقت تلك العلاقة من سمات تبادل للمنافع بعيدا عن يد الدولة صاحبة السيادة . والثانى هم الذين قدموا الى المدينة من بلاد الشام وغيرها وانصبت أنشطتهم على التجارة وأقراض الأموال، ثم تحولوا بعد ذلك الى ملاك للأراضى الزراعية أو كوسطاء . وأرتبطت عناصر هذا القسم ارتباطا قويا بالجراكسة اللذين منحتهم الدولة العثمانية أراضى زراعية أرتبطوا بها جميعا (تجارا وملاك) حرصا على استمرار مصالحهم . كما أرتبطت بهذا القسم الثانى أعداد وفيرة من القسم الأول، بعدما وجدوا أن هذا (الارتباط المستقر) جعلهم فى مأمن من تقلب أهواء ونزاعات القبائل التى كانت قائمة قبل ذلك (٥٩) .

وفى هذا يقول لورنس (أوليفية) (Lawrence Oliphant) الذى زار السلط عام ١٨٨٠م (ان مناخ الأمن السائد فى الاقليم كان عاملا من عوامل الجذب للاقامة والاستقرار بالمركز - السلط - وأن الوافدين من التجار العرب استطاعوا الحصول على مزيد من الأرباح والأموال من جراء نشاطهم المتزايد فى تجارة المحصولات والمواشى) (٦٠) .

ولا شك فى أن علاقات الانتاج الجديدة والتطور الاجتماعى وليد النهضة لم يكن ليكتب لهما البقاء بعيدا عن مصلحة الدولة العثمانية التى

P.M.R. (Protestant Missionaries Resident, 15/13 Report (٥٩)
from Bellamy, Al Salt; October, 1871.

Oliphant (L.), The Land of Gilead, N.Y.1881, P.181. (٦٠)

استرعى نظرها تطورات النشاط الاقتصادي لقضاء السلط وامكانية الاستفادة منه ، بما يحقق خططها فى الاصلاح الذى كانت تتطلع اليه ، خاصة بعدما غرست بالمنطقة فئات موالية لها بدءا بالجراكسة ووصولاً الى التجار ليشكلوا خط دفاع بشرى ضد فوضى الضغوط البدوية الملاصقة . واستطاعت الدولة من خلال ذلك تحقيق هدفين أساسيين :

الأول : الهدف الأمنى باستقطاب هذه العناصر البدوية داخل اطار المجتمع الأكثر استقراراً والتخلى عن ممارسة الاغارة والسلب والنهب . وقد أوردت بعض الوثائق التركية النتائج الايجابية لهذا التطور بانحسار عدد الهجمات من جانب البدو على الاراضى الزراعية والقرى فيما بين عام ١٨٧٦م وعام ١٨٩٣م على النحو التالى (٦١) :

العام	حوادث الاعتداء
١٨٧٦م	٢١٦ حادثة
١٨٩٣م	٦٧ حادثة فقط

الثانى : وهو الهدف المالى اذ حدث تحسن ملحوظ فى زيادة ايرادات الدولة من ضريبة (ويركو التمتع) (٦٢) وهى الرسوم التى كانت تحصل على النشاط التجارى بصفة خاصة والتى تراوحت نسبتها منذ منتصف القرن التاسع عشر بين ٣٠ و ٥٠ فى الألف قرشاً . وقد لوحظ مدى الزيادة المضطردة فى قيمتها على النحو التالى (٦٣) :

(٦١) أرشيف استانبول : ييليز سراى ، اوراق رقم ٩٢٧ ، ظرف رقم ٦٢ عام ١٢١١هـ .

(٦٢) كلمة تركية بمعنى المال الميرى أو الضريبة الرسمية .

(٦٣) أرشيف استانبول : مالية ، وثيقة رقم ٦٥٢٣٠١ بتاريخ ٧ جمادى الاولى عام ١٢١٠هـ .

العام	الايراد من الضريبة بالقروش
١٨٨٧هـ/١٣٠٥م	٢٧٥/٥١٦ قرشاً
١٨٨٨هـ/١٣٠٦م	» ٢٨٩/٢٠١
١٨٨٩هـ/١٣٠٧م	» ٢٩٥/٨٧٤
١٨٩٠هـ/١٣٠٨م	» ٣٢٧/٦٤٢
١٨٩١هـ/١٣٠٩م	» ٣٤٨/٠٣٢

وبهذا النجاح الأمنى والمالى للدولة العثمانية والاستقرار الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، بدأت السلط تأخذ طابعاً جديداً فى انماطها المتعددة حتى غدت فى نهاية المطاف نواة للاستقرار والنمو لكثير من البقاع المحيطة بها خاصة (عمان) التى كانت فى وقت من الأوقات مجرد قرية تابعة لقضاء السلط حتى عام ١٣١٨هـ/١٩٠٠م (٦٤) .

وأغلب الظن من خلال استقراء تلك التطورات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ان قيام اماره شرق الاردن عقب الحرب العالمية الأولى لم يأت من فراغ وانما كمنت وراءه الكثير من الأهداف الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية . ومن بين هذه الأسباب والأهداف كان موقع السلط وتنامى مركزها مع الرغبة فى احكام القبضة على المنافذ الجنوبية لبلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية لتعويض ما تطلع اليه الطامعون من سيادة على سورية ، وما خسروه فى جبهة (الحجاز) عقب الثورة العربية عام ١٩١٦م .

مصادر البحث

أولا : وثائق بلغة أجنبية :

(أ) وثائق بريطانية

1. F.O.406/26, 16/1/1861
2. F.O.1951/2706, 22/8/1890
3. F.O.78/20/6, 12/2/1861

هذا بالإضافة الى الوثائق المنقولة والمترجمة من كتاب :

شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلل الخصب ١٨٠٠/١٩١٤ ،
ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، بيروت ١٩٩٠ .

(ب) وثائق أمريكية : N.A.

1. N.A. 890/3/ , August, 1860
2. N.A. 890/3, 1893
3. N.A. 890/29, 30/6/1896
4. N.A. 890/0/17 12/1/1896
5. N.A. 890/2/ 1/2/1900
6. N.A. 890/15/ 16/9/1900
7. N.A.890/0/ 1900/1908
8. N.A. 890/15 14/11/1908

(ح) وثائق الارساليات التبشيرية بالقدس والسلط

وأصول تلك الوثائق موجودة فى لندن F.O. وصور منها فى
مركز الوثائق القومى الأمريكى وتشمل (الارسالية البروتستانتية
وبطرياركية اللاتين ، والكنيسة الكاثوليكية ، وبلغت وثائق تلك
الارساليات أربعة عشر مصنفا ، جمعت على طياتها تقارير عن النشاط
الذى كانت تقوم به تعليميا وثقافيا وصحيا فى بلاد الشام منذ بداية

القرن التاسع عشر ، بعضها احتوى على أرقام سلسلة والآخر بدون ،
واقترنت غالبيتها على الفهرسة الزمنية، وما تم الاطلاع عليه فقط ما يلي:

1. Protestant Missionaries Resident : (P.M.R.) P.M.R.6/79/266,
October, 1871
2. Latin Patriarchat of Jerusalem, (L.P.J.) 1869
3. Archives of Church Missionary Society (C.M.S.) O13611/O
29/11/1879
C.M.S. 12/12/1899

ثانيا : سجلات محكمة السلط الشرعية : وصور منها أيضا موجودة
بمكتبة الكونجرس (القسم القانوني) الشام .

- ١ - سجل المحكمة الشرعية بالسلط ، المجلد رقم ٢ .
- ٢ - سجل المحكمة الشرعية بالسلط عن أعوام (١٣٢٩/١٣١٥ م) .
- ٣ - سجل المحكمة الشرعية بالسلط رقم ٤ جمادى الأولى ١٣٢٨ هـ .

ثالثا : المصادر التركية :

- ١ - أرشيف استانبول : مجلس والا ، رقم ١٩٧٠٢ ، ١٣ جمادى
الآخرة ١٢٧٧ هـ .
- ٢ - أرشيف استانبول: ييلديز سراي، ٩٢٧ ظرف رقم ٦٢/١٣١١ هـ .
- ٣ - أرشيف استانبول : مالية ، رقم ٦٥٢٣٠١ عام ١٣١٠ هـ .

رابعا : المصادر والمراجع العربية :

- ١ - د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة
العربية الحديثة (علاقة سورية التجارية بأوروبا بين القرنين السادس عشر
والتاسع عشر) ط٢ بيروت ١٩٨٤ .
- ٢ - بازيلى : سورية ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركى ، ترجمة
د . يسر جابر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٨ م .
- ٣ - د . حسن عبد القادر وآخرون : اسماء المواقع الجغرافية في
الأردن وفلسطين ، عمان ١٩٧٣ .

- ٤ - شارل عيسوى : التاريخ الاقتصادى للهلل الخصب ١٨٠٠هـ /
١٩١٤م ترجمة د. رؤوف عباس حامد ، ط١ ، بيروت ١٩٩٠ .
- ٥ - عبد العزيز محمد عوض : الادارة العمانية فى ولاية سورية
١٨٦٤هـ / ١٩١٤م ، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦ - على الحسنى : تاريخ سورية الاقتصادى ، دمشق ١٣٤٢ هـ .
- ٧ - ملحم خليل عبده وآندروس شخاشيرى : مشهد العيان بحوادث
سورية ولبنان ، ١٩٠٨م .
- ٨ - مانتران (روبير) : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير
السباعى ، ط٢ ، ط١ ، القاهرة ١٩٩٣ .

خامسا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1. Burchardt (J.L.), Travels in Syria and Holy Lands London, 1922
2. Buckingham (J.S.), Travels Among The Arab Tribes, London, 1925
3. Hill (Gray), A Journey of Petra, London 1897
4. Lamar and Thompson, The Frontier in History, New York, 1981
5. Schileher (Linda), The Huran Conflicts of the 1860 London 1881
6. Tibawi (A.L.), A Modern History of Syria London, 1969

سادسا : حولية كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الأول ،
مايو ١٩٥١ .

باب عرض الكتب (*)

نعرض فى هذا الباب أربعة كتب صدرت حديثا ، أحدها صدر فى أواخر عام ١٩٩٣ ، والثلاثة الأخرى صدرت عام ١٩٩٤م ، وكلها لأعضاء عاملين فى اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . وهيئة تحرير المجلة ترجو كل من يبعث اليها بكتاب من تأليفه أن يرفق به نبذة قصيرة للتعريف بشخصه وعمله ونشاطه العلمى وانتاجه .



١ - الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبي والمملوكى :

كتاب صدر فى دمشق ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، تأليف الأستاذ الدكتور ابراهيم زعرور . والكتاب يقع فى نحو مائتين وثمانين صفحة ، وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار بمقدمة علمية مسهبة .

ومن المعروف أن علم التاريخ يشكو دائما من نقص خطير فى الجوانب الحضارية بوجه عام ، والاجتماعية والاقتصادية بوجه خاص . والفكرة السائدة عند الكثيرين هى أن التاريخ لا يعنى أكثر من السرد السياسى للأحداث ، وما يرتبط به من قيام دولة أو حاكم وسقوط أخرى أو آخر . وهكذا تأتى الحوادث المرتبطة بالحكومات ، والمواقع الحربية المرتبطة بالحروب والهجرات ، والثورات المرتبطة بالمشاعر والاحاسيس أو بالأطماع .. تأتى فى كتب التاريخ فى اطار رؤية سياسية ، غالبية ، بحيث يندر أن يتعرض باحث للظواهر والأسباب الاقتصادية أو للنتائج والاضاع الاجتماعية التى كثيرا ما ترتبط بالمسيرة السياسية .

وربما أدى الى هذه الظاهرة أن الباحث فى دراسته لا يجد عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيما تحت أيديه من مصادر سوى اشارات عابرة متناثرة . وحسب صاحب المصدر أن يعنى فى حولياته أو تراجمه

(*) يستهدف هذا الباب التعريف بالكتب التى أصدرها الأساتذة أعضاء الاتحاد فى العام السابق مباشرة .

باخبار الحكام من خلفاء وملوك وسلاطين وأمراء ويسهب فى الحديث عن أعمالهم فى ميادين الحرب والسلام ، دون أن يتطرق الى معيشتهم أو يحاول تقصى ما يرتبط بحياتهم الخاصة ، وحياة رعاياهم على تباين فئاتهم وطبقاتهم . ومن هنا تأتى صعوبة البحث فى التاريخ الاجتماعى بوجه خاص ، لأن الباحث فى هذا الباب لا يجد أمامه فى المصادر مادة علمية وفيرة يقتطف منها ويبنى عليها بحثه ، وانما هى اشارات مبعثرة لا تربط بينها وبين بعض روابط ، وربما جاء ذكرها عن طريق المصادفة العابرة .

وقد اختار الدكتور ابراهيم زعرور أن يخوض فى هذا المجال الصعب . ولا شك فى أنه تحمل الكثير حتى أخرج لنا كتابه عن الحياة الاجتماعية فى بلاد الشام فى العصرين الأيوبي والملوكى . ومن الثابت أن هذه الحقبة الزمنية التى تحرك الباحث داخل اطارها غنية بالأحداث ، اذ يكفى أنها شهدت ظهور بيوت حاكمة جديدة ، وقيام عناصر غير عربية فى حكم بلاد هى أجزاء من صميم الوطن العربى . وهؤلاء الوافدون حملوا معهم الكثير من العادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية ، مما أحدث تفاعلا بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين . ومثل هذا يقال عن مجيء الصليبيين من غرب أوربا الى بلاد الشام ، يحملون حراهم وسيوفهم ويحملون أيضا أصولهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم . ولاشك فى أن بقاء الصليبيين على أرض الشام وبين أهلها قرابة قرنين من الزمان - شغلت العصر الأيوبي بأكمله وشطرا من فجر عصر سلاطين المماليك - أدى الى ظهور تأثيرات غربية - ولو طفيفة - فى المجتمع الشامى ، وان كانت دون التأثيرات التى خلفها المجتمع الاسلامى فى الصليبيين .

فى هذه الميادين الصعبة المتفرقة ، تحرك الباحث - الدكتور ابراهيم زعرور - فقدم للقارئ دراسة دسمة عن ماهية الحياة الاجتماعية وأوجه النشاط فى المدن الشامية ، وعرض حياة المزارعين وأهل البادية . وكل ذلك من منظور اجتماعى ، وبأسلوب هادئ متزن ، معتمدا على عدد كبير من أمهات المصادر المعاصرة والمراجع الحديثة .

٢ - بحوث فى التاريخ والحضارة الاسلامية - الجزء الأول :

تأليف دكتور غيثان بن على بن جريس - أستاذ التاريخ الاسلامى
المشارك ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية - جامعة الملك سعود -
فرع أبها .

كتاب فى نحو ثلثمائة وثلاثين صفحة ، صدر عن دار المعرفة
الجامعية بالاسكندرية سنة ١٩٩٤م .

والكتاب يضم أربعة عشر بحثا فى التاريخ الاسلامى ، فى موضوعات
متفرقة متباينة لا يربط بينها الا وحدة الفكر ووحدة التعبير بوصفها
جميعا بقلم باحث واحد ، فضلا عن أنها جميعا تدور داخل اطار التاريخ
الاسلامى .

وفى المقدمة التى قدم بها الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
لهذا الكتاب ، أشار الى أنه صار من المألوف أن يلجأ باحث الى جمع
عدد من بحوثه التى نشرها فى أماكن متفرقة - وربما فى أوقات متباعدة -
ليصدرها فى مجلد أو أكثر ، حتى يتسنى لأكثر عدد من الباحثين الرجوع
اليها والافادة منها . ذلك أن غالبية بحوث الباحثين تنشر فى مجلات
علمية ضيقة الانتشار ، مما يجعلها صعبة المنال .

وهكذا نحا الدكتور غيثان بن على بن جريس نحواً محموداً ، فجمع
عدداً مختاراً من بحوثه التى تعرضت لجوانب شتى فى التاريخ الاسلامى ،
وأصدرها فى هذا الكتاب . وتتصف هذه البحوث بالأهمية حيث أنها
تتعرض لجوانب فى التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى ، مثل
العلاقات بين الحجاز من جهة وبلاد الحبشة من جهة أخرى فى صدر
الاسلام ، وطرق التجارة البرية والبحرية التى ربطت الحجاز بالعالم
الخارجى فى فجر الاسلام ، وعلاقة علماء الحجاز بالخلفاء العباسيين ،
وهيئة الملابس العربية فى صدر الاسلام ... وغير ذلك من الموضوعات
الجديدة الشيقة التى تجعل من هذا الكتاب مطلباً محموداً فى مجال
دراسة التاريخ الاسلامى .

٣ - الدولة اليهودية :

تأليف تيودور هرتسل ، ترجمة محمد يوسف عدس ، مراجعة وتقديم الأستاذ الدكتور عادل حسن غنيم .

كتاب فى مائة وأربعين صفحة ، صدر عن دار الزهراء للنشر ، ١٩٩٤م مؤلف الكتاب أحد أقطاب الفكر الصهيونى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين (١٨٦٠ - ١٩٤٩م) وهو مجرى المولد والنشأة ، كرس حياته الطويلة لخدمة الصهيونية ، وتحديد أهدافها العالمية ، والتخطيط لسياستها فى الداخل والخارج ، فى الباطن والظاهر . ويكفى أن نشير الى أن هذا الرجل هو صاحب الدعوة للمؤتمر الصهيونى الأول الذى عقد فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ ، وهو المؤتمر الذى فتح الباب أمام خمسة مؤتمرات أخرى عقدت كلها فى حياة هرتسل ، وجاءت متممة للمؤتمر الأول .

وفى هذا الإطار تحرك هرتسل بوصفه المخطط للسياسة الصهيونية ، الوجه لمسيرتها ، وعبر عن آرائه وتصوراته وخطته فى هذا الكتاب الذى لم يلبث أن غدا بمثابة دستور للحركة الصهيونية العالمية ، حتى أن كثيرا من اليهود اعتبروا هذا الكتاب فى أهميته يأتى مباشرة بعد التوراة والتلمود .

يقارن هرتسل فى كتابه بين فلسطين والأرجنتين ، وأيهما أصلح لتكون مقرا لدولة يهودية فيقول « ان فلسطين وطننا التاريخى الذى لا تمحى ذكره . ان اسم فلسطين فى حد ذاته كفيل بأن يجتذب شعبنا بقوة وفعالية رائعة . فاذا منحنا جلالة السلطان (العثمانى) فلسطين ، سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم الاوضاع المالية فى تركيا . ومن تلك البقعة سوف نسهم فى دعم استحكامات أوروبا فى مواجهة آسيا ، بحيث نشكل موقعا أماميا للحضارة فى مواجهة البربرية . وعندئذ علينا كدولة طبيعية تقوم على أرض فلسطين أن نظل على اتصال بكل أوروبا التى سيكون من واجبها أن تضمن بقاينا » .

هكذا كان يخطط اليهود لدولتهم منذ سنوات بعيدة فوضعوا قواعد السياسة التى تتبعها دولة اسرائيل اليوم .

وربما كان من العوامل التى أضرت بقضية العرب ازاء قيام دولة يهودية على أرض فلسطين ، أنهم لم يحاولوا فى الوقت المناسب فهم نوايا أعدائهم وخططهم ، وأسلوبهم فى التنظيم والعمل ، فقاطعوا الفكر اليهودى ضمن سياستهم فى مقاطعة اسرائيل ، وبذلك ظلوا يعيدون عما تستهدفه السياسة الاسرائيلية من أهداف .

وإذا كان الاستاذان محمد يوسف عدس والدكتور عادل حسن غنيم قد حرصا على ترجمة كتاب تيودور هرتسل عن الدولة اليهودية الى العربية ، فان هذا العمل فى الواقع يعتبر اسهاما مهما فى تبصرة الفكر العربى والانسان العربى بحقيقة الخطر الصهيونى ، وأسلوب الصهاينة فى العمل والتخطيط .

والكتاب يتصف بدقة الترجمة وأمانة التعبير وسلامة الاسلوب والحرص على تقديم المعنى على حرفية اللفظ .

٤ - دور العرب فى اكتشاف العالم الجديد :

تأليف الباحث الاردنى دكتور فهمى توفيق مقبل .

كتاب فى نحو مائة وخمسين صفحة ، صدر عن دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة ، ١٩٩٤ .

يعالج المؤلف فى هذا الكتاب حلقة هامة فى تاريخ العرب فى عالم البحار . ذلك أن السائد عند الباحثين هو أن نشاط العرب البحرى - وبخاصة تحت مظلة الاسلام - اقتصر معظمه على الجانب الشرقى من العالم المعروف ، أعنى على البحار المحيطة بشبه الجزيرة العربية ، والممتدة الى شرق آسيا وجنوبها الشرقى .

هذا بالاضافة الى الدور الخالد الذى نهض به العرب فى بحر الروم، حتى فجر العصور الحديثة .

وحول هذه المحاور تحرك العرب يقطعون البحار ، تجارا ومهاجرين ، طلاب دين ورزق وعلم، دعاة فكر وعقيدة ، غزاة وفاتحين . أما البحر المحيط ، وهو المحيط الواسع الذى نطلق عليه اليوم اسم (مجلة المؤرخ العربى)

المحيط الأطلسي ، فقد وقف أمامه العرب وقفة المتخوف حتى انهم أطلقوا عليه اسم بحر الظلمات ونظروا اليه نظرة تفيض بكل ماتعبر عنه الظلمة من آفاق مجهولة .

ولكن الدكتور فهمي توفيق مقبل ، أثبت علميا أن هذه القطيعة بين العرب والبحر المحيط - أو بحر الظلمات - لم تطل ، وأن العرب عندما استقرت لهم الأمور في الجناح الغربى للدولة الاسلامية ، قرروا اقتحام ذلك العالم المجهول للوقوف على أسرارهِ . وربما كان ايمانهم بكروية الأرض - وهى الحقيقة التى ألح عليها وتمسك بها الجغرافيون المسلمون - سببا حفزهم لاقتحام بحر الظلمات فى محاولة للوصول الى شرق القارة الآسيوية .

وفى مهارة الباحث المدقق الذى لا يستهدف الا الوصول الى الحقيقة تتبع الدكتور فهمي توفيق مقبل نشاط العرب البحرى فى بحر الظلمات - مستعينا بما جاء فى أدق وأوفى المصادر التاريخية والجغرافية من معلومات وإشارات ، مستشهدا بنصوص واضحة لا مجال للشك فيها أو الاقلال من قيمتها .

ثم ان الباحث لم يكتف باثبات أن العرب فى ظل الاسلام استخدموا عددا من الأجهزة العلمية فى ارتياد البحار ، ووضعوا الخرائط الجغرافية الدقيقة التى مكنتهم من عبور بحر الظلمات ، وانما استطاع الباحث أن يبرز حقيقتين :

الأولى : هى أن العرب كانوا أسبق من كريستوفر كولبس فى اكتشاف العالم الجديد . والحقيقة الثانية هى أن كولبس نفسه استعان بالخرائط التى وضعها العرب والأجهزة التى استخدموها فى ارتياد المحيط .

والكتاب فى مجموعه دراسة علمية - تاريخية جغرافية - تشهد لصاحبها بالكفاية والقدرة على الاتيان بجديد فى عالم البحث .

رئيس التحرير

استدراك المقال

«حول العلاقات بين مصر وجنوب الجزيرة العربية فى العصر الفرعونى»

للاستاذ الدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد

المنشور فى العدد الثانى من المجلد الأول ص ٣٣ - ٧١

وقعت بعض اخطاء مطبعية فى هذا المقال بسبب صعوبة رسم الحروف والكلمات ، كما كانت بعض نقاطه محل استفسارات من بعض الزملاء ، وفيما يلى تصحيح الالخطاء المطبعية وتوضيح النقاط الغامضة .

ص٣٢ سطر ٣ (من أسفل) : كتبت عبارة « نصوص معينة » وصحتها « نصوص معينة » (نسبة الى دولة معين القديمة فى شمال اليمن) .

ص٣٩ السطر الأول وتوضيحه كما يلى : « ورغم هذه الحقائق الواضحة ، فان بعض الباحثين المصريين الذين نشروا بحوثا فى مجال نشاط المصريين فى البحر الأحمر مازالوا ينادون » (الى آخر الفقرة) .

ص٣٩ سطر ٧ (من أعلى) وصحته كما يلى : « تفسيرات خاطئة لبعض النصوص والرسوم »

ص٣٩ سطر ١٣ (من أعلى) كلمة « رم » صحتها « ارم » .

ص ٤٥ السطر الثالث (من أسفل) وصحته كما يلى : « هذه الاستنتاجات أسست على معلومات نقلت من مصادرها نقلا غير صحيح » .

ص٥٠ سطر ١١ (من أعلى) وصحته كما يلى : « وبطبيعة الحال ليست هناك حاجة لمناقشة ترجماته لهذه النصوص » .

ص٥٠ سطر ١٥ (من أعلى) صحه هذا السطر كما يلى : يجعل ترجمات الباحث لهذه النصوص لا تستند الى أى أساس » .

ص ٥٠ نقل السطر الهيروغليفي من الأصل بترتيب مختلف للعلامات الهيروغليفيه وفيما يلي قراءة هذا السطر بالترتيب الصحيح للعلامات وبالحروف العربية تيسيرا لعملية الطبع :

« سبر نمو ويت ار تا سنثر - انتى ام - خت . اف تبي ام
وروو نو بونت »

ص ٥١ مثل السطر السابق نقل هذا السطر الهيروغليفي بترتيب مختلف وفيما يلي قراءته بالترتيب الصحيح :

« نجا حنع . ان ان نهوت عنتيو حریت - ايب تا سنثر بر امن »
ص ٥١ السطر الثانى أسفل النص الهيروغليفي المذكور أعلاه : كتب
رقم الحاشية (٥٦) وصحته (٥٧) .

ص ٥٦ السطر الأخير فى النصف الايمن من الصفحة : كتبت عبارة
« وادى الحمامات » وصحتها « ووادى الحمامات » (اضافة واو العطف) .

ص ٥٦ السطر الثالث من أسفل فى النصف الأيسر من الصفحة :
كتبت كلمة « اون » وصحتها « ان و » .

ص ٥٧ السطر الأخير صحته كما يلي « » ويبدو أن السبب فى هذه
الاستنتاجات غير المنطقية للباحثة .. » .

ص ٥٨ سطر ١٢ (من أسفل) كتب رقم الحاشية (٨٩) وصحته (٨٠)

ص ٦٣ السطر الرابع (من أعلى) يصحح كما يلي : « فان مؤلفات
ودراسات الباحثين المصريين عامة والمتخصصين منهم فى هذا المجال
خاصة مازالت للأسف الشديد تخلو » .

وكذلك يضاف الى نهاية هذه الفقرة المراجع التالية :

- عبد العزيز صالح ، « شبه الجزيرة العربية فى النصوص المصرية
القديمة » مجلة عالم الفكر ، الكويت ١٩٨٤ ، ص ٢٩٣ - ٣٢٢ .

- أبو العيون بركات ، « بونت بين المصادر المصرية واليمنية القديمة » مجلة اليمن الجديد ، صنعاء ، فبراير ١٩٨٦ ، ص ٩٤ - ١٠٩ .

ص ٦٣ سطر ٨ (من أعلى) سقط رقم الحاشية لهذا المرجع الألماني والتعليق عليه وهما كما يلي :

4. M.Hilzheimer; "Zur Geographischin Lokalisierung Von Punt" Z.A.S.68 (1932), S. 112-114.

ورغم مرور ما يقرب من ستين عاما على نشر هذه المعلومة التي توصل اليها هلسهيمر ورغم انتشارها في كل المؤلفات الأجنبية ، ورغم اننى نشرتها في بحثين احدهما صدر عام ١٩٧٤ بعنوان « محاولة لتحديد موقع بونت » ص ٢٣ ، والآخر عام ١٩٧٩ بعنوان « الجزيرة العربية ومناطقها في النقوش القديمة في مصر » .

ص ٤١ ، ورغم أن الباحث رجع الى هذا البحث الأخير ، الا أنه نقل عنى هذه المعلومة نقلا خاطئا عندما نسب الى اننى ذكرت في بحثى الثانى أن حيوان الزراف الذى ظهر فى رسوم بعثة حتشبسوت الى بونت كان ضمن السلع المنقولة الى مصر (ابة العيون بركات ، بونت ، ص ١٠٩ هامش رقم ١) وأن هذا الحيوان لم يظهر داخل القرية فى مناظر بونت (نفس المصدر ص ٩٤) وذلك لى يثبت أن بونت تقع فى اليمن .

ص ٦٣ حاشية رقم (٦) : تصحح كلمة «المؤتمرات» الى «المؤثرات» وتوضح هذه الحاشية كما يلي :

(٦) عبد المنعم عبد الحليم سيد ، « دراسة تاريخية للمصلات والمؤثرات الحضارية بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات البحر الاحمر ، رسالة دكتوراه ، غير منشورة كلية آداب الاسكندرية ، (١٩٧٣) ص ٤٨ وما بعدها ، والمصدر الأساسى الذى اعتمدت عليه فى هذه المعلومات هو :

E.Schiaparelli; La Geografia dell'Africa Orientale secondo le Monumenti Egiziani, Roma, (1916) pp.115-119.

وقد ظهر فى السنوات الأخيرة كتاب يعالج نفس الموضوع ويتبع نفس

طريقة هذا المؤلف ويتضح لمن يراجع الكتابين أن مؤلفة الكتاب اعتمدت اعتمادا أساسيا على كتاب سكياباريلى هذا ولكن للأسف دون أن تشير إشارة واحدة اليه ، وعنوان هذا الكتاب هو :

Karola Zibelius, Afrikanische Orts-und Völkernamen in hieroglyphischen und hieratischen Texten, Wiesbaden, 1972.

ص٦٤ حاشية (25) تصحح كما يلى "p. 173 No. 427p.213"

ص٦٧ حاشية رقم (٥٨) كتب رقم الصفحة «٧» وصحته «٨٧» .

ص٦٧ حاشية رقم (٦٣) كتب اسم المؤلف R.Falkner وصحته R.Faulkner

ص ٦٧ سطر ٣ (من أسفل) صحته كما يلى « فان الاقرب الى الصواب أن يكون الاله »

ص٧٠ حاشية رقم (٨٩) طبعت الكلمة الهيروغليفية مقلوبة .

مؤتمر

الجمعية العمومية الثانية
لاتحاد المؤرخين العرب

٢

القاهرة

جمادى الآخرة ١٤١٥هـ / نوفمبر ١٩٩٤م







بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية

اتحاد المؤرخين العرب

بالقاهرة

—

برنامج

الجمعية العمومية الثانية

٢٣-٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ

٢٦ - ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤ م

اليوم الأول

(السبت ٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ - ٢٦ نوفمبر ١٩٩٤ م)

الجلسة الأولى الساعة العاشرة صباحاً (١٠ - ١٢)

- تقرير رئيس الاتحاد

- مناقشة تقرير رئيس الاتحاد

استراحة وتناول الشاي لمدة نصف ساعة

الجلسة الثانية (١٢:٣٠ - ٢)

- التقرير المالي يقدمه الأستاذ الدكتور أمين الصندوق ومناقشته.

اللقاء (الساعة الثانية)

الجلسة الثالثة (٤ - ٦)

عمليات انتخاب :

• رئيس للاتحاد.

• نائب رئيس للاتحاد.

• أعضاء لجنة الأمناء أو مجلس الإدارة.

اليوم الثاني

(الأحد ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٥ هـ - ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤ م)

الجلسة الرابعة (١٠ - ١)

- آراء ومناقشات ومقترحات الأعضاء.
- قرارات.
- ختام.

الفداء (الساعة الواحدة)

جولة حرة

السابعة مساء مغادرة الفندق لتناول العشاء بالخارج

بسم الله الرحمن الرحيم تقرير رئيس الاتحاد

حضرات الاخوة الزملاء أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مرحبا بكم فى رحاب اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، وفى ظل هذا الاجتماع الثانى لجمعية العمومية ، وهو الاجتماع الذى ينعقد وفقا لأحكام اللائحة الأساسية للاتحاد ، الصادرة فى جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ/ديسمبر سنة ١٩٩١م .

حضرات الاخوة الزملاء

الآن ، وقد انقضت ثلاث سنوات على قيام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، لابد من وقفة قصيرة لمراجعة النفس ، والتحقق من سلامة المسيرة ، والنظر فى الانجازات التى تحققت ، والكشف فى أمانة عن الصعوبات التى واجهت الاتحاد فى هذه السنوات ، والكيفية التى يمكن بها التغلب على هذه الصعوبات .

حضرات الاخوة الزملاء أعضاء اتحاد المؤرخين العرب

تذكرون جميعا أن هذا الاتحاد ولد فى القاهرة فى ظروف صعبة بناء على طلبكم . والوليد لا يمكن أن يولد كبيرا ناضجا مكتملا ، وإنما هو ينمو مع الوقت حتى يشتد عوده ويقوى بنيانه . ولابد فى مرحلة النمو هذه من أن تعترضه بعض صعوبات ، فيكون ذلك اختبارا للوقوف على حسن الاستعداد ومدى القدرة على الثبات . وليس عيبا أن يتعرض الانسان العامل لصعوبة ولكن العيب هو ألا يحاول الاستفادة من التجارب التى يمر بها والصعوبات التى يصادفها فى مسيرته البناءة .

وعندما شرفنى الاخوة الزملاء منذ ثلاث سنوات باختيارى رئيسا

لاتحادهم ، أدركت منذ اللحظة الأولى أن الأمانة ضخمة وأن الحمل ثقيل ، ولكن بعون الله وبعاونكم وضعنا لهذا الاتحاد الوليد أساسا سليما ، وفر لهذا البنيان دعائم قوية قوامها حسن النوايا وسلامة الخلق والجدية فى العمل . لقد أعلنها هذا الاتحاد منذ مولده بالقاهرة أنه قام لا ليصفق لفرد أيا كان أو ينحنى أمام نظام تحت تأثير الخوف والرعب والتهديد والابتزاز ، وإنما قام للحفاظ على التراث العربى وحمايته وتنقيته مما لحق به من شوائب ، فضلا عن الحفاظ على كرامة المؤرخ العربى بعد أن جعل منه اتحاد حكومة بغداد البائد دمية مأجورة لا عمل لها الا أن ترقص أمام حاكم بغداد وتسبح بحمده وتبارك سياسته العدو انية فى الداخل والخارج .

حضرات الاخوة الزملاء

ان عدد المقبلين على الانضمام الى اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة فى تزايد مستمر ، حتى قارب الثلاثمائة عضوا . واذا كنا نفخر اليوم بنمو المدرسة التاريخية العربية على الصعيدين المحلى والعالمى ، فما أحوجنا الى العمل على حماية هذه الأسرة مما قد تتعرض له من صعاب ، مع الخرص على تماسك بنيانها ووحدة صفها وتحقيق الترابط بين أعضائها تحت مظلة العروبة . وهذا الاتجاه كفىل بأن يجعل المؤرخ العربى يشعر فعلا بأن له كيانا جديرا بالتقدير والاحترام فى مجتمع يعتز بتراثه وأصوله وتاريخه المشرف .

حضرات الاخوة الزملاء

لا نريد أن ننتهم بالمبالغة فى تقدير ما أنجزناه فى هذه السنوات القليلة من أجلكم ومن أجل اتحادكم ، لكننا مضطرون لأن نعلنها فى تواضع أننا بفضل الله وبفضل تأييدكم لنا وبفضل معونة أعضاء اللجان - وبخاصة أعضاء مجلس الاتحاد - الذين دأبوا على مراسلتنا وامدادنا بأرائهم السديدة ، أمكننا أن نحقق الكثير فى حدود الزمان والامكانيات المتاحة لنا ، وما كلف الله نفسا الا وسعها . وعندما نشكر الأعضاء والزملاء جميعا بلا استثناء الذين قدموا لنا ولاتحادكم الكثير من الجهد والعطاء ، أرى من واجب الأمانة أن أذكر اسم الرجل المتواضع الذى يفضل دائما

أن يكون بعيدا عن الأضواء ، الأخ الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل نائب رئيس الاتحاد ووكيل جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض ، ويكفى أن أقول أنه قدم لاتحادكم الكثير فى صمت وهدوء .

حضرات الاخوة الزملاء

لقد بدأ هذا الاتحاد مسيرته قبل أن يكون له مقر أو مأوى ، ولكن بناء على دعم من رئيس جامعة القاهرة السابق - الأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة - حصلنا على مقر مؤقت بجامعة القاهرة . ومازلنا نسعى لدى الحكومات العربية حتى قامت حكومة الكويت بشراء المقر الحالى فى مكان هادىء بمدينة نصر بالقاهرة ، وقدمته للاتحاد ليكون مقرا له .

وما كدنا نطمئن على أن اتحاد المؤرخين له بيت يمكن أن تبشر منه شئونه الادارية وينطلق منه نشاطه العلمى ، حتى بادرنا بالسعى لتسجيله رسميا وفقا لقوانين الدولة التى استضافت الاتحاد . وتم عن طريق مكتب كبير من مكاتب المحاماة بالقاهرة اشهار الاتحاد رسميا برقم ١٠٩٢ وتاريخ ٢٢ مارس ١٩٩٢ وبذلك صار الاتحاد هيئة مرخصة معترف بها رسميا .

ثم كان أن أخذنا فى تجهيز المقر الجديد بالأثاث المكتبى اللازم والاضاءة الكافية ، وأعددنا فيه قاعة للمحاضرات والندوات واللقاءات المحدودة العدد . أما الاجتماعات الموسعة الكبرى مثل اجتماعنا اليوم ، فلا يوجد ما يحول دون اختيار احدى القاعات الفسيحة لعقدتها فيها ، وهذه ظاهرة تتكرر بين حين وآخر . وسننظم فى الساعة الرابعة من بعد ظهر الغد زيارة لمن يرغب منكم للمقر الجديد لتقفوا بأنفسكم على ما أنجزناه فى اعداده وما نبذله من جهود .

ولم يقف نشاط الاتحاد فى هذه السنوات الثلاث عند هذا الحد ، وانما أرسينا أسس اصدار مجلة المؤرخ العربى فى وضع جديد منتظم ، وصدر منها العددان الأول والثانى ، ويجرى الاستعداد لاصدار العدد الثالث قريبا ان شاء الله . وقد راعينا فى هذه المجلة أن تكون بحوثها

محكمة حتى تصبح منارا لعلم التاريخ بوجه عام وتاريخ العرب والعروبة بوجه خاص ، كما فتحت المجلة صدرها لأعضاء الاتحاد من الباحثين على تباين درجاتهم العلمية بحيث لا يحرم المؤرخ الناشئ من أن يجد له مكانا يمكنه من شق طريقه ليصبح مؤرخ المستقبل . كل ذلك فى حدود الالتزام بالمنهج التاريخى السليم والحرص على المستوى العلمى المنشود . ومع التمسك بالحيدة المطلقة أخذت مجلة المؤرخ العربى تشق طريقها فى الأوساط العلمية ، حتى أن بعض الهيئات على المستوى العالمى طلبت منا تزويدها بانتظام بالاعداد التى تصدر من هذه المجلة . ومع كل ذلك فاننا نشعر بأن مجلة الاتحاد فى حاجة الى مزيد من الجهد لتصبح فى مجال الريادة العلمية فى عالمنا العربى .

وفى اطار النشاط العلمى للاتحاد فى هذه السنوات الثلاث تم عقد ندوتين ، تعقد ثالثتهما بعد غد ان شاء الله . الندوة الاولى شارك فيها الاتحاد قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، بوصفها الجامعة التى استضافت الاتحاد قبل أن ينتقل الى مقره الجديد ، وكان موضوع هذه الندوة « مصر والجزيرة العربية بين الماضى والحاضر والمستقبل » . وقد عقدت فى ابريل سنة ١٩٩٣ . أما الندوة الثانية فكان موضوعها « الحضارة الاسلامية وعالم البحار » . وقد عقدت فى نوفمبر سنة ١٩٩٣ ، وشارك فيها عدد كبير من الأعضاء ببحوثهم وآرائهم وتم عقدها بمقر الاتحاد فى مدينة نصر ، وأصدر الاتحاد كتابا يضم بحوث هذه الندوة .

حضرات الاخوة الزملاء

.. لقد وضعنا سياسة لاتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد ، محورها دعم الصلات الروحية والفكرية بين أعضاء الاتحاد ومركزه فى القاهرة . ولعل هذا يفسر كثرة المراسلات المتبادلة بيننا وبينكم والتى تستهدف اطلاع الزملاء على مسيرة الاتحاد من جهة والحفاظ على الخيوط التى تربط أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض من جهة أخرى . واذا كان البعض قد شك من عدم وصول رسالة اليه ، فاننا نرجو ألا يعتبر ذلك تقصيرا منا ، وانما هو الخلل فى وسائل المواصلات ومنها البريد ، مما نعرفه جميعا .

ويسوقنا هذا الى الاشارة الى الصعاب الأساسية التي واجهها ويواجهها الاتحاد في مرحلة الفطام الحالية . وأولى هذه الصعاب ما يتعلق بالتمويل . فاتحاد المؤرخين العرب الذي يشعر بجسامة مسؤولياته وخطورة رسالته في خدمة الأمة العربية ينتظر أن تكون المعونة التي يتلقاها من الحكومات العربية القادرة تتناسب مع أهمية رسالة الاتحاد وثقل أعبائه . وقد وجهنا نداءا الى كافة الحكومات العربية لتقدم العون لاتحاد المؤرخين العرب في وضعه الجديد ، وهي الحكومات التي كان بعضها يمد اتحاد بغداد البائد - تحت تأثير الارهاب والخوف - بالأموال والدعم السخي ، ولكننا لم نظفر للأسف الا بمعونة محدودة ولكنها محموددة من سمو الأمير سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة ، وحكومة الكويت ، فضلا عن الأجهزة المختصة في حكومة المملكة العربية السعودية .

واذا كان مطلوبا من اتحاد المؤرخين العرب أن يمارس نشاطا واسعا متعدد الآفاق ، فان هذا النشاط يتطلب نفقات لا يقوى الاتحاد في ظل وضعه المالي الحالي على الوفاء بها . ونحن لا نطلب معونة لتوزيعها في صورة أموال (وأوسمة) على الأتباع من المأجورين والمرتزة وأصحاب الذمم الخربة مثلما كان يفعل اتحاد حكومة بغداد ، وانما نطلب معونة لننفق منها تحت اشرافكم ورقابتكم على أوجه نشاط الاتحاد البناءة . وبعبارة أخرى فاننا نأمل في أن تكون للاتحاد موارد ثابتة تمكنه من مواصلة نشاطه بصفة مستمرة دون توقف .

ومرة أخرى نهيب بالحكومات العربية الواعية أن يتفهم العاملون فيها والمسؤولون عن سياستها حقيقة ما يمكن أن يقدمه اتحاد المؤرخين العرب في وضعه النقي الجديد الى بلادهم وعروبتهم من خدمات . وعلى هذه الحكومات تقع مسؤولية العمل على احياء تراث هذه الأمة وحمايته من الضياع وربط الحاضر بالماضي ، فمن لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل له ، واليوم نبع من الأمس ، وغدا ينبع من اليوم . وليذكر هؤلاء أنهم سيحاسبون أمام محكمة التاريخ في يوم من الأيام على تقصيرهم أو على سياستهم ذات الوجهين ، والتاريخ لا يرحم .
(مجلة المؤرخ العربي)

ولا أخفى عن حضراتكم أن مقر الاتحاد الجديد مازال فى حاجة الى مكتبة لائحة تضم مصادر التاريخ الأساسية فضلا عن بعض الأجهزة العلمية وغير العلمية الأساسية، منها آلة تصوير ونسخ الأوراق ، وكمبيوتر لحصر أسماء الأعضاء والمؤلفات والبحوث التاريخية ، وجهاز لقراءة المخطوطات Projector وفانوس وشاشة لعرض اللوحات والصور ، وميكروفون ، وأربعة أجهزة على الأقل للتكييف . . . وهذه كلها قد تبدو بسيطة ولكنها متطلبات أساسية ليصبح مقر الاتحاد مهيا لممارسة نشاطه العلمى والإدارى . هذا وقد زدنا المقر بخطى تليفون وجهاز فاكس أهدها للاتحاد الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل .

حضرات الاخوة الزملاء

لقد أدت الصعوبة المالية التى يعانى منها الاتحاد الى تعذر تنفيذ بعض ما جاء فى لائحة الاتحاد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه اتضح من واقع الممارسة أن هناك بعض بنود فى هذه اللائحة فى حاجة الى تعديل . ومن المعروف أن العبرة ليست بوضع اللوائح والقوانين وانما العبرة بالقدرة على تنفيذ أحكام هذه اللوائح والقوانين . والمحك هو التجربة والتطبيق .

وأولى الصعاب التى واجهتنا عند التنفيذ هى تدبير نفقات دعوة أعضاء مجلس الاتحاد - وعددهم ثلاثة عشر عضوا - لعقد جلسات شهرية فى القاهرة للنظر فيما يعرض عليهم من أمور . والملاحظ أن لجنة مجلس الاتحاد هذه تضم أعضاء يمثلون مختلف أجنحة وبلدان العالم العربى من المغرب الى الخليج ، ومعنى هذا أن نفقات انتقالهم الى القاهرة لحضور اجتماع واحد يتطلب نحو من عشرين ألف دولار . فاذا تكررت هذه العملية كل شهر ، فمن أين نحصل على المورد أو المصدر الذى يمدنا فى العام الواحد بأكثر من مائة ألف دولار لتغطية نفقات انتقال أعضاء لجنة الأمناء ، بصرف النظر عن نفقات الإقامة . لقد اقترح بعض الاخوة الزملاء أن يتحمل أعضاء المجلس نفقات تنقلاتهم ، ومع أننا لا نقر هذا المبدأ ، الا أننا فى ضوء ما تقرونه نأمل أن يكون حضورهم للاجتماع مرة كل ستة أشهر على أن تتحمل جامعاتهم أو الأجهزة المختصة فى بلادهم نفقات انتقالهم والأمر مطروح عليكم لاتخاذ القرار المناسب .

وما دمننا بصدد الصعوبات التى تواجهنا فى التنفيذ ، فلا بأس من أن نطلب من الاخوة الزملاء أن يسهلوا علينا مهام العمل ، بالحرص على تسديد اشتراك العضوية الزهيد فى مواعده ، وعلى من يريد الانضمام الى أسرة الاتحاد أن يبادر بطلب العضوية فى الوقت المناسب لا قبل انعقاد الجمعية العمومية بأيام أو أثناء انعقاد هذه الجمعية ، فهذا أمر مرفوض . وننتهز هذه الفرصة لنعلنها فى وضوح أنكم غير مستعدين لقبول عضوية أصحاب الوجهين ممن يرقصون لاتحاد حكومة بغداد ويترحمون على سالف عطائه ، مما كان يبتزه ابتزازا تحت تأثير التهديد والارهاب ، وفى الوقت نفسه يتسترون وراء أقنعة زائفة للتمسح بعضوية اتحادنا فى القاهرة . هؤلاء هم المنافقون الذى قال الله تعالى فيهم :

[الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم] .

وقد طلب بعضهم عن طرق متعددة - توجيه الدعوة اليهم لحضور هذا الاجتماع ، ولكننا اعتذرنا وكان ردنا واضحا هو أن هناك اجراءات لطلب العضوية معروفة ، فاذا أراد أحدهم الحضور فليحرر استمارة العضوية ويزكيه اثنان من الأعضاء ، يشهدان على أنه قد قطع صلته تماما باتحاد بغداد البائد ، وعندئذ يمكن النظر فى أمر قبوله وفقا لأحكام اللائحة الأساسية للاتحاد ، فاذا قبل طلبه وصار عصوا توجه اليه الدعوة للحضور وعفا الله عما سلف .

حضرات الاخوة الكرام

مرة أخرى نرحب بكم ونأمل الخير على أيديكم ، فاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة منكم وبكم ولكم . انه يعمل فى وضوح النهار لا فى ظلمة الليل . يعمل فى اطار متين من الخلق والمبادئ الحميدة بعيدا عن جو التهريج والنفاق وشراء الذمم والارهاب والابتزاز . يعمل من أجلكم ومن أجل العروبة ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها . لقد آن الأوان لأن يدرك الجميع أن العروبة وقضاياها ليست مجالا للمتاجرة بالشعارات والألفاظ وشراء الذمم لقد آن الأوان لأن يدرك الجميع أن تاريخ العروبة ليس أداة لخدمة الطغاة وتبرير سياستهم العدوانية التعسفية داخل بلادهم وخارجها وبفضل الله وبفضل جهودكم - يمضى اتحاد المؤرخين

العرب فى طريقه ليدخل مرحلة الانطلاق ، رافعا راية أمة أراد لها الله عز وجل أن تكون خير أمة أخرجت للناس .

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٥هـ

٢٦ نوفمبر ١٩٩٤م

اتحاد المؤرخين العرب
القاهرة

تقرير أمين الصندوق

لما كانت أصعب الفترات التي تواجه مؤسسة جديدة من الناحية المالية هي الفكرة التأسيسية فإن السنوات الثلاثة التي انقضت من عمر الاتحاد كانت تتطلب جهدا خاصا .

الجانب الأول من الجهد يتمثل في توفير الموارد المالية التي تمكن من استمرار المؤسسة ، لا انتهاء أعمالها بانتهاء أعمال الجمعية العمومية .

ولما كانت اشتراكات أعضاء الاتحاد لا تكاد تفي بالقليل من احتياجاته فقد عمدنا الى الآتى :

(١) تحويل أغلب ما تبقى من التبرع الكريم الذى كان قد قدمه الأستاذ الدكتور الشيخ سلطان القاسمى أمير الشارقة للانفاق على أعمال الجمعية العمومية الأولى - وقدره ثمانون ألف دولار - الى وديعة بالأجل فى بنك القاهرة فى أفضل الأوعية الادخارية (١٤٠ ألف جنيه) للانفاق من عائدها على الأعمال الجارية للاتحاد مع الاحتفاظ بمبلغ فى الحساب الجارى لموجهات هذا الانفاق كان يزداد باستمرار من عوائد الوديعة (٤٥٠٦٦ جنيها) .

(٢) الاحتفاظ بحساب بالدولار فى بنك باركليز لتلقى التبرعات عليه

(٣) مناشدة أعضاء الاتحاد والمسؤولين فى بعض الدول العربية بمد يد العون للاتحاد للاستمرار فى رسالته من خلال التبرعات والتي أسفرت عن تقديم بعض التبرعات كان أهمها التبرع الذى قدمه مرة أخرى سنو الأستاذ الدكتور الشيخ سلطان القاسمى وقدره ١٠٠ ألف دولار والذى أودعناه فى بنك القاهرة ليصل حجم الوديعة الى ٤٧٥٣٥٩ جنيها أى ما يقرب من نصف مليون جنيه مصرى .

(٤) أدت تلك المناشدة فى نفس الوقت الى أن وفرت دولة الكويت مقرا للاتحاد «فيلا» من دورين فى مدينة نصر - ٧ شارع بدوانى - الحى الثامن .

(٥) بعد استخدام بعض الأثاث القديم فى الفيلا كقاعة استقبال كان مطلوباً إعادة تأثيثها على نحو يسمح بعقد الاجتماعات والندوات فضلاً عن تزويدها بخطوط التليفون (خطان) والفاكس مما أدى الى نفقات مثلت الجانب الأكبر من مصروفات الاتحاد خلال الفترة الماضية (٣٧٠٨٥ جنيها) .

أما الجانب الثانى من الجهد فكان يقوم على الوفاء بالاحتياجات اليومية وحاولنا قدر طاقتنا خلال هذه الفترة الانشائية التقليل ما أمكن من المصروفات الادارية التى اقتصرت على حارس مقيم فى مبنى الاتحاد فضلاً عن موظف بعض الوقت ، ثلاثة أيام فى الأسبوع ، الأمر الذى لم تزد معه قيمة المكافآت الادارية خلال العامين المذكورين عن سبعة آلاف جنيه .

والجانب الأخير من الجهد يبدو فى سعى أمناء الاتحاد على ألا يعفى الانصراف الى الجانب التأسيسى الى عدم قيام الاتحاد بما يفترض أن يقوم به من نشاطات كان أبرزها اصدار عدد من المجلة (بند الطباعة ٦٢٢٥ جنيها) ، ثم اقامة ندوتين (بند الضيافة والاستقبال ٧٣٦٢ جنيها) وها نحن بصدد اقامة ندوة ثالثة متمنين أن ينتعش الاتحاد فى دورته القادمة بعد أن استقرت أحواله المالية خلال الفترة الماضية ذات الطابع التأسيسى ، على الأقل فى الجانب الذى يكفل استمرار ما هو قائم ، وأن يبقى الاتحاد فى حاجة الى الدعم المالى للتوسع . . بناء مكتبة ، هيئة موظفين للارشفة وجهاز الاتصالات وما الى ذلك مما يمكن أن تقرره الأمانة الجديدة للاتحاد . .

والله من وراء القصد . .

أمين صندوق الاتحاد
د. ٠ يونان لبيب رزق

جمعية المدونين العرب
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة القاهرة
مشهد تحت رقم ١٠١٢
بتاريخ ١٠١٢/٢/٢٦

حساب الإيرادات والمخرقات
من التكملة العامة للشهادة ١٩٩٢/١٢/٢١

أكبر الخزان الحی جید
 مؤسسہ قادیان
 ۱۹۶۳ء
 ۲۲ شارع عبدالغنی قادیان
 ۲۹۸۵۹۷۲

[illegible]

	<p>زيادة الإيرادات عن الميزانية</p>		١١٠	١٢-٢٢١	<p>بنك القاهرة - فرع مدينة نصر - جيسارى (حساب رقم ٧١٠١)</p> <p>المعادل لرصيد بنك القاهرة باركليز - فرع مدينة نصر (حساب رقم ١١٢ / ١٨٠٠ / ٥٠٣٠) بالدولار الامريكى</p> <p>بنك القاهرة - فرع مدينة نصر (ودائع لاجير)</p>			١٢٠	١٠٠٦١
			١١٠	١٢-٢٢١				٢٨٠	٨٠٦٨٢
								٠٠٠	١٠٠٠٠
	<p>تقرير مراقب الحسابات</p> <p>راجعت الميزانية العمومية لجمعية المربين العرب في ١١١٢/١٢/٢١ وكذا حساب التغيرات والدخوات والإيرادات والمصروفات المرتقين عن الفترة المنتهية في ١١١٢/١٢/٢١ وذلك على دفاتر الجمعية وستداتها توجد مطابقة وقد حملنا على الإيضاحات التي طلبناها وفي رأينا أن هذه الميزانية تعبر عن المركز المالي الصح للجمعية في التاريخ المذكور طبقاً للمستندات والدفاتر التي تحت تصرفها .</p> <p>عبد الحفيظ طه حبيب مراقب حسابات</p> <p>١١١٢</p>								



الایمراضات		المرقبات	
اجتماعات	۱۰۲۶ ۸۸۰	کتابخانه	۸۸۰۰ ۰۰۰
تعمیرات	۱۱۱۶۹۹ ۰۹۰	مرقات و مولات	۰۰۰ ۳۸۰
قرارداد	۲۰۶۶ ۸۱۰	استعمالات کبریا و بیست	۷ ۶۱۰
ایرادات اخرى (تروق حله)	۱۱۱ ۰۲۰	برسید واک	۱۲۶۶ ۱۱۰
		ادوات کتابیه و مطبعه	۱۰۶ ۲۸۰
		ادوات طب	۲۰۰۰ ۰۰۰
		ضایعه و اجتناب	۷۲۶۶ ۲۸۰
		طب	۱۶۶۵ ۰۰۰
		مرقات شریعه	۱۲۶۶ ۷۰۰
		استعمالات الام	۱۸۰ ۸۰۰
		تاسیس	۱۱۲۶۶ ۱۲۰
	۱۲۶۶ ۸۸۰		۱۲۶۶ ۸۸۰

	<p>مستأجل الجمعية</p> <p>زيادة الأيرادات عن المصروفات</p>		<p>١١٠ ٢٧٠٢٤١</p> <p>١٢٠ ٤١١٣٣٤</p>		<p>الاتصالات</p> <p>(-) الاشتراكات</p> <p>بنك القاهرة / مدينة نصر / جارى على حقه (حلي رقم ٧٩٠١)</p> <p>بنك القاهرة / مدينة نصر / ودائع لأجل</p> <p>المبادل لوجيد بنك القاهرة / بالكيلز</p> <p>نوع مدينة نصر (حلي رقم ١٨٠٠١١٢)</p> <p>٥٠٣٠٠ بالدينار الامريكى</p>	<p>٣٧٠٨٠٠</p> <p>١٨٠٠٠</p>	<p>٣٦٩٠٠</p> <p>٥٥٠٨٢</p> <p>٤٧٥٣٥١</p> <p>١١٤٧٤١</p>	<p>١٦٠</p> <p>١٨٠</p>
	<p>تقرير مراقب الحسابات</p> <p>راجعتا الميزانية العمومية لجمعية المورخين العرب في ١٩٩٣/١٢/٣١ وكذا حسابي المصروفات والدخلات والأيرادات والمصروفات المرفقين عن الفترة المنتهية في ١٩٩٣/١٢/٣١ وذلك على ذاتي الجمعية واستدائنا لوجدت مطابقة وقد حملنا على جميع الأبحاث التي طلبناها</p> <p>وفي رأينا أن هذه الميزانية تعبر عن المركز المالي الحقيقي للجمعية في التاريخ المذكور طبقا للمبادئ والدقائق التي قدمت لنا</p> <p>عبد الخالق بن حبيب</p> <p>محاسب ومراجع قانوني</p> <p>١٩٩٣ م</p>		<p>١٤٠ ٦٨٢٠٨٤</p>				<p>٦٨٢٠٨٤</p>	<p>١٤٠</p>

بسم الله الرحمن الرحيم

محضر الاجتماع الثانى للجمعية العمومية

بناء على أحكام اللائحة الأساسية لاتحاد المؤرخين العرب الصادرة فى جمادى الآخرة سنة ١٤١٢هـ ، الموافق شهر ديسمبر سنة ١٩٩١ تم دعوة أعضاء الاتحاد لحضور الجمعية العمومية الثانية . وتم انعقاد هذه الجمعية بالقاهرة يومى ٢٣ ، ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٤١٥هـ / ٢٦ ، ٢٧ نوفمبر ١٩٩٤م ، وحضرها نحو مائتين من الأعضاء المسجلين فى قوائم الاتحاد .

وفى هذين اليومين ناقش أعضاء الاتحاد التقارير المقدمة من الأساتذة الدكاترة رئيس الاتحاد وأمين الصندوق وأمين مجلس الاتحاد . وقد أوضحت هذه التقارير الانجازات التى حققها الاتحاد فى السنوات الثلاث التى انقضت منذ انعقاد الجمعية العمومية الأولى للاتحاد ، كما أوضح التقرير المالى ميزانية الاتحاد فى ضوء الإيرادات والمصروفات بعد أن أعتمدها المحاسب القانونى الذى قام بمراجعتها .

وبعد أن ناقش المجتمعون هذه التقارير على مدى أربع جلسات طويلة ، واستمعوا الى الملاحظات والتعليقات والمقترحات التى أبدتها بعض الأعضاء ، أوصوا باتخاذ القرارات الآتية :

- ١ - الموافقة على التقارير المقدمة من الأساتذة الدكاترة رئيس الاتحاد وأمين الصندوق والأمين العام لمجلس الاتحاد ، وتوجيه الشكر اليهم على ما بذلوه وببذلونه من جهد فى خدمة الاتحاد .
- ٢ - استبدال عبارة « مجلس الأمناء » فى النظام الأساسى لاتحاد المؤرخين العرب بعبارة « مجلس الاتحاد » .
- ٣ - تجديد انتخاب رئيس الاتحاد ونواب الرئيس وأمين مجلس الاتحاد وأمين الصندوق وأعضاء مجلس الاتحاد وهيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى وأعضاء كافة أجهزة الاتحاد . ويكون هذا التجديد لمدة ثلاث سنوات تنتهى فى ختام شهر ديسمبر ١٩٩٧م وتم التجديد بالتزكية وباجماع كافة الأعضاء .
- ٤ - يدعى مجلس الاتحاد للانعقاد مرة واحدة كل ستة أشهر ، ويعتبر

الاجتماع قانونيا بحضور الأغلبية ممثلة فى ستة أعضاء بالاضافة الى الرئيس .

٥ - تعديل الفقرة الأخيرة من البند « ٥ » من المادة السادسة فى النظام الأساسى للاتحاد ، بحيث تصبح مدة العضوية فى مجلس الاتحاد ثلاث سنوات قابلة للتجديد ، على أن تنتهى بعد كل دورة عضوية نصف أعضاء المجلس وتجرى الانتخابات لاختيار غيرهم .

٦ - بذل المزيد من الاهتمام بمجلة الاتحاد من حيث الاخراج والشكل والمحتوى والعمل على توسيع دائرة انتشارها بشتى الوسائل والطرق .

٧ - الشروع فى وضع نواة مكتبة تاريخية للاتحاد ، تضم أمهات المصادر ودوائر المعارف والقواميس ، وتسهيل الافادة منها للأعضاء والباحثين .

٨ - الاستفادة بوسائل التقنية الحديثة فى اعداد قوائم بأسماء أمهات كتب التراث العربى فى مجال التاريخ وأسماء مؤلفيها ، بالاضافة الى قوائم بأسماء الرسائل العلمية فى مجال التاريخ التى أجزت وسجلت فى الجامعات والمعاهد العربية .

٩ - حث الزملاء المشتغلين بالدراسات التاريخية فى المغرب العربى للانضمام الى عضوية الاتحاد .

١٠ - وضع موسوعة فى تاريخ الأمة العربية على أن يعهد الى الأستاذ الدكتور سهيل زكار بالتخطيط لهذا المشروع والاشراف على تنفيذه .

١١ - مناشدة الحكومات العربية والمؤسسات والأفراد على مد يد العون لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة - أدبيا وماديا - حتى يتمكن من النهوض برسالته الكبرى فى دعم الأمة العربية .

١٢ - توجيه شكر الاتحاد لحضرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وأعضاء حكومته ، ولدولة الكويت أميرا وحكومة ، ولسمو الشيخ الأستاذ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة ، على ما قدموه ويقدمونه من دعم أدبى ومادى للاتحاد .

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
رئيس الاتحاد

رقم الايداع ٦٥٤٩ / ١٩٩٤

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 NO. 3

March, 1995

Cairo - Egypt
